

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

عمران وعمارة مدينة معسكر
في العهد العثماني
دراسة أثرية، عمرانية ومعمارية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد العزيز لعرج

إعداد الطالب:
عبد القادر قرمان

السنة الجامعية
2015-2014

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

عمران وعمارة مدينة معسكر في
العهد العثماني
دراسة أثرية، عمرانية ومعمارية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

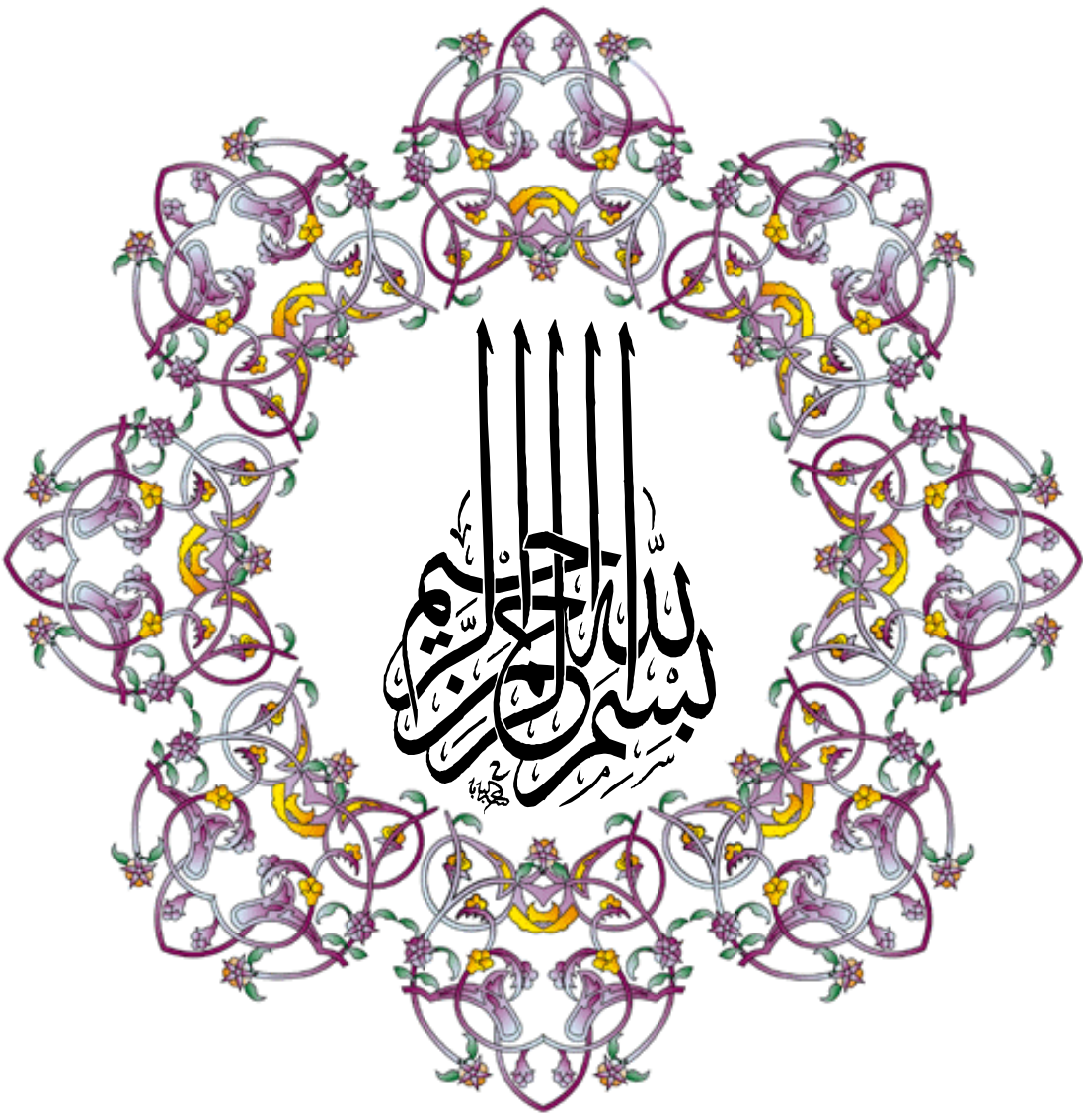
إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد العزيز لعرج

إعداد الطالب:
عبد القادر قرمان

أعضاء لجنة المناقشة

جامعة الجزائر-2-	رئيساً	أستاذ التعليم العالي	بويحياوي عز الدين
جامعة الجزائر-2-	مشرفاً ومقرراً	أستاذ التعليم العالي	لعرج عبد العزيز
جامعة الجزائر-2-	عضواً مناقشاً	أستاذ التعليم العالي	بن عميرة محمد
جامعة الجزائر-2-	عضواً مناقشاً	أستاذ التعليم العالي	عزوق عبد الكريم
جامعة الجزائر-2-	عضواً مناقشاً	أستاذ التعليم العالي	معزوز عبد الحق
جامعة تلمسان	عضواً مناقشاً	أستاذ محاضر أ-	الشـرقي رزقي

السنة الجامعية
2015-2014



إهداء

أهدي ثمرة عملي إلى من قال فيهما الله تعالى:

«وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا».

إلى أمي الحنون ونور عيالي التي

وهبت كل حياتها من أجل تربيتي ورعايتي

أطال الله عمرها.

إلى أبي العزيز الذي به فيّ روح الإرادة والتعدي

من أجل مستقبل أسامة الأطلاق وجوهده العلم ووقتته

التواضع حفظه الله

إلى زوجتي العزيزة وكل أفراد عائلتي

وأقاربي.

إلى كل من يعرفني من قريب أو من بعيد

عبد القادر

شكر و عرفان

أشكر الله تعالى

الذي وفقني لإتمام هذا العمل

أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من علمني حرفاً
إلى أساتذتي المحترمين، وعلى رأسهم الأستاذ

المشرف

عبد العزيز لعرج الذي أرشدني و تحمّل معي مشقة

إنجاز هذا العمل إلى غاية إكماله

كما أتوجه بشكري الخالص إلى كل من ساهم

ولو بالقدر القليل في إنجاز هذا العمل.

iBACS



قائمة المختصرات

المختصرات باللغة العربية:

د.ط.: دون طبعة

د.م.: دون مكان

د.ت.: دون تاريخ

المختصرات باللغة الأجنبية:

S.D. : sans date

S.N.E.D. : société nationale d'édition et de diffusion

M.M.S.H. : Maison Méditerranéenne des Sciences de l'Homme



ò if'ì

1- التعريف بالموضوع:

شهدت مدينة معسكر كغيرها من المدن الجزائرية اهتماما كبيرا خلال الفترة العثمانية حيث أنها عرفت تطورا وتوسعا عمرانيا ومعماريا ملحوظا، فكان اختيارها كعاصمة لبايك الغرب للمرة الأولى سنة 1113هـ/1701م وكذلك للمرة الثانية سنة 1150هـ/1737م نقطة تحول في مكانتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين مدن بايك الغرب، جراء وقوع البعض منها تحت سيطرة الاسبان كمدينة وهران، وأخرى تحت طائل التهديد والوعيد والإغارة كمدينة مستغانم ومزغران وتلمسان وغيرها، وذلك ما دفع التجار والعلماء وعامة الناس للتوجه إلى مدينة معسكر طلبا للأمن والأمان والاستقرار فيها، مما جعلها من المدن العامرة التي تُشدّ إليها الرحال بعدما كانت قرية صغيرة دون أهمية.

إن هذا التطور الذي عرفته المدينة يرجع بالدرجة الأولى إلى أعمال البايات الذين تسابقوا في بنائها، فكان الباي مصطفى بوشلاغم واضع حجر الأساس والنواة الأولى لعمران المدينة، وقام بعد ذلك أشهر البايات على الإطلاق الباي محمد الكبير بتعميرها وعمارتها حيث أنه كان مولعا بالبناء والتشييد، لذلك نجد أن أغلب المنشآت المعمارية المتبقية ترجع إلى عهده هذا إضافة إلى أعمال البناء التطوعية التي قام بها أهل المدينة والتي انحصرت أساسا في بناء الزوايا والأضرحة.

إن المنشآت المتبقية تنوعت بين الدينية والمدنية والعسكرية، فالدينية شملت جامعين هما الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، وكذلك مدرسة المحمدية المندثرة وزاويتين هما زاوية أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين، بالإضافة إلى عدد من الأضرحة لأولياء المدينة الصالحين أما المدنية فتتمثل في الدور والمحكمة والحمامات، وعن المنشآت العسكرية فأغلبها تعرض للتدمير والاندثار ولم يبق منها إلا أجزاء من السور الخارجي.

تعتبر هذه النماذج المعمارية المذكورة ذات قيمة تاريخية وأثرية تستحق الدراسة والبحث رغم عوامل الدهر وخطرسة الاحتلال الذي طمس معظم المعالم المذكورة سابقا، ولم يبق منها إلا القليل، فقد خرب الفرنسيون في سنة 1251هـ/1835م بقيادة المارشال (CLAUZEL) الكثير من المنشآت المعمارية، وقاموا بإحراقها بعد أن نسفوها بالمدفعية الثقيلة، كما هدموا أجزاء كبيرة من سور المدينة، وحولوا جامع عين البيضاء إلى مستودع ومخزن لذخائرهم، ولم يتوقف هذا الاعتداء بعد الاستقلال، حيث قام بعض أهالي المدينة بتشويه وتغيير الكثير من العناصر المعمارية خاصة في دار الباي والمحكمة الرئيسية.

وبالرغم من هذه الأعمال الفظيعة التي مست المعالم، إلا أن ما تبقى منها يعبر عن مدى التطور المعماري والحضاري الذي عرفته المدينة في تلك الفترة الزمنية، بحيث أنها ذات سمات وأشكال معمارية متميزة، إذ أنها تعتبر كنماذج هامة للدراسة والبحث نظرا لما تحتويه من خصائص معمارية وفنية أصلية، لذلك فالمطلوب هو إقامة أبحاث ودراسات معمقة على هذه المنشآت من أجل المحافظة عليها، لأنها هي الصورة الحضارية الحقيقية للمدينة، وهو ما نصبو إليه من خلال هذه الدراسة.

2- أهمية وأسباب اختيار الموضوع :

إن المكانة التي حظيت بها مدينة معسكر خلال الفترة العثمانية باختيارها كعاصمة لبابك الغرب، جعلت منها مدينة هامة مقارنة مع مدن بابك الغرب الأخرى، وهذا ما دفعنا إلى طرح هذا الموضوع كبحث للدراسة من أجل كشف أسباب ودوافع هذا الاختيار بالإضافة إلى التعريف بها وتاريخها وبمنشآتها المعمارية، وتبيين أهميتها بالنسبة للدراسات التاريخية والأثرية فاختيار الفترة العثمانية وبالتركيز على عمرانها وعمارتها له عدة أسباب ودوافع هي في حد ذاتها الهدف الذي نصبو إليه، إذ أن التكوين الفعلي للنسيج العمراني للمدينة كان خلال هذه الفترة، وهو ما جعلها مدينة جزائرية بطابع عثماني، لذلك سنحاول دراسة نسيجها العمراني من جميع الجوانب وذكر مراحل تكوينه والعوامل التي تحكمت في تطوره وتوسعه، بمقارنتها مع المدن الأخرى خاصة ومدن العواصم خلال الفترة العثمانية كمدينة الجزائر وقسنطينة والمدية وتلمسان ومستغانم ووهران، كما أن قلة الدراسات الأثرية حول الموضوع جعلها مدينة مجهولة باستثناء بعض الدراسات التاريخية، جعلها غير معروفة من هذا الجانب، رغم أنها عريقة وأدت دورا كبيرا في العهد العثماني في تحرير مدينة وهران من الغزو الإسباني، وصمودها في وجه الاحتلال الفرنسي، حيث أن المعارك التي دارت فيها وفي ضواحيها أنهكت قواته بفضل أحد أبنائها الأفياد ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة الأمير عبد القادر، الذي كان له دور كبير في تحرير وإيقاظ روح الجهاد من أجل استقلال الجزائر، لذلك وعلى هذا الأساس تتطلب الدراسة بأن تكون دراسة عمرانية عميقة وشاملة للمدينة من جهة، ومعمارية وفنية مفصلة عن المعالم المتبقية من جهة أخرى وهو الهدف الرئيسي الذي نسعى جاهدين إليه.

3- إشكالية الموضوع:

تتلخص إشكالية البحث في محاولة الإجابة على مجموعة من الأسئلة تشكل محاوره ومنطلقاته وأهدافه وهي كالاتي:

وفيما يخص الأحداث والوقائع التي عرفتها المدينة في أواخر العهد العثماني وكذلك عن تاريخ منشآت المعمارية، فقد اعتمدنا على كتاب "محمد الأكل" لمؤلف مجهول وهو عبارة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم 5022، وكذلك كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون أحمد الراشدي (ت1211هـ / 1796م)، ورحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الجزائري لابن هطال التلمساني (ت1219هـ / 1804م)، الذي أمدنا بمعلومات مهمة عن غزوات هذا الباي، كما استعملنا كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لابن محمد الزباني، الذي جاء فيه ذكر لأعمال البايات في المدينة إضافة إلى طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر للأغا بن عودة المزابي، ويضاف إلى ذلك كتاب بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كني عامر لعبدالقادر المشرفي (ت1192هـ / 1778م)، وكتاب خاتمة أنيس الغريب والمسافر، (تنمة ذخائر المغرب العربي، تاريخ بايات وهران المتأخر) لابن عبد القادر مسلم الوهراني الذي ذكر فيه الأحوال السياسية لبايك الغرب وتأثير ذلك على أوضاعه ومدنه، كما وظفنا عدة مخطوطات لأبي راس الناصري (ت1238هـ / 1823م) منها الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير في معسكر، وكتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، وكتاب فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، "حياة أبي راس الذاتية والعلمية، بالإضافة إلى مخطوط القيرواني محمد الشريف عنوانه روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، محفوظ بمكتبة الشيخ البشير محمودي.

كما اعتمدنا على كتاب فتح مدينة وهران 1708م لأبو زيد عبد الرحمن الجامعي الذي عرفنا من خلاله دور مدينة معسكر في فتح مدينة وهران، وعلى مذكرات تيدنا لمحققها عميرواي أحميدة الذي أمدنا بأخبار الباي محمد الكبير وأعماله في المدينة، وكذلك استعملنا كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر الجزائري لمحمد ابن عبد القادر الجزائري الذي ذكر أحوال مدينة معسكر خلال فترة الاحتلال وقد قدم وصفا هاما لمنشآت المعمارية.

وبالنسبة للمصادر الأجنبية نذكر:

- Shaw. T: Voyages dans la régence d'Alger.
- Michel, J: Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)

القادر، وعن بعض منشآتها المعمارية خلال إسقاط الاحتلال للمدينة نذكر منها مايلي:

- **Première expédition de Mascara**, extrait de l'ouvrage d'Alex Bellemare- **Abdelkader, sa vie politique et militaire.**

- **Observations du Général Clauzel sur quelques actes de son commandement à Alger**

وفيما يخص الوثائق الأرشيفية فهي عبارة عن تقارير تعود إلى فترة الاحتلال وقد استفدنا

منها كثيرا في معرفة عمران المدينة، حيث نذكر منها:

- Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André, Mascara le 18 décembre 1852, p1, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

- Rapport sur la situation de la ville de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n° 2M/107/D, Aix En Provence, France.

- Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921, délivré par Monsieur Martin

أما عن المراجع الحديثة فهي باللغتين العربية والأجنبية، تطرقت إلى جغرافية مدينة

معسكر وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، وبعض معالمها التاريخية وعلمائها المشهورين خلال

الفترة العثمانية ونذكر منها: كتاب تاريخ الجزائر الثقافي وكذلك أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

للدكتور أبي القاسم سعد الله، بالإضافة إلى كتاب المساجد العثمانية بوهران ومعسكر لمؤلفه

مبروك مهيرس وكتاب معسكر عبر التاريخ لبن داها عدة ورسالة ماجستير عنوانها الحياة

الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

الميلاديين (1701-1830م) لعلو محمد، وكذلك:

- Djerbal. D: **Le processus de colonisation et les mutations dans la propriété foncière, commune mixte de Mascara (1860- 1914)**, diplôme d'études supérieurs d'histoire, M.M.S.H, France.

- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971.

- Gorguos. A: **Histoire d'un bey de Mascara et de l'Oranie, le bey Osman « El kebir »**

ب/ الدراسات الميدانية:

عند البحث والتحري وجدنا أن هذا النوع من الدراسات قليلة جدا، فقد تم الإشارة إلى

بعض منشآت المدينة في عدة رسائل جامعية نذكر منها: الأولى للباحث بلحاج معروف

المساجد العثمانية ذات القبلة المركزية بالجزائر، حيث درس من خلالها الجامع الكبير وجامع

عين البيضاء والثانية للباحث مهيرس مبروك، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر. وكذلك بن

بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني.

5- منهج البحث:

اعتمدنا في دراستنا لهذا الموضوع على المنهج التاريخي والوصفي التحليلي، وقد قسمناه إلى جانبين هما:

1- الجانب النظري: سنتطرق فيه إلى أهم الوثائق المكتوبة من مصادر ومراجع وخرائط ومخططات التي تتحدث عن عمران وعمارة المدينة، ومن خلالها سنقوم بالتحليل العمراني للمدينة ومقارنتها بالمدن الإسلامية الأولى، لتحديد مدى أهميتها وخضوعها لقوانين البناء والتشييد، وهذا يعتبر كمفتاح لإثراء موضوع البحث وكشف خباياه.

2- الجانب التطبيقي: وهو ما يعرف بالدراسة الميدانية، والتي سنقوم من خلالها بزيارة المدينة ومنشأتها المعمارية وأخذ المعلومات اللازمة عنها، بتحديد مواقعها في النسيج العمراني للمدينة وتصنيف كل منشأة على حدة (دينية، مدنية، عسكرية)، وأخذ القياسات لوضع المخططات ورسم أشكال وأخذ صور لمختلف عناصرها المعمارية والفنية، مع توضيح الزيادات والإضافات التي تعرضت لها قبل وبعد عمليات الترميم، بالإضافة إلى التطرق إلى أرياض المدينة، وهل كان هناك تواصل بينها وبين مركزها.

هيكل الموضوع:

يشتمل موضوع البحث على مقدمة وأربعة أقسام، ولكل قسم فصول وخاتمة.

مقدمة: يتم التطرق فيها إلى التعريف بالموضوع وأهميته وأسباب اختياره وإشكاليته والدراسات السابقة.

القسم الأول: عمران مدينة معسكر

يحتوي هذا القسم على ثلاثة فصول وهي كالآتي:

الفصل الأول: الإطار الجغرافي والمناخي لمدينة معسكر، ومدى تأثيره على اختيار موقعها وتخطيطها، وأصول التسمية.

الفصل الثاني: التطور التاريخي لمدينة معسكر، وذلك بالتطرق إلى الجذور التاريخية للمدينة ابتداءً من فترة ما قبل التاريخ وصولاً إلى الفترة الإسلامية، التي بدأت فيها تظهر ملامح المدينة في القرن 4هـ/10م، وصولاً إلى أهم فترة وهي الفترة العثمانية، وذلك بالإشارة إلى الأحداث والوقائع التي جرت فيها، بالاعتماد على المصادر والمراجع التاريخية.

القسم الثاني: المنشآت المعمارية لمدينة معسكر

تمّ التطرق في هذا القسم إلى دراسة مخططات كل نوع من المنشآت التي تحتوي عليها مدينة معسكر، وإبراز عناصرها المعمارية وجذورها التاريخية، ومدى تطابقها مع النمط المعماري الإسلامي عامة والنمط العثماني خاصة، وكذلك تأثرها بالتقاليد المحلية للمنطقة وضواحيها، وهو يتكون من أربعة فصول.

الفصل الأول: المنشآت الدينية، والتي تتمثل في:

1- الجوامع

2- المدارس

3- الزوايا

4- الأضرحة

الفصل الثاني: المنشآت المدنية: تتمثل في:

1- الدور والمنازل

2- المحكمة

3- الحمامات

بالإضافة إلى التطرق للمنشآت المندثرة، وذلك بإعطاء معلومات عنها، انطلاقاً من ما ذكره المؤرخون.

القسم الثالث: الدراسة المعمارية التحليلية، يحتوي على ثلاثة فصول:

الفصل الأول بعنوان المخططات المعمارية، وذلك بتعريفها وذكر مميزات كل مخطط وأصوله بالمقارنة مع منشآت المدن عبر العصور التاريخية.

وفي الفصل الثاني عالجت العناصر المعمارية المستعملة في كل المنشآت المدروسة، وكذلك تعريفها وذكر أصولها وأماكنها وأهميتها في المباني.

أما الفصل الثالث فخصص لمواد البناء وتقنياته وذلك بالإشارة إلى المواد الأساسية التي تم استخدامها في عملية البناء، هل هي محلية أم أجنبية، ومدى مقاومتها للظروف الطبيعية

بالإضافة إلى طريقة البناء ومدى توافقها مع الأرضية التي تم عليها البناء، والتقنية المستعملة في التشييد.

القسم الرابع الدراسة الفنية: أشرنا فيه إلى مواد الزخرفة وعناصرها الموجودة في المباني ومجالات استخدامها، وهل هي متأثرة بالأحداث التي مرت عليها مدينة معسكر وكذلك مدى تأثرها بعادات وتقاليد المنطقة المحلية، وهو يتكون من فصلين:

ففي الفصل الأول: تناولنا المواد الزخرفية المستعملة في تشكيل مختلف الزخارف الموجودة في مباني المدينة، بتعريفها وذكر مصدرها وخصائصها الطبيعية.

أما الفصل الثاني: فتطرقنا إلى الزخارف الفنية وهي على أنواع منها الهندسية والنباتية والكتابية والرمزية.

الخاتمة: وهي آخر محطة سنتوقف من خلالها إلى ذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها على طول مراحل الدراسة متنوعة بالمخططات والأشكال والصور وقائمة للمصادر والمراجع.

وكأي بحث أكاديمي لابد أن تعترضه العديد من الصعوبات والعراقيل، لذلك فقد واجهنا مشكلة شح المعلومات حول عمران المدينة بسبب احتراق أرشيفها بالإضافة إلى صعوبة القيام بالدراسة الميدانية لبعض المعالم المدروسة لكونها ذات ملكية خاصة.



3¼ÉPAAñ ´A
j,n ¨¿Ò ÁŔ¿ÆAAS



:¾ËPA½v °A
 j,n ¨¿Ò ÄF¿Ò TÄnMÄIuË YÄ-tAiBâA

Ò ÄFÄ½i ,¼Æ YÄ-tA©³ •A-1
 (i UÌ»TtAE ÄI ,Æ ©³ •AÒ TÄ«I½ - dBA)

Ò ÄF•AÒ TÄnMÄIuC-2

وشمالا قلعة بني راشد^(*)، التي كانت تعرف سابقا "بقلعة هواره"، وجنوبا وادي البنيان⁽¹⁾ وبالضبط في السفح الجنوبي لجبل الناظور المعروف محليا بـ "شارب الريح" على ارتفاع يتراوح ما بين 585م و 600م⁽²⁾، فهي لا تبعد عن ساحل البحر إلا بحوالي خمسين كيلومتر عند مصب وادي المقطع^(**).

لقد أثر هذا الموقع في الخصائص المناخية للمنطقة، إلى جانب تأثير مظاهر السطح التي تشكل فيها الجبال والسهول أهم مميزاتها⁽³⁾، وهي تبعد بحوالي 361 كلم شمال غرب الجزائر العاصمة، كما أنها تحتل موقعا إستراتيجيا ممتازا، اقتصاديا وتجاريا، يحدها من الشرق ولاية تيارت وولاية غليزان، ومن الغرب سيدي بلعباس، ومن الشمال ولاية وهران^(****) وولاية مستغانم^(*****)، ومن الجنوب ولاية سعيدة. (تنظر الخريطة رقم 1)

^(*) - هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع، كانت تستقر فيها وفي أحواضها كثير من البربر من قبيلة زناتة، اتخذت كعاصمة لبابلك الغرب في سنة 1706م وهي تابعة حاليا لولاية غليزان، لمزيد من المعلومات يُنظر: مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص ص 178 - 179.

⁽¹⁾ - بوعزيز يحيى: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، 2004، ص 139.

⁽²⁾ - يُنظر كذلك: Fechner .E: **Oran et L'oranie**, calmann-lévie, France, 2002, p 74.

- Larousse. P: **Grand dictionnaire universel du 19^{eme} siècle**, T. 10, LM. 1869, p 1296.

- **Rapport sur la situation de la ville de Mascara**, Archives nationales d'outre-mer, carton n^o 2M/107/D, Aix En Provence, France.

^(**) - يقع هذا الوادي بين ولايتي مستغانم ووهران، وقد دارت فيه معركة كبيرة بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية

بقيادة "تريزل" في سنة 1835م. يُنظر: - حرب أديب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-

1847م)، ج1، ط3، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص 186.

⁽³⁾ - عليو محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي (1701-1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة معسكر 2009/2008، ص 19.

^(****) - وهران: بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء وبعد الألف نون، هي مدينة على البرّ الأعظم من المغرب تقع على ضفة البحر من الغرب الجزائري، اتفق المؤرخون أنها أسست في 290هـ/309م أيام حكم عبد الله الأموي والد الخليفة عبد الرحمن الثالث. لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، د.ت، ص 385. - صفي الدين البغدادي: مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مج 3، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط1، 1992، ص 1446.

^(*****) - مستغانم: مدينة قديمة تقع في الغرب الجزائري، ازدادت أهميتها خلال العهد العثماني، حيث اتخذها الباي

مصطفى بوشلاغم كعاصمة لبابلك الغرب سنة 1145هـ/1732م، لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن عبد القادر مسلم=

"والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله، فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الريح المتخلّلة للهواء الراكد، ويكون ذلك معينا على الحركة والتموج، وإذا خفّ الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه، وبقي ساكنا راكدا، وعظم عفته وكثر ضرره... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيُراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرّة،⁽¹⁾ فإنّ وجود الماء قريبا من البلد يُسهّل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يُراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لابدّ له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بدّ لها من المرعى، فإذا كان قريبا طيبا، كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يُراعى أيضا المزارع فإنّ الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهّل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإنّ الحطب مما تَعُمُّ البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضا ضروري لسقّفهم وكثير مما يُستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم. وقد يُراعى أيضا قُربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأوّل. وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، ومما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد يكون الواضع غافلا عن حُسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يُراعى ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطّوها بالعراق وإفريقية فإنّهم لم يراعوا فيها إلاّ الأهمّ عندهم، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء المالح. ولم يراعوا الماء، ولا المزارع، ولا الحطب، ولا مراعي السائمة من نوات الظلف، ولا غير ذلك؛ كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب ما لم تُراع فيها الأمور الطبيعية."

"ومما يُراعى في البلاد الساحليّة التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمّة من الأمم موفورة العدد، تكون صرحا للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أنّ المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عُمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعّر من الجبل كانت في غرّة للبيات، وسهّل طروفها في الأساطيل البحريّة

(1)- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1431-

على عدوها وتحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها... وهذه كإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصابات موطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريخ والنعير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها؛ كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في سبة وبجاية...⁽¹⁾

يتضح مما سبق إدراك الفكر الإسلامي الناضج لأسباب عمران المدينة وازدهار عمارتها وأسباب انحلالها وضعفها، في إطار يربط ببراعة بين الشكل المادي والهيئة الاجتماعية ربطاً عضوياً، يكشف عن نضج في الفكر وارتقاء في المستوى الحضاري الذي أفرزته الحضارة الإسلامية، ليرسم المبادئ العامة لسياسة تكثير العمارة المنوط بها الحكام باعتبار تكثيرها من أركان الملك. وتكشف هذه الشروط عن رؤية تخطيطية للمدينة الإسلامية اهتمت بالجوانب الوظيفية والاجتماعية والسياسية لمجتمع المدينة الإسلامية، مما يؤكد أصالة المدينة الإسلامية، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن وهو فكر تبلور وتوضح مع تقدم العصر، مستفيداً في ذلك بالتجربة⁽²⁾.

ولعل ما نبدأ به في تحليل شروط بناء المدن وإسقاطها على مدينة معسكر هو الشرط الأول المتمثل في عذوبة الماء، الشرط الأساسي في اختيار مواقع المدن⁽³⁾، وتوفر الماء يأتي من مصادر مختلفة أهمها الأنهار التي تمثل مورداً منتظماً له⁽⁴⁾، فضلاً عن ذلك العيون التي كان يستحسن أن تكون داخل أسوار المدينة وفي الجهات العلوية منها، حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل⁽⁵⁾، وعلى ضوء ما ذكره نلاحظ أن مدينة معسكر توفرت فيها هذه المميزات، فهي المعروفة بوفرة المياه الصالحة للشرب، من مختلف المصادر كالأبار والجداول والعيون مثل "العين البيضاء" التي تقع في الجهة الجنوبية من المدينة، وكذلك السقي الكثير من وادي تودمان، إذ أنه ينبع من شمال

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 331 - 332.

(2) - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999، ص 26 - 27.

(3) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 331.

(4) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 97.

(5) - عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة

غربي معسكر على بعد ثلاث كيلومترات، ويشق في طريقه المدينة، مروراً بحي "باب علي" الذي كان سكانه يستمدون من مياهه، بالإضافة إلى أنه يتغذى من عين السلطان^(*)(1)، كما يخترق غريس وادي ماوسة، ويبلغ طول وادي سيق حوالي 215 كلم، ينبع من منطقة الهضاب العليا، جنوب غرب جبال الضاية، ويخترق سهل بلعباس ليطلق عليه اسم "وادي مكرة"، وينتهي عند مستنقعات "المقطع".

ساهم الموقع والوسط الطبيعي في التأثير على أنماط معيشة سكان المنطقة، ولاسيما في المناطق الريفية، التي تتوزع عليها أكبر القبائل، كقبيلتي "بني شقران" و"الحشم"، والتي ساهمت في تنشيط مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية للمنطقة، وفي طبيعة الأنشطة الاقتصادية التي تعتمد عليها كلا القبيلتين، ثم في تحديد نوع العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة من جهة ثانية⁽²⁾.

كما تتميز منطقة معسكر باعتدال المناخ وجودة الهواء، وهذا طبعاً يعود إلى أهمية موقعها المتوسط الارتفاع والمطل على سهل جميل⁽³⁾ ومنفتح من كامل جهاته، مما يساعد ذلك على تجديد الهواء، وبالتالي القضاء على مسببات الأمراض والأوبئة، كالحشرات مثل الباعوض، وهذا ما جعلها بقعة كريمة مشهورة بالحسن والطيب في هوائها ومكانها، لأن المدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب⁽⁴⁾. كل هذا أدى إلى استقرار عدد كبير من الناس فيها، وذلك لرخاء العيش ورخص الأسعار وعدم التكلفة في توفير الميرة، إذ تذكر المصادر التاريخية أن المنطقة لم تتعرض إلى مشكلات اقتصادية أو مجاعات⁽⁵⁾، وهو ما يؤكد الجغرافي المشهور الإدريسي الذي قال عنها: "والمعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار"⁽⁶⁾، وهذا بالطبع يعود إلى توفرها على سهول واسعة، خاصة منها سهل غريس، الذي يعتبر من أهم السهول الداخلية للجزائر، إذ أنه عبارة عن حوض

(*) - مازالت هذه العين موجودة إلى غاية اليوم، حيث ينتفع سكان المدينة من مائها العذب.

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص12.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص20.

(3) - Shaw. T: *Voyages dans la régence d'Alger*, éditeur Marlin, Paris, 1980, p250.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص330.

(5) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص12.

(6) - الإدريسي أبو عبد الله: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، (في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي)

حققه ونقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، 1983، ص103.

منخفض تبلغ مساحته 1185 كلم² أي 118500 هكتار، وهو مشتهر بحقول القمح والشعير ويقطعان الماشية صغیرها وكبیرها⁽¹⁾.

كما تمتد مجموعة من السهول التي لا تقل أهميتها عن سهل غريس، وتشمل سهل الهبرة بين سيق والمحمدية، وسهل سيرات في شرق مستنقعات سهل المقطع، وإلى الشرق من بني شقران يمتد سهل سمارة قرب مدينة القلعة، تتخللها مجموعة من الأودية والمجاري المائية التي عادة ما تنسب إليها السهول التي تجري بها⁽²⁾، وقد كانت الزراعة السائدة خاصة في القرون الوسطى، تتمثل أساسا في زراعة الذرة والفلو والتين الهندي « Le nopal » بالهضاب، أما السهول فكانت تسودها الحبوب⁽³⁾، فالزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، وهذا حتما يؤثر إيجابيا على توفير المراعي والكلاء للحيوانات لفترة زمنية معتبرة خلال فصول السنة وهو ما أكده ابن خلدون في قوله المذكور سابقا.

وبالإضافة إلى قریها من المراعي في الضیاع الواسعة التي في جوانبها، نجدها تتوفر على المحطب القريب من الجبال المحيطة بها، والتي تحتوي على غابة كثيفة من أشجار العرعار والصنوبر الحلبي والبلوط⁽⁴⁾، وتوفر المرعى والوقود والغذاء والأخشاب اللازمة للبناء، يدفع بعمران المدينة نحو التوسع والتطور، خاصة إذا اعتمدت على إقليمها والبلاد المجاورة التي لها دور ومساهمة فعالة في تحقيق هذه المطالب⁽⁵⁾، وعليه يمكن القول أن توفر الماء والميرة هو إحدى الشروط الأساسية المتحكمة في بقاء المدن واستمرارها، دون الاعتماد على غيرها.

ونظرا لموقعها الإستراتيجي، المتصل بمجموعة من الطرق التجارية الهامة، التي تربط بعدة مدن منها مدينة وهران وتلمسان وتيهرت والتي تؤدي بدورها إلى مناطق الجنوب

(1) - محمادي قدور: شباب الأمير عبدالقادر، أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة، ترجمة مختار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 35.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 19.

(3) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 12، يُنظر كذلك:

Michel, J: *Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)*, éditions grand Alger livres, Alger, 2006, p39.

(4) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 13.

(5) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 105.

الأمر الذي جعل منها نقطة عبور ومركز تجاري هام لتبادل السلع وتسويق المنتجات المحلية، مما أضفى على سكانها نوعاً من رخاء العيش وإقامة علاقات وطيدة مع مختلف القبائل التي كانت تجوب المغرب، وكذلك كوجهة للعلماء الذين استقروا فيها، وأخذوا شهرتهم منها، وهنا تبرز أهمية اختيار موقع المدن على الطرق الرئيسية⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس فإن صفات معسكر الطبيعية التضاريسية منها والمناخية ومواردها المائية، وموقعها الجغرافي، إضافة إلى الوحدات التاريخية والبشرية، ما هي إلا عوامل أثرت إلى حد بعيد في جعل هذا القطر من الجزائر موطناً قديماً للإنسان، وجد فيه ظروف الراحة والاستقرار.

هـ- السكان:

كان سكان معسكر في بداية التأسيس، يتشكلون من القبائل البربرية، التي استقرت بضواحي المدينة، والبعض منهم دخلوا المدينة واستقروا بها ومارسوا فيها أنشطة مختلفة، ثم بعد ذلك استقر بها الأندلسيين، الذين وفدوا إليها وإلى النواحي المجاورة لها، إذ أن جزءاً هاماً من هؤلاء ينسبون إلى الحموديين، الذين حكموا جنوب الأندلس، كما استقر بها الجند التابعين لبني زيان، عندما تحولت إلى قاعدة عسكرية، ويبدو أيضاً أنها كانت تحتوي على جالية يهودية، لأن اليهود كانوا متواجدين في أغلب مدن الدولة الزيانية.⁽²⁾

وفي العهد العثماني، عرفت المدينة ازدياداً هاماً في عدد السكان، إذ وصل عددهم إلى حوالي أربعة آلاف نسمة⁽³⁾، أو ما يقارب خمسة آلاف نسمة⁽⁴⁾، وهذا راجع إلى عدة أسباب منها: ارتقائها إلى عاصمة لبابك الغرب، واستقرار بعض مهاجري الأندلس فيها وكذلك لجوء الكثير من الفارين من الجندية الإسبانية إليها⁽⁵⁾، وبالتالي يمكن القول أن سكانها كانوا يتشكلون من مجموعة من العناصر، وهذا اعتماداً على ما ذكره "حمدان خوجة" في قوله: "سكانها من العرب والبربر، وفيهم كثير من الكراغلة، طباعهم وعاداتهم شبيهة

(1) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 98.

(2) - حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الغرب، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 215.

(3) - لسيور. أ: المصدر السابق، اللوحة 50.

(4) - دينيزن. أف: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط1، دار هومة، الجزائر، 1999، ص 25.

(5) - لسيور. أ: المصدر السابق، اللوحة 50.

بطبائع أهل تلمسان، فهم فلاحون ويشتهرون بصناعة الحلي، يمارسون التجارة مع بني ميزاب...⁽¹⁾، وعليه يمكن تقسيم العناصر السكانية لمدينة معسكر على النحو الآتي:

أ- الأقلية التركفة: يتشكل أغلبها من الموظفين السامين للولاية، والجنود الأتراك "الإنكشارية"⁽²⁾، الذين كانوا يستقرون في حامية المدينة، وسميت بالأقلية لقلّة عددها بسبب حالة العزوبة⁽³⁾، التي كان يعيشها أغلب أفراد الجيش التركي العامل، وعدم تبني أبنائهم "الكراغلة"، واعتبارهم عنصرا هجينا، لا يرتقي إلى مستوى الأصول التركفة الخالصة، فضلا عن تعرض الكثير منهم إلى الأمراض والأوبئة، كما أنهم عاشوا في عزلة بسبب رغبة الحكام الأتراك في المحافظة على امتيازاتهم، وميل غالبية العناصر التركفة إلى التمسك بعاداتها ولغتها وأسلوب عيشها ونمط حياتها، واعتقاد الكثير منهم بكونهم جماعة ممتازة، تتوقف على باقي العناصر الأخرى، ولهذا السبب امتنع أغلب الموظفين الكبار عن الزواج بالجزائريات. لقد بلغ عدد هذه الفئة خمس سفرات في مدينة معسكر⁽⁴⁾، حيث تمتعت بامتيازات كبيرة في الإيالة وبإيلكاتها⁽⁵⁾، كما كان لها دور مهم في حفظ الأمن وحماية البلاد وجباية الضرائب⁽⁶⁾.

(1) - خوجة حمدان بن عثمان: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007، ص 97.

(2) - الانكشارية أو اليكجيرية: كلمة محرفة عن اللفظة الأصلية "يكيجيري" التي تعني الجند الجديد، تأسس هذا النظام في البداية من طرف "مراد الأول" السلطان السابع للأتراك (1358 - 1389م)، وعرفوا تزايدا في عهد ولده وخليفته محمد الفاتح، عن أصول هذا التنظيم العسكري، وتاريخ ظهورهم في الجزائر ومراتبهم العسكرية، يُنظر: - أميلي حسن: النظام العسكرية في الولايات المغاربية العثمانية من خلال المؤرخين الفرنسيين نيكولا دي نيكولاي والراهب بيير دان، سلسلة العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة، ندوات ومناظرات رقم 123، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، الرباط، 2005، ص 189، - دحماني توفيق: دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، من ص: 20 إلى ص: 26.

(3) - كورين شوفالبييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 30.

(4) - سعيدوني ناصر الدين: الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر أثناء العهد العثماني، الجزائر، 1982، ص 93.

(5) - حساني مختار: المرجع السابق، ص 215.

(6) - دحماني توفيق: المرجع السابق، ص 25.

ب- فئة الكراغلة (**): تأتي هذه الفئة في المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، تكونت نتيجة تزواج أفراد الجيش "الإنكشاري" بنساء البلاد، وظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات التركية وهي: الجزائر وتلمسان ومعسكر وقلعة بني راشد ومستغانم ومازونة وغيرها، ومما ساعدهم على احتلال المرتبة الثانية في المجتمع، صلتهم بالأترك وعلاقتهم الخاصة بالأهالي، فأصبحوا بعد فترة قصيرة من الوجود التركي بالجزائر يؤلفون طبقة وسطى ميسورة الحال، تمارس التجارة وتشتغل بالمهن، وتستقر بالملكيات الزراعية بالفحوص، وفي بعض الأحيان تقوم بوظائف إدارية متوسطة الأهمية.

وقد تخوف الأتراك من تكاثر الكراغلة، الذين أصبحوا مع نهاية القرن السادس عشر يُقدّرون بنصف عدد الأتراك، وتزايد هذا التخوف منهم، عندما بدؤوا يكتسبون أهمية خاصة وتطلع البعض منهم إلى نيل الامتيازات والمشاركة في الحكم، وهذا ما دفع الحكام الأتراك إلى الاحتراز منهم، والحيلولة دون توليهم الوظائف السامية في الجيش والإدارة⁽¹⁾، ورغم ذلك استطاعوا أن يشكّلوا فيما بعد، شبه حكومة خاصة بهم، وأن يتقاسموا المدينة مع الحضّر⁽²⁾.

ج- الحضّر: أو "البلدية" تتشكل من المجموعات السكانية القاطنة بالمدن، والتي تعود في أصولها إلى الفترة الإسلامية، وما انضم إليها من أندلسيين وأشرف، وقد تميزوا بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة وبوضعهم الاجتماعي المميز، مما جعلهم يؤلفون طبقة اجتماعية ميسورة، ويشتغل أفرادها في المهن الصناعية والأعمال التجارية المختلفة، ويتولون وظائف السلك

(**) - "كروغلي" أو "قول أوغلي": مصطلح مركب من كلمتين "قول" بمعنى: "عبد" و "أوغل" بمعنى: "ابن"، وحسب قواعد اللغة التركية معناه: أبناء العبيد، ووفقا لفلسفة الحكم عند العثمانيين، معناه أبناء عبيد السلطان العثماني، لمزيد من المعلومات يُنظر: - هلايلي حنيفي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1428هـ/2007م، ص80.

(1) - لقد كان احتراز الأتراك من الكراغلة في محله، إذ عندما توترت العلاقة بينهم، ابتداءً من سنة 1596م انتهاءً من عام 1629م، تحول إلى صدام مسلح، عندما حاولوا الحد من نفوذ الأتراك والسيطرة على مقاليد الحكم، بالاعتماد على عناصر زواوة العاملة بالجيش، لكن تفضن الأتراك إلى خطتهم وتجنس أفراد بعض جماعة البرانية من بني مزاب عليهم بحسن الإمبراطور، خارج الجزائر لفائدة الأتراك، أدى إلى القضاء على تمردهم في يوم 19 رمضان 1028هـ الموافق لـ 12 ماي 1629م، ولقي الكثير منهم مصرعهم، وما تبقى منهم فروا إتجاه منطقة القبائل، لمعلومات أكثر أنظر: - خوجة حمدان بن عثمان: المصدر السابق، ص 154، وكذلك: - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص93.

(2) - حساني مختار: المرجع السابق، ص216.

القضائي والتعليمي، وقد ظهر في هذه الطبقة الصناع المهرة والتجار النشيطون والبحارة المغامرين والفقهاء والعلماء الأفاضل.

هذا وقد اهتم أفراد هذه الطبقة بتمتية ثرواتهم واستغلال أملاكهم، واستثمار مزارعهم الواقعة بالقرب من المدن، ذلك ما جعلهم يؤلفون برجوازية المدن الصغيرة، التي عُرِفَتْ بخضوعها للبايلك، وقلة اهتمامها بأمور السياسة وشؤون الحكم، ومن أهم العناصر التي كانت تتشكل منها طبقة الحضر نذكر: الجالية الأندلسية وجماعة الأشراف، فالأندلسيون الذين كانت لهم صلة ومعرفة بالبلاد الجزائرية منذ الفترة الإسلامية تكاثر عددهم مع مجيء الأتراك، الذين كان لهم دور في إنقاذهم من الإسبان بعد سقوط الأندلس تحت حكمهم في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. أما جماعة الأشراف القليلة العدد والتي تتميز عن باقي الحضر بانتسابها إلى آل البيت^(*)، حسب التقاليد المتعارف عليها، فقد اشتهر أغلب أفرادها بالورع والتقوى، وهذا ما أكسبهم احتراما وتقديرا لدى الحكام وباقي فئات المجتمع⁽¹⁾.

هـ- مجموعات البرانية أو الدخلاء: تتألف من المجموعات السكانية التي هاجرت إلى المدن الكبرى للإقامة والعمل، وقد فرض عليها الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن، أن تنتظم حسب أصولها الجهوية ومواطنها الأولى، وقد اختلفت كل مجموعة بمهام وأعمال تقوم بها، تحت إشراف أمير منها يختاره البايلك ويوكل له حق مراقبة جماعته وتولي شؤونها فيما يتعلق بأمور الشرطة والقضايا العدلية، ومن الجماعات التي استقرت في معسكر نذكر:

- **جماعة بني ميزاب:** إن حركة هجرة بني ميزاب لها خصوصيتها ولا يمكن مقارنتها بباقي الهجرات، فقد كانت هجرة منتظمة نظرا لارتباط حياة البلد ارتباطا شديدا بها. فمنطقة الميزاب بمدنها السبع، غرداية وبني يسفن ومليكة وبريان والعائق والقرارة وبونورة، هي منطقة فقيرة ولا توفر إمكانات العيش، لذا كانت من المناطق الطاردة، فالهجرة كانت حينئذ اضطرارية

(*) - من عائلات الأشراف التي كانت تستقر بمدينة معسكر، نذكر عائلة الشيخ مصطفى بن مختار الغريسي، المعروف بسيدي قادة جد الأمير عبد القادر، الذي يتصل نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أسس قرية القيطنة والزاوية ومنها ذاعت شهرته في المنطقة وضواحيها. لمزيد من المعلومات يُنظر: بوعزيز يحي: المرجع السابق، ص 146.

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص ص 97 - 98 - 99.

كانت لها أوضاعها الخاصة، وفي آخر الهرم نجد جماعات البرانية المحرومة من الامتيازات، رغم قيامها بالأعمال الشاقة والمهن الحقيرة⁽¹⁾.

2- أصل تسمية مدينة معسكر:

يسود الغموض حول التسمية الأولى التي اتخذتها مدينة معسكر، لعدم وجود أدلة قاطعة تشير إلى ذلك، ولكن يرى بعض الرحالة والمؤرخين والأثريين من أمثال "شاو SHAW"⁽²⁾، و"هاينريش فون ملستان"⁽³⁾ على أنها بنيت على أنقاض المدينة الرومانية القديمة "فيكتوريا VICTORIA"^(*)، حيث قال هذا الأخير: "وتحتل مدينة معسكر فيما يذهب إليه أغلب الأثريين، مكان المدينة الرومانية القديمة فيكتوريا، ولم أستطع أن أكتشف هنا أي أثر..."، ثم يواصل حديثه بتقديم معلومات مهمة في قوله: "... ويعتبر بطليموس الجغرافي الوحيد الذي ذكر فيكتوريا، ومن المرجح أنّ المدينة قد هدمها أهالي البلاد، عند سقوط الإمبراطورية الرومانية، فاسمها لم يرد ذكره فيما بعد، ولم يكن في معسكر ما يستحق المشاهدة"⁽⁴⁾. (تُنظر الخريطة رقم 03)

كما تشير بعض الأبحاث، إلى أن مدينة معسكر قديما كانت تسمى "كاسترانوفا CASTRA NOVA"، أي "القلعة أو المعسكر الجديد"، وهو اسم لاتيني روماني⁽⁵⁾، لكن عند البحث في الخرائط القديمة نجد أن هذه التسمية غير صحيحة، وذلك بالنظر إلى موقع هذه القلعة، البعيدة كل البعد عن الموقع الحالي لمدينة معسكر، بل هو جد قريب من مدينة "المحمدية"، وهي إحدى الدوائر الإدارية المكونة لولاية معسكر، ويظن البعض أن مدينة

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص111.

(2) - Shaw. T: **Op.cit**, p250.

(3) - هاينريش فون ملستان: ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العبد دودو، ج2، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص76.

(*) - فيكتوريا: هو اسم آلهة النصر عند الرومان، وقد عُثر على نقيشة إهدائية على مذبح آلهة النصر فيكتوريا بالموقع الأثري الموجود بمنطقة "بنيان". لمزيد من المعلومات يُنظر: - فاضل لخضر: "مدينة بنيان عبر العصور القديمة"، ملتقى مدينة معسكر، المنطقة والرجال، 06 ماي 2005، مديرية الثقافة، معسكر، ص22.

(4) - هاينريش فون ملستان: المرجع السابق، ص76.

(5) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص48.

معسكر هي نفس المدينة التي يسميها بطليموس "قيلبورك"⁽¹⁾، لكننا لم نجد ما يثبت هذه المعلومة، وفي الفترة الإسلامية كانت تطلق عليها تسمية "المعسكر" حسب وصف الإدريسي والحسن الوزان⁽²⁾، وكذلك "أم عسكر" حسب أبي راس الناصري⁽³⁾، ومنها جاءت التسمية المعروفة "مَعْسَكْر" التي تعني المكان الذي يعسكر فيه الجنود⁽⁴⁾، وهي التسمية التي اشتهرت بها بعد ذلك ومازالت متداولة إلى غاية اليوم.

يمكن القول من خلال ما تم ذكره أن الموقع الجغرافي لمدينة معسكر كان له دور واضح وجلي في تأسيسها، نظرا لمميزاته وخصائصه الجغرافية التي تتوافق مع شروط تأسيس المدن التي وضعها علماء العمران والجغرافيا، فمناخها المعتدل ومائها العذب وتربيتها الصالحة للزراعة، جعلت منها مدينة مفضلة لسهولة العيش ووفرة متطلبات الحياة، ولعل ما يثبت ذلك هو توافد الناس إليها واستقرارهم فيها وفي فحوصها، فوسطية موقعها بين النل والصحراء وقربه من الطرق التجارية الرئيسية والمدن الكبرى كمدينة تلمسان، جعلت منها كوجهة مفضلة للراحة والاستقرار وممارسة التجارة وطلب العلم، وهذا دليل كاف لتبرير بقائها وازدهار عمرانها وعدم خرابها.

(1) - مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1984 ص324.

(2) - الإدريسي: المصدر السابق، ص103، يُنظر كذلك: - الوزان الحسن بن محمد: وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ص26. - يُنظر كذلك: - أبو زيد عبد الرحمن الجامعي، فتح مدينة وهران 1708م، تحقيق مختاري حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2003، ص72.

- Shaw. T: Op.cit, p250.

(3) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص20.

(4) - محمصي قدور: المرجع السابق، ص93.



İ İBA ½ v °A
j, n ° ç ò Ä F • İ ' i B A i l ñ N

c İ B A ½ J B ; Ñ - -1
ò ° F ° A Ñ ° A -2
ò Î ; Ý m â A Ñ ° A -3

إن الباحث في تاريخ المدن وعمرانها تشده دائما محاولة معرفة بداية الاستقرار البشري فيها وكشف الأحداث التاريخية التي مرت بها، لذلك سنحاول في هذا الفصل إعطاء الخلفية التاريخية للمدينة بالتطرق إلى مختلف الفترات التي مرت عليها، أي بدءاً من فترة ما قبل التاريخ التي تمثل بداية الاستقرار البشري، بحكم أن المنطقة التي بنيت فيها المدينة لها مؤهلات جغرافية تساعد على ذلك، وإلى غاية الفترة الإسلامية، وعليه ما هي أهم الأحداث التاريخية التي مرت عليها المدينة والمنطقة ككل؟

1- فترة ما قبل التاريخ:

إن تاريخ مدينة معسكر خلال هذه الفترة يكتنفها نوع من الغموض، وهذا بسبب عدم وجود أبحاث ودراسات ميدانية أقيمت عليها، إلا أنه على بعد عشرين كيلومتر شرق المدينة بمرملة "تيغنيف"، اكتشفت آثار تعود إلى هذه الحقبة، من قبل مجموعة من الباحثين من أمثال: "بومال POMAL" في أبحاث أثرية تولاها خلال سنوات 1878 و 1882 و 1893 و 1897م، وكذلك "توماسيني TOMASSINI" في سنة 1882م⁽¹⁾، ومن بعده مرة أخرى "بومال" رفقة "بولاري PALLARY" في سنة 1887 و 1925م⁽²⁾.

وفي سنة 1872م بدأ التنقيب في موقع "تيغنيف"، الذي يقع على بعد مئات الأمتار غربي قرية "باليكاو Palikao" القريبة من مدينة معسكر، وهو يتشكل من هضبة رملية ذات لون أبيض، وقد اكتشف فيها أحد المعمرين الفرنسيين في تلك الفترة وهو السيد "بالافوان M. Balavoine" مجموعة عظام بشرية متحجرة بعد مدة قصيرة من الشروع في العمل بأرضه الزراعية، وقد كشفت الحفريات التي أجريت كذلك فيه أثناء مؤتمر سنة 1888 عدة بقايا عظمية⁽³⁾.

وفي سنة 1954م وضع "كميل أرامبورغ C. Arambourg" و "ب. بالاري P. Pallary" وبعثتهما، أيديهم على شواهد عظمية، لأول أثر على وجود الأبقار العتيقة بالقارة الإفريقية

⁽¹⁾-Geraads .D et autres: **The pleistocene homid site of Ternifine, Algéria : new results on the environment, age, And human industries**, Laboratoire de paléontologie des vertèbres et paléontologie humaines, T.25, Université Paris VI, 1985, p380.

⁽²⁾-Geraads .D: « Bovidae et Giraffidae (artiodactyla Mammalia) du pléistocène de Terenifine (Algérie) », Bulletin Muséum nationale d'histoire naturelle, 4^{ème} série 3, 1981, section C, N1, Paris, p47.

⁽³⁾- ليونال بالو: الجزائر فيما قبل التاريخ، ترجمة وتقديم محمد الصغير غانم، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص32.

وبعد الإطاحة بـ"سيفاكس" من طرف القائد النوميدي "ماسينيسا"، أصبحت منطقة معسكر إحدى القواعد المهمة في مملكة ماسينيسا، بالنظر إلى موقعها الإستراتيجي من الناحية الطبيعية، باحتوائها على أراضي زراعية خصبة لإنتاج مختلف المنتجات الزراعية خاصة القمح، جعلها تنافس المناطق والمدن النوميديّة كسيرتا (قسنطينة)، وقد أدخلت المنطقة وما جاورها في نزاعات إقليمية بين الممالك الليبية، وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد بين الملك النوميدي "يوغرطة" ونظيره الموريطاني "بوخوس الثاني"، حيث دامت زهاء ستة سنوات كاملة (111-105 ق.م)، نتج عنها انهزام "يوغرطة" على يد "سيلا Sylla" مساعد القائد الروماني "Marius" وإلقاء القبض على "يوغرطة" بالقرب من مدينة مليانة في كمين نصبه له "بوخوس"⁽¹⁾، وعلى إثر ذلك تحصل "بوخوس" على الثلث الغربي للمملكة النوميديّة بما فيها منطقة معسكر، التي دخلت تحت سيطرتهم، ثم أصبحت تابعة لموريطانيا القيصرية Maurétanie césarienne بقيادة بوخوس الثاني.

وبعد هذه الفترة يسود غموض كبير حول الأحداث التي وقعت في منطقة معسكر بسبب الثورات والفتن التي ظهرت بين ملوك وحكام الممالك الموريطانية، والتي كان لها نتائج وخيمة، أدت في الأخير إلى انتشار النفوذ الروماني في المغرب، خاصة عند وفاة الملك الموريطاني "بوخوس الثاني"، حيث أنهم استغلوا هذه الفرصة في الإطاحة بالطبقة الحاكمة حتى وقع المغرب تحت سلطة الإمبراطور الروماني "أوكتافيوس Octavius"، وخلال القرن الثاني الميلادي، قام الأباطرة الرومان بتوسيع حدود إمبراطوريتهم، حيث أنهم سيطروا على مدن جديدة وأنشؤوا مراكز عسكرية للمراقبة، منها البرواقية والشلف والمحمدية⁽²⁾، ثم توغل الاحتلال الروماني حسب خطين عسكريين، يحاذي الأول البحر، وهو يمر من عين تيموشنت (Albulae) وحمّام بوحجر (Dracones) وأريال (Regiae) وسان دونيسي (Tasaccora) (سيق حاليا)، ومن بين المراكز العسكرية نجد "كاسترانوفا CASTRA NOVA"

(1) - شنيّتي محمد البشير: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م-40م)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، ص 137.

(2) - Gzell. S, Marçais. G, Yver. G: **op.cit**, p24.

عنده إدريس الأكبر وأخوه سليمان عندما فرا من المشرق، ورحل معهما إلى المغرب الأقصى بعد ذلك⁽¹⁾، وذلك في قوله: "... وصار يجد السير حتى بلغ إزاء تلمسان ببلاد أم عسكر فلما رأوه أهل ذلك المكان وسمعوا أخباره ووجدوه فاضلا اتخذوه رئيسا لهم فمكث عندهم وتزوج منهم امرأة فولدت له راشدا، فلما حضرت الوفاة للمرشد أحضر ولده راشد وسوّله، قال له أنا المرشد بن إبراهيم بن محمد بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عليه...فتوفي المرشد وخلف راشد وكان راشد كريما شجاعا جميل الوجه محبوبا عند الناس فلما نزل عليه إدريس وأخيه سليمان بن عبد الله أكرمهم راشد وأحسن إليهم، مكثوا عندهم ستة أشهر، فلما أراد إدريس بن عبد الله القدوم إلى المغرب قال له هل تريد صحبتي إلى المغرب، قال له راشد إن ولابد على شرط لا تؤثر على أحد السر الذي بيني وبينك لا يطلع عليه سوى الله وتراعي أولادي من بعدي كما ترى عيني له قال له إدريس لك ذلك... وقصدا بلاد المغرب^(*)"⁽²⁾، وبعد قيام الدولة الإدريسية، خرج إدريس بن عبد الله سنة 273هـ لغزو تلمسان التي دخلت تحت حكمه دون صعوبة، كما بايعته القبائل القريبة منها⁽³⁾، وبالتالي خضعت منطقة معسكر لنفوذهم، بحكم أن سيطرتهم كانت تمتد من السوس الأقصى إلى مدينة وهران⁽⁴⁾ ومن جهة الجنوب سهول غريس إلى جهة مديونة⁽⁵⁾.

ومع بداية القرن العاشر الميلادي، انتزعت قبائل بني يفرن منطقة معسكر من مغاوة بقيادة "يعلي بن محمد بن صالح اليفريني"، الذي قام بتمدين مدينة "إفكان"، بعدما كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة، وكان ابتداء تأسيسه لها في سنة 338هـ/949م⁽⁶⁾، وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت وبلل وشاطئ بني واليل ووهران وقصر الفلوس، فعمرت وتمدنت

(1) - بوعزيز يحي: المرجع السابق، ص130.

(*) - المقصود بهذا المغرب الأقصى.

(2) - القيرواني محمد الشريف: روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، مخطوط بمكتبة الشيخ البشير محمودي، دائرة البرج، معسكر، الورقة 8.

(3) - ابن القاضي أحمد المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص ص 21- 22.

(4) - ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999م، ص 117.

(5) - الجبالي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 183.

(6) - البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، 1965، ص 79.

الزمن تطورت هذه المدينة وكبرت⁽¹⁾، ولكن مع تأسيس الدولة الزيانية (633-962هـ/1235م) وإعلانها الاستقلال على يد يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان وظفره بالسلطان، أدى عندئذ ذلك إلى طمعه في التغلب على أمصار المغرب الأوسط، ومزاحمة بني توجين وبني منديل بقيادة منديل بن عبد الرحمن وبنوه المسيطرين على ناحية شلف، والذين كانوا قد ملكوا مليانة وتنس وبرشك وشرشال وما إليها، وتناولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها، ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشريس وما إليه⁽²⁾، وفي سنة (680هـ/1286م) قام الخليفة المريني "يعقوب بن عبد الحق" بالتوسع في بلاد المغرب الأوسط، فاستولوا على مدن ندرومة ووهران ومزغران ومازونة ومستغانم وتنس والمدية ومليانة وشرشال، وخضع لها حاكم مدينة الجزائر، وبذلك خضع المغرب الأوسط بما فيه منطقة معسكر لبني مرين ما عدا تلمسان⁽³⁾.

وفي سنة 686هـ الموافق لـ1291م اتخذ بنو زيان من معسكر قاعدة للإجلاب على بنو توجين، وذلك نظرا لموقعها الإستراتيجي والمحصن وكذلك لقربها من منازلهم، حيث يذكر ابن خلدون أن "عثمان بن يغمراسن" قد استعان "بالحشم" ضد بني توجين، الذي تغلب عليهم ودوخ قاصيتهم، وصار إلى بلاد مغراوة كذلك، حيث نزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن تنس، فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته⁽⁴⁾.

وفي سنة 689هـ/1294م خرج الأمير أبي سعيد عثمان مرة أخرى إلى بلاد مغراوة، لما كان ألبا عليه بني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حمو بالشلف مركز تمردهم فأقام به وقفل إلى الحاضرة، وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزلوا بها، ونهض إليهم "عثمان" سنة ثلاث وتسعين (693هـ/1297م)، ففروا منها وزحفوا إلى مدينة برشك^(*)، فحاصروهم بها أربعين يوما ثم

(1) - بوعزيز يحيى: المرجع السابق، ص130.

(2) - ابن خلدون: العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 94 و ص 102.

(3) - بوعزيز يحيى: المرجع السابق، ص ص206 - 207.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر...، المصدر السابق، ج7، ص93.

(*) - برشك: مدينة قديمة بها مرسى صغير، تسمى قوراية حاليا، تقع في ولاية تيبازة، يُنظر: الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص ص 88 - 90.

ومن القبائل التي عانت ويلات الاسبان بنو شقران برمال عين فرس الشرقية، فأخذن فيهم إثنان عظيمي وسبى أهل الربط والكرط وقتل وأسر وسبى الرجال والنساء، ثم غزا "فروحة" بغريس.⁽¹⁾

ولكن هذه الفوضى التي كلفت خسائر كبيرة في الجزائر، لم يكن لها أن تستمر طويلا حيث كانت سنة 923هـ / 1516م سنة تحول وتغيير للوضع القائم، وذلك بدخول الأتراك بقيادة الأخوين بابا عروج وخير الدين إلى الجزائر⁽²⁾، بدعوة من أهلها نظرا لقيمتها العسكرية فبعدها استولوا على مدينة الجزائر، نهض عروج لبسط نفوذه نحو الجهات الغربية من البلاد على رأس قوة تتألف من خمسمائة جندي من الأتراك ومهاجري الأندلس⁽³⁾، فاستولى على سهول متيجة وشلف وعلى سلسلة الظهر بما فيها شرشال وتنس⁽⁴⁾، ما بين سنة 1516 و 1517م، ولم يتعرض لفتوحات عروج وخير الدين⁽⁵⁾ إلا رجال الدين ذوو النفوذ الروحي ولا الرعية الراغبة في الإصلاح والخلص من أولي الأمر المفسدين ولا سكان الجبل من البربر وإنما تعرض له مشايخ الجزائر⁽⁶⁾، فوقفوا في صدره ومانعوه، وكان من بينهم شيوخ الثعالبة

(1) - أبو راس محمد الناصري: المصدر السابق، ص ص 43-44.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - أبو راس محمد الناصري: الخبر المغربي عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير، ورقة 126. وكذلك:

- Diego. D. H: **Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au seizième siècle**, 3^e édition, édition Grand-Alger livres, Alger, 2004, pp 21- 25.

(3) - الوزان الحسن: المصدر السابق، ص 39. يُنظر كذلك: - أتر سامح عزيز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1409هـ/1989م، ص 172.

(4) - صادق محمد الحاج: مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989 ص 31، يُنظر كذلك: - مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مج 3/2 العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1412هـ/1992م، ص 161.

- GAID. M: **L'Algérie sous les turcs**, 2^{ème} édition, édition Mimouni, Alger, p40.

(5) - لمزيد من المعلومات يُنظر: مؤلف مجهول: الخبر عن قدوم عروج راييس إلى الجزائر وخير الدين، مخطوط بمكتبة الحامة، تحت رقم 1622، ورقة 60.

(6) - مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق عبد الله حمادي، دار القصة للنشر الجزائر، 2009، ص ص 121-122.

وخصوصا سليم بن التومي^(*) صاحب مدينة الجزائر، الذي تعنت حتى اضطر عروج على قتله بيده⁽¹⁾، وفي هذه الفترة تمكن الاسبان من اجتياح الجهة الغربية، بما فيها مدينة معسكر، وذلك بمساعدة عميلهم أبي حمو الثالث الزياني الذي خدمهم بإخلاص⁽²⁾، فقتلوا غدرا أول عامل تركي وضعه الأتراك على قلعة "هواره" المعروفة بقلعة "بني راشد"، أو "قلعة القلاع" حسب ما جاء في مذكرات خير الدين بربروس، وهذا لتشديد الضغط والخناق على ناحية بني شقران، ومراقبة القوات الاسبانية بوهران، وهو إسحاق بن يعقوب أخو عروج وخير الدين وإلياس⁽³⁾، وقد أعلن سكان معسكر طاعتهم للأتراك عن طريق شيخ المدينة الكبير "أحمد بن يوسف الراشدي"^(**)، الذي التقى بعروج في "كريشنتل" (منطقة تقع قرب وهران)

(*) - تعددت الروايات حول مصرع سليم التومي، نذكر منها: أن عروج قد روج لكلمة فحواها أن الشيخ، كان قد اختنق في حمامه، لمزيد من المعلومات يُنظر: مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، نقلا عن: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص108.

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص34، يُنظر كذلك: - المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا 1796/1492م، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص175.

(2) - Rufe. P: **Domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte d'Alcoudete 1534-1558**, éditions Mimouni, Alger, S.D, p19.

(3) - مذكرات خير الدين بربروس: ترجمة درّاج محمد، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م ص92. يُنظر كذلك: - ابن زرفة محمد: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق حساني مختار، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، 2003، ص224. وكذلك:

- بوعزيز يحي: وهران، الطباعة الشعبية للحيش، الجزائر، 2007، ص74.

- Chaouch. S: **Fondation de la régence d'Alger, histoire des frères barbarousse Arroudj et Khair-ed-din**, Editions Grand- Alger Livres, Alger, 2006, pp77-78

(**) - هو أبو العباس أحمد وهو ابن لأبي عبد الله محمد بن أحمد عبد الله بن يوسف المرسي نسبا، والهوري دارا والراشدي نشأة، والملياني مدفنا، كان يعرف بسيدي أحمد بن يوسف، ولد بقلعة بني راشد، لم يحدد تاريخ ولادته ففيل في سنة 836هـ/1436م و 840هـ/1440م و 844هـ/1442م، تنتمي أسرته إلى بني مرين المغاربة، كان رجلا عالما ومتفقا في الدين وسياسيا، وكان سيدي أحمد على اتصال مع العثمانيين خاصة عروج، واتفقا معا ضد الزينيين بتلمسان، وظلت هذه العلاقة قائمة طيلة العهد العثماني، وتوفي أحمد بن يوسف سنة 931هـ/1524م، ودفنه ابنه محمد ابن مرزوقة في مليانة وبنى له باي وهران محمد الكبير ضريحا ومسجدا في القرن 12هـ/18م. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- ابن الصباغ: زمزم الأخيار، نسخة عن المخطوط الأصلي، مخبر المخطوطات، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران ورقة60، وكذلك: - الحسن بن محمد بن عسكر الشفشاوي: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر تحقيق محمد حجي، ط3، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، المغرب، 2003، ص112. وأيضا: - الشيخ أبو عمران وفرق من الأساندة: معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، 2000 ص500، وكذلك:

-Bordin .M: "Notes et question sur sidi Ahmed Benyousef", Revue Africaine, 1925, p135.

يُعين بيلربايا على الجزائر، حيث جعل من مازونة مقرا له في سنة 971هـ، لكنه تخلى عن هذا المنصب لأبي خديجة⁽¹⁾، الذي يعتبره المؤرخون أول بايات بايلك الغرب، وبعد ذلك أصبح يحكم البايك بايان، واحد يستقر بمدينة مازونة، والآخر بمدينة تلمسان، وهذا يعني أن هذا البايك قسم إلى قسمين، وفي عام 1701م وُحد القسمين وأصبح يعين عليهما باي واحد جعلت قاعدة حكمه قلعة بني راشد ثم مدينة معسكر، ثم مدينة وهران ما بين 1708-1732م، ثم مدينة مستغانم لمدة خمس سنوات ما بين (1732-1737م)، ليصبح بمدينة معسكر مرة أخرى (1737-1792م)، وأخيرا مدينة وهران بعد تحريرها الثاني والأخير في سنة 1791م، حيث أعيد إليها مقر العاصمة في عام 1792م⁽²⁾.

ويلاحظ أن بايلك الغرب انفرد بظاهرة تعدد عواصمه، وهذا راجع للظروف السياسية والعسكرية التي كان يمر بها، والمتمثلة في الاحتلال الإسباني للمرسى الكبير في سنة 1505م وهران في سنة 1509م⁽³⁾، وكذلك محاولة التضييق على القبائل المتحالفة معهم ومراقبة تحركاتها، ومنعها من التجسس لحسابهم.

أدخلت معسكر وناحيتها تحت حكم بايلك الغرب، إذ يباشر إدارتها عامل خاص بها وبعد مضي فترة من الزمن اتخذ الأتراك من معسكر كعاصمة لبايك الغرب الجزائري لمدة تقارب القرن من الزمن، وهذا منذ تولي الباي "مصطفى بوشلاغم بن يوسف المسراتي" الحكم بها في عام 1701م^(*)، إلى غاية انتقال مركز البايك إلى وهران في عهد الباي محمد

(1) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص192.

(2) - بوعزيز يحي: وهران... المرجع السابق، صص74-76. يُنظر كذلك: - جبار صلاح الدين، المختصر في تاريخ النظم، ط2، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص170.

- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971, p15.

(3) - Marçais. G: **villes et compagnes d'Algérie**, éditions du Tell Blido, 2004, p62. يُنظر كذلك:

- Chaila. H: **Oran histoire d'une ville**, Mitidja impression, Alger, 2002, p34.

(*) - مصطفى بوشلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي: يُطلق عليه الإسبان اسم "قيطليلوس"، وهو الباي الثامن عشر، تولى بايا على مازونة وتلمسان، فهو أول من جمعت له الإيالة الغربية سنة 1098هـ/1686م، ونقل كرسي المملكة من مازونة وتلمسان إلى القلعة ثم للمعسكر، وجعلها قاعدته، ثم إلى وهران بعد تحريرها الأول، وبعد أن احتلها الإسبان سنة 1732م، لجأ إلى مدينة مستغانم، وبقي هناك حتى وفاته سنة 1146هـ/1734م. لمزيد من المعلومات يُنظر: - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص192، وكذلك: - قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث

العشائر الكبرى بالناحية كبني عامر والحشم وهاشم والشراقة وبني شقران⁽¹⁾ على الطريق التجاري الرابط شمال جنوب عبر إقليم بني راشد والونشريس... إلخ. قام الباي في بداية الأمر ببناء محمية عسكرية في منطقة "الكرط"^(*) الواقعة جنوب غربي معسكر بأربع كيلومترات⁽²⁾، والمقبرة المترامية الأطراف التي تغطي التلال المشرفة على "الكرط" تشهد على قدم هذه القرية، التي كانت تسمى عند العامة بـ"معسكر القديمة"، ثم حوّل الباي "بوشلاغم" إقامته منها إلى معسكر بعد أن أتم بنائها⁽³⁾، حيث أنه اتخذها كمناطق لفتح وهران، فتحرك إليها وقدم لحصارها وقتال من بها بجيشه المنصور وجهاز لها "الباشا محمد باكداش" الجنود برا وبحرا، ولأزلت جيوش المسلمين تحارب وهران، وتقال منها إلى أن فتحها عنوة وقهرا في صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر شوال سنة 1119هـ الموافق لـ 20 جانفي 1708م، ثم انتقل الباي بوشلاغم من معسكر إلى مدينة وهران، حيث جعلها مقرا لحكمه⁽⁴⁾، غير أنّ الإسبان استرجعوها في سنة 1144هـ / 1732م فلم تبق تحت حكمه سوى 24 سنة، وقد قال أبو راس فيها قصيدة نذكر منها البيت الشعري الذي يشير إلى السنة المذكورة سابقا:

من بعد عشر وعشر ثم أربعة عادوا إليها قرّة أعين التعس⁽⁵⁾

(1) - سعيدوني ناصر الدين: وثائق جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص ص 247 - 248.

(*) - الكرط: قرية أسست بجبل كان يحمل هذا الاسم من قبل، ثم عرفت باسم معسكر القديمة، تبعد بحوالي 4 كلم عن مدينة معسكر لمزيد من المعلومات يُنظر: - المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بـوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، د.د.ن، د.م، د.س، ص31.

(2) - ابن عبد القادر مسلم الوهراني: المصدر السابق، ص31.

(3) - Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André, Mascara le 18 décembre 1852, p1, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

(4) - أبو راس محمد الناصري: الخبر المعرب... المصدر السابق، ورقة 129، وكذلك:

- ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص30.

(5) - أبو راس محمد الناصري: عجائب الأسفار...، ج1، المصدر السابق، ص47.

وعلى إثر هذه الحادثة، أعاد الباي بوشلاغم مركز البايلك إلى مستغانم، والتي توفي بها عام 1737م دون أن يحقق أمنيته في تحرير وهران نهائياً، رغم أنه كان يُضيق عليها الخناق بصفة عنيفة⁽¹⁾.

بعد هذه الفترة عاد مقر البايلك إلى مدينة معسكر، حيث تولى تسعة بايات الحكم حسب ما ذكره "الآغا بن عودة المزاري" في قوله: "... وهؤلاء البايات التسع كلهم كانت لهم دار ملكهم المعسكر، وكلهم كان لهم اعتناء شديد بالجهاد..." وهم على النحو الآتي: الباي يوسف المسراتي (1146 - 1147/هـ - 1734-1735م)، ثم الباي مصطفى الأحمر المسراتي (1147-هـ / 1734 - 1735م)، وبعده الباي محمد أبو طالب المجاجي المسراتي (1147-هـ / 1734 - 1735م)، ويليهِ الباي مصطفى قائد الذهب المسراتي (1155-هـ / 1735 - 1742م)، والحاج عثمان باي (1160 - 1170/هـ - 1747 - 1756م) الذي أنشأ بالمدينة عدة منشآت من أبرزها الجامع الكبير، وبعده الباي حسن (1170/هـ - 1756 - 1757م)، ثم يأتي الباي إبراهيم الملياني (1170 - 1185/هـ - 1757 - 1771م)، وهو الذي بنى برج العسكر أو الفندق في المدينة، كما أنه كان محبا للعلم وراغبا في الصالحين لنيل الفضل والكرم، وخلفه الباي الحاج خليل (1185 - 1192/هـ - 1772 - 1778م)، عُرف عنه بغضه للعلماء والأولياء وغيرهم من أهل النفع، ثم الباي محمد بن عثمان الكبير (1192 - 1213/هـ - 1778 - 1799م)⁽²⁾.

انصب اهتمام جل البايات المذكورين أنفا على تشييد وبناء مدينة معسكر، ولكن ينفرد الباي "محمد بن عثمان" عنهم بمجهودات جبارة في إعمار المدينة بمختلف المباني وإصلاح وتوسيع ما وجده فيها⁽³⁾، حيث أنه شرع فور توليته في إثبات قدرته على تسيير بايلك الغرب، وسعى إلى التجاوب مع النهضة التي أخذت تحياها إيالة الجزائر، في مختلف مقاطعاتها الإدارية، ورأى أنه لا يتسنى له ذلك إلا بقوة ديوانه وإدارته وجهازه القضائي والعسكري، ومن ثمة راح ينظم ديوانه مستعينا بمقربيه ممن تتوفر فيهم الكفاءة والتقوى في

(1) - المدني أحمد توفيق: المرجع السابق، ص 523.

(2) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، من ص 283 إلى ص 290. يُنظر كذلك:

- الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، من ص 194 إلى ص 204.

(3) - ابن عبد القادر مسلم الوهراني: المصدر السابق، ص 32.

أسبوع منذ انطلاق الخبر، فجعل أهل تلمسان وفليته وما جاورهما من القبائل تحت قيادة ابن عثمان، وتكفل بقيادة أهل مازونة ومستغانم، وقلعة بني راشد، وقبائل نواحي الشرق محمد ابن إبراهيم (صهر الباي)، وجعل القسم الأكبر تحت قيادته، ثم اتفق مع علماء "معسكر" وضواحيها أن يجمع الطلبة والدارسين وقرأ القرآن بقصد الرباط... فتحرك من مدينة معسكر في الثالث عشر من شهر صفر سنة 1205هـ / 1791م بخمسة آلاف مقاتل متوجها إلى مدينة وهران بقصد فتحها⁽¹⁾، وقد قدم أمامه البارود في عدة صناديق، فنزل بسيق⁽²⁾ وارتحل من الغد يريد قتال النصارى، فنزل بوادي تيلالت، واجتمعت عليه الأعراس بالغزو والتمكين ثم نزل عليها وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وجمع أوزارها من قبائل العرب بحلهم بضواحي وهران والسبل المؤدية إليها، لقطع المواصلات بينها وبين بني عامر، وغيرهم من المتشيعين للاسبان⁽³⁾، وصار الحرب بين الأمير والنصارى سجالا، ودام حصاره لها إلى أن فتحها بقتاله، في اليوم الخامس من رجب سنة ست من القرن الثالث عشر⁽⁴⁾، وهو ما يقابله بالتأريخ الميلادي شهر فيفري من سنة 1792م، وقد أرخ فتحها العلامة السيد الحاج عبد القادر السنوسي بن دح بقوله:

بشرى لنا قد بلغنا غاية الأرب
أرخت للقوم ذاك العام مبتدرا
فقلت في نظم ما راموا أورخه
بفتح وهران ذات العجب والعجب
قالوا فما الشهر منه يا أخ العرب
وهران طار لها الإسلام في رجب

(1) - ابن هطال أحمد التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص ص 19-21. يُنظر كذلك:

- Gorguos. A: **Histoire d'un bey de Mascara et de l'Oranie, le bey Osman « El kebir »**, édition Grand -Alger, livres (G.A.L), Alger, 2006, pp 110-111.

(2) - مجهول: محمد الأكل...المصدر السابق، ورقة 21.

(3) - السليمانى أبو عبد الله الأعرج: المصدر السابق، ص225. يُنظر كذلك:

- Rufe. P: **Op. cit**, p14.

(4) - أبو راس الناصري: عجائب الأسفار...، ج1، المصدر السابق، ص ص 47-48. يُنظر كذلك:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ص266.

- Leon Fey. H: **Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination Espagnole**, typographie Adolphe Perier éditeur, Oran, 1858, p263.

كما نظم أبي راس الناصري منظومة سماها "السينية في التاريخ" عند فتح وهران ذكر فيها تاريخ دخولها مطلعها:

في خامس الفرد ضحى يوم اثنينه
كان الدخول بعون الله المقدس
سنة ستّ تم الحمد لخالقنا
وصل أيضا على المنفى من الرجس⁽¹⁾
وقال أيضا:

طيب الرياح على كل الآفاق جوسى
وبشر إليكم من الجن والإنس
بالمغرب الأقصى وأقاصي مشرقنا
والجو والضرو والأشجار والودس
طوامى الأبحر وأهل جزائرها
بفتح وهران دار الشرك والومس⁽²⁾

وعلى إثر هذا الفتح المبين، انتقل الباي إليها من معسكر بأهله وأعيان حكومته⁽³⁾ وبذلك أصبحت مقرا لبابك الغرب، وبقيت معسكر مجرد مدينة كغيرها من مدن البابك، بها ما يفوق 100 جندي لا غير، حيث أثر ذلك تأثيرا مباشرا على نشاطها مع مرور الزمن فتراجعت مكانتها في أواخر العهد العثماني، وفقدت شهرتها العلمية ومنزلتها الثقافية والحضارية، فانكمش عمرانها وتناقص سكانها وهجرها الطلبة والعلماء، لعدة عوامل أهمها: انتشار الأوبئة وتفشيها، التي قضت على كثير من سكانها، حتى أصبح عددهم عشية الاحتلال لا يتعدى ألفي نسمة⁽⁴⁾. وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن مدينة معسكر، رغم أنها كانت لفترة طويلة عاصمة لبابك الغرب، إلا أنها ظلت كعاصمة مؤقتة ومدينة داخلية اتخذت كمنطلق للهجوم على وهران ومرساها، لتحريرها من الغزو الاسباني.

(1) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ص266.

(2) - بن بكار بلهاسمي: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ-1961م، ص13.

(3) - الجزائري محمد ابن عبد القادر: المصدر السابق، ص74.

(4) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص252.

وفيما بين (1802-1827م) شهد بايلك الغرب عامة، ومنطقة معسكر بصفة خاصة سلسلة من الثورات، قادها شيوخ الطائفة الدرقاوية (*) والتيجانية (**). التي تأسست في المغرب ولاقت كل الدعم من طرف السلطان المغربي- ضد الباي، الذي خاض ضدهم معارك ضارية، كان من أشهرها تلك التي قامت بها الطائفة الأولى والمسماة بمعركة "فرطاسة" (*) في سنة 1805م⁽¹⁾، وقد انتصر في - هذه المعركة- "عبد القادر بن الشريف الدرقاوي" وأنصاه انتصارا عظيما، فقتل عدد كبير من جنود الباي مصطفى (**)، وقد قدم لنا الزياتي وصفا لهذه المعركة في قوله: "...فسمع به الباي مصطفى فجهز له جيشا عظيما وقصده به، فابن الشريف هابط للباي وهو صاعد له إلى أن تلاقيا بفرطاسة بين وادي مينا ووادي العبد، وشعلت نار الحرب بينهما وحمي الوطيس، فانهمز الباي بجيشه وأخذ ابن

(*) - الدرقاوية: طريقة صوفية مغربية متفرعة عن الشاذلية وأول من دعا إلى مذهب الدرقاوية هو الشريف إدريس من جماعة العمرانيين، الذين استوطنوا في الشمال الغربي من مدينة فاس ويدعى علي بن عبد الرحمن الجمل أو الجمال، الذي كان أحد الفقهاء البارزين، درس التصوف على يد أبي عبد الله حبوس، توفي سنة 1194هـ. ورغم أن الغربي الدرقاوي كان مؤسس الطريقة ومنظمها، إلا أنها تنسب لأحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة، لذلك قيل "درقاوي" و "درقة" تعني الترس من الجلود. لمزيد من المعلومات يُنظر: - بونقاب مختار: تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2001-2002، ص 37، وكذلك:

- التليدي عبد الله بن عبد القادر: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، ط3، دار الأمان، الرباط، 2000، ص 207.

(**) - التيجانية: تنسب إلى أحمد بن محمد التجاني الذي ولد عام 1150هـ/1737م، بعين ماضي - ولاية الأغواط- بالجزائر، ونشأت هذه الطريقة بعدما سافر إلى مدينة فاس في سنة 1213هـ/1798م التي أسس بها زاويته، واتخذها مقر إقامته بصفة نهائية هناك سنة 1230هـ/ 1815م، وبهذه المدينة انخرط بها الكثير من المريدين من مختلف الشرائح الاجتماعية من علماء وفقهاء ووزراء وعامة الناس، ومن مدينة فاس انطلق إشعاع الطريقة ليعم باقي أنحاء المغرب من أقصاه إلى أقصاه، لمزيد من المعلومات يُنظر: - الأزمي أحمد: **الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19**، بحث لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، ج1، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، 1999-2000، من ص 13 إلى ص30.

(*) - هو مكان بين واد مينة وواد العبد جنوب مدينة غليزان، وهو ما يعرف حاليا بوادي الأبطال. لمزيد من المعلومات يُنظر: - الزياتي محمد بن يوسف: **المصدر السابق**، ص 208. وكذلك: بونقاب مختار: « إنتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري: 1802-1816م »، **مجلة المواقف**، العدد الثالث ديسمبر 2008م، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، من. ص 135 إلى ص142.

(1)- Caporal. B: **Op.cit**, p50.

(**) - هو الباي مصطفى بن عبد الله العجمي، رابع بايات بايلك الغرب، تولى سنة 1216هـ وعزل في سنة 1220هـ يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني، **المصدر السابق**، ص14. وكذلك:
- الزياتي محمد بن يوسف: **المصدر السابق**، ص207.

الشريف بجيشه أءبارهم يقتلون ويؤسرون ويسبون إلى قرب المعسكر، وبقيت محلة الباي بما فيها غنيمة للدرقاوي... وكان ذلك يوم الأحد ثالث ربيع الأول سنة 1219هـ⁽¹⁾ ولعل ما أءزن الباي هو مقتل كاتباه: الحاج أحمد بن هطال التلمساني وأبو عبد الله محمد الغزلاوي وفي نفس المعركة يقول حسن خوجة التركي في تأليفه "در الأعيان":

فرطاسة يومها ترى الجنود به
فالباي جاء بجيش لا نفاذ له
فلم يحقق له سعي ولا أمل
اليوم لابن الشريف عزّ فيه على
ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا
به يريد لقا العدو باغينا
بل جاء جنده صفر الكف باكينا
باي الأعجم لولا الدين لا ديننا⁽²⁾

كما قدم لنا كل من المؤرخين "مسلم بن عبد القادر" و "الزياني" عبارات تصف مدى الفاجعة، التي حلت بالباي، على إثر هذه الهزيمة القاسية التي تلقاها على يد الدرقاويين وذلك في قوله: "أمسى الباي ومخزنه في نكد، وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رعد، ودخل الباي للمعسكر على غير الحالة المعهودة وعساكره خلفه مطرودة..."⁽³⁾. وعلى إثر هذه الهزيمة المدوية، فرّ الباي مصطفى وأتباعه إلى مدينة معسكر، ثم خرج بعد ذلك إلى مدينة وهران، حيث أنه أمر بغلاق أبواب المدينة خلفه، وهذا ما أدى إلى نتائج وخيمة، كان من بينها سيطرة ابن الشريف على مدينة معسكر، الذي اتخذها مقراً لإقامته.⁽⁴⁾ وفي هذا الصدد يقول الزياني "... ثم دخل المعسكر وأطاعوه، محبة أو كرها بايعوه، فصيرها دار سكناه وجمع بها أهله وولده وخاصته، واتخذها محل مثواه"⁽⁵⁾، كما نادى في الناس يستتفرهم للجهاد ومبايعته للوقوف في وجه الظالمين الأتراك، عارضاً عليهم إسقاط الضرائب وغيرها التي كانت تفرض عليهم، وذلك في قوله: "أنا نرعت عنكم ما كنتم به من أداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الترك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا"⁽⁶⁾.

(1) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص ص 208 - 209.

(2) - ابن هطال أحمد التلمساني، المصدر السابق، ص 14.

(3) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 209.

(4) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 73. يُنظر كذلك:

- بونقاب مختار: المرجع السابق، ص ص 138 - 140.

(5) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 209.

(6) - خوجة حمدان: المصدر السابق، ص 139.

التركية، حيث أمر الباي "حسن" بإلقاء القبض عليهما وإبعادهما، ولهذه الأسباب وغيرها لم يعترف الأمير عبد القادر بشرعية الحكم التركي على الجزائر، خاصة وأنه ينتسب إلى الطريقة القادرية، وينحدر من أسرة يرتفع نسبها إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.⁽¹⁾ وعلى ضوء الأحداث المذكورة سابقا، يمكن القول أن العلاقة بين السلطة التركية الممثلة في الباي، والرعية الممثلة من طرف شيوخ الزوايا، قد عرفت توترا كبيرا، وإن ما كان سابقا من تواصل مرتبط بعدة أسباب، وهي على النحو الآتي:

- 1- الجهاد ضد التواجد الإسباني على السواحل خاصة بوهران، كان يمثل الورقة التي دعمت التحالف بين العثمانيين والعلماء، رغم السياسة الضريبية الثقيلة المفروضة على الأهالي⁽²⁾، وسياسة الحكام وعلاقتهم السطحية بالرعية، المبنية على إبعادهم وتهميشهم من المناصب الهامة والعليا في الحكم، إلا أن الجزائريين تحملوا هذا العبء لبقاء وهران في يد الإسبان، لكن بمجرد استرجاعها، لم يجد العلماء داع لهذا التحالف مع العثمانيين المستغلين للأهالي، لذا وبعد انتهاء الجهاد ضد الإسبان، استعدوا للجهاد ضد السلطة الظالمة.⁽³⁾
- 2- سياسة العثمانيين مع القوى والزعامات المحلية، وذلك باستمالة العناصر الدينية لمساعدتهم على بسط نفوذهم، عن طريق تقريبهم، ومنحهم الهدايا، وإعفائهم من الضرائب بل وصل الأمر إلى تخصيص نصيب من تلك الغنائم إلى الزعامات الدينية⁽⁴⁾.
- 3- إن العثمانيين فشلوا في وضع سياسة تمكنهم من الصمود أمام التحولات الاجتماعية المحتملة، لهذا فافتقارهم لهذه السياسة قلب عليهم الموازين بصورة فجائية، تحول معها موقف العلماء من موقف المؤيدين لهم للمحرضين ضدهم، خاصة بعد الحملات الجبائية التي أثقلت كاهل الرعية، ومست شتى المتعاملين مع السلطة كالمرابطين والطرق الصوفية الذين لم يستطيعوا تجاهل شكاوي الأهالي، ضد تعسف الحكام، خاصة وأنهم هم الممثلين للأهالي

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 57.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: دحمانى توفيق: النظام الضريبي في بابلك الغرب في أواخر العهد العثماني (1779-1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2004.

(3) - شدرى معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005، ص 198.

(4) - دحمانى توفيق: دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، ص 19.

وهو ما أدى إلى إعلانهم الثورة ضد السلطة، وبهذا فسياستهم الضريبية كانت سببا في تحول العلماء إلى صف المناهضين لهم.⁽¹⁾

4- حملت هذه الثورات شعارات دينية، وقد جاءت كرد فعل على إخلال العثمانيين بالمبادئ الدينية، التي تقتضي المساواة لا التمييز، الذي فرضه العثمانيون، فهذه الثورات كانت بمثابة ردود أفعال لتصرفات السلطة الجائرة، التي أثقلت كاهل السكان بالضرائب وبالتالي كانت تعبيرا لغضب الرعية عن الظروف الاجتماعية، التي كانت تعاني منها لا ضد السلطة بحد ذاتها.

5- لقد اتسمت هذه الثورات بنوع من التنظيم والانتشار الواسع، وهذا راجع إلى كون زعمائها كان لهم النفوذ الروحي والمادي في أوساط الرعية، وهو ما أدى إلى سرعة انتشارها في الأوساط الشعبية.

6- كانت هذه الثورات مدعومة من طرف قوى خارجية، ذات المصالح بالجزائر، فتونس أراد حاكمها إبعاد أنظار العثمانيين، وعدم تدخلهم في شؤونها الخاصة، أما المغاربة وبحكم نسبهم الشريف، كانوا يعتقدون أنهم أولى بالحكم من العثمانيين، لهذا اتخذوا الطرق الدينية كمنفذ لكسر الأطماع التوسعية للأتراك في المغرب، ومحاولة فرض حكمهم على الجزائر. أما الدول الأوروبية فقد كانت لها أغراض سياسية، لذا فبإثارتها الفتن كان بإمكانها الوصول إلى مساعيها.

7- ساهمت هذه الثورات في إحداث القطيعة النهائية بين السلطة والعلماء، فسقطت معها مكانة العثمانيين في نظر العامة، باعتبار القائمين عليها هم ممثلهم من فقهاء شيوخ طرق مرابطين، وهو ما أضعف نفوذهم خاصة بالأرياف، فأدى إلى ظهور حركات تمرد واسعة بين القبائل برفضها دفع الضرائب، مما اضطر السلطة إلى اتخاذ إجراءات تعسفية حتى ضد الموالين لها كالقادرية.

8- خلفت هذه الثورات أضرارا اقتصادية كبيرة، كما صادف هذا الواقع حدوث كوارث طبيعية، زادت من سوء الأوضاع المعيشية للسكان، كحدوث الجفاف بالشرق الجزائري، الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة، حتى وصل سعر القمح إلى عشرة ريالات للصاع

(1) - شكري معمر رشيدة: المرجع السابق، ص198.

والشعير بثمانية ريات للصاع، وقد عبرت الأشعار الشعبية عن هذه الحالة المتردية، التي أعقبت ثورة ابن الأحرش.⁽¹⁾

لقد أثرت هذه الفوضى التي حدثت بين السلطة التركية وشيوخ الزوايا على الاستقرار في المنطقة، وقد تطور الأمر إلى استخدام سياسة التعسف والانتقام، ولعل أصدق مثال على ذلك هي الأحداث التي جرت في عهد الباي "حسن بن موسى"^(*) آخر بايات بايلك الغرب فأهم ما ميّز سياسته هو العداء الشديد الذي ناصبه للعلماء ورجال الدين⁽²⁾، إذ يخبرنا "الزياني" أنه في عهده ساد العبث والظلم والاعتداء، لاسيما على العلماء وذلك في قوله: "...كثّر عبث هذا الباي وظلمه وتعديه واجترأه على العلماء والأولياء، فأكثر من سفك الدماء في العباد"⁽³⁾.

لقد تزامنت هذه الأحداث الداخلية في الجزائر مع متغيرات دولية خطيرة، منها بداية التآمر الأوربي على الجزائر، حيث نتج عنه احتلال فرنسا للجزائر العاصمة، والذي كان له تأثير كبير على بايلك الغرب، ففي 08 مارس 1831م عين الأمير عبد الرحمن المغربي محي الدين والد الأمير عبدالقادر خليفة على تلمسان، لإزالة الخلاف بين الحضر والكراغلة وكلفه السلطان بإرسال الحاج المعطي إلى المدينة ومحمد الشرقي إلى مليانة، لإدارة هاتين المدينتين ووضعهما تحت السلطة المغربية، ودام هذا الوضع إلى غاية ديسمبر 1831م، رغم معارضة الإدارة الفرنسية، وخلاصة القول أن سلطان المغرب تحكم في جزء من الجزائر عاماً وشهريين ومن هذا الجزء معسكر⁽⁴⁾.

(1) - شذري معمر رشيدة: المرجع السابق، ص ص 199 - 200 .

(*) - تولى إدارة بايلك الغرب في عام 1232هـ الموافق لـ 1817م، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ص 347.

(2) - غطاس عائشة: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 225.

(3) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 239.

(4) - حمت إسماعيل: الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابلت، ترجمة وتصدير زكي مبارك - محمد لخوجة ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص ص 32 - 33. يُنظر كذلك:

- محمد الحاج صادق: المرجع السابق، ص 36.

استطعنا من خلال تتبع التاريخ الكرونولوجي للمدينة والمنطقة التي تنتمي إليها معرفة تطورها التاريخي، فمنطقة معسكر عرفت الاستقرار البشري منذ فترة ما قبل التاريخ، ثم تواصل ذلك خلال الفترات التاريخية، ومن خلال استقراء أحداثها توصلنا إلى أن تأسيس المدينة كان لعامل عسكري فرضته الظروف السائدة خلال السيطرة الرومانية على المنطقة وبعد ذلك دخلت المدينة في طي النسيان ولم تقم لها قائمة إلى غاية الفترة الإسلامية، حيث استرجعت مكانتها خلال الفترة الزيانية، لكن بنظرة عسكرية للتحكم في القبائل المناهضة لحكمهم، وبعد ذلك تطورت تلك القلعة العسكرية إلى عاصمة لبايك الغرب في العهد العثماني، حيث وقع عليها الاختيار لظروف سياسية وعسكرية واقتصادية كان يعيشها البايك مرتبطة أساسا بالاحتلال الإسباني لبعض المدن وكذلك تمرد بعض القبائل على الحكم العثماني، وبعد هذه الفترة سقطت المدينة تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي، وعلى ضوء ما سبق هل تأثرت المدينة بهذه الأحداث وما مدى تأثير ذلك في تطور عمرانها وعمارتها؟

إذا كان التاريخ الكرونولوجي لمدينة معسكر واضحا نسبيا منذ تأسيسها، فإن المعرفة بمجالها العمراني تظل إلى حد الآن محدودة، نظرا إلى كون المصادر والأبحاث المعاصرة اهتمت أساسا بالأحداث السياسية التي شكلت تاريخ المدينة والمنطقة وبمؤهلاتها الاقتصادية خاصة منها الجانب الزراعي، بينما أهملت تنظيمها ونسيجها العمراني إلا بعض الإشارات القليلة التي لا تفي بالغرض. وعليه كيف كان النسيج العمراني لمدينة معسكر، وما هي مراحلها؟

1- مفهوم العمران الإسلامي:

العمران في المفهوم الخلدوني كلمة عامة وشاملة، مضمونها واسع ومناحيها مختلفة ومتنوعة، وهي تشمل في محتواها جميع النشاطات البشرية وحركية المجتمعات، المؤدية حتما إلى النمو الحضاري المحصّل للترف وكثرة النعم. أما العمران في مفهومنا الأثري فالمقصود به هو تلك الصورة المادية التخطيطية للمدينة ونسيجها المعماري المشكل لكيانها وهي الصورة المادية للعمران البشري، فيها تتجمع قوته الفكرية والروحية والمادية والإبداعية ومنها تتوزع إلى ما دونها حضارة وترفا وفكرا⁽¹⁾.

إن الحديث عن عمران المدن الإسلامية بمفهومه الواسع، يوجب علينا إعطاء نظرة تعريفية للمدينة⁽²⁾، إذ أنها تعتبر كبنية معمارية تخضع لعوامل جغرافية في علاقاتها بالمحيط، من ناحية المناخ وطبيعة الأرض⁽³⁾، وعوامل اقتصادية بحكم انتمائها لنمط إنتاج وعوامل اجتماعية نتيجة موضعها في النظام الاجتماعي، الذي تختص به التشكيلة الاجتماعية المحتوية لها، وارتباط هذه العوامل المختلفة يكتسب معنى يولد وحدة حضارية

(1) - لعرج عبد العزيز: « تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية»، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3- 4، جمادى الأولى والثانية 1432 الموافق لـ أبريل وماي 2011، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ص25.

(2) - لمزيد من المعلومات حول تعريف المدينة يُنظر: - عبد الأحد السبتي، حليلة فرحان: المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص ص7- 8.

(3) - مخلوطة رلى نبيه: علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأمريكية ببيروت، لبنان، 1998، ص21. يُنظر كذلك:

- Saidouni. M: **Eléments d'introduction à l'urbanisme, histoire, méthodologie, réglementation**, édition Casbah, Alger, 2000, p12.

وسامرا والقاهرة وفاس والزهاء ومراكش وتلمسان، والبعض الآخر له الصفة الدينية كالنجف وكربلاء، فازدهرت هذه المدن في ظل الحضارة الإسلامية، ووصلت سمعتها وشهرتها الحضارية إلى أبعد مما وصلت إليه المدن الحديثة، وصارت مضرب الأمثال في مظاهرها العمرانية وأنماطها الاجتماعية ونشاطاتها الثقافية والفنية⁽¹⁾. وانتشرت مميزاتها وخصائصها التخطيطية من إقليم إلى إقليم، ومن منطقة إلى منطقة، فأصبحت للمدينة الإسلامية شروط وقواعد في بناء خِطِّها، أو نسيجها العمراني، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بتعاليم الدين الإسلامي، الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

فعلى هذا الأساس، يقوم النسيج العمراني في بلد من البلدان وفق التقاليد الحضارية السائدة في ذلك البلد، والتي غالبا ما تكون صادقة إلى أبعد الحدود، كما أنها لا تكون إلا من خلال تفاعلات كثيرة، أهمها العوامل المشتركة في الحياة الاجتماعية والاستجابة للشروط الحضارية، التي يسير عليها المجتمع⁽²⁾ وفقا للتقاليد والنظم المتفق عليها في العمارة الإسلامية، سواء كان ذلك في الحواضر والأمصار الكبرى، أو في المدن الصغيرة ذات النسيج العمراني الجديد.

لفهم تخطيط المدن يجب معرفة التكوينات العمرانية، التي تشمل تلك العناصر الأساسية التي تحدد معالم المدينة والتي يخطط منها وإليها، فهي بمثابة الوحدات التكوينية للهيكل العمراني⁽³⁾، إذ يجب على المرء أن يسمي منشآتها الرئيسية، من حيث تكوينها وشكلها الخارجي، وبوجه خاص مواقع عناصرها الأساسية، كالجامع ودار الإمارة والقصر والسوق وأحياء السكنى⁽⁴⁾.

وضع **الماوردي** شروطا تحمل في مضمونها إرشادات وتوجيهات للقائم على هندسة المدن، وذلك في قوله: "... ثم على منشئ المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط، أحدهما: أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل

(1) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 17.

(2) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 69 وص 234.

(3) - سراج الدين إسماعيل: « المدينة العربية وتراثها الحضاري الإسلامي بين المكونات المادية والمقومات المعنوية » أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م، ص 38.

(4) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 219.

الوقوف إليه من غير تعسف، والثاني: تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها فيستضر المار بها، والثالث: أن يبني جامعا للصلوات في وسطه ليقرب على جميع أهله ويعم شوارعه بمساجده، والرابع: أن يقدر أسواقه بحسب كفايته، وفي مواضع حاجته والخامس: أن يميز خطط أهله، وقبائل ساكنيه، ولا يجمع بين أصداده متنافرين، ولا بين أجناس مختلفين، والسادس: إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه في أفسح أطرافه، وأطاف به جميع خواصه، ومن يكفيه من أمر أجناده، وفرق باقيهم في بقية أطرافه، ليكفوه من جميع جهاته، وخص أهله بالعدل، وجعل لوسطه لعوام أهله، ليكونوا مكنوفين بهم، وليقل ركوبه فيهم حتى لا يلين في أعينهم، والسابع: أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدوا، أو خافوا اغتيا لا حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، وجرر لمستوطنيه، والثامن: أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم والصنائع، ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا به، ويستغنوا عن غيرهم. فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فيه، فقد أدى حق مستوطنيه ولم يبق لهم إلا عليه إلا أن يسير فيهم بالسيرة الحسنى، ويأخذهم بالطريقة المثلى، وقد صار من أكمل الأمصار وطنا وأعدلها مسكنا"⁽¹⁾.

2- عوامل تطور عمران مدينة معسكر:

2-1- العامل الجغرافي:

إن تأثير البيئة على المدينة يستمد من علاقة الإنسان بالأرض وتكويناتها بالإضافة إلى المناخ وخصائصه، ويقترح جغرافيو المدن مصطلحين، يرون أنه تكمن فيهما الدوافع التي تسهم في ظهور المدن وتطورها، هما الموقع والموضع، فالموقع يعنى بدراسة علاقة المدينة بالوسط المحيط بها، وما يربطها بالأقاليم المجاورة، وبما وراء هذه الأقاليم من طرق ومواصلات، أما الموضع فهو ما يتميز به المكان الذي تقوم عليه المدينة، وهو تتميز يعنى بالصفات والخصائص الطبيعية، كتلك التي توفر للمدينة نوعا من الحماية تساعد في الدفاع عنها"⁽²⁾.

(1)- الماوردي: المصدر السابق، ص ص 209 - 213.

(2)- الحارثي عدنان محمد فايز: عمران القاهرة وخطتها في عهد صلاح الدين الأيوبي 564-589هـ / 1168-

1119م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص 49.

وتؤكد المصادر وجود عوامل بيئية ومناخية أثرت في اختيار المسلمين الأوائل لمواقع مدنها، إذ لم تكن الاعتبارات الأمنية أو الإدارية وحتى الاقتصادية، وحدها ذات الأولوية في ذلك الاختيار، وقد انعكست هذه الرؤيا على الفكر العمراني عند المسلمين⁽¹⁾، فابن خلدون يشير إلى أهمية الموقع عند تأسيس المدن، من حيث مناعتها الطبيعية، ولذلك يوصي باختيار المواقع التي تهيب وسائل دفاعية جيدة عن المدينة، كذلك يرى بأن موضع المدينة لا بد أن يكون في منطقة جيدة المناخ، وأنه ينبغي الابتعاد عن المناطق ذات المناخ الرديء لما في ذلك من اعتبارات صحية، وقد ضرب بمدينة قابس كمثال على ذلك. كما أن المواقع التي تتوفر من خلالها المرافق الأساسية كموارد المياه والمنتجات الزراعية هي من أفضل المواقع المناسبة لتأسيس المدن عليها، "وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم...، كما فعله العرب أول الإسلام في المدن التي اختطوها في العراق وإفريقية، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب ما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية"⁽²⁾.

إن استقراء تلك النصوص يكشف بشكل دقيق وثابت اعتبار العوامل المناخية والبيئية في اختيار الموقع، فتأثير العوامل الجغرافية على المدينة الإسلامية لم يرتبط بمرحلة تأسيس المدن ونشأتها فقط، بل كان لها دورها المؤثر خلال مرحلة تطورها ونموها، فالمدن الإسلامية التي أسست في المناطق الوفيرة الأمطار، ذات الطقس الدافئ، سمح بقيام الزراعة المنتجة، والتي ساهمت في حدوث تطورات عمرانية كبيرة⁽³⁾. فمدينة معسكر تأثرت في تخطيطها وعمرانها بتضاريس المنطقة، فوجود مصادر الماء وتوفر الأراضي الصالحة والمساعدة على البناء، ساهم إلى حد بعيد في توسع عمرانها، فرغم أن المدينة لم تعط لها أهمية كبيرة خلال الفترات القديمة والفترات الإسلامية، إلا أنها أوليت اهتماما كبيرا خلال الفترة العثمانية، حيث برزت قيمتها من ناحية موقعها الإستراتيجي، الذي يتوسط الطرق

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق: ص50.

(2) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة... المصدر السابق، ص331.

(3) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص51.

الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل. ومن أهم أغراضه العناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة، ويظهر من ذلك أهميته في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فهو مصدر العيش للزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية، كما أنه مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب ومعيشة العلماء والطلبة، وهذا ما ذكرته مختلف المصادر عن أوقاف المؤسسات الدينية والتعليمية في تلمسان، ومساهمتها في تطور العلم واستمرار طالبه.

ورغم الإهمال الذي كان يحدث لبعض مصادر الوقف بين الفينة والأخرى من سرقة ونهب، إلا أن الحكام والولاة كانوا يعيدونه عندما يعلمون بذلك، كما حدث في فترة حكم "الباي محمد الكبير"، الذي أعاد أوقاف المساجد والمدارس والزوايا، في عدة مدن منها تلمسان ومعسكر⁽¹⁾. وذلك ما أشار إليه ابن سحنون الراشدي في قوله: "شرع في إصلاح مساجد الجمعة فزاد في جامع السوق الصفيين المقدمين ثم نقض الجامع العتيق وأعاد بناءه وزاد فيه أكثره وأجرى الله الماء... وشرع في بناء مسجده العظيم مكتنفا بالمدرسة وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها لأجلها... كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناء وشكلا الذي بناه قربه... واشترى له حدائق ودورا وحوانيت حبسها عليه، وبنى له فرنا وغير ذلك بحيث تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه وتفضل منها فضلا تدخر له... وبنى مشهد الولي الصالح السيد محمد بن عودة... كما بنى مشهد الولي الأجل السيد أحمد بن يوسف دفين مليانة، وبنى بالمعسكر قناطر وسورا مشهورا وطباننتين للمدافع⁽²⁾، وأجرى الماء للمدينة الجديدة ولقرية الولي المجد السيد علي بن محمد، وبنى الفندق الجديد الرائق بالسوق القديم وزاده في أحباس الجامع الأكبر لما زاد فيه من الوظائف، وله في تلمسان ومستغانم والجزائر وغيرها مباني كثيرة وآثار في ذلك شهيرة بين مساجد ومشاهد ومدارس، بل وحتى في الفلوات الخالية والطرق المعطشة المقفرة لا يخلو سائر من رؤية آثاره ومآثره، وقد جدد المدرستين القديمتين بتلمسان... وتتبع أحباسهما التي استولت عليها أيدي المنتهبين، فوجد منها أراضي كثيرة وظفها كلها على حائزها"⁽³⁾.

(1) - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، من ص 227 إلى ص 231.

(2) - الراشدي بن سحنون محمد: المصدر السابق، من ص 127 إلى ص 132.

(3) - نفسه.

وهكذا تنتضح أهمية مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، فقد كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها في توظيفها في توسيع عمران المدن والحفاظ على المنشآت المعمارية الموجودة بها وكذلك في خدمة الدين والتعليم.

2-3- العامل السياسي والإداري:

يعتبر العامل السياسي والإداري من أهم العوامل المؤثرة في عمران المدن، فالإدارة تعد ضرورة أولية نشأت مع نشأة المجتمعات المستقرة، ومن أولى الوظائف التي مارستها المدينة، حيث اقترن تأسيس كثير من المدن بقيام الدولة ونشأتها، كما أنّ الأهمية السياسية لأي مدينة ترتبط بعدد من العناصر التي تظهر من خلالها وتعمل على ترسيخ الدور الذي تقوم به هذه المدينة كوظيفة⁽¹⁾، ويكشف تاريخ المدينة الإسلامية عن أثر العوامل السياسية في حياتها بصفة عامة، فتوجيه اختيار موقعها يرتبط بالظروف السياسية التي صاحبت إنشاء كل منهما، ويتضح ذلك من مراجعة العوامل التي وجهت إلى اختيار مواقع مدن الأمصار، ومقارنتها بالعوامل التي وجهت اختيار المدن الإسلامية الأخرى، والمقارنة بين الظروف التي وجهت اختيار موقع القيروان والتي وجهت إلى اختيار موقع المهديّة أو المرية كما أنّ الدوافع التي أدت إلى إنشاء المنصور مدينة بغداد ارتبطت بالرغبة في تأمين الدولة الناشئة، مما قد تتعرض له من مخاطر في الكوفة، واختيارها وسط العراق قريبة من الفرس بعيدة عن دمشق ذات الولاء الأموي كانت في الاعتبار⁽²⁾.

لقد كان لسياسة توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونموها سبب في تحول المدن العسكرية التي أنشأها الفاتحون الأولون إلى مراكز محلية للحكم وإدارة البلاد المفتوحة، فعندما ابتعدت حدود الدولة الإسلامية كثيرا عن الكوفة والبصرة والفسطاط وفقدت هذه المدن تدريجيا أهميتها العسكرية الأساسية، باعتبارها خطا للمواجهة مع الأعداء أو معسكرات رئيسية على الحدود. وبالرغم من ذلك فقد حافظت تلك المدن ولمدة طويلة على مكانتها، إذ تحولت الكوفة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما مارست البصرة والفسطاط والقيروان دورا إداريا متميزا طيلة العهد الأموي⁽³⁾.

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص55.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص275.

(3) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص55.

وقد يؤدي تبدل الحكومات أو تغيير الأسر الحاكمة إلى إنشاء مدن جديدة، تعبر به السلطة الجديدة التي وصلت لتوها إلى الحكم عن انتصارها ونشأتها وتعبيرا عن قطع تبعيتها السياسية لأي دولة كانت، مثلما حدث في بلاد المغرب، حيث قامت دول بأنظمة سياسية وعواصم جديدة، كمدينة سبلماسة عاصمة بنو مدرار وتيهرت عاصمة الرستميين وفاس عاصمة الأدارسة ورقادة عاصمة الأغالبة، ثم تبعتها بعد ذلك مدن أخرى كقلعة بني حماد التي أنشأها حماد بن بلكين لغرض الانفصال عن الدولة الزيرية، وإضافة على ما سبق نجد أنّ بعض المدن أنشأت بسبب تأزم الأوضاع السياسية وظهور التهديدات العسكرية كمدينة الناصرية التي أنشأها الناصر بن علناس، عندما أحس باقتراب الزحف الهلالي نحو حدود دولته، وكذلك مدينة المنصورة، التي كان الغرض من إنشائها هو حصار مدينة تلمسان وتأديب السلاطين الزيانيين المتحكمين في المنطقة من طرف المرينيين⁽¹⁾.

وقد استمرت هذه الإستراتيجية في تأسيس المدن مع العثمانيين، فالجزائر التي انضوت تحت حكمهم، عرفت ظهور مدن جديدة ارتبطت بعوامل سياسية وعسكرية، كمدينة معسكر، هذه المدينة التي فقدت مكانتها خلال العصور الوسطى ولم تعرف لها قائمة إلاّ خلال هذه الفترة، فالأوضاع السياسية والأمنية المتوترة التي كان يعيشها الغرب الجزائري بسبب الاحتلال الإسباني لمدينة وهران من جهة، وتمرد القبائل من جهة أخرى دفع العثمانيين إلى البحث عن حلول لهذه المعضلة، فكان لتأسيس مدينة معسكر الحل الأمثل للقضاء على هذه التهديدات، فموقعها الإستراتيجي بحكم وقوعها في منطقة داخلية محصنة طبيعيا وغير بعيدة عن مواقع القوات الإسبانية الرابضة في وهران، وكذلك عن مضارب القبائل الموالية لهم والمعادية للعثمانيين، دفع بهم إلى نقل عاصمة البايك من مازونة إليها وهي سياسة سليمة وهادفة، كان لها نتائج إيجابية، تتمثل في إعادة بناء مدينة وتطويرها وتوسيع عمرانها، وكذلك الاستفادة من خيراتها، لكي تصبح كقاعدة لتجهيز الجيوش وكمنطلق لتسيير الحملات العسكرية لتحرير مدينة وهران، وهو ما حدث بالفعل إذ تم دحر القوات الإسبانية - رغم أنّ ذلك تم على مرحلتين - كما ساعد موقع المدينة في القضاء على تمرد القبائل الثائرة ضد الحكم العثماني، خاصة منها التي كانت تتمركز في الجنوب

(1) - لرج عبد العزيز: مدينة المنصورة... المرجع السابق، ص34.

والتي تم السيطرة عليها، وبالتالي إحلال السلم والأمن والاستقرار في بايلك الغرب، وهو ما تحقق بالفعل رغم الانتكاسات التي واجهوها.

عرفت مدينة معسكر خلال الفترة العثمانية حركة عمرانية نشيطة، إذ شيّد فيها البايات الذين تعاقبوا على الحكم العديد من المنشآت، نذكر منها الجامع الكبير الذي شيّده الباي الحاج عصمان، ومنشآت الباي محمد الكبير التي تتمثل في الجامع المسمى باسمه والمكتبة الملحقة به والمدرسة المحمدية وحمام الأدهم ودار سكناه، ومرافق أخرى، وهذه الأعمال كان الغرض منها تخليد ذكراهم من جهة وكسب ثقة وحب الرعية لهم، وإرضاء ساداتهم في دار السلطان، حيث أنهم عمدوا على غرار سائر الحكام العثمانيين في مختلف البلاد التي كانت تابعة للخلافة العثمانية إلى تقليد ومحاكاة الطراز العثماني عمارة وفنا، ويظهر ذلك بوضوح تام سواء في التخطيط المعماري أو في الجانب الفني الزخرفي⁽¹⁾، كاستخدام القبة المركزية في تخطيط المساجد والمآذن القلمية، وكذلك استخدام بعض العناصر الزخرفية مثل زهرة اللاله والقرنفل، وفيما يأتي نوضح أهم المنشآت التي أسست من طرف البايات في مدينة معسكر خلال العهد العثماني:

المنشآت المنجزة	مدة الحكم	اسم الباي
- وضع النواة الأولى لمدينة معسكر من منشآت دينية ومدنية وعسكرية، لكن هذه المنشآت مجهولة المكان والزمان، لعدم وجود دلائل مادية وكتابية تشير إليها.	1098-1146هـ / 1686-1734م	مصطفى بوشلاغم المسراتي
- أول من بنى الأسوار حول المدينة.	(1146-1147هـ / 1734-1735م)	يوسف لحر المسراتي
- شيّد الجامع الكبير سنة 1160هـ / 1747م، الذي مازال قائما إلى غاية اليوم. - شيّد الدار والقبة الملحقة بالجامع الكبير في سنة 1167هـ / 1753م، لكنهما تعرضتا للتهديم في سنة 1962م. (تنظر الصورة رقم: 20)	1160-1170هـ / 1747-1756م	الحاج عثمان بن الحاج إبراهيم

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 183.

<p>- بنى برج العسكر أو الفندق في المدينة في شهر رمضان سنة 1176هـ الموافق لـ مارس 1763م.</p>	<p>1170 - 1185هـ / 1757 - 1771م</p>	<p>إبراهيم الملياني</p>
<p>- بنى جامع عين البيضاء والمدرسة المحمدية وحمّام الأدهم وفرنا في رحبة عين البيضاء سنة 1195هـ / 1780م .</p> <p>- أعاد بناء وتوسيع الجامع العتيق (الكبير) الذي بناه الباي الحاج عثمان.</p> <p>- وسّع جامع السوق وزاد فيه صفيين، كان يقع عند مدخل رحبة باب علي وقد هدم في فترة الاستقلال.</p> <p>- بنى دار سكناه في رحبة العرقوب إسماعيل، والتي مازالت قائمة إلى غاية اليوم.</p> <p>- ينسب إليه بناء مقر البايلك الذي مازال قائما إلى غاية اليوم.</p> <p>- تنسب إليه بناء المحكمة التي مازالت قائمة إلى غاية اليوم.</p> <p>- بنى الأسبلة والحوانيت في رحبة عين البيضاء.</p> <p>- بنى قناطرا وجسورا وعبد الطرقات وحصّن أسوار معسكر وطباننتين للمدافع.</p> <p>- جدد جامع قرية الكرط وجامع البرج في ضواحي المدينة.</p>	<p>1192 - 1213هـ / 1778 - 1799م</p>	<p>محمد بن عثمان الكبير</p>
<p>- أعاد بناء وتجديد وتوسيع زاوية أبي راس الناصري بالمدينة في سنة 1222هـ / 1808م.</p>	<p>الولاية الأولى: 1215 - 1220هـ / 1800 - 1805م الولاية الثانية: 1222هـ - 1808م)</p>	<p>الحاج مصطفى بن عبد الله العجمي</p>
<p>- قام بتبييض وترميم زاوية أبي راس الناصري في سنة 1227هـ / 1812م.</p>	<p>1222 - 1228هـ / 1808 - 1813م)</p>	<p>محمد بن عثمان الرقيق</p>

حسن بن موسى الباهي	(1232 - 1246هـ / 1831 - 1817م)	- بني الرّحبة لبيع الحبّ بالمدينة في سنة 1240هـ / 1824م. ⁽¹⁾ ودار إقامته المسماة على اسمه (تُنظر الصورة رقم 06)
--------------------	--------------------------------	--

وما يلاحظ على هذا النهج السياسي المتبع في عمران المدن الإسلامية، أنه ليس وليد هذه الفترة، وإنما يعود إلى فترة سابقة، حيث اعتبرت المنشآت المعمارية الحضارية الضخمة أحد الرموز الهامة المستخدمة كوسيلة من وسائل الدعاية السياسية، وقد عدّت من المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الحضاري، وهي السياسة التي اتبعها الأمويون، حيث أنهم ركزوا على إنشاء المشاريع المعمارية الضخمة التي تحقق ذلك، ويدخل في هذا الإطار إنشاء الجامع الأموي بدمشق، وقبة الصخرة في القدس، وإنشاء قصر الخلافة في دمشق⁽²⁾.

وتبدو أهمية المنشآت الحضارية في مجال الدعاية السياسية للتدليل على قوة الدولة وعظمتها وتواجدها حتى في البلدان القاصية البعيدة عن عاصمة الدولة. وهذه المنشآت المختلفة سواء أكانت داخل المدينة أم خارجها، تؤكد امتداد النفوذ العمراني للمدينة العاصمة على غيرها من المدن وعلى الطرق التي تربط بينها⁽³⁾.

2-4- العامل الاقتصادي:

لقد جعل الله الإنسان مفطوراً على العمل والسعي، وأمره بذلك، في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽⁴⁾، وعليه حدث تفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية المحيطة به، مما أدى إلى ظهور النشاط الاقتصادي.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28. وكذلك:

- ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي: المصدر السابق، ص 132.

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، من ص 280 إلى ص 368.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 280.

(3) - نفسه: ص 280.

(4) - سورة الملك: الآية 15.

(1) ويشكل العامل الاقتصادي دورا هاما في نشأة المدن وتطورها الحضري والعمراني وهو من الشروط الأساسية في تأسيس المدن، والتي أصر عليها المهتمون بهذا المجال كابن الربيع وابن خلدون وغيرهم كما ذكرناه سابقا، لذلك راح الحكام والسلطين يبحثون عن أحسن المواضع التي تتوفر على هذا الشرط، فبذلوا الجهود لتحقيقه من أجل أن تبقى المدينة صامدة في وجه كل التهديدات سواء كانت طبيعية أو عدائية، ويكشف المنصور - بعد ارتياد أكثر من موضع - عن ذلك بقوله: "أريد موقعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، لا تغلو عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد في المؤونة، فإني إن قمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار، وقلت المادة واشتدت المؤونة، وشق ذلك على الناس" وهذا التحديد يكشف عن منظور سياسي ناجح يحقق مصالح الدولة والعامّة الذين هم في النهاية العامل الأساسي في توسيع نطاق عمران عاصمته الجديدة وتأمينها⁽²⁾.

ومن دون شك فإن ازدهار اقتصاد المدينة له أثر بالغ في تطور عمرانها، حيث تكثرت بها الأسواق ويقصدها التجار من مختلف البلدان، مما يتطلب بناء عدة مرافق تجارية وعمومية لراحتهم، وكلما نشطت الحركة الاقتصادية كلما زادت الحاجة إلى بناء المرافق ومنه يزداد عمران المدينة ويتوسع. كما أن نشاط الحركة الاقتصادية بالمدن يجعلها محل اهتمام من طرف الناس على اختلاف مستوياتهم، فيُقبلون عليها للإقامة والسكن، وبالتالي فازدياد السكان بالمدينة يعطي دفعا قويا لتطوير اقتصادها وتوسع عمرانها، وربما تصبح المدينة بعد توافد السكان عليها بكثرة، غير قادرة على استيعابهم فتنشأ حولها الأرياض والضواحي⁽³⁾.

ويمكن إبراز الخطوط العريضة لاقتصاد الجزائر العثمانية بالتعرض للنشاطات الاقتصادية الرئيسية بالبلاد من زراعة وصناعة وتجارة، فمدينة معسكر خلال العهد العثماني، تميزت بازدهار هذه القطاعات الاقتصادية الثلاث، مما أدى إلى تطور عمرانها وتوسعه خارج أسوارها، وهو ما اصطلح عليه المؤرخون بالفحص، فنجد أنّ المدينة صارت قبلة للزوار والتجار والعلماء والطلبة، كما أنّ موقعها الاستراتيجي الذي يربطها مع مختلف

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص ص 58-59. يُنظر كذلك: ريمون أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص171.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ص 274 - 275.

(3) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص155.

المدن الكبرى، جعلها كحلقة وصل تمر عليها القوافل وتستريح فيها الوفود، وكل ذلك أضيف عليها الرخاء والتطور، وكل اقتصاد لا بد أن يتكون من ثلاث قطاعات رئيسية، إذ نقص قطاع منه اختل توازنه وصار مهددا بالانهيار إن لم يتم تحقيقه، ونجد أنّ هذه القطاعات الاقتصادية قد توفرت عليها مدينة معسكر، وهذا تفصيل لها.

1- الزراعة: يقول عنها ابن خلدون: "هي أقدم الصنائع لما لها أنها مَحَصَّة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت"⁽¹⁾، وبالتالي فإن هذا القطاع يعد من أقدم النشاطات الاقتصادية وأهمها على الإطلاق، فهي السبب الرئيسي في تحول الإنسان نحو حياة الاستقرار، ومن ثم إلى ظهور المدينة. وهو الأمر الذي دفع المهتمين بعمران المدن مثل ابن خلدون إلى الاهتمام بهذا القطاع وبذل الجهد في تحقيقه وذلك في قوله: "ومما يُراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم... ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله"⁽²⁾.

وتشتهر مدينة معسكر بأراضيها الشاسعة الخصبة، لاسيما سهولها الشاسعة، سواء تلك الممتدة إلى الشمال من جبال بني شقران كسهل الهبرة وسهل سمّار الممتد بين وادي يلل ووادي مينا، أو سهل غريس الواقع عند السفوح الجنوبية لجبال بني شقران، والذي يعتبر من أخصب سهول الجزائر وأوسعها بمساحة تبلغ 1185 كلم² أي نحو 118500 هكتار ويفصل بين المجموعتين سلسلة جبال بني شقران، التي لا تقل أهمية عن الأراضي السهلية حيث جمعت بين الزراعة السهلية والزراعة الجبلية⁽³⁾، هذه الإمكانيات الطبيعية وفرت للمنطقة مصادر زراعية متنوعة من حبوب وخضروات وفواكه خاصة من سهل غريس وزراعة القطن في سهل الهبرة والتي مارستها العائلات الأندلسية التي استقرت فيه، بينما ارتبطت زراعة الأشجار المثمرة بالمناطق الجبلية، وازدهرت البساتين بأراضي الفحوص

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة... المصدر السابق، ص 386.

(2) - نفسه: ص 331.

(3) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 52.

عمران البلد تكون جودة الصناعات للتأنيق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة" وأنّ رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها"⁽¹⁾.

وقد أصبحت الصناعة المتعددة في المدينة دليلا على تطورها ورقبيتها وشعارا على اختصاصها، مما يرفع ذلك الحرج على أهل المدينة وتيسر عليهم حاجاتهم إليها، كما يدفع غيرهم إلى طلبه وبالتالي تحدث شهرة الصناعة وتنتشر بين الأقاليم، وهو ما نصح به ابن خلدون في قوله: "وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المِصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المِصر والحاجة إليه"⁽²⁾، وقد كان المسلمون منذ أول ظهور لهم على وعي تام بضرورة امتهان الحرف والصناعات، فاحترفوا في صناعة النسيج والمعادن والفخار والخشب وانتشرت هذه الحرف وغيرها في سائر المدن الإسلامية⁽³⁾.

وقد عرفت مدينة معسكر هذه الصناعات المذكورة، فقد وفر الإنتاج الزراعي النباتي والحيواني مادة أولية، كالصوف والجلود والقطن لتنشيط فروع حرفية وصناعية متنوعة، بالإضافة إلى مواد طبيعية كالخشب والكبريت والجص والصلصال والمعادن والنباتات الصبغية (Garance) في منطقة القلعة⁽⁴⁾، والمواد الملونة مثل القرمزي (cochenille)⁽⁵⁾.

ولعل تبوؤها كعاصمة للبايلك شجع الحرفيين إلى التنقل إليها وسهل من عملية نقل الصناعات إليها، فأصبحت الطوائف الحرفية تشترك مع الأحياء السكنية في الكثير من الآليات الإدارية التي تحكمها، وذلك لاعتمادها على مفهوم المسؤولية الجماعية لكل طائفة على أفرادها. كما كانت هذه الطوائف مستقلة عن الإدارة العامة إلى حد ما فيما يخص شؤونها

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة... المصدر السابق، ص 381 - 382.

(2) - نفسه: ص 358.

(3) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 157.

(4) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 61.

(5) - محرز أمين: الجزائر في عهد الآغوات (1659 - 1671م)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 ص 195.

أفراد الحرفة الواحدة.

وقد كانت تعرف الطوائف الحرفية في الجزائر باسم الجماعات ورؤسائهم باسم المعلمين، حيث يقومون بإدارة الورشة وتنظيم العمل فيها بين العمال الذين يدخلون عادة في سن العاشرة أو الثانية عشر، والحقيقة أن هذا النظام من التشغيل والتحصيل على الحرفة كان شبه وراثي، ويخضع إلى انتقائية ومراقبة داخلية من أفراد الطائفة، ولذلك فلم يكن من الممكن لأي كان أن يفتح ورشة في حرفة معينة دون رضا أعضاء الطائفة.

وفي نفس سياق التدرج الإداري كان مجموع معلمي الحرفة يعينون رئيسا عليهم يدعى أمين الحرفة، يتميز عموما بتمكنه من الصنعة وسلوكه القويم، وكان دور الأمين ذي دورين أحدهما خارجي والآخر داخلي، فمن جهة كان ينسق مع السلطات المحلية فيما يخص جمع الضرائب، والمشاركة في شؤون المدينة العامة ويدافع عن حقوق أفراد طائفته، ومن جهة أخرى كان يمارس المراقبة على هؤلاء ويقضي في خصوماتهم⁽¹⁾. ومن أبرز الحرف التي كانت موجودة في معسكر نذكر:

- **الحرف النسيجية:** عرفت هذه الحرفة اهتماما غير مسبوق من طرف سكان المنطقة فوجود المواد الأولية ساعد كثيرا على ممارستها، فقد تميزت المدينة بصناعة البرانس السوداء ذات اللون الطبيعي المصنوع من القماش المقاوم والخفيف، ولونه الأسود الطبيعي مستخلص من الصوف السوداء غير المصبوغة، وقد كان يصنف إلى نوعين، نوع جيد يبلغ سعر الواحد منه المائة فرنك ونوع ثاني يتراوح سعره ما بين 35 و40 فرنكا. وقد ذاعت شهرته في كل أنحاء الإيالة حتى تجاوزت شهرتها حدود الجزائر، فأصبحت تُصدر إلى مصر وتركيا وهي جد مطلوبة في هذه الأسواق، كما اشتهرت أيضا بجودة أغطيتها الحمراء والمعاطف والأقمشة التي كان يستعملها الجيش، والمحازم المتنوعة والملونة بصباغ القرمز حيث كانت تصدر إلى المشرق⁽²⁾.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: ابن حموش أحمد مصطفى: المدينة والسلطة في الإسلام "تمودج الجزائر في العهد العثماني"، ج2، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1420هـ/1999م، ص166.

- غطاس عائشة: المرجع السابق، ص ص 142-143.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص62. يُنظر كذلك: لواليش فتيحة: المرجع السابق، ص79.

- الدباغة وصناعة الجلود:

ساهمت الثروة الحيوانية والنباتات الصبغية والقرمز الذي ينتج بكميات كبيرة في نواحي معسكر في تنشيط فروع أخرى من الحرف كالدباغة وصناعة الجلود والأحذية، كما هو الحال في قلعة بني راشد وفي أحياء سيدي علي محمد ورحبة عين البيضاء، حيث تم إنشاء أحواض لدباغة الجلود وعددا من الورشات الحرفية، حيث أشير في نص الأوقاف التي حبسها الباي محمد الكبير إلى دار الدباغ⁽²⁾، وكذلك أشار ابن سحنون الراشدي إلى دور وحوانيت حبسها الباي على الجامع المسمى باسمه⁽³⁾، إذ أنها كانت مخصصة لممارسة مختلف الأنشطة الحرفية وبيعها، كما انتظمت في رحبة عرقوب إسماعيل مختلف الأنشطة الحرفية المرتبطة بصناعة الجلود، كالأحذية وسروج الخيل والألجمة والمحافظ، بينما تجمعت الصناعات الصوفية والنسيج كالبُرانس والزرابي والحياك داخل مركز المدينة، بينما تركزت الصناعات الفخارية على ضفاف وادي عين السلطان في طرف المدينة⁽⁴⁾.

- صناعة الصابون والشمع:

ذكر الأسير "تيدينا" أنّ الشمع كان من الصناعات التي اشتهرت بها مدينة معسكر إذ كان يصدر إلى الدول الأوروبية عبر ميناء مستغانم⁽⁵⁾، كما اشتهرت أيضا مدينة القلعة بصناعة الصابون الأسود، وازداد الاهتمام بهذه الصناعة خاصة في عهد الباي محمد الكبير⁽⁶⁾.

(1) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 63. يُنظر كذلك: - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص 34.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: لواليش فتيحة: المرجع السابق، ص 143. وكذلك: عليو محمد: المرجع السابق، ص 65.

(3) - ابن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 128.

(4) - لمزيد من المعلومات يُنظر: لواليش فتيحة: المرجع السابق، ص 143. وكذلك: عليو محمد: المرجع السابق، ص 65.

(5) - عميرايو أحميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً)، د.ط، شركة دار

الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د.ت، ص ص 95 - 101 - 102.

(6) - Chentouf. T: Op.cit, p94.

أ- التجارة الداخلية:

يتم هذا النوع من التجارة داخل المدن أو بواسطة الأسواق الأسبوعية والسنوية في الأرياف، وقد عزز التبادل التجاري الداخلي عاملان هما: أولاً لتشجيع الحكومة لأسواق التجارة سعياً لغرض نفوذها على سكان الأرياف، عندما يختلفون إلى هذه الأسواق، وثانياً مرور القوافل عبر الأراضي الجزائرية نحو المشرق العربي أو بلاد السودان⁽¹⁾.

كانت منطقة معسكر قبل العهد العثماني سوقاً مشهورة عند التجار، فموقعها الاستراتيجي على الطريق الرئيسي الرابط بين قلعة بني راشد وتلمسان زاد من أهميتها التجارية، خاصة مع مطلع القرن الثامن عشر، بعدما اتخذها العثمانيون كعاصمة لبابك الغرب، لاسيما في عهد الباي محمد الكبير، الذي أدخل على المدينة إصلاحات كبيرة جعلتها مركز استقطاب للتجار والحرفيين والفلاحين، حيث تمحور نشاط السوق حول الدكاكين والمتاجر المنتشرة بين وسط المدينة ورحبة باب علي.

وقد أدت الروابط الموجودة بين مدينة معسكر والمناطق الريفية المجاورة لها، إلى انعقاد أسواقها بشكل يومي، أيام الجمعة والسبت والأحد، إضافة إلى سوقها الأسبوعي الذي كان ينتظم عند مدخل باب علي، تعرض فيه مختلف المنتجات، كالبارود وقشور الرمان لحاجة الدباغين إليها، ولوازم الحياكة والتوابل واللحوم⁽²⁾.

كما كان تجارها يعرضون الماشية والحبوب والزيت والعسل والقرمز، وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل⁽³⁾، فذلك يوحي إلينا أن المبادلات التجارية بينها وبين جيرانها كانت نشيطة جداً، ما رغب العثمانيين فيها، وعملوا على تأمين الطرق والقوافل التجارية المارة بها⁽⁴⁾.

ولكن البضائع المعروضة للبيع لم تقتصر على المنتجات الزراعية المذكورة فقط، بل كانت كذلك تروج مختلف الصنائع، سواء تلك التي كانت تصنع في الأرياف أو في المدن

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص 38.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص ص 67 - 68. يُنظر كذلك:

- Emerit. M, Op.cit, p90.

(3) - الوزان الحسن: المصدر السابق، ج2، ص ص 26-27. يُنظر كذلك: - محرز أمين: المرجع السابق، ص 195.

(4) - بن عمر حمدادو: أبو راس الناصري المعسكري وكتاباتة التاريخية (1115-1238هـ/1737-1823م)، مذكرة

مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2002-2003م، ص ص 05-06.

2-5- العامل البشري والاجتماعي:

على الرغم من أن الجغرافيين لم يتحدثوا عن المدينة كظاهرة اجتماعية من حيث نشأتها وتطورها، إلا أن هناك من يعد التكوين الاجتماعي للإنسان هو العامل الرئيسي لظهور المدينة، أو أنّ العامل الاجتماعي يعد جزءاً من عملية أدت في النهاية إلى ظهور المدينة، كما أنّ العلاقة بين الحياة الاجتماعية والمدينة علاقة عضوية، تؤثر بشكل أو بآخر على ظهور التمدن أو تطوره. ولقد راعى الفاتحون الأوائل طبيعة حياتهم الاجتماعية في مدنهم التي أسسوها، فالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، تم اختيار مواقعها بالقرب من الصحراء ومراعي الإبل، وكذلك روعي في تخطيط هذه المدن، أن تتوزع السكنى فيها على أسس اجتماعية.

ومن الواضح أنّ من النتائج المترتبة على نجاح حركة الفتح الإسلامي، وظهور "ديار الإسلام" ما قد أدى إلى إزالة الحدود والعقبات بين أجزاء الدولة الجديدة، وإلى تكثيف حركة الانتقال والهجرات فيما بين أجزائها، حتى أصبح بعض سكان مشرق العالم الإسلامي يعيشون في مغربه. ولاشك في أنّ مثل هذه الهجرات السكانية تؤثر بالتأكيد على أوضاع المدن القائمة، وهو تأثير يظهر على شكل أحياء جديدة، تلتحق أو تضاف إلى الرصيد العمراني للمدينة⁽¹⁾.

ومما يكشف عن إدراك أهمية العامل البشري في تعمير المدن ما اتجهت إليه سياسة الحكام نحو جذب الناس لتعميرها، بتشجيعهم على عمرانها وفق سياسات خاصة تُمكن من ذلك، وهو ما اتبعه الحجاج عند بناءه لمدينة واسط، واتبع كذلك في تعمير مدينة الرباط وذلك بتشجيع الصناع والمتقنين والتجار للاستقرار فيها بتخصيص مكافآت وعلاوات على ذلك. وتتكامل سياسة الاهتمام بالعنصر البشري وتشجيعه على عمران المدينة، بإتباع سياسات مختلفة كإقطاع الإقطاعات ودعم النشاطات الاقتصادية الخاصة، وتوفير الأمن مع التخطيط الجيد للمدينة، والذي يكفل المرافق الجيدة والإدارة الحسنة التي تحقق الأمن والعدل، فإذا ما تحقق هذا التكامل اندفع عمران المدينة وزادت الهجرة إليها، وإذا ما اختلت هذه السياسة اختل عمران المدينة⁽²⁾.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص 67 - 68.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 276.

لقد شهدت مدينة معسكر بعد تأسيسها من طرف الباي بوشلاغم نزوحا كبيرا إليها من المدينة القديمة- والتي نقصد بها مدينة الكرط- وكذلك من المناطق المجاورة لها، ومع مرور الوقت أصبحت عامرة بالسكان حتى ضاقت بهم المدينة، مما استدعى البحث عن مساحات أخرى لكي تستوعب سكانها، فظهرت خارج أسوارها تجمعات سكانية عرفت بالضواحي وكان سكانها يتكونون من عدة أجناس كما ذكرنا سابقا، فسكنها العرب الأشراف والأندلسيون والأتراك العثمانيون والكراغلة وجماعة البرانية من وادي ميزاب ومن الزوج واليهود، وقد ساهم هذا التنوع السكاني في تطوير عمران المدينة من حيث أنهم ساهموا بقدر كبير في خلق نشاطات مختلفة سواء تعلق ذلك بالبناء أو الحرف أو التجارة أو مهن حرة وخدمات.

وفيما يخص عدد سكان المدينة فإننا وجدنا صعوبة كبيرة في تحديدها، فبعض الأبحاث تذكر أنّ العدد تراوح ما بين 1500 و 1800 نسمة في عام 1741م⁽¹⁾، ويذكر سعيدوني أنّ عدد سكانها كان في حوالي عشرة آلاف نسمة⁽²⁾، وبلغ عددهم في سنة 1876م حوالي 4052 نسمة، وفي سنة 1892م بلغ عددهم 6801 نسمة⁽³⁾، وعند بحثنا في مختلف الوثائق الأرشيفية، خاصة منها التي تعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي، والمحفوظة في المركز الوطني للأرشيف بـ "إكس أو بروفانس بفرنسا"، استطعنا الحصول على بعض الإحصائيات منها: أنّ عدد سكان المدينة كان يتراوح ما بين 15000 و 20000 نسمة، أي ما يعادل 3400 عائلة، كانت تتوزع على مركز المدينة ورحابها، فمثلا باب علي كان يسكنها 2,422 نسمة⁽⁴⁾، لكن هذا العدد تناقص بشكل رهيب خلال فترة الاحتلال، إذ أنه نزل إلى حوالي 14646 نسمة حسب إحصاء سنة 1921م، وهو ما يدل على حملات التهجير وطرده السكان من المدينة نحو المناطق النائية⁽⁵⁾.

(1)- عليو محمد: المرجع السابق، ص88.

(2)- سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص42.

(3)- Djerbal. D, Op.cit, p71.

(4)- Rapport d'ensemble sur la colonisation... Op.cit, pp 3-4. Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

(5)- Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921, délivrer par Monsieur Martin. L, Maire de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

3- مراحل تطور عمران المدينة:

عند البحث في تأسيس مدينة معسكر ومعرفة نسيجها العمراني واجهتنا صعوبة كبيرة
في معرفة تخطيطها الأول، إذ لا نجد هناك مصدر يحدد لنا معالمها الأولى ويصف لنا
مراحل تكوينها، إلا بعض الإشارات السطحية حول نشأتها بصفة فعلية في عهد بني زيان
كما ذكرنا سابقا، ويؤكد محمد بن عبد القادر الجزائري هذه المعلومات في كتابه **تحفة الزائر
في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** وذلك في قوله: "... ومنها معسكر أصلها لبني زيان
ملوك تلمسان اتخذوها لإقامة عسكريهم في تخوم بلادهم، لوقايتها من أجلاب بني توجين
ومغراوة أعدائهم خلفا عن سلف" (3).

ولكن هذه المدينة العسكرية لم يبق لها أي أثر اليوم، إذ أننا نجهل الأسباب التي
أدت إلى زوالها، حيث لم تقم لها قائمة إلا في العهد العثماني وهذا حسب محمد بن عبد
القادر الجزائري الذي يقول في معرض حديثه عنها: "... وكان بناؤها من أخصاص إلى أن
استولت الدولة العلية على مدينة الجزائر، وتقدم حكامها في داخلية البلاد غربا وشرقا حتى
وصلوا إلى هذه البلدة الإخصاصية، وأعجبهم محلها، فشرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا

(1) - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ج1، ص331.

(2) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص..... يُنظر كذلك:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص350.

(3) - الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر... المصدر السابق، ص22.

خُطتها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر، وأطلقوا عليها اسمها القديم الذي كانت تعرف به من قبلهم، وجعلوها مركزا لحاكم تلك النواحي".

يبدو لنا أن هذا الوصف التاريخي للمدينة، يرجع إلى فترة حكم الباي "مصطفى بوشلاغم بن يوسف المسراتي"، الذي اتخذها كعاصمة لبايك الغرب في سنة 1098هـ/ 1690م، أين بدأت تظهر معالم المدينة مع مرور الوقت، خاصة في عهدة "الباي محمد بن عثمان الكردي الكبير"، الذي كان أعظمهم اهتماما بعمران مدينة معسكر، وكانت ولايته على إيالتها عام "ثلاث وتسعين ومائة وألف"، فبنى فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمة وأجرى إليها المياه وأدار عليها السور المشهور بالإتقان والإحكام، وقد خرب هذا السور الفرنسيين، وفي أيام الباي المذكور اشتهرت هذه المدينة وارتحل إليها التجار والعلماء⁽¹⁾.

وعلى ضوء ما سبق فإن النسيج العمراني لمدينة معسكر خضع لهذه الشروط، حيث تم وضع خُطتها وفقا لنمط المدن الإسلامية المعروف، وهو ما سنوضحه فيما يأتي:

- مركز المدينة ووسطها:

وهو يمثل الحي الإداري والسياسي والديني والثقافي والاقتصادي، وذلك وفقا للنشاطات التي تضطلع بها المؤسسات المنتمية لهذا الحي⁽²⁾، وتتمثل هذه المؤسسات فيما يأتي: (تُنظر الأشكال رقم: 01 و 04 و 05)

1- المسجد الجامع:

إن أول ما يبني في المدينة هو المسجد الجامع، الذي يسمى بالجامع الكبير في المركز، ولقد حكمت هذه الأهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة، باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، ومن حوله كانت توضع خُطط المدينة وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها⁽³⁾، لذلك يمكن اعتبار المسجد بمثابة المنشأة الأساسية في تخطيط المدن العربية الإسلامية⁽⁴⁾، حيث أن مكانته الدينية كمؤسسة متعددة الوظائف في المدينة من جهة وإتباعا

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر... المصدر السابق، ص 22.

(2) - لعرج عبد العزيز: «تلمسان...»، المرجع السابق، ص 26.

(3) - سعيد ناصف: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص 55.

(4) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 219.

لسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) من جهة أخرى، إذ كان مسجده بالمدينة المنورة في مقدمة الأعمال المعمارية التي قام بها⁽¹⁾.

يلاحظ من تتبع مكانة المسجد الجامع في المدينة على مر العصور الإسلامية أنه كان له في صدر الإسلام المكانة الأولى، التي تبلور حولها التكوين الطبيعي للمدينة باعتبار أن المسجد في ذلك الوقت هو مصدر التعاليم الإسلامية وملتقى الحاكم بتجمعات السكان⁽²⁾.

لم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكانا للصلاة فقط، بل أنه يعتبر كمركز سياسي واجتماعي وحضاري، فقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي فيه برجاله وسفرائه، وكثيرا ما انعقدت المحاكم في داخله، بالإضافة إلى أنه يعد كمركز حضاري للحركة الفكرية ودراسة القرآن الكريم وحفظه⁽³⁾، وكذلك للتعليم الديني والتدريس، إذ اتخذ العلماء كمركز لإعطاء الدروس والمواعظ الدينية قبل الصلاة أو بعدها⁽⁴⁾، حيث يجلس فيه الكبار والصغار من مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية في حلقات لتلاوة القرآن، أو للاستماع إلى درس الفقيه، أو لتحصيل العلوم والمعارف في جميع المستويات، وقد تطور المسجد أحيانا ليصبح جامعة مثل مسجد القيروان في تونس، والأزهر في مصر⁽⁵⁾.

يكون الجامع في كثير من الأحيان ملتقى أبناء الحي الواحد، بل وأبناء كل المدينة حيث يتداولون بشؤون المسلمين والإسلام، وقضايا الأمة والإمام، وهموم الدنيا والآخرة⁽⁶⁾ بالإضافة إلى أنه يعتبر كملجأ يلوذ إليه المتشردون والمظلومون، حيث يجدون فيه المأوى ويتلقون فيه الصدقات، فقد سارت مدن الأمصار الناشئة على هذا المنهج في اختيار موضع

(1) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص55.

(2) - إبراهيم عبد الباقي، التراث الحضاري في المدينة العربية، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ص46.

(3) - دارة الملك عبد العزيز، «العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م، ص39.

(4) - سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2010، ص32.

(5) - سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: المرجع السابق، ص33.

(6) - غالب عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، طبع المطبعة العربية، بيروت، 1408هـ-1988م، ص382-383.

متوسط في المدينة لإقامة المسجد الجامع، ومن أمثلة ذلك مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، حيث أصبح هذا الاتجاه قاعدة تقليدية في المدن الإسلامية بعد ذلك، كما في واسط وبغداد وفاس وغيرها⁽¹⁾، وذلك لتسهيل وصول الناس إليه من جميع الأماكن المحيطة به بمسافات متقاربة نوعا ما لأداء العبادة⁽²⁾، ويقع الجامع الكبير بمعسكر في نواة المدينة أين يلتقي السكان من مختلف الأحياء والشوارع والضواحي.

وعندما تولى الباي محمد الكبير أصبح لمدينة معسكر جامعان، إذ أن هذا الأخير شيدّ جامعا ثانيا في رحبة عين البيضاء، بعدما ضاقت المدينة بأهلها، وخلق نوعا من الفوضى والازدحام في مركزها، فارتأى الباي تحويل إدارته إلى موقع يقع في الجهة الشرقية من المدينة، فبنى مجموعة من المنشآت المعمارية، كان من بينها جامع عين البيضاء، الذي مازال قائما حتى اليوم، وهذا دليل واضح على النمو السكاني للمدينة، الأمر الذي دفع الباي إلى رفع الغبن والخرج على الناس في ممارسة شعائرهم الدينية وتخفيف الضغط على مركز المدينة.

2- دار الباي:

كان يطلق عليها كذلك دار الإمارة، وقد أوجبت الضرورة الوظيفية مجاورتها للمسجد الجامع، حيث كان بناء الرسول صلى الله عليه وسلم منزله ملاصقا للمسجد الجامع المثال الأول، الذي اتبع في إنشاء دار الإمارة مجاورة للمسجد في المدن الناشئة ثم ملاصقا له⁽³⁾ وقد كانت تبنى في موقع متميز ينم عن قوة الحاكم، التي جمعت بين السلطة الدينية والسلطة

(1) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 235.

(2) - عزب خالد: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، نشر كتب عربية، د.م، د.ت، ص 88.

(3) - يقال أن هذا التلاصق ارتبط بحادثتين تاريخيتين: الأولى في الكوفة سنة 17هـ، حين كان سعد بن أبي وقاص واليا عليها من قبل "عمر بن الخطاب" (ض)، إذ كان سعد يسكن دارا بينها وبين المسجد طريق، فتسلل أحد اللصوص إلى هذه الدار بعد أن ثقب جدارها، واستطاع أن يسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، فشكا سعد للخليفة فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقا للدار التي يسكنها.

أما الحادثة الثانية، فقد وقعت بالبصرة سنة 44هـ، حين كان "زياد بن أبيه" واليا عليها من قبل "معاوية بن أبي سفيان" إذ رأى "زياد" عندما كان يقوم بتجديد المسجد أنه ينبغي ألا يمر بين المصلين عند توجهه إلى المحراب، فحول دار الإمارة إلى قبلة المسجد، ليستطيع الوالي أن يخرج منها إلى الباب في جدار القبلة مباشرة. لمزيد من التفاصيل أنظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، ط1، مج 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 642.

- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 239.

الحكومية⁽¹⁾، كما يلاحظ أن موقعها منفرد عن أبنية الناس، فهناك فارق كبير من ناحية الواجهة والسعة والبعد⁽²⁾، مع توفير الأمن وذلك بعزلها عن مساكن العامة والأسواق⁽³⁾، وقد روعي هذا المخطط في مدينة معسكر، حسب المؤرخ "ابن هطال التلمساني" إذ أنه يقول في معرض حديثه عن أعمال الباي محمد الكبير: "... شيد في معسكر القصر الأنيق وجعله منزلا جميلا"، وهذا القصر المذكور ما زال قائما إلى غاية اليوم والذي يطلق عليه اليوم تسمية "دار المبايعة" بالقرب من المسجد الجامع، لكننا نجهل هل كان ملاصقا له أم لا، وذلك لكون أن الاحتلال الفرنسي شق مجموعة من الطرقات بين المنشأتين.

3- السوق:

لقد عرفت المدن الإسلامية وعلى غرار التنظيم السكني تنظيما للحياة الاقتصادية⁽⁴⁾ فكانت الشوارع التجارية أو الأسواق من أهم العناصر التخطيطية التي ارتبطت بالسكان في المدينة العربية، إذ لم يتأثر هذا النوع من النشاط الجماعي كثيرا بالبصمات الشخصية التي تركها الحكام الذين تتابعوا على المدينة العربية في العصور المختلفة⁽⁵⁾.

إن الحركة التجارية تتطلب إنشاء الأسواق العامة والمتخصصة، والأسواق من المرافق الأساسية في المدن الإسلامية، ويمكن تقسيم هذه الأسواق من الناحية التخطيطية إلى ثلاثة أنواع وهي:

أ- **الخانات والوكالات:** تعتبر أسواقا إقليمية يأتيها التجار من أماكن بعيدة، ويقومون في الفنادق التي تعلوها حتى ينتهوا من أعمالهم التجارية. والخانات والوكالات بهذه الصورة تعتبر أسواقا مقلدة، وتتكون من عدة أدوار، ففي الأدوار الأرضية مجموعة من المحلات التجارية والمخازن وحظائر للدواب. وتلتف هذه المحلات التجارية حول الفناء الداخلي للبناء.

(1) - إبراهيم عبد الباقي: المرجع السابق، ص 46.

(2) - حمدي محمود: «السبيل إلى الحفاظ على الخصائص الأصيلة للمدينة العربي»، أبحاث من ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م، ص 32.

(3) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 239.

(4) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص 165.

(5) - إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، د.ط، د.م. د.ت، ص 48.

ب- الشوارع التجارية أو الأسواق الممتدة: وهي تخدم وسط المدينة ثم تتفرع لتخدم الأحياء المختلفة المكونة لها، وتتكون من دور واحد من مجموعة من المحلات التجارية النوعية تعلوها مساكن أصحابها. وتفتح هذه المحلات على الشوارع التجارية المغطاة، كما في القدس أو الشوارع الشبه مغطاة كما في القاهرة ودمشق، وقد تفتح على الشوارع التجارية المفتوحة مثلما نجده في بغداد والقاهرة، وتعتبر الشوارع التجارية أو الأسواق الممتدة من أهم المظاهر التخطيطية في المدينة العربية، حيث يزداد معدل تردد السكان على المراكز التجارية فيها نظرا للمؤثرات الاجتماعية والمناخية التي يعيش فيها السكان، وهي في هذه الحالة تختلف عن الأسواق المركزة في المراكز التجارية للمدينة.

وحسب ما جاء في مذكرات "تيدينا" أن مدينة معسكر كانت تحتوي أماكن تجارية في الأروقة (porche)، حيث كان بعض العبيد يقومون بصنع الخمر من الزبيب وبييعونه مع اللحم والخبز⁽¹⁾.

ج- الأسواق النوعية والموسمية: وهي تقام في بعض الساحات داخل المدينة أو خارجها عند ملتقى طرق المواصلات، كما تعمل بصورة يومية أو موسمية تبعا لوفرة الأنواع المختلفة من السلع التجارية، وهي في هذا الوضع تعتبر أسواقا للجملة تمد الأسواق المحلية الممتدة على طول الشوارع التجارية داخل المدينة بأنواع السلع المختلفة⁽²⁾.

تخضع الأسواق والمراكز التجارية لشروط ومعايير محددة في إقامتها، تبعا لتطور النظم التجارية واتساع الحركة الاقتصادية، وما كان يعتري الأوضاع السياسية من عوامل الاستقرار والهدوء، أو القلاقل والاضطرابات⁽³⁾، مما كان ينعكس على حياة المدينة وسكانها وحكامها ثراء أو فقرا، فالسوق هو المركز التجاري الرئيسي، فقد حيب الإسلام التكسب والتجارة ولكنه في الوقت نفسه حذر المسلمين من العواقب الوخيمة، إذا ما أخلوا بالضوابط التي وضعها الدين للأسواق، ومنها الابتعاد عن المحرمات كالكذب والغش ونحوه، وكذلك أن يتعلم المرء أحكام التجارة التي يتعامل بها، حتى لا يأكل هو وأهله من الربا والحرام

(1) - عميرايوي أحمدية: المرجع السابق، ص 106.

(2) - إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري... المرجع السابق، ص 49.

(3) - نفسه: ص 27.

بالإضافة إلى تولي أعماله سادة الناس وأشرفهم وأصحاب الأدب والخلق والهمم العالية الصادقون، حتى لا يتلف السوق⁽¹⁾.

وتكمن أهمية السوق على أنه ملتقى التجار والحرفيين، ومنه يحصل السكان على حاجياتهم، ومن منظور الشرعية العمرانية الإسلامية، كانت الأسواق تحتل أهم شوارع المدينة وأكثرها جذبا للسكان في ذهابهم وإيابهم، وهي تأخذ النمط الطولي المتشعب أحيانا، الذي يبدأ من مركز المدينة - عند المسجد الجامع - ويمتد مع المحاور الرئيسية التي تتجه نحو مداخل أو مخارج المدينة⁽²⁾، وذلك بغية جذب الناس، باعتبار المسجد مكان التجمع وقلب المدينة النابض، ويحاذيه الإسكافيون والعطارون والنساخون وتحاذيه المكتبات والمدارس والقيسارية والنساجون أيضا، وقد كانت السوق مقسمة إلى عدة أقسام، فنجد أن أصحاب الحرفة الواحدة مجتمعون في قسم واحد من السوق⁽³⁾. وهذا طبعا يحتم تنظيم الحياة عامة داخل النسيج العمراني وتأطير الفرد في عمله خاصة، وقد ارتبط هذا التنظيم الفضائي بتعاليم الشريعة وأحكام الحسبة التي تجسد "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ولذلك فإن هذا التنظيم يمكن اعتباره صورة مادية واستجابة تقنية لهذه الأحكام⁽⁴⁾، وبالتالي كان التنظيم الحرفي في المدينة ظاهرة جديدة توحى بكثرة الحرف والطوائف الحرفية، التي بدأت تشغل الفراغات الداخلية والخارجية للمدينة وتحدد الخطط العمرانية بها، فكانت كل حرفة تقام في مكان معين كما تنص عليه القوانين الاجتماعية والاقتصادية والشرعية خاصة، ويعني هذا كله تقدم التجارة، وبالتالي تحضر الناس وتوسع العمران، الذي يتطلب خلق ساحات ورحبات داخل مركز المدينة، تخصص كل مساحة لسوق معين على هيئة شوارع، تقوم عليها الأروقة المعمدة وبمحاذاة المسجد الجامع وتوزع الحرف المزرية خارج الأبواب.

لقد أصبحت ظاهرة التقريب بين أصحاب الحرفة الواحدة أساسا لتخطيط الأسواق والمناطق التجارية لفائدتها الاقتصادية العظيمة. وبالإضافة إلى ذلك نجد هناك شرط تنظيمي مرتبط بتقدير الأسواق بكفايتها، الذي يدل على أمور كثيرة، منها: ألا تزيد عن

(1) - عزب خالد: التراث الحضاري والمعماري للمدن الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 69-70.

(2) - الكبيسي حمدان عبد المجيد: المرجع السابق، ص 166.

(3) - دارة الملك عبد العزيز: المرجع السابق، ص 39، يُنظر كذلك: - ريمون أندريه: المرجع السابق، ص 174.

(4) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص 173.

4- خَطُّ المدينة:

4-1- الأحياء السكنية والشواري والدروب: (تنظر الأشكال 4/3/2/1)

تعتبر الأحياء السكنية الصورة النموذجية للتركيبية الاجتماعية للمدينة⁽¹⁾، فعند الانتهاء من بناء المسجد ودار الإمارة، يتم بعد ذلك بناء المنازل والدور والحمامات والفنادق ومرافق عامة⁽²⁾، وغيرها من المباني المدنية المخصصة للرعية، وفق شروط حضارية تدعو إلى المحافظة والتزام الحشمة، وتوفير أسباب الحصانة والراحة للمنازل وللخلية السكنية، عن طريق عزل المساكن ووضعها بعيدة عن مسالك التنقل الكبرى، حتى يتوفر لأصحابها مزيدا من الأمن والراحة⁽³⁾، ولذلك بنيت مساكن المدينة بشكل أو بنمط النظام إلى بعضها البعض (مجمع سكني)، كأنها كتلة واحدة، تتخللها إتواءات الشوارع^(*) وضيقها وتشعبها إلى تفرعات كأنها شرايين قلب، ومنها التي تتوقف عند أحد المنازل وهذه تسمى الدرب⁽⁴⁾، إذ يقصد به الشوارع الواقعة بين الوحدات السكنية، وعادة ما يقطع الدرب أزقة لها أبواب تغلق عند غروب الشمس، وتفتح عليها أبواب المساكن المتقابلة أو المنحرفة عن بعضها، كما كان الدرب في أوله يغطي بغطاء أو سقف خشبي صلب متين، يقوى على حمل ما يعلوه من بناء، بحيث يشكل سقيفة يمكن العبور من أعلاها والاحتماء تحتها من تغيرات الطقس صيفا وشتاء⁽⁵⁾.

(1) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص156.

(2) - حنفي حسن: «فلسفة المكان»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م، ص32.

(3) - الدولاتي عبد العزيز: المدينة العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، مجلة نصف سنوية (مارس سبتمبر 1402هـ/1982م)، جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1401هـ/1981 ص ص154-155.

(*) - من خلال زيارتنا لمختلف المدن الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني، استنتجنا أنّ تخطيط الشوارع كان يناسب مرور الأشخاص والدواب والحمولات بلا عائق، إذ حدد عرضها بحوالي سبعة أذرع مما يعادل 3.36 م، وعلى هذا الأساس، كانت الحوانيت تختط من الباب إلى بداية الشارع، وهو نظام يخدم الصالح العام ويحفظ حقوقا محددة لأن الشارع ملكا للمسلمين.

(4) - عقاب محمد: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 25.

(5) - لعرج عبد العزيز: «تلمسان...»، المرجع السابق، ص31.

ولمعرفة خطط مدينة معسكر، اعتمدنا على ما ذكره المؤرخ "محمد بن عبد القادر الجزائري" عند وصفه لمدينة معسكر في قوله "... فشرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا خططها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر... فبنى فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمة وأجرى إليها المياه وأدار عليها السور المشهور بالإتقان والإحكام، وقد خرب هذا السور الفرنسييس" (1).

نستنتج من خلال هذا الوصف المهم لمساكن مدينة معسكر أنها بنيت وفق نمط المساكن الإسلامية والدور الموجودة في مدينة الجزائر، التي تتكون في العادة من طابق أو طابقين يتوسطها فناء مركزي كبير (2)، بالإضافة إلى الرواشن التي هي عبارة عن جوانب بارزة للغرف الرئيسية في المنزل، مما نتج عن ذلك التصاق المباني فيما بينها، وبالتالي تغطية الطرقات والممرات التي تسمى "السباط"، وهذا ما جعل المدينة تتأثر بالظروف المناخية والاجتماعية وعوامل الأمن والدفاع، ثم بمدى ارتباط السكان بمدنهم، ومن هذه العوامل ما يوضح الأسباب التي جعلت عرض الشوارع يقل كثيرا عن ارتفاع المباني على جانبيه، لتوفير أكثر كمية للظلال للمارة فيه (3)، وتلطيف الجو على المشاة أثناء فصل الصيف، نتيجة قصر المد الشمسي في الممرات الضيقة (4).

ومن ناحية أخرى نجد أن ضيق الشوارع، مرتبط بعدة عوامل وأسباب وهي على النحو الآتي:

- كان للنظام الاجتماعي القبلي أثر كبير، فقد كان أفراد القبيلة الواحدة يسكنون في جهة واحدة من المدينة، أي لهم مساحة خاصة بهم فيها، وكانت تجمع بينهم روابط قوية ففضلوا السكن قريبا من بعضهم، فكانوا يشيدون دورهم متجاورة متلاصقة، فنمت المدينة بذلك بطريقة غير نظامية.

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: المصدر السابق، ص22. يُنظر كذلك:

- Gorguos. A: **Op. cit**, p20.

(2) - ناصف سعيد: المرجع السابق، ص62، يُنظر كذلك: - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص25.

(3) - عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، طبع بمطابع أنترناسيونال برسي 1402هـ/1982م، ص 40.

(4) - Kaddache. M: **La casbah sous les turcs, documents Algériens**, N55, série culturelle 1951, p211.

المسدودة عن طريق بوابة، تقع على أول هذا الشارع الرئيسي، ويفصل كل حي عن الحي المجاور له حدود من الحوائط المشتركة لبيوت كل منهما⁽¹⁾.

وهذا ما نلاحظه في مدينة معسكر، إذ تتكون من ستة رحاب أو حومات حسب ما جاء في المصادر وهي: رحبة باب علي، رحبة العرقوب إسماعيل بسورها، رحبة سيدي علي محمد ورحبة عين البيضاء ورحبة الباب الشرقي ورحبة سيدي محمد أبي جلال ورحبة المدينة الداخلة وهي الواسطة بسورها ذي أدهام⁽²⁾. ومن حسن الحظ أننا وجدنا وصفا عاما لهذه الرحاب في تقرير للحاكم العام الفرنسي للمدينة، مرفوع إلى المحافظ العام لمقاطعة وهران ومؤرخ بتاريخ 18 ديسمبر 1852م، إذ أنه يعتبر كمصدر مهم يتضمن معلومات قيّمة قبل تغيير عمرانها وعمارتها وتحويلها إلى مستوطنة فرنسية.

1- رحبة العرقوب إسماعيل: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، حيث يفصلها عنها وادي سيدي تودمان، سميت بهذا الاسم نسبة إلى السيد "إسماعيل بن البشير البحتاوي"، آغا الباي إبراهيم الملياني، لكونه أول ما بنا بها في المشتهر حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزارعي، لكننا لا نعرف هذه المنشأة التي بناها لعدم ذكر اسمها.

كانت تحتوي هذه الرحبة على مخيم لفرسان البايات، بالإضافة إلى أنها كانت محاطة بأسوار حصينة وعالية يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار تتخللها أربعة أبواب، ويعلو الباب الغربي منها منصة تسع لقطعتي مدفعية، وهي مندثرة حاليا - أي خلال فترة الاحتلال - كما أنّ هذه الرحبة تحتوي على مساكن فخمة وأشجار جميلة. والمقصود بها دار الباي محمد الكبير والحديقة الغناء التي كانت تشرف عليها، حيث أنها مازالت موجودة إلى غاية اليوم.

2- رحبة باب علي: تقع على بعد 300م خارج أسوار المدينة في الجهة الشمالية، وهي من الرحاب المهمة الكثيرة السكان، وقد قصفت بالمدافع خلال اقتحامها من طرف الفرنسيين، الأمر الذي أدى إلى احتراقها ومصرع كثير من سكانها خلال فترة الاحتلال، حيث لم يبق منهم إلا حوالي 2,422 نسمة، وبعد ذلك استبدلت دورها بالأكواخ والمساكن البدائية، مما

(1) - ريمون أندريه: المرجع السابق، ص102.

(2) - المزارعي الآغا بن عودة: المرجع السابق، ج1، ص357.

شوه ذلك منظر هذه الرحبة⁽¹⁾. لكن إلى غاية اليوم نجد بعض الدروب والأزقة مازالت على حالتها الأصلية، وهو ما يعطينا فكرة عما كانت عليه دروب الرحبات الأخرى في المدينة. (تُنظر الصورتان 4/3)

3- **رحبة سيدي محمد أبي جلال:** تقع في الجهة الغربية من المدينة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى العالم والفقير سيدي محمد أبي جلال، الذي كان يعتبر قدوة لأهل الرحبة، أين عاش وتعايش مع النخب من أهل المدينة، ولا يزال ضريحه علما عليها إلى غاية الوقت الحالي. لقد كانت هذه الرحبة تحتوي على بعض الدور الجميلة والتي هدمت عندما اقتحمت المدينة من طرف الجيش الفرنسي⁽²⁾، وكذلك على مطاحن للحبوب تتغذى من مياه وادي تودمان⁽³⁾.

4- **رحبة سيدي علي محمد:** توجد في الجهة الجنوبية من المدينة، حيث أنها تحتوي على باب يربطها بوسط المدينة.

5- **رحبة عين البيضاء:** تقع في الجهة الشرقية من المدينة، وقد عرفت اهتماما كبيرا خلال فترة حكم الباي محمد الكبير، إذ أنه عمّرها بمختلف المنشآت المعمارية، خاصة منها الجامع الذي أخذ اسمه وحمّام الأدهم والمدرسة المحمدية، التي كانت قبلة للعلماء والطلبة.

6- **رحبة الباب الشرقي:** اختفت مباني هذه الرحبة وحلت محلها مباني المستوطنين، ولم نجد أي إشارة عن الحالة التي كانت عليها.

7- **رحبة المدينة الداخلة:** والمقصود بها وسط المدينة، حيث كانت محاصنة بأسوار ضخمة ومرتفعة وتتصل مع الرحاب الأخرى بواسطة أبواب تفتح نهارا وتغلق ليلا، نظرا لاحتوائها على مراكز إدارية حساسة كمقر البايلك وغيرها.

لقد ارتبط الحي السكني بمرافق عامة تشغل حيزا وسطا فيه تقوم على خدمته، بل نجد لكل حي مرافقه العامة المتصلة به مباشرة والملازمة له، ولكنها أيضا تتصل بالحي الإنتاجي

(1)- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André**, Mascara le 18 décembre 1852, p2, Service Archives nationales d'outre-mer, Aix En Provence, France.

(2)- **Rapport d'ensemble sur la colonisation...**, Op.cit, pp2-3.

(3)- بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص ص 37-38.

5-1- الأسوار:

كانت مدينة معسكر محاطة بأسوار عالية في كل جوانبها، حسب وصف الرحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" في قوله عنها: "منظر معسكر من بعيد يثير في النفس انطباعا قويا، فهي محاطة بأسوار تعلوها أشجار ترتفع فوقها ثمانية مواقع بارزة وخمسة بروج، ولها خمسة أبواب، وتقع فوق صخرتين يشق طرفه بينهما وادي تودمان بمياهه الفضية"⁽¹⁾، وهذا دليل واضح من شاهد عيان على حصانتها.

ويعتبر الباي "يوسف لحر" أول من بنى الأسوار حول المدينة، ثم قام الباي محمد الكبير بتحسينها، حسب قول "أحمد بن هطال التلمساني" في رحلته: "...وبنى قناطر وجسورا وعبد الطرقات وحصّن أسوار معسكر"⁽²⁾، وكذلك حسب ما ذكره: "ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي" في كتابه "الثغر الجماني" "وبنى بالمعسكر قناطر وسورا مشهورا وطبانتين للمدافع..."⁽³⁾، هذا وقد أدت هذه الأسوار دورا هاما في تاريخ المدينة لضمان أمنها والتصدي لغارات وهجومات الأعداء، فقد كان ارتفاعها ما بين ستة وتسعة أمتار وسمكها يتراوح ما بين 1.50 م و 1.80 م ومادة بنائها تتميز بالصلابة، استعملت الكتل الحجرية الضخمة في تشييدها، ويبلغ محيطها حوالي ثلاثة كيلومترات، وقد بقيت سدا منيعا أحبط الكثير من محاولات الدخول إلى المدينة، وكانت تتخللها خمسة أبراج حسب وصف "مالستان" وطبانتين للمدافع⁽⁴⁾، ومجموعة من المزاغل وفتحات واسعة من الداخل وضيقة من الخارج كانت تستعمل لرمي البارود، وتُمكن المدافعين من ضرب عدوهم من مستويات متعددة وفي اتجاهات مختلفة، وقد تعرضت هذه الأسوار إلى التهديم والتخريب، وحاليا لم يبق منها غير الأقسام الجنوبية والشرقية والغربية بأجزاء متقطعة، والتي قامت السلطات المحلية بترميمها في السنوات الأخيرة. (تُنظر الأشكال 1/ 2/ 3/ 4/ 5) و (الصور رقم 6/7/8/9/10)

(1) - مالستان هانريش فون: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج2، الجزائر، 1976، ص74.

(2) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص28.

(3) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص132.

(4) - مالستان هانريش فون: المصدر السابق، ص74، يُنظر كذلك: - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص37-38.

- Rapport d'ensemble sur la colonisation..., Op.cit, p2.

5-2- الأبواب:

للدخول إلى المدينة يجب اجتياز ستة أبواب رئيسية وهي⁽¹⁾: باب وهران، باب مستغانم، باب تيارت، الباب الشرقي، باب سيدي علي محمد، باب علي⁽²⁾، هذا الأخير الذي يعد من أهمها، حيث كانت تعلق عليه جماجم الذين تم تنفيذ حكم الإعدام في حقهم خلال الحكم العثماني، وكان وادي "تودمان" يقسم المدينة إلى شطرين يستفيدان من مياهه، وللتذكير فإن المدينة المطوقة بالأسوار ذات الأبواب الستة، كانت توجد على الضفة الشرقية لهذا الوادي. (تُنظر الأشكال 1/2/3/4/5) و(الصور رقم 11/12/13/14/15)

وفي فترة الاحتلال طرأ على المدينة تغيير جذري، حيث أن الجيش الفرنسي طمس وهدم معظم مبانيها وغيّر شوارعها ووضعوا لها تخطيطا حسب ذوقهم، وجعلوا منها حاضرة لهم على طراز مدنهم في جنوب فرنسا، هذه العملية الجراحية لم تبق إلا على بعض الدور في حي باب علي بالجزء الغربي من المدينة، إذ لاحظنا فيها وجود بعض الأزقة الملتوية منها ما هو نافذ وبعضها غير نافذ، وكذلك بعض المعالم في وسط المدينة كدار الباي أو ما يعرف حاليا بدار قيادة الأمير عبد القادر، والجامع الكبير وحمّام الأدهم الذي يجاوره، وجامع عين البيضاء في شرق المدينة، بالإضافة على بعض الزوايا والمدارس والأضرحة.

(1) - مالستان هانريش فون: المصدر السابق، ص 27.

(2) - بقيت هذه الأبواب على حالتها الأصلية إلى نهاية الاحتلال الفرنسي، ولكن بعد الاستقلال هدمت وأزيلت لأسباب غير معروفة، مما أفقد المدينة أحد معالمها الحضارية التي تعود إلى الفترة العثمانية، ولحسن الحظ عثرنا على صور، استطعنا من خلالها معرفة أوصافها.

بعد دراسة عمران مدينة معسكر بالاعتماد على المعلومات القليلة من المصادر والتقارير والخرائط الفرنسية خلال فترة الاحتلال، وكذلك الأبحاث التي اهتمت ببعض معالمها التي تعود إلى الفترة العثمانية، بالإضافة إلى الوقوف على توزيع المعالم الأثرية الباقية في نسيجها الحالي، استنتجنا أنها خضعت لنظام ونمط معماري ارتبط بالقاعدة الإسلامية للبنيان "لا ضرر ولا ضرار"، كما تأثر بعدة عوامل مختلفة خاصة منها الجانب السياسي المرتبط بالأمن والاستقرار وكذلك العامل الاقتصادي المتصل بالحالة المعيشية، زيادة على العامل الاجتماعي الذي يتمثل في الكثافة السكانية التي تساهم في توسيع عمران المدينة.

وكخلاصة للقول فرغم كل المعلومات المذكورة عن عمران هذه المدينة فإنها تبقى شحيحة، كما أن التغييرات التي طرأت عليها خلال حقبة الاحتلال الفرنسي غيرت من صورة نسيجها العمراني، بسبب أعمال الهدم والطمس لمعظم معالمها، فتحوّلت من مدينة إسلامية بمظهر عثماني إلى مدينة عصرية تشبه المدن الفرنسية والأوروبية، لذلك وجب عمل حفريات أثرية في المواقع التي أشارت إليها المصادر المتزامنة مع الفترة العثمانية وتتبع الأشغال التي تقام فيها من أجل إعادة تصورها وإعطاء صورتها الحقيقية.



:i ÑBAÁn 'A
j,n "¿Ò ÁF•Ò ÍBÀ"•AP Fr Ä•A



ò ÌÄË×AP Fr ÄA:¾ËPA½v °×A

- ©;Ä tA -1
- p iÄ•A -2
- BÄËA -3
- ò YjyPA -4

تحتل المنشآت الدينية المقام الأسمى بين العمائر الإسلامية، سواء من حيث كثرة العدد ودرجة الحفظ وجمال الزخرف ومهارة الصنعة ومدى الفخامة، وتنقسم هذه المنشآت إلى أنواع عدة منها: المساجد والمدارس والخانقاوات (الزوايا) والأضرحة، فضلا عن الأريطة التي تجمع بين الوظيفة الدينية والوظيفة الحربية، غير أنّ أشرف العمائر الدينية في الإسلام هي المساجد⁽¹⁾، التي أوليت اهتماما خاصا من قبل المسلمين، ثم تأتي المنشآت الأخرى حسب حاجة المجتمع إليها، وتزخر مدينة معسكر على غرار المدن الجزائرية الأخرى بعدد معتبر من هذه المنشآت وفيما يأتي تفصيل لكل العمائر الدينية.

1- الجوامع:

1-1- تعريف المسجد الجامع:

أ- **لغة:** مَسْجِدٌ، جمع مَسَاجِدٍ: كل مكان يسجد فيه ويتعبد⁽²⁾، ومعناه حول فعل سَجَدَ، أي خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض. والاسم السِجْدَةُ بكسر السين، والسَّجَادَةُ الخمرَةُ، والمسجد بفتح الجيم جبهة الرجل حين يصيبه أثر السجود⁽³⁾. وجاء في لسان العرب سَجَدَ، يَسْجُدُ، سُجُودًا، وضع جبهته بالأرض. وقوم سُجَدَ، سُجُودَ والمسجد الذي يسجد فيه، والمسجدة، السجادة والخمرة المسجود عليه. والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه ندب السجود. وقال الليث عن ابن منظور: "السجود مواضعه من الجسد والأرض مساجد واحدها مسجد" وقال: "المسجد اسم جامع، حيث سجد عليه وفيه. فأما المسجد من الأرض فموضع السجود نفسه"⁽⁴⁾.

فهو مَفْعَلٌ بالكسر اسم لمكان السجود، وبالفتح اسم للمصدر، وقد روي: المسجد والمسجد، والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود، ويقال مسيد بفتح الميم حكاة غير واحد فتحصلنا فيه على ثلاث لغات، والمسجد بكسر الميم: الخُمرة، وهي الحصير

(1) - الباشا حسن: الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979م، ص 91.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 381.

(3) - العسكر عبد الله بن محمد: أحكام حضور المسجد، السعودية، د.ط، ص 6، يُنظر كذلك: - نوبي محمد حسن: عمارة المسجد في ضوء القرآن والسنة، ط 1، دار نهضة الشريف للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 13.

(4) - ابن منظور جمال الدين الأنصاري: لسان العرب، تقديم عبد الله العلياني، إعداد وتصنيف، يوسف خياط، مج 2، دار لسان العرب، بيروت، ص ص 98-99.

لغير ذلك،⁽¹⁾ لذلك ورد ذكر المساجد في القرآن الكريم مقترنا بالصلاة وعبادة الله بعدة أسماء نذكر منها قوله سبحانه وتعالى: "عَابِدُوا اللَّهَ حُنُوفًا وَذِكْرًا كَثِيرًا" ، وقال العلماء المراد بالبيوت هنا المساجد.

ولم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على العبادة والمكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة، بل كان مركزا للحكم ولإدارة شؤون الدولة أو الولاية، وكان المنبر أشبه بالعرش، يُلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة، ويلقي فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم، وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شؤون الدولة⁽³⁾، بالإضافة إلى الدعوة والتشاور في ذلك كله، كما كان محل القضاء والإفتاء والعلم والإعلام وغير ذلك من أمور الدين والدولة⁽⁴⁾، فكان أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقهاء واللغة وغيرها من العلوم، فانصرف بعض فقهاء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، حيث بنى الصُّفَّة^(*) وأصبح كثير من المساجد الجامعة مراكز هامة للحركة العلمية، فقد اتخذ علماء التفسير والحديث مقرا لهم، وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، وهو المكان الذي اتخذته القضاة لعقد جلساتهم، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء. وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات. على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تُدرّس فيها العلوم الدينية، ويقوم بذلك أئمة المساجد.

(1) - الزركشي: المصدر السابق، ص ص 27 - 28.

(2) - قرآن كريم: سورة النور، الآية: 36.

(3) - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 4، ط 7، الجيزة، 1964، ص 422.

(4) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 109.

(*) - الصُّفَّة: ظهرت في بداية الأمر بالمسجد النبوي، وهي مكان تصفف المسلمين للصلاة في جهة بيت المقدس قبل تحول القبلة إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة في السنة العاشرة للهجرة، وعند تحول القبلة إلى الكعبة في الجهة المقابلة ظل هذا المكان وخصص لنزول فقهاء المسلمين من المهاجرين إلى المدينة من مختلف المناطق من لا دار لديه فيها، ولم يكن بمقدور الأنصار استضافته لكثرة ما لديه من المسلمين المهاجرين، وقد حبسوا أنفسهم لطلب العلم وهي مكان مظلل في شمال المسجد، يأوي إليه فقهاء المسلمين. يُنظر: - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 431.

كان جامعا عمرو بن العاص وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزا هاما للثقافة والعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي، وفي بلاد المغرب والأندلس كان جامع القيروان والزيتونة ثم جامع القرويين في فاس وجامع قلعة بني حماد وبجاية بالجزائر من المعاهد التي أصبحت مراكز هامة للثقافة الإسلامية، كما أصبحت هذه المعاهد جامعات تقوم شاهدا على تطور التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وشروط التعيين في وظائف التدريس، وفي هذه الجامعة الإسلامية وُضع أساس التقاليد الجامعية التي تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية، كما جذبت جوامع قرطبة الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية.⁽¹⁾

ولبناء المساجد فضل كبير، حسبما روى أهل الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في فضلها وأحكامها، نذكر منها على سبيل المثال: "من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة"⁽²⁾. وهذا ما أدى بالمسلمين من ذوي أصحاب المال والجاه إلى التسابق نحو بناء المساجد لتكون صدقة جارية تخلد ذكراهم، مثلما فعلت فاطمة القروية عند بنائها جامع القرويين بمدينة فاس.

ج- من الناحية المعمارية:

لقد أجمع المؤرخون وكتاب السير على أن أول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قُباء، الذي يقال له "مسجد التقوى"، ثم المسجد النبوي من بعده، إلا أن هذا الأخير ينفرد بالدور القيادي على المساجد جميعها⁽³⁾، وهذا لعدة اعتبارات من بينها أنه أصبح نواة للعمارة الدينية الإسلامية، فقد اتخذ تخطيطه كنموذج لتخطيط الجوامع في كل المدن الإسلامية حيث كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن وسقفه من الجريد، وعمده

(1) - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص 422 - 423.

(2) - مؤنس حسين: المساجد، عالم المعرفة، عدد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1981 ص 21.

(3) - الشاذلي علي محمد: دور المساجد التاريخي في التثقيف العلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة (د.ت)، ص 14.

خشب النخل⁽¹⁾، ثم أعاد بناؤه الخليفة عمر بن الخطاب (ض) حسب قول أبو سعيد الخدري: "وأمر عمر ببناء المسجد وقال: أَكُنْ النَّاسُ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمَّرَ أَوْ تُصَفَّرَ فَتَفْتَنَ النَّاسَ"⁽²⁾، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على تأثير القيمة الدينية على القيمة المعمارية، وارتباطهما مع بعضهما ارتباطاً وثيقاً.

فالصورة الأولى التي ظهر عليها المسجد النبوي كانت بسيطة من ناحية الشكل والمظهر، وذلك يعود إلى عدة عوامل منها التعاليم الدينية التي تحث على البساطة والتواضع والتقشف. فطبيعة المساجد نفسها تتنافى مع الضخامة والإسراف في الزينة لأننا نعرف أن المسجد ينبغي أن تتناسب هيئته مع بساطة الإسلام وصفائه، فالإسلام سهل يسر واضح وعبادته كلها بسيطة واضحة لا غموض فيها، والسبب في ذلك أن المساجد أقيمت للصلاة وهي مواضع مطهرة، مصنونة عن الطريق، يقف فيها العبد بين يدي خالقه ليؤدي صلاته.

لقد حُطَّ المسجد النبوي بما يناسب إقامة شعائر الصلاة، فضلا عن باقي الوظائف التي سبقت الإشارة إليها، ومن ثمَّ صار تصميمه أساساً لتصميم المساجد الجامعة في الأقطار الإسلامية ولاسيما في القرون الأربعة الأولى، كما صار أهم الطرز المعمارية لبناء المساجد المنتشرة في كامل ربوع الدولة الإسلامية الفتية، وخاصة طراز المساجد المغربية الأندلسية.

فظهرت كآبنية بسيطة للصلاة والوعظ والاجتماعات العامة، ليس فيها نزوع إلى إتقان في العمارة والزخرفة، وفي مثل هذه المباني البسيطة لم تكن هناك ثمة ضرورة إلى استعارة أساليب معمارية من مكان، إذ لم تكن هناك حاجة لمثل هذه الأساليب⁽³⁾. ويتألف طراز المسجد النبوي بصفة عامة من صحن مكشوف ذي تخطيط مربع أو مستطيل تحيط به في جوانبه الأربعة ظلات أربع اصطلاح على تسميتها أحيانا بالأروقة وأطولها رواق القبلة، وتقوم الأروقة على أعمدة أو دعائم قد تعلوها عقود، كما نجد أحيانا بوسط رواق القبلة مجاز قاطع عمودي على جدار القبلة.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: الحنفي قطب الدين: تاريخ المدينة، تقديم وتعليق وتحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار المصري للطباعة، بورسعيد، د.ت، ص 93.

(2) - سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1391هـ / 1971م، ص 38.

(3) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 29.

سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك، وكتب إلى أمراء أجناد الشام فكان الناس متمسكين بأمر عمر وأجناده (1) أما المساجد فقد نجد منها في الحي الواحد أربعة أو خمسة، وإذ تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة، أمّ المصلين وخطب فيهم بالتناوب كل جمعة في جامع (2).

ويتضح من خلال هذا التقسيم أن الجامع هو الذي تؤدي فيه صلاة الجماعة يوم الجمعة (3)، ولذا عرف بالجامع، ولما تأسست الدولة الأموية أصبح المسجد الجامع يشكل ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، فقد كان على كل أمير أو عامل من عمال الأقاليم إقامة مسجد جامع يمثل مسجد الدولة الرسمي، وإذا عرفنا أن ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة في المسجد الجامع يكون شارة من شارات الخلافة، وأنّ عدم ذكر اسمه يعني خلعه، ومن ذلك يتبين لنا الدور السياسي بالإضافة إلى الدور الديني الذي كان ومازال يؤديه المسجد الجامع (4).

ويُراعى قبل تخطيط المسجد أن يكون موقعه وسط العمران وأن تكون مساحته شاسعة، على قدر الحاجة، وحسب ما تسمح به البيئة والمكان، وكان هذا التخطيط يخضع لأربع قواعد أساسية وهي:

- اتخاذ جدار القبلة قاعدةً للتخطيط.
- تخطيط بيت الصلاة على أساس صفوف موازية لجدار القبلة، سواء كانت العقود التي تقوم على الدعامات أو الأعمدة موازية لجدار القبلة أو عمودية عليه.
- أن يكون للمسجد صحن فسيح يتصل ببيت الصلاة، إن أمكن ذلك.
- يحاط المسجد بما فيه بيت الصلاة والصحن بجدار يحده، قد يكون مربعاً أو مستطيلاً مع ضرورة فتح أبواب تتخلل هذه الجدران (5).

(1) - سعد ماهر: المرجع السابق، ص ص30 - 31.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص381.

(3) - الولي طه: المساجد في الإسلام، ط1، دار الملايين للعلم، لبنان، 1409هـ/1988م، ص145.

(4) - سعد ماهر: المرجع السابق، ص31.

(5) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص36.

1-2-1- جوامع مدينة معسكر:

1-2-1- الجامع الكبير:

. موقعه:

يقع الجامع الكبير في وسط مدينة معسكر، في الساحة المسماة حاليا بساحة مصطفى بن التهامي، وهو يعتبر النواة الأولى للعمارة الدينية في المدينة خلال الفترة العثمانية، وهذا حسب ما ذكرته المصادر التاريخية، وكذلك تؤكد المنشآت المتبقية إلى حد الآن، التي مازالت تشهد على هذه الحقبة من تاريخ المدينة. (يُنظر الشكل رقم 6)

. نبذة تاريخية عن الجامع:

٧ تاريخ تأسيسه ومؤسسه:

بُني هذا الجامع في سنة 1160هـ الموافق لـ 1747م، وهو ما تؤكد اللوحة التأسيسية المثبتة في أعلى المدخل الرئيسي الأصلي، وهو حاليا مدمج مع الزيادة التي أدخلت على بيت الصلاة، وُضعت خصيصا للتعريف به وبصاحبه، وفيما يأتي نُورد نصّها الكامل:

. الحمد لله حق

- . حمده وصلى الله على سيدنا
- . ومولانا محمد نبيه وعبد
- . اما بعد امر ببناء هذا
- . المسجد المبارك المحمود^(*)
- . المعظم (الارفع القامع)^(**) العداء وجمع
- . بين الناس والندى وطلع على
- . الدنيا بدر هدى صاحب لواء الحمد
- . الاسما ومالك ازمة المجدي
- . الاحما حاج الحرمين الشريفين
- . امير المومنين المجاهد في سبيل

(*) - لقد صَعُب علينا قراءة هذه الكلمة، بسبب عدم وضوح الخط، لذلك وضعنا لها قراءتين، إما المحمود أو المحصون.

(**) - هاتين الكلمتين لا تظهران بوضوح، بحيث نجد هناك حروفا مشتركة بينهما، نتيجة التلاصق الذي حدث أثناء عملية الكتابة.

مؤسسء:

أسس هذا الجامع من طرف الباى الحاج عثمان ويقال له كذلك (عصمان) بالتركية حسب ما جاء في مختلف المصادر التاريخية، نذكر منها على وجه الخصوص "محمد بن يوسف الزباني"، في كتابه "دليل الحيران..."، وهذا في قوله: "...وهو الذي بنى الجامع الأعظم بالمعسكر سنة توليته...". كما ورد اسمه في اللوحة التأسيسية المذكورة سابقا، وهو الباى الثالث والعشرين لبابلك الغرب، عُنِن في المرة الأولى بايا على مازونة وتلمسان في سنة 1018هـ، فهو أول من جمع له بينهما⁽¹⁾، لكنه لم يتمتع بهذه الولاية فقام عليه أهل تلمسان مع الباى يوسف المسراتي، وتولى في المرة الثانية على جميع الإيالة الغربية في أواسط محرم سنة 1160هـ الموافق لـ 1747م، ومكر بأهل تلمسان والمحال مكرًا كبيرًا، أفنى به أكثرهم^(*)، توفي بالمعسكر في سنة 1170هـ / 1750م، ودفن بها بعد أن ملك تسعة أعوام⁽²⁾، وقد شيد في مدينة معسكر مجموعة من المنشآت المعمارية.

• وصف الجامع:

يتكون هذا الجامع من ثلاث واجهات ظاهرة للعيان، أما الرابعة منه فهي ملتصقة مع الحمام من الجهة الشرقية، وتعتبر الواجهة الجنوبية هي الواجهة الرئيسية، لوجود المدخل الرئيسي، الذي له معنى رمزي إذ هو الحد الفاصل بين الداخل والخارج، وهو في المبنى الديني المنفذ الذي ينقلنا مما هو غير مقدس إلى ما هو مقدس. والمدخل عامة هو إجمال لعمارة واجهة المسجد، إذ هو نقطته البؤرية وذلك بارتفاعه السامق الجدير ببيت الله، وليس

(1) - أبو راس محمد الناصري: الخبر المغرب... المصدر السابق، ورقة 128.

(*) - وسببه أنه لما كان بايا بتلمسان في المدة الأولى وجاء بموضعه يوسف المسراتي، لم يطل في المدة، فلذلك لم تحسب تلك الولاية ولم تُعد، فتعصب عليه أهل تلمسان ونقموا عليه وصاروا يرمون ساحته في الليل بكل ميتة ودم، فاغتاظ لذلك وذهب إلى الجزائر، ولما مر بالمحال سأل منهم ماء لما عطش، فأتوه بلبن وحين شرع في شربه أرهقوه عليه، وضحكوا من ذلك، فأسرّها في نفسه ومشى للجزائر، ولما وصل إلى الجزائر واجتمع بالباشا، سأل منه أن يُوليه بايا ويطوع له تلمسان والمحال، ويعطيه عدد من المال، فولاه وجاء مغربًا بالجيش معه، فأوقع بأهل تلمسان إيقاعًا كثيرًا وصال على المحال إلى أن أفناهم وأجلاهم لوهران، ثم رجعهم لمحلهم، على أن لا يرفعوا رؤوسهم، فحل بهم ما هو مشهور بينه وبينهم على السنة الناس، ومذكور في كلام الفصحاء. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 194-195.

(2) - نفسه: ص 195-196. يُنظر كذلك: أبو راس محمد الناصري: عجائب الأسفار... المصدر السابق، ص 87.

وهذه البلاطة تختلف عن البلاطات الأخرى من ناحية التخطيط والبناء، إذ أنها تتكون من عقود ممتدة على الجهات الأربع، والتي بدورها تحملها أربعة أعمدة متلاصقة ومجمعة، ما عدا التي في آخر البائكتين فهي من ثلاثة أعمدة. (تُنظر الصور رقم 32/31/30/26/25)

كما نلاحظ في مؤخرة هذا الجامع رواق غير مفتوح بطريقة مباشرة، بحيث يكتنف ممره مداخل متوسطة الارتفاع، بعقود نصف دائرية بدون أبواب، تؤدي إلى مدخل في الجهة الشمالية الغربية، مفتوح على الميضاة، وهذه ظاهرة معمارية قلما نجدها في الجوامع، كما يحتوي هذا الرواق على غرفة خاصة بالإمام، وهي ما تعرف بالمقصورة، ولكن حسب قيم الجامع أنها حديثة البناء، وموقعها الأصلي كان في الركن الجنوبي الشرقي، حيث أنها هدمت في سنة 1965م، عند توسيع بيت الصلاة من الجهة الشرقية، كما زُين هذا الرواق من جهته الشمالية الغربية بمجموعة متنوعة من المربعات الخزفية، كانت في الأصل تزين قبة سيدي عبد القادر الجيلاني. (تُنظر الصورتان رقم: 34/33)

يحتوي الجامع على خمسة نوافذ متشابهة في شكلها العام، نجدها في جدار القبلة وهي متوسطة الحجم، فتحت داخل تجويف معقود بعقد نصف دائري تظهر على شكل خزانة جدارية، كما تعلوها أحيانا نافذة أخرى صغيرة الحجم. (تُنظر الصورة رقم 35)

المئذنة:

كان الموقع الأصلي لمئذنة الجامع في الركن الشرقي الجنوبي، لكن بعد الإضافات التي أدخلت عليه في الفترة المعاصرة، جعلها في الجهة الشرقية من بيت الصلاة، حتى أنها أصبحت مدمجة فيها (يُنظر الشكل رقم 7)، أما عن تركيبها المعماري فهي تظهر على شكل مربع، تشبه في تصميمها مآذن الجوامع المغربية الأولى كجامع القيروان، وفيما يخص مقاساتها فارتفاعها متوسط، يبلغ حوالي 23.10م، وهي تتكون من قاعدة وبدن وجوسق فالقاعدة مدمجة في الجدار الشرقي، ومن حسن الحظ أننا تحصلنا على صورة لها قبل عملية التوسعة، حيث أنها كانت بسيطة في مظهرها، تحتوي على المدخل الذي فتح داخل بيت الصلاة من الجهة الغربية، أما عن البدن فيتكون من ثلاثة أقسام، فالقسم الأول مظهره بسيط، فتحت فيه فتحة صغيرة للإضاءة في الجهة الشرقية، أما القسم الثاني فهو محصور بطنفين، حيث أنه زين في واجهاته الأربع بزخارف معمارية، تتمثل في عقد كبير مفصص يعلوه إطار بسيط، ونلاحظ أن عقد الجهة الشرقية يحتوي على ساعة شمسية، وضعت في

اليهود الذي يدعى "بن عدى" واتخذته متجرا لبيع الحبوب، وخاصة القمح الصلب واللين والخرطال.

وقد راودت هذا التاجر اليهودي وأمثاله من اليهود الماكرين، فكرة تحويل هذا الجامع إلى ديرا لليهود، فسعوا لدى السلطات الفرنسية وعرضوا عليها فكرة شرائه لتحقيق مشروعهم الخبيث، لكن من سوء حظهم أن حاكم مدينة معسكر كان يكره اليهود، فأخبر شيوخ المدينة من المسلمين بالأمر، وأوعز إليهم بأن يطلبوا من السلطات الفرنسية أن تعيده إليهم لاتخاذهم كمسجد للصلاة، وشجعهم على ذلك، فقدموا طلبهم وأكثروا من السعي ووسطوا ذوي الشأن وتم لهم ذلك فاستعادوه وفتحوه في حدود عام 1910 تقريبا، وبذلك أنقذوه من الأسر المسيحي، وإذلال اليهود وإحباط مخططاتهم الخبيثة، فعاد ليؤدي رسالته الدينية والتربوية والثقافية التي أسس لها ومن أجلها، عاد المسلمون لأداء فروضهم وواجباتهم الدينية فيه، كما كانوا من قبل.⁽¹⁾

أما الاسم الرابع فهو جامع "سيدي حسان"، وسبب ذلك أن الاستعمار الفرنسي أراد أن يطمس معالم واسم هذا الجامع المزدوج الشرف، والذي تعاقب عليه شريفين لمجاهدين، الأول هو الباي محمد الكبير فاتح وهران ومخلصها من الاستعمار الاسباني، والثاني هو الأمير عبد القادر بطل المقاومة الشعبية بالغرب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وبهذه الأسماء لمجاهدين كبيرين، يظل الجزائريون يذكرهما مادامت هذه الجدران قائمة، فعمد الاحتلال إلى حيلة لتتسية سكان معسكر بهذه الأسماء، التي قد تبعث في نفوس الجزائريين الحماس والتذكير بالمجاهدين وأيام الجهاد في سبيل الله، فحدث أن اشترى مستوطن فرنسي أرضا مجاورة للجامع، وبالأرض قبر لرجل صالح يسمى "سيدي حسان"، فطلب هذا الفرنسي أن ينقل هذا القبر من أرضه، فنقلوه ودفنوه بالقرب من الجامع، ومنذ ذلك الحين غيروا اسمه وأطلقوا عليه اسم "جامع سيدي حسان".⁽²⁾ لكن الغريب في الأمر عندما حاولنا معرفة تاريخ هذه الشخصية من خلال تصفح مختلف المصادر التي نعود إلى الفترة العثمانية، لم نجد ولا إشارة عنه، كما قمنا بالتواصل مع أهالي المدينة ومتقفيها، الذين لا يعرفون عنه سوى أنه كان رجلا صالحا، ومنهم من قال لنا هو عبارة عن شخصية افتراضية كان الغرض منها

(1) - بوعزيز يحيى: المساجد العتيقة... المرجع السابق، ص 216-217.

(2) - مهبيرس مبروك: المرجع السابق، ص 50.

"لقد حصل للناس بينائه ما يحصل له به إن شاء الله من أعظم الأجر، ويحسب له من العمل المبرور، لأنه كان بينيه زمن المسغبة، فكان من لم يجد قوتا آجر نفسه للخدمة فيه بما يستعين به على معيشته، ومن له دابة أكرهاها، ومن له شيء بمتعلقات البناء لم يبخس عليه. فجاء من المباني الرائقة والآثار الفائقة، التي لم يبن أمير مثلها اتقانا وحسنا"⁽¹⁾، "وبنا مدرسة كبيرة وألحقها به وحبس عليه خزانة كُتُب، زيادة على مخبزة ودكاكين وأجنحة وكل مرافق الحياة، التي كانت مجعولة لاحتياج الطلبة والأساتذة وجميع موظفي المسجد والمدرسة"⁽²⁾. "وجعل شرقيه مقبرة محوزة بالبناء الوثيق، يدفن فيها الشهداء ومن مات من قرابته وأولاده، كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناءا وشكلا، والدار الملاصقة لميضاة البديعة، المحتوية على نحو ستة عشر مطهرة، وأتاه بماء كثير اشتراه من أربابه جعله سقايات للسبيل، فروى به أهل الناحية بعد الضم الملائم والتعب، وفرغ من جميع تعلقاته من تنميق وغيره سنة ست وتسعين ومائة وألف"، فتغنى به الشعراء وقيلت فيه القصائد نذكر منها:

إن حله المرء حل الأنس مهجته	وصار في الحين للأذكار ذا بطر
لقلت ذي جنة للخاد قد ظهرت	يحظى بها عاملوا الخيرات بالأجد
انظر لمنبره المسود تحسبه	ليلا وفيه نجوم العاج كالزهر
انظر لقبته العلياء تحسبها	عقيلة فوق كرسي من الحجر ⁽³⁾
وقيل فيه أيضا:	
ألق العصا وفك رحل ركائبي	بالمسجد المنشئ بأمر عسكر
المحكم التشييد في شرفاته	فتراه يحسن كالرياض الممطر ⁽⁴⁾

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 127.

(2) - التلمساني أحمد ابن هطال: المصدر السابق، ص 28.

(3) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص ص 127 - 129، يُنظر كذلك:

- Gorguos. A « Notice Sur Le Bey d'Oran Mohammed El Kebir », *revue Africaine*, office des publications universitaires, Alger, 1856, 1858, p 409.

(4) - التلمساني أحمد بن هطال: المصدر السابق، ص 28.

أما هندسة بناء الجامع والنقش والخطوط، فقد قام بها أحمد بن صارم شق، الذي ينتمي إلى أسرة تلمسانية، مشهورة بطلب العلم، ولا شك أن الجامع الكبير كان يضم عددا مهما من الموظفين، الذين يتألفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس وأربعة مؤذنين ومقدم للطلبة، ومما يلاحظ أن هؤلاء الموظفين كانوا يتلقون رواتب من الوقفية، التي أوقفها الباي محمد الكبير على الجامع الكبير فتضمنت مايلي :

" 4 سلطانية ذهبا للطلبة، الذين يحضرون درس صحيح البخاري في كل سنة، 50 ريالا للإمام، 40 ريالا للخطيب، 80 ريالا للمؤذنين يتقاسمونها، 44 ريالا للحزابين يتقاسمونها 40 ريالا لمدرس صحيح البخاري، 60 ريالا لكل مدرس، 15 ريالا لوكيل خزانة الكتب الملحقة بالجامع، 10 ريات للراوي، 15 ريالا لمصلح المطاهر، 40 ريالا لوكيل الوقف نصف ريال حق بيت عامر شهريا لزيت الطالب الساكن فيه⁽¹⁾.

٧ مؤسسه:

أسس هذا الجامع على يد الباي محمد الكبير، حسب ما ذكره أحمد بن علي بن سحنون في كتابه "الثغر الجماني"، وهذا في قوله: "...ثم شرع في بناء مسجده العظيم، الذي لم يبين أمير مثله إتقانا وحسنا...⁽²⁾"، وكذلك فيما ورد في مدونات كاتبه ومستشاره "أحمد بن هطال التلمساني"، إذ أنه قال: "...ثم شيّد المسجد الذي يحمل اسمه "جامع محمد الكبير"...⁽³⁾"، بالإضافة إلى ما دونه الزباني في قوله: "...وبنى الجامع الأعظم بعين البيضاء من بلد المعسكر..."⁽⁴⁾

(1) - جاكور لحسن: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د ط، ص ص 25 - 26، يُنظر أيضا:

- Leclerc. CH, Op.cit, PP45-46.

(2) - ابن سحنون أحمد بن علي الراشدي: المصدر السابق، ص 127.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28.

(4) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 204.

وهو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي، أمه جارية اسمها زائدة، أهداها ملك المغرب مولاي إسماعيل لوالده. يعتبر هذا الباي من أشهر بايات معسكر⁽¹⁾، يشوب تاريخ ولادته الكثير من الغموض، إلا أن الخزندار "تدينا Thédénat" قدّر عُمر الباي محمد عند أول لقاء به في قصره عام 1779م، بين أربعين وخمسة وأربعين سنة، وهذا ما يرجح أنه وُلد بين سنتي 1734 و 1739م⁽²⁾، ومكان ولادته هي مدينة مليانة^(*)، التي كانت تحت قيادة والده "عثمان الكردي"، الذي ارتقى إلى منصب باي لبابك التيطري فيما بعد⁽³⁾، وهم من سلالة كردية تركية، كان رجلا جسيما أسمر اللون، لذلك لقب بـ "محمد الأكل"، وكنيته أبو عثمان⁽⁴⁾، "ذو وجه جميل، ولحية سوداء تظهره شديد البياض، وهي تنزل إلى منتصف صدره، وشعره ينزل على كتفيه على الطريقة التركية"⁽⁵⁾، وكان أبوه مرتبطا بعري الصداقة مع أبي إسحاق إبراهيم الملياني، وكان هذا الأخير قائدا على مليانة، ولما توفي الباي عثمان تكفل إبراهيم بعائلته واعتنى بولديه "محمد الكبير" و "محمد الرقيق الملقب بـ بوكابوس".

لقد تَكَوَّن محمد الكبير تكوينا علميا جيدا، وأصبح من أهل البلاغة واللسان الفصيح⁽⁶⁾، اكتسب مهارة إدارية كبيرة، ولما توسم إبراهيم فيه نشاطا وشجاعة صادقة وذكاء حاد، أحب أن يوطد العلاقات معه، فأصهر إليه وزوجه بابنته، ولما ارتقى إبراهيم وعين عن الإيالة الغربية⁽⁷⁾، أخذه معه وعينه قائدا على "فليتة" سنة 1178هـ الموافق لـ 1764-1765م، وهي أول قاعدة في الإقليم الغربي، وبعد أن أبدى حسنه في القيادة لفت انتباه

(1)- Kaddache. M: **L'Algérie durant la période ottomane**, office des publications universitaires, Alger, 2003, p139.

(2) - عميرايو اميده: المرجع السابق، ص 54.

(*) - مليانة: مدينة قديمة كانت تسمى زوكابار في العهد الروماني، اندثرت ثم أعيد بناؤها في العهد الزيري، لتعرف تطورا وازدهارا كبيرا، خاصة في العهد العثماني، لمزيد من المعلومات يُنظر: قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية في مدينة مليانة، دراسة أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، من ص 12 إلى 50.

(3) - مجهول: محمد الأكل... المصدر السابق، ورقة 2.

(4) - كان له عدة كنيات منها: أبو علي، أبو محمد، أبو أحمد، أبو الفتوحات، أبو النصر، أبو المواهب، أبو الربيع، أبو الفتح، لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 15.

(5) - عميرايو اميده: المرجع السابق، ص 54.

(6) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 199.

(7) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 125.

ونظرا لما كان ينتظره من تحديات عسكرية، أولى اهتماما كبيرا بالجيش، سواء كان في شكل فرق انكشارية أو مجموعات مخزنية، ولم نخبرنا المصادر أن فتنة عسكرية وقعت في عهد هذا الباي، بل بالعكس كان هذا الجيش وراء جميع النشاطات التي حركها الباي ضد الاسبان بوهران والقبائل المتمردة ببايلك الغرب أو خارجه على الحكم التركي⁽¹⁾، وقد قدم لنا الزباني وصفا يليق بسمعته وأعماله في قوله: "... فلقد دوخ الأتراك والأعراب وهابته الأبعاد والأقارب وذلت له الملوك والجبابرة... وأطاعته الرعايا وخصت به المزايا ووفدت عليه الوفود ودارت به العساكر والجنود..."⁽²⁾، ولعل هذا الوصف لم يكن مبالغا فيه، إذ قام الباي بعدة حملات عسكرية لإخضاع القبائل المتمردة عليه وإرجاعها إلى جادة الصواب فنهض إلى قبيلة "أولاد علي بن طلحة"، وقبيلة "الحشم"، وقبائل "فليتة" و "حميان" و "عمور" وجميع قبائل "بني راشد"، وبعض القبائل كانت مقيمة على الحدود المغربية، تحترف اللصوصية وقطع الطريق على المسافرين، فانتصر على الجميع وأخضعهم للحكم التركي وملاً خزينته بما أدوا له من الضرائب، كما أدخل بعضهم في المخزن، فأصبحوا له منقادين ولحكومته مخلصين.⁽³⁾

أما عن غزواته، فأشهرها غزوه للجنوب الصحراوي الجزائري في سنة 1199هـ، التي جهز لها جيشا عرمرما، ونزح به من "معسكر" متجها إلى بلاد بني الأغواط والشلالة وعين ماضي ونزل "شراعة" بين بني يزناسن وكبدانة، وهو موضع لم يصله قبله الأتراك، فدوخ الأعراب من كل جانب ومكان، خافته الملوك في أماكنها وأطاعته الرعايا بأسرها ووفدت عليه وفودهم.⁽⁴⁾

وفي فاتح صفر 1205هـ قرر الباي "محمد الكبير" استرداد مدينة وهران من الاسبانيين، فجهز لذلك جيشا كبيرا عدة وعددا، وبعد جهد جهيد من، تم الفتح المبين بعد حصار محكم انتهى بصلح، ينص على تسليم المدينة، فتم التحرير وفتح مدينة وهران

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص17، وكذلك: - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص126. وأيضا - بلبروات بن عتو: المرجع السابق، من ص 157 إلى ص161.

(2) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص199.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص17.

(4) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص63. يُنظر كذلك:

- الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص199.

وعُرف عنه أنه كان شديد الإنسانية وذا سلوك طيب⁽¹⁾، وما يدل على ذلك اعتناؤه بالفقراء والمساكين وطرده المجاعة⁽²⁾، "فقد كان له في سنى القحط والمسبغة من الإحسان ما لا يشق أحد فيه غباره ولا يصل آثاره، ولولاه لهلك الأجناس، وبلغ السعر مبلغا لم يسمع به أحد من الناس، فإنه أعان الخلائق بالسلف العام والتصديق والإطعام، وأكبر من ذلك أنه كان يسأل عن سعر السوق فيبيع زرعه بأبخس منه خوفا من زيادة السعر، فإذا انخفض سعر السوق إلى سعره نزل هو بسعره، وهكذا أوجب على نفسه البيع في كل بلد على هذا الوجه، حتى ارتفع القحط فشملت بذلك دقته الغني والفقير والقريب والبعيد، ولقد كان يأمر بجمع من لا يمكنه العمل من الفقراء فيدخلهم مطبخه يأكلون إلى أن يذهب من شاء منهم مختارا، ويكسوهم كم من مرة ما يقيهم البرد ويتصدق على الجميع كل عشية بما يعمهم وهم لا يحصون كثرة"⁽³⁾.

كما كان يجهز بنفسه الأدوية المختلفة، ويوزعها على أفراد الشعب ويتفاخر بذلك في قوله "أنا طبيب الفقراء"⁽⁴⁾. بالإضافة إلى ذلك ثقافته الواسعة حيث أنه اطلع على علوم الطب كجل علماء الإسلام. كما تضرع في العلوم اللسانية فتكلم عدة لغات وحفظ أشعار العرب وتوسع في علوم الدين، فحرص على الثقافة والمتقنين، فأحب العلماء وقربهم إليه⁽⁵⁾ واستشارهم في أموره، وبنا لهم المدارس، وشيد لهم المساجد، ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والهدايا، وهو ما ذكره أحمد بن سحنون الراشدي في كتابه "الشجر الجماني"، في قوله "...رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأعباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء، إلا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة، وشرهت لها النفوس وكثر طلبة العلم، وتشوق

(1) - عميرايو أحميدة: المرجع السابق، ص 54.

(2) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 23.

(3) - ابن سحنون أحمد الراشدي: المصدر السابق، ص ص 135 - 136.

(4) - بلبروات بن عتو: المرجع السابق، ص 158.

(5) - وهذا ما أكده "تيدنا"، الذي ذكر في مذكراته أن الباي أنن له بإنشاء مكتبة، وكذلك وضع لنا الجهل الذي كان يعُم المدينة قبل تولي هذا الباي وذلك في قوله: "وعملت لنفسي بواسطته مكتبة صغيرة في معسكر، وكانت غريبة في بلاد مثل هذه، وكان الأهالي المحيطون بي يندهشون لرؤية كتب كثيرة. وفعلا فإنهم لم يروا قبلها مثلها. إنهم شعب جاهل إلى حد أنه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعا ما، أكثر من 100 شخص يحسنون القراءة"، وهذا العمل يبرز لنا الجهود التي بذلها من أجل القضاء على الجهل ونشر التعليم، يُنظر: - عميرايو أحميدة: المرجع السابق، ص 83.

كل أحد للتدريس واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه...»⁽¹⁾

ويكفينا دليلا ما ألفه علماء عصره من كتب نفيسة في أخلاقه المرضية وسيرته المحمودة⁽²⁾، مثل: كتاب "عجائب الأسفار" لمحمد أبي رأس المعسكري، وكتاب "الشعر الجماني" لأحمد بن علي بن سحنون الراشدي، وكتاب "الرحلة القمرية في الرحلة المحمدية" لمصطفى بن عبد الله بن زرفة وغير ذلك من التأليف⁽³⁾. فكان تقيا نقيا يرسل كل سنة هدية مالية إلى الحرمين الشريفين، ويبعث كل سنة بمملوك لخدمة الحرم النبوي⁽⁴⁾.

توفي الباي الأكحل - بعدما حكم عشرين سنة بايا وسبعة أعوام خليفة مفوضا - ببلاد "أصبيح" وهو قافلا من الجزائر بعد تقديمه للدنوش لداي الجزائر في سنة 1213هـ الموافق لـ 1799م، وأوصى بدفنه في المدرسة التي بناها في وهران، وهي مدرسة "خناق النطاح"⁽⁵⁾ وقد رحل وترك لغزا حير المؤرخين حول أسباب وفاته، لكن آثاره مازالت شاهدة تذكر اسمه في كل من مدينة معسكر ووهران وتلمسان، هي عبارة عن مساجد وقصور ومدارس ومكتبات وأسواق وأسبلة وأسوار وقلاع وأبراج⁽⁶⁾، وقد احتضنت هذه المنشآت العلماء والطلبة، الذين أكرمهم وجعلهم في أعلى المراتب، وتدوين ما كتبه عن طريق الاهتمام بحركة النسخ والتأليف.

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 135.

(2) - من خلال تصفحنا لمختلف المصادر التي تطرقت إلى سيرة هذا الباي، جلها ذكرت محاسنه، ولم تُشر إلى عيوبه ومساوئه، ما عدا "تيدنا"، فرغم حبه وتعلقه به، لم يمنعه ذلك من تقديم من الحديث عن مساوئه، الشيء الذي لم يذكره غيره حتى من الجزائريين، فقد وصفه بالجشع، يحب المال ويرغبته في كسبه بأية وسيلة وعلى حساب غيره من الناس، رغم رقة مشاعره وحبه للناس ومساعدته لهم، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- عميرواي أحمدية: المرجع السابق، ص ص 84 - 86 - 138.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص ص 24 - 26، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 5، طبعة خاصة، دار الرائد للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 89.

(4) - الطمار محمد: المرجع السابق، ص 253.

(5) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 65، يُنظر كذلك: - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق ص 204. وأيضا: - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 298 - عميرواي أحمدية: المرجع السابق، ص ص 82-83.

- Caporal. B: Op.cit, p43.

(6) - Ibid: p16.

2- المدارس:

1-2 تعريفها:

أ- لغة:

حاول الكثير من الباحثين التأريخ لنشأة المدارس في الإسلام، بالبحث في الأصل اللغوي لكلمة "مدرسة"، ولم يكن أمامهم سوى رد الكلمة إلى أصلها الثلاثي "دَرَسَ" (1) أي: تعلم، وهي جمع "مدارس"، مأخوذة من فعل درس، والمدرسة من الدراسة، ومنه درست السورة، أي حفظتها، و"درس الكتاب يدرسه درسا" ودراسة، ودارسه بمعنى عاود الكتاب قراءة فيه انقاد لحفظه، وقيل درست، قرأت كتب أهل الكتاب، ودارست: ذاكرتهم، ودرست الكتاب: أدرسه درسا، أي: ذللته بكثرة القراءة، حتى خف حفظه عليّ، والمدراس، والمدرّس، الموضوع الذي يُدرّس فيه، والمدرس الكتاب، والمدارس الذي قرأ الكتب ودرسها (2).

ب- اصطلاحا:

تعتبر المدارس من المؤسسات التعليمية التي تميل إلى الجمع بين عناصر المعمار الديني والمدني (3)، "فالمدرسة هي التي تبنى لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه" (4)، فاقترنت في بداية الأمر على تعليم المذهب السني لنشره بين الناس، وإعداد طبقة من الموظفين يرتبطون بهذا المذهب ويطبقونه بشكل صارم وحازم (5)، لذلك اهتم المعماري المسلم بمسألة وجود الطلبة والشيوخ والفقهاء في المدرسة عند القيام بتخطيطها، فراعى وجود بيت للعاملين والدارسين والمدرسين في المدرسة، بالإضافة إلى قاعات الدراسة، وجميع المرافق الأخرى المتوفرة في جميع المدارس، كما جرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد، نظرا

(1) - سلام أيمن شاهين: المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة للحصول على شهادة الدكتوراه الفلسفة في الآداب شعبة التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة طنطا، 1420هـ / 1999م ص 33.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 1، ص 968.

(3) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 32.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله.....المصدر السابق، ص 188.

(5) - الولي طه: المساجد في الإسلام، دار الملايين للعلم، ط 1، لبنان، 1409هـ / 1988م، ص 84.

للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، ولكن هذا ليس شرطاً. غير أن كل مدرسة لابد أن يؤسس داخلها بيت للصلاة⁽¹⁾.

ج- عمارة:

أما من الناحية المعمارية، فهي تتكون أساساً من صحن وقاعة للصلاة ومرافق أخرى⁽²⁾، ويعتمد تخطيطها على جدار القبلة كقاعدة لتصميم البناء بصفته الكلية، وحدودها الداخلية تنتظم في شكل مستطيل، أو مربع قائم على خط هذا الجدار⁽³⁾. لذلك نجد أن كل مدرسة تحتوي على بيت للصلاة، ويكون موقعه دائماً في الجهة القبلية منها، وهو أكبر قاعاتها أهمية واتساعاً، وغالباً ما يكون امتداده بموازاة جدار القبلة، أطول من امتداده العمودي عليه.

يتوسط بناء المدرسة فناء مكشوف، يساهم في إدخال الضوء والهواء إلى سائر المرافق الأخرى، ويكون مربعاً أو مستطيلاً يقع خلف بيت الصلاة، ليصبح مكماً له في استيعاب أعداد المصلين، إن دعت الحاجة إلى إقامة صلاة الجمعة داخل المدرسة. يحيط بالفناء الوسطي المكشوف أبنية مختلفة الأشكال والأحجام، وتشتمل هذه الأبنية على جميع مرافق المدرسة، من قاعات للتدريس وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين وحجرات وغرف صغيرة للسكن ومخازن مختلفة، كما تحتوي على مطبخ، مخبزة، حَمَّام وغير ذلك من المنافع العامة⁽⁴⁾.

من خلال ما تقدم ذكره في تعريف المدرسة عمارة، يمكننا القول بأن النظام التخطيطي للمدرسة هو مستمد أصلاً من نظام المسجد الجامع، وتطورت عمارته وتخطيطه تطوراً منطقياً بحكم الضرورة⁽⁵⁾، لكنها تتميز بعناصر وملامح خاصة، لا يوجد مثلها في المسجد، من ذلك أنها تتألف من إيوان واحد أو أكثر تبعاً لما هي مخصصة له من الدروس

(1) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، د.ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009 ص198.

(2) - رزق محمد عاصم: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، 2000، ص271.

(3) - عزب خالد: المرجع السابق، ص ص119 - 120.

(4) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص118. يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص358.

(5) - عزب خالد: المرجع السابق، ص120.

الفقهية، إذا كانت على مذهب واحد أو على عدة مذاهب، ومن حيث المبدأ فإنه لا يوجد في المدرسة منارة للأذان ولا منبر للخطابة، كما هي الحال في المساجد الجامعة⁽¹⁾.

2-2- تاريخ ظهور المدرسة في الإسلام:

كان التعليم وما يزال، الأساس الحقيقي لكل ثقافة، ولأي تقدم في المجتمع الإنساني فالعلم من جملة الصنائع كما يقول "ابن خلدون"⁽²⁾، وقد ارتبط تطوره وانتشاره في العالم الإسلامي، بظهور المؤسسات الدينية والتعليمية، التي عرفت بعد الهجرة النبوية، وقد مثل المسجد في ذلك الوقت النواة الأولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية في آن واحد، فكانت المساجد هي المعاهد الأولى للتعليم عند المسلمين، وكان ذلك مظهراً أولياً لنشأة حركة التعليم، وتطورت شيئاً فشيئاً، وأصبحت المساجد الجامعة الأولى في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة خير أماكن التعليم مثل: المسجد النبوي بالمدينة، مسجد الكوفة، الجامع الأموي بدمشق، وغيرها من المساجد الجامعة، تُبَلِّغ رسالة الإسلام وتعالج مشاكل المجتمع في شتى مجالات الحياة الدينية والتعليمية والقضائية⁽³⁾. ثم بدأت تظهر مؤسسات أخرى بالتدرج مُشاركةً له في تبليغ رسالته الدينية والتعليمية، ومخففة عنه بعض الأعباء كتحفيز القرآن وتعليم العلوم الشرعية في مختلف المراحل، وأهمها المدارس العلمية التي تعتبر كمرحلة متقدمة في سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم⁽⁴⁾. فهي مؤسسات ثقافية، تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، وكان ظهورها بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية، وانفصال الشعوب الإسلامية واحتكاكها بشعوب أخرى فأصبحت الحاجة الملحة إلى اقتباس المعارف والعلوم المتنوعة والاستفادة من مختلف المعارف الضرورية لحياة المسلمين، الأمر الذي فرض إنشاء هذه المدارس وانتشارها⁽⁵⁾.

(1) - الولي طه: المرجع السابق، ص 84.

(2) - ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة...، المصدر السابق، ص 379.

(3) - عزب خالد: المرجع السابق، ص 118 - 119.

(4) - مريوش أحمد: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 11.

(5) - مريوش أحمد: المرجع السابق، ص 15.

إن المدارس لم تعرف في العالم الإسلامي قبل القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي، إلا أن هذا لا يعني أن المسلمين لم يكونوا أهل علم ومعرفة، بل على العكس لأن أول من دعا إليه الإسلام هو طلب العلم، ودلّ على ذلك قوله تعالى في أول آية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، فهي جاءت لتشمل كل ما يميز المؤسسات التعليمية الأخرى التي سبقتها في مؤسسة واحدة، والتي حرص مؤسسوها على أن يحققوا لها تميّزها واستقلالها عن بقية المؤسسات التعليمية الأخرى، والواقع أنهم نجحوا في ذلك المقصد، لاسيما إذا علمنا أن المدارس قد ارتبطت نشأتها بالفقه السني، حيث أن المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة لأهل السنة وهي: المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية أخذت في تباين ملحوظ مع مطلع القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، فأصبح لكل منها مؤسسة لدراسة مذهبها⁽¹⁾، إلى جانب قراءة القرآن وحفظه وتجويده وتفسيره وتدريس الحديث والشريعة والفقه السني، وربما درست فيها بعض العلوم الأخرى كالطب والكيمياء⁽²⁾.

فهذا التطور الحاصل المسمى - بالتأثير المذهبي - أصبح من العوامل الرئيسية التي ساهمت في إنشاء المدارس وازدهارها بالشرق الإسلامي، إلى جانب مقاومة المد الشيعي فمسألة المدارس ارتبطت إلى حد كبير بتعدد المذاهب، والتي كانت تتعايش في رحابها تعايشا علميا على مستوى المناظرة العلمية، وفقا لمبادئ النظام الذي حدده علم أصول الفقه وعلم أصول الدين في الكلام، فكان هناك مدارس إما مزدوجة أو ثلاثية أو رباعية، تضم مذهبين أو ثلاثة أو أربعة مذاهب في ذات الوقت، وكان كل فوج من الطلبة يتبع المذهب الذي اختاره، وينتصر له ويدافع عنه وفقا للحجج التي يمتلكها⁽³⁾.

لقد قامت الدولة بتبني المدارس وأصبحت مؤسسات رسمية، عنيت بإنشائها لتخريج أجيال من المتفهمين بالمذهب السني، تتحمل مسؤولية مقاومة التيار الشيعي، الذي وصل

(1) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 39.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 358.

(3) - للمزيد من المعلومات يُنظر: - قدوري الطيب: جامعة القرويين ومدارسها بفاس من عهد أبي الحسن المريني إلى نهاية عهد أحمد المنصور الذهبي (731-1012 هـ / 1330-1603 م)، مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني والثقافي والفكري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2003-2004 ص 62.

والمواقع أنّ البحث عن أول مدرسة بنيت في الإسلام أمر عسير، فقد انعكست تلك الصعوبة على كتابات بعض الباحثين، وأوقعتهم في خلط كبير فيما ينقلون ويفهمون من النصوص، في أثناء بحثهم عن أول مدرسة في الإسلام، فمنهم من ذكر أن مدينة "نيسابور" هي أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم)، وكان ذلك في عهد "محمود الغزنوي" في القرن الرابع الهجري⁽²⁾، إلا أن البعض يرى أنّ أول مدرسة تنسب إلى "أبي حاتم محمد بن حيان البستي"^(*)، وبعدها أنشأت المدرسة البيهقية من تأسيس "البيهقي" سنة 1066/هـ 458م، والمدرسة السعيدية أسسها والي نيسابور، ومدرسة أخرى شيدها "أبو سعيد إسماعيل الأسترلابي"، وأخرى شُيّدت للأستاذ "أبو إسحاق الأصفهاني" المتوفي سنة 418هـ وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية لمدة خمسين عاما، ثم قُضيَ عليها تماما بعد قتل وزير "طغرل بك"، إلا أنها بعثت من جديد على يد "نظام الملك"^(**) وزير السلطان "ملكشاه السلجوقي"⁽³⁾، وهو أعظم رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة، بل وأعظم وزراء الشرق في عصره، وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي، وهكذا أصبحت المدارس

(1) - عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 217.

(2) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

(*) - هو: أبو حاتم محمد بن حيان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمي، الإمام العلامة الفاضل المتقن، كان مكثرا من الحديث والرحلة والشيوخ، عالما بالمتون والأسانيد، أخرج ممن علوم الحديث ما عجز عنه غيره، سافر ما بين الشاش والإسكندرية في طلب العلم، تولى قضاء سمرقند ونيسابور ومدن أخرى ببلاد فارس، توفي سنة (354 - هـ / 965م). لمزيد من المعلومات يُنظر: سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 40.

(**) - هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق الطوسي، الوزير السلجوقي نظام الملك، فقد ظل وزيرا لثلاثة من السلاطين هم: "طغرل بك" و"ألب وارسلان" و"ملك شاه"، فقد كان حسن السيرة في العلماء، فبنى لهم المدارس وأنفق عليهم نفقات لا تحصى، وكان هو نفسه محبا للعلم، فقيها شافعيًا ساعيا في نضرة مذهبه، وكانت وفاته في سنة 485هـ، لمزيد من المعلومات يُنظر كل من: سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 42. وكذلك:

- ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

(3) - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج 4، ص 425.

منشآت عامة بعد أن كانت خاصة، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون إدارة الشؤون الإدارية وما إليها في دولة السلاجقة.

وقد أنشأ "نظام الملك" الكثير من المدارس الأولى منها في "نيسابور"، وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري، وأعقبها في "بغداد" و"طوس" و"البصرة" و"أصفهان" و"هرات" و"بلخ"⁽¹⁾، وقد رأى أن السيطرة على السياسة التعليمية تمكنه من شن الحرب على الدولة البويهية، والمذاهب الأخرى التي كانت سائدة كالمعتزلة والباطنية، فسعى لإنشاء المدارس ورسم لها سياسة كفاح تلك المذاهب، ولعل هذا ما يفسر السبب الذي جعل المدارس تقتصر في البداية على العلوم الدينية واللغوية، ومن الأسباب الدينية أيضا أن نظام المدرسة ارتبط بنظام الوقف، الذي اعتبر وجها من أوجه البر والتقوى، واعتبر الوقف على المدارس معادلا للجهاد في سبيل الله، مما دفع ببعض المسلمين إلى تشييد المدارس والإنفاق عليها خدمة للعلم⁽²⁾. وهو ما حدا حذوه كثيرا ممن خلفه من السلاجقة، وانتشرت المدارس في كل الولايات السلجوقية⁽³⁾.

وما فعله "نظام الملك" في إيران وجنوب العراق، فعله الأتابكة في الموصل ودمشق وفعله "نور الدين" و"صلاح الدين" في شمال العراق وسوريا ومصر. وهكذا نرى هؤلاء الأمراء ذوي الأصل الكردي أو المغولي والمتعصبين للمذهب السني، هم الذين نشروا المدارس في غرب العالم الإسلامي.

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ العماير الثقافية، التي كانت تعرف من قبل باسم "دار العلم"، كما أنهم أول من أطلق عليها اسم المدرسة، والغرض الأساسي من إنشائها هو تدريس ونشر المذهب الشيعي. وكان ذلك في القرن الرابع الهجري إبان حكم "محمود الغزنوي". وفي القرن الخامس الهجري نشر الأمراء الأكراد والمغول ذوو المذهب السني هذه المدارس في غرب العالم الإسلامي، كما جعلوها منشآت عامة تشرف عليها الدولة، على خلاف مدارس الشيعة الخاصة في القرن الرابع الهجري.

(1) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 119.

(3) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19. يُنظر كذلك: - قدوري الطيب: المرجع السابق، ص 61 - 62.

وما قيل عن المدن المذكورة سابقا يمكن أن يقال عن مصر أيضا، فكما نشأت المدارس في شرق العالم الإسلامي على يد الشيعة على أنها مدارس خاصة، نشأت في مصر على يد السنيين كمعاهد خاصة كذلك، فقد جاء في "ابن ميسر" أن الوزير "رضوان بن الولخي" أنشأ مدرسة في الإسكندرية سنة 532هـ لنشر المذهب الشافعي. ويقول "ابن خلكان" أمّ "ابن سلار" وزير الخليفة الفاطمي "الظافر" أنشأ مدرسة سنة 546هـ في الإسكندرية كذلك، ويذكر "القلقشندي" أن "مسرور" أنشأ مدرسة سنية بالقاهرة في عهد الدولة الفاطمية، فلما جاء "صلاح الدين الأيوبي" إلى مصر عنيّ عناية خاصة ببناء المدارس، ونشر هذه المنشآت الثقافية وجعلها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله⁽¹⁾، وجعلها للمذاهب السنية غير الشيعية، كالمالكي والحنفي والشافعي، وأشهرها في عهده "الناصرية" و"القمحية" و"السيفية" و"القطبية"، ثم "العادلية" و"الكاملية" و"الصالحية"⁽²⁾. وكان الغرض من ذلك هو القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفواطم، وذلك بنشر المذهب السني عن طريق المدارس⁽³⁾.

أما بالنسبة لظهور المدارس في المغرب فلم تختلف وظيفتها عن مثيلاتها في المشرق فقد شُيِّدت لتكون أداة للسلطة لتكوين الأطر والعلماء المختصين في المذهب المالكي، مع الاهتمام بتدريس مختلف العلوم والمواد الأخرى، رغم أن هذه الوظيفة كانت تتم في الجوامع ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن المدرسة المغربية تتسجم مع الهدف العام، الذي أنشئت من أجله المدرسة بالمشرق الإسلامي⁽⁴⁾.

وعند البحث عن تاريخ ظهور المدارس في المغرب الإسلامي، وجدنا اختلافا بين المؤرخين والباحثين، فالبعض منهم يرى أن ظهورها كان في الفترة المرابطية، كمدرسة الصابرين بفاس، ومدرسة وجاج بن زلو اللّمطي ببلاد السوس، والبعض الآخر يرى عكس

(1) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص20.

(2) - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية"، مجلة آثار، يصدرها معهد الآثار العدد08، 2009، جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص89. يُنظر كذلك:

- حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص425.

(3) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص20.

(4) - بن قرية صالح: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص140.

وبعد ذلك قام الحفصيون ببناء سلسلة من المدارس كالتوفيقية أو مدرسة الهواء، التي أنشأتها الأميرة "عطف" أم المستنصر (648 - 658/1250 - 1260م)، والمدرسة التي بناها "أبو زكريا الثاني بن أبي إسحاق" سنة 680هـ / 1282م، والثالثة هي المدرسة "العنقية" التي شيدها الأميرة "أخت أبي يحيى بكر بن نقة" عنق الجمل، وتلتها المدرسة "العصفورية" نسبة للعالم النحوي "ابن عصفور".

يأتي المرينيون كرونولوجيا بعد الحفصيين في بناء المدارس، وذلك بعد ثلاثين سنة تقريبا، فهم يُعدون من أعظم بناء المدارس في الغرب الإسلامي، فقد اهتموا ببنائها على نطاق واسع، وشيّدت على أيدي سلاطينهم مدرسة أو أكثر في كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك، وبخاصة مدينة فاس عاصمة مُلكهم، ولئن كان العدد الأكبر من هذه المدارس اندثر، فلا يزال باقيا منها عشر مدارس بحالة جيّدة تشهد بالنضج والازدهار الذي بلغه الفن المعماري المريني، وأول مدرسة شيّدت في مدينة فاس العتيقة كانت مدرسة "الصفارين"^(*)، شيّدها السلطان "أبو يعقوب بن عبد الحق" سنة 670هـ / 1271م، بجوار سوق صناعة النحاس وأوقف عليها أوقاف وأجرى على الطلبة المرتبات، ومدرسة الشهود أو القاضي بمكناس شيّدها "أبو يعقوب بن عبد الحق" أيضا سنة 674هـ / 1275م⁽¹⁾.

وتتميز القرن 8هـ / 14م باشتداد الحركة العمرانية في مدينة فاس وبعض المدن المغربية الأخرى، وكان الإقبال على إنشاء المدارس فيها من طرف السلاطين كبيرا، ففي عهد السلطان "أبي سعيد عثمان" (1310هـ / 1331م) أنشأ في فاس الجديدة مدرسة دار المخزن أو مدرسة فاس الجديد سنة 721هـ / 1321م، ومدرسة الصهرح بفاس القديم سنة 723هـ / 1323م و "السبعيين" في نفس التاريخ، وآخر أعمال هذا السلطان كانت مدرسة العطارين سنة 725هـ / 1325م. وواصل السلطان "أبو الحسن" (731 - 749هـ) في حياة والده وبعده النشاط المعماري في تشييد المدارس كمدرسة الصفارين كأول مدرسة بمدينة فاس في حوالي سنة 670هـ / 1271م، ويشير "ابن مرزوق" أنه أنشأ في كل بلدة من بلاد المغرب

(*) - سميت بهذا الاسم لأنها أنشأت بالقرب من السوق الذي تصنع فيه أواني النحاس الأصفر، لمزيد من المعلومات يُنظر:- الحريري محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، 1408هـ / 1987م، ص324.

(1) - نفسه: ص324. يُنظر كذلك: أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص138.

الأقصى والأوسط مدرسة، كمدرسة تازا ومدرسة في مكناسة وسلا (1341/هـ/742م) والمصباحية (1346/هـ/747م) وطنجة وسبتة وأنفي وأزمور وأسفي وأغمات والقصر الكبير والعباد بتلمسان سنة 1348/هـ/749م، وأخيرا المدرسة البوعنانية التي شيدها أبو عنان فيما بين (751 - 756 هـ / 1350 - 1355 م) (1).

أما عن أول مدرسة أسست في تلمسان الزيانية فهي "مدرسة أولاد الإمام"، أنشأها "أبو حمو موسى الأول" حوالي 1310/هـ/710م للأخوين العالمين الفقيهين "أبو زيد عبد الرحمن" و"أبو موسى عيسى" من مدينة برشك قرب تنس، استقدمها إلى تلمسان للتدريس بها (2). ثم أنشأت المدرسة الثانية المسماة "بالمدرسة التاشفينية" نسبة للسلطان "أبي تاشفين عبد الرحمن" (718 - 733 هـ / 1318 - 1336 م)، وتلتها "المدرسة اليعقوبية" التي شيدها "أبو حمو موسى الثاني" تخليدا لذكرى والده "يعقوب" وذلك في الفترة 763 - 765 هـ / 1361 - 1365 م (3).

كانت المدرسة الزيانية مؤسسة سلطانية النشأة والتمويل، أقيمت خصيصا لإيواء الطلبة وتدريس العلوم، وخاصة منها المقترنة بالمذهب المالكي لتعزيز مكانته في الدولة بتخريج العلماء العاملين بمقتضياته على المستوى الشعبي والمخزني، وتحقيقا لهذه الغايات الكبرى وتقديرا منهم للعلم والعلماء، تفنن الزيانيون في تخطيط مدارسهم (4).

لقد استمر الاهتمام ببناء المدارس خلال الفترة العثمانية، فهذه الجزائر التي انضوت تحت لواء الخلافة الجديدة، بنيت فيها العديد من المدارس في مدنها الكبيرة والصغيرة، مما ساهم ذلك في تنشيط الحركة التعليمية فقد كثرت فيها المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري...", المرجع السابق، ص 90. وكذلك:

- بن قرية صالح: المرجع السابق، ص 138، - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 138،

(2) - ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400/هـ/1980م، ص 130. يُنظر كذلك: - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري..." المرجع السابق، ص 90. وكذلك:

- Marçais. W et Marçais. G: les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, p185.

(3) - لعرج عبد العزيز: "المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، مجلة دراسات إنسانية، العدد 1، 2001، جامعة الجزائر، ص ص 119 - 122.

(4) - بن قرية صالح: المرجع السابق، ص 140.

بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس، بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباطات، وكانت الأوقاف والصدقات تؤدي دورا هاما في انتشار المدارس ونشر التعليم.

فدروس "سعيد قدورة" بالعاصمة ودروس "سعيد المقرئ" في تلمسان ودروس "أبي راس" في معسكر و"عبد الكريم الفكون" في قسنطينة و"أحمد البوني" في عنابة، كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقي، غير أنّ شهرة هؤلاء العلماء كانت نتيجة جهودهم الشخصية، وليس نتيجة انتمائهم لنظام شامل تخضع له المؤسسات التابعة لها فالدروس التي كانت تلقى في مساجدها الكبيرة وزواياها تضاهي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجوامع الكبرى في المشرق والمغرب العربي كالجامع الأموي في دمشق، وكذلك في جامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس.

ونجد أنّ المدن الرئيسية بالجزائر خلال هذه الفترة، اشتهرت بكثرة مدارسها ذات التعليم الثانوي العالي⁽¹⁾، فمدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية عُرُفت قبل مجيء العثمانيين، بوفرة المدارس والعلماء رغم تدهورها السياسي، فبالإضافة إلى المدارس الابتدائية كان بها على الأقل خمس مدارس ثانوية وعالية. وهذه المدارس هي التي أشاد بها الكاتب المغربي "الحسن الوزان المعروف بـ ليون الإفريقي"⁽²⁾، كما وجد الفرنسيون بها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي منها مدرسة أولاد الإمام، ومدرسة الجامع الكبير. وكان بمدينة قسنطينة تسعون مدرسة ابتدائية وسبعة مدارس للتعليم الثانوي العالي مثل المدرسة الكتانية، التي أنشأها صالح باي، والتي تميزت بانضباطها وتعليمها العالي، حتى قورنت بالمدارس الأوروبية المعاصرة⁽³⁾. وفيما يخص مدينة الجزائر فكان بها حوالي مائة مدرسة ابتدائية وثلاث جامعات لتدريس الفقه المالكي⁽⁴⁾.

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص ص 273-274.

(2) - الوزان الحسن بن محمد: المصدر السابق، ج2، ص19.

(3) - مريوش أحمد وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، طبعة خاصة، المركز الوطني لدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص17.

(4) - Michel, J: **Op.cit**, p216,

- يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق، ج1، ص276.

- Berteuil. A: **L'Algérie Française, Histoire-Mœurs-Coutumes-Industrie-Agriculture**, tome premier, Dentu Libraire éditeur, Paris, 1856, P46.

وتنوعت العلوم والمعارف التي تُدرّس إلى ثلاثة أصناف وهي:

أولاً: العلوم الدينية، مثل تحفيظ القرآن الكريم وشرحه وتفسير الحديث وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول، مثلما كان في مدرسة مازونة⁽¹⁾.

ثانياً: علوم اللغة والأدب: كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء باعتبارها أداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينية.

ثالثاً: العلوم الطبيعية والتجريبية: كعلم الفلك والحساب والطب والصيدلة العشبية وغيرها وتوجد بالجزائر مجموعة من هذه المدارس ما يزال البعض منها قائماً حتى اليوم، ولو كهياكل مثل مدرسة أبي مروان بعنابة، "سيدي بومدين بتلمسان" "سيدي عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر" و"سيدي لخضر" و"الكتانية" بقسنطينة، وكانت هناك مدارس بمازونة ومليانة وندرومة وغيرها⁽²⁾.

2-3- طريقة التعليم في المدارس خلال العهد العثماني:

من خلال تفحص مختلف المصادر التاريخية نتوصل إلى معطيات، تبين لنا التنظيم المحكم المعمول به في المؤسسات التعليمية خلال الفترة العثمانية، إذ تنقسم إلى مجموعة من الأطوار مكتملة لبعضها البعض، حيث يمر المتعلم عبر عدة مراحل من أجل تطوير مستواه وترقيته، وهذا تفصيل للأطوار التعليمية المتبعة:

أ- التعليم الابتدائي: كان يتم هذا النوع من التعليم في غالب الأحيان فيما يسمى بالكتاتيب أو المدارس الابتدائية، يتلقى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والرابع عشرة سنة فيها تعليماً محدوداً، يتمثل في تلقينهم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ومن هنا يتبين لنا مدى أهمية هذا الطور، حيث كانوا يتعلمون القراءة والكتابة عن طريق لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب عليها بسهولة، وعلى هذه اللوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن، ثم يقوم بقية التلاميذ بنقلها بعناية كل على لوحته، ويعلم الدرس تلميذ كبير أو معلم بصوت

(1) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... المرجع السابق، ج1، ص211. يُنظر كذلك:

- بوجلال قدور: العلم و العلماء في بايلك الغرب 1711-1830 - معسكر ومازونة نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2008-2009، ص 186.

(2) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... المرجع السابق، ج1، صص 211-212. يُنظر كذلك:

- مريوش أحمد: المرجع السابق، ص17.

أنواع الوقف كثيرة وليس من السهل حصرها، فهناك من يوقف عقارا من أرض أو دكان أو دار أو نحو ذلك، ويستعمل في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل. ومن أهم أغراضه العناية ليس العناية بالمدارس فقط بل تعدى إلى المساجد والزوايا والأضرحة، ويظهر من ذلك أهميته في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فهو مصدر العيش لهذه المؤسسات التعليمية وغيرها من المؤسسات الدينية كما أنه مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب ومعيشة العلماء والطلبة، وهذا ما ذكرته مختلف المصادر عن أوقاف المؤسسات الدينية والتعليمية في الجزائر، ومساهمتها في تطور العلم واستمرار طالبه، فرغم الإهمال الذي كان يحدث لبعض مصادر الوقف بين الفينة والأخرى من سرقة ونهب، إلا أن الحكام والولاة كانوا يعيدونه عندما يعلمون بذلك، كما حدث في فترة حكم "الباي محمد الكبير"، الذي أعاد أوقاف المساجد والمدارس والزوايا خاصة في مدينة تلمسان (1).

وهكذا تتضح أهمية مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، فقد كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها في هذا المجال خدمة الدين والتعليم.

ب - الصدقات والتبرعات: كانت تقدم من طرف المحسنين، على كافة أطيافهم، سواء كانت عبارة عن بضائع كالأفرشة، أو مواد غذائية كالمأكولات، أو في شكل نقود أو مجوهرات هي بمثابة مورد مالي هام جدا، يتمثل أساسا في أموال الزيارات، خاصة إذا كانت بجوار ضريح، وكذلك الوعدات^(*) التي تتضمن خلال فترة معينة، أين تصرف هذه الأموال على الطلبة لحفظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها من وكلاء، مقدمين، مؤذنين، الأئمة والمشايخ. (2)

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، من ص227 إلى ص231.

(*) - الوعدات: هي عبارة عن مناسبات سنوية تدخل ضمن العادات والتقاليد، تقام خصيصا لإحياء ذكرى الألياء الصالحين، حيث يتم فيها توزيع الصدقات وإقامة الاستعراضات من طرف فرق الخيالة.

(2) - بوعزيز يحيى: موضوعات وقضايا... المرجع السابق، ج1، ص280.

2-5- مدارس معسكر:

2-5-1- المدرسة المحمدية:

2-5-1-أ- نبذة تاريخية:

تعتبر المدرسة المحمدية بأمر معسكر من بين المدارس المشهورة بالجزائر خلال العهد العثماني⁽¹⁾، فهي تنسب إلى بانيها أبي الفتوحات المنصور بالله محمد بن عثمان فاتح وهران⁽²⁾، الذي شيدها إلى جانب الجامع الأعظم المسمى بجامع عين البيضاء، وذلك تماشياً مع التقاليد الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة لجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس⁽³⁾، وكان الفراغ من بنائها سنة 1196هـ، حيث عين الباي أعظم عالم كمدير لها، وهو الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي⁽⁴⁾، الذي اشتهر بتنظيم رباط وهران⁽⁵⁾.

اعتبرت هذه المدرسة من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد الكبير بالغرب الجزائري، لما كان لها من صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، وصارت أكبر معهد علمي، يضم أساتذة أكفاء متفرغين لمهمة التعليم لا غير⁽⁶⁾، مثل: "محمد مصطفى بن زرفة الدحاوي" و"الطاهر بن حواء" وغيرهم من العلماء الأجلاء⁽⁷⁾، فكانوا بمثابة الموجه للتلميذ والمرشد للمجتمع، والأستاذ والإمام أحياناً، والمفتي أحياناً أخرى، والقاضي في غالب الأمر⁽⁸⁾، وتمكن محمد الكبير بفضل تلك المدرسة أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة

(1) - كما عُرفت بمدرسة الحايطة، كما ورد على اللوحة التذكارية للجامع، للمزيد يُنظر: Leclerc : Op,cit, p44.

(2) - أبي رأس الناصري: المصدر السابق، ص188.

(3) - جاك لحسن: المرجع السابق، ص30.

(4) - محمد بن عبد الله الجيلالي: هو محمد بن عبد الله بن الموفق بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن محمد المشهور بأبي جلال، أحد أحفاد الولي الصالح محمد بوجلل، يرجع نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد في معسكر، وبعد من أبرز علماء الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر الميلاديين، تلقى علمه على يد علماء فاس، ورجع من هناك غزير العلم نفع به طلابه المتعطشين. وذهب إلى الحج حيث التقى بعلماء المغرب والمشرق، من جملة من تخرج على يده العالم محمد بن حواء بن يخلف، والعالم الكبير أحمد بن سحنون الراشدي، لمزيد من المعلومات يُنظر: - بن جلول أحمد البدوي، رسالة النسب، د.ط، الجزائر، 1990، ص33.

(5) - بوعبدلي المهدي: "مراكز الثقافة وخزائن الكتب"، مجلة الأصالة، ع 11، 1973، ص94.

(6) - فركوس صالح: "الباي محمد الكبير"، مجلة الثقافة، العدد71، ص17.

(7) - عليو محمد: المرجع السابق، ص135.

(8) - عميراوي احميدة: من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ت، ص207.

علمية كبيرة، بدليل ما قاله أبو رأس الناصر بشأنها: " إن المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلمه كالمدرسة البوعنانية بفاس ومدرسة ابني الإمام بتلمسان والمدرسة المستنصرية والباشية بتونس والقشاشية في الجزائر⁽¹⁾". وقد وصفها الكثير من الشعراء منهم: السيد أحمد بن السيد محمد بن علال المشور بالمقري القرومي في قوله⁽²⁾:

وترى المدرس قد علا كرسيه يلقي على العلماء حب الجواهر
تحويه مدرسة غدت آثارها تحييه بالعلم الشريف الأشعري
تمحي رسوم الجهل من ألواحه تحمي شمائله من الزور السري

ويصفها ابن سحنون الراشدي قائلا: " كاد العلم أن يتفجر من جوانبها"⁽³⁾.

أما المواد المدروسة فلا تقل عن المواد التي كانت تدرس بأشهر الجامعات الإسلامية، حيث يطغ عليها الجانب الديني واللغوي، وبعض كتب التاريخ والسيرة⁽⁴⁾. إذ تخصصت في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية، فمن كتب الفقه نجد: حواشي شرح الشيخين "الزرقاني" و"الخرشي" وحاشية الشيخ "المكودي"، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ "الفيروز أبادي" ومقامات الحريري وفي الأصول شرح الشيخ المحلي بالإضافة إلى كتب أخرى في التصوف والمنطق وعلم البيان وغيرها من العلوم النقلية⁽⁵⁾.

ويمكن الإشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أن العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها ظلت الشغل الشاغل للمدرسة المحمدية، حيث أدى التركيز عليها إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى غير أنه يجدر بنا الإشارة إلى أن بعض المدرسين بها، قد تطرقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقلية كالحساب والفرائض والفلك، ولكن دراستها لم تكن إلا

(1) - أبو رأس محمد الناصري: المصدر السابق، ص 188

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 131.

(3) - أبو رأس محمد الناصري: المصدر السابق، ص 127.

(4) - جاكّر لحسن: المرجع السابق، ص 30.

(5) - حمدادو بن عمر: المرجع السابق، ص 43.

بمعلومات قيّمة، حيث أنه أدلنا على مكانها الأصلي الذي هو اليوم عبارة عن فضاء مكشوف تابع للجامع، كما أخبرنا باكتشاف آثار للمدرسة خلال عملية حفر أساس سور خارجي تتمثل في قطع من الآجر والقرميد والزجاج، الأمر الذي دفعهم للبحث عن أساسها الأصلي، لكن دون جدوى مما يؤكد طمس ومحو الاحتلال لها. وبعد ذلك قمنا بالبحث في مختلف المصادر والوثائق والمخططات المحفوظة في الأرشيف الوطني بأكس أوبروفانس في فرنسا والمتعلقة بمدينة معسكر ووضعية معالمها الأثرية خلال فترة الاحتلال، إلا أننا لم نجد أي وثيقة تتعلق بها.

وأمام هذه الصعوبات التي واجهتنا في معرفة المخطط المعماري للمدرسة، لم يبق أمامنا إلا محاولة إعادة تصور مخططها اعتمادا على مخطط مدرسة خنق النطاح بمدينة وهران التي بنيت من طرف نفس الباي وهو محمد الكبير، وكذلك بعض مخططات المدارس الأخرى. لقد كان مخطط المدرسة في بلاد المغرب في أغلب الأحيان يتكون من صحن أوسط يلتف حوله رواق أو أكثر من جهة أو من الجهات الأربع، تفتح عليها قاعة الدرس وبيوت الطلبة وبقية المرافق، واستمر هذا الطراز خلال العهد العثماني في الجزائر ويظهر ذلك في بعض النماذج نذكر منها: مدرستي سيدي الكتاني والجامع الأخضر بمدينة قسنطينة ومدرسة خنق النطاح بوهران⁽¹⁾.

2-6- المكتبات:

لقد كانت أغلب المؤسسات والمراكز العلمية في الجزائر مزودة بمكتبات يلج إليها الطلبة للبحث وتطوير معارفهم، إذ أن التعليم لم يكن مقتصرًا على ما يلقنه المدرس فقط، بل تعدى إلى الاعتماد على القدرات الشخصية للطلاب لرفع المستوى أكثر، وهذا بزيارة المكتبة لذلك يمكن اعتبار المكتبة من المؤسسات التي لا يمكن الاستغناء عنها، فبدونها لا يتسنى للمساجد والمدارس القيام برسالتها التعليمية والثقافية على أكمل وجه⁽²⁾.

وانطلاقًا من الأهمية الكبيرة للمكتبة، فقد اتخذت عدة إجراءات لتطويرها منها التشجيع على حركة النسخ والتأليف، سواء كانت من المؤسسة أو من الحكام، كما فعل الباي "محمد

(1) - دحدوح عبدالقادر: المرجع السابق، ص 515، يُنظر كذلك: - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 163.

(2) - فركوس صالح: "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية"، مجلة الثقافة، العدد 71، السنة 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 24.

الكبير" في معسكر وغيرها، فكان التأليف من الطرق الهامة لنمو المكتبات، بالإضافة إلى الاعتماد على جلب الكتب من الخارج، إذ كان الشراء من أهم الطرق للحصول على الكتب خاصة من الجامعات الكبيرة كالزيتونة والأزهر وغيرها؛ وكانت تنقسم إلى قسمين: مكتبات عامة ملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، وهي مفتوحة للطلبة خصوصا، ثم لجميع القراء المسلمين، وقد ذُكر أنه كان في تلمسان مكتبة عامة خلال القرن 11هـ/17م. أما القسم الثاني فهو ما يعرف بالمكتبات الخاصة، التي كانت كثيرة، وهي ملك للأفراد والعائلات دون غيرهم⁽¹⁾.

2-6-1- مكتبة المدرسة المحمدية:

ولكي تؤدي هذه المدرسة رسالتها العلمية والثقافية على أكمل وجه، فقد جهزها الباي بخزانة تحتوي أنفس الكتب والمخطوطات، التي اشتراها من ماله الخاص مهما كان ثمنها، حيث قال صاحب الثغر الجماني في ذلك: "ولمحة هذا الأمير للعلم والأدب، كان يشتري كتبه بالثمن البالغ، ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكة ببيعه"⁽²⁾، وجعل كتبها من بين الأوقاف، التي حبسها على طلبة المدرسة وأساتذتها⁽³⁾.

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي... ج1، المرجع السابق، ص ص 296-297. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المؤسسات الدينية... المرجع السابق، ص 117.

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 147. يُنظر كذلك:

- Caporal. B: Op.cit, p16.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28.

3- الزوايا:

3-1- تعريف الزاوية:

أ- لغة:

الزاوية في البيت ركنه، وجمعها زوايا، وهي مشتقة من فعل زوى، وانزوى، أي صار فيها. (1) ومصدره الزوي أي: العدول من شيء إلى شيء (2)، ويقال زوى الشيء أو زاوه بمعنى قبضه وجمعه، مما يفيد التركيز والتمكن من الشيء أيضا (3) "زويت لي الأرض جمعت وطويت" (4)، فهي ركنه الذي يجمع فيه بين قطرين، ويضم منه ناحيتين، ومنه زوى الشيء جمعه أو اختاره، وزوى الكلام، هياً في نفسه، وانزوى القوم إلى بعضهم البعض، تضامنوا ومنه كذلك زيا الشيء نحاه، واعتزل، وانفرد، وصار في زاوية. (5) وسميت بذلك لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين، اختاروا الإنزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه، طلبا للهدوء والسكون، اللذين يساعدان على التأمل والتدبر ويناسبان جو الذكر والعبادة، وهي من الوظائف الإسلامية، التي من أجلها وجدت الزاوية (6).

ب- اصطلاحا:

تعني الزاوية في اصطلاح المسلمين ذلك المكان أو المحل المعد للعبادة والتزهد، كما تعني مدرسة لتتقيف العقول دينيا وأدبيا، وتعتبر أيضا نمطا خاصا من أنماط التعمير وتنظيم المجال (7)، فالأصل فيها أنها ناحية في المسجد يجلس عندها أحد العلماء عند إلقاء دروسه

(1) - الفيروزي آبادي: القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003، ص1292.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج2، ص67.

(3) - حجاج محمد عبد الرزاق: الزوايا والمجتمع والسلطة بالمغرب، دراسة حول الزاوية الخلميشية بالريف الأوسط، ج1 أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهرز، فاس، 2001-2002، ص180.

(4) - ابن منظور: المصدر السابق، مج14، ص363.

(5) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - سي فضيل منى: الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2005/2004. ص128. وكذلك:- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مطبعة النخلة، الجزائر، د.ت، ص27.

(6) - مؤيد عقبي صلاح: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر (تاريخها ونشاطها)، طبعة خاصة، دار البصائر، 2009 ص204.

(7) - حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص180.

على الناس، وكان لكل عالم مكان خاص به، يداوم على الحضور فيه، وكان الناس يطلقون على هذا المكان اسم "الزاوية"، فيقولون هذه زاوية الشيخ الفلاني، أي المحل الذي اختاره لجلوسه عند إلقاء دروسه على طلابه، فلما انتشر التدريس خارج المساجد وأصبح لكل عالم أو أكثر بناء مستقل يحضر فيه الطلاب، اصطاح الناس على إطلاق اسم الزاوية على هذا البناء، كما اصطاحوا على تسمية من يلزم الحضور إلى هذه الزاوية أو يتجرد لخدمتها باسم الزاوي أو الزواوي⁽¹⁾، وبالتالي يمكن القول أنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مريدوهم لذكر الأوراد، وهي بيوت ملاصقة للمساجد خصصت للذكر والعبادة والاعتكاف والانقطاع للتأمل والتفكير والتدبر وأطلقوا على تلك البيوت اسم "خانقاه"^(*)، ويقابل لفظ الزاوية في الثقافة العربية الإسلامية لفظ الركن⁽²⁾.

وأهل الزاوية من المريدين يؤلفون فيما بينهم عالماً قائماً بذاته، ومجتمعاً له طبقاته المتفاوتة من حيث أهمية كل فرد ومكانته السلوكية وهم على الترتيب التالي:

- أ- المتجود: وهو المنقطع في الزاوية لعبادة الله، لا يعنيه شيء من هموم الدنيا ومطامعها.
- ب- السائح: وهو الذي يأتي إلى الزاوية كعابر سبيل، يمكث بعض الوقت فيها، ثم يستأنف رحلته إلى حيث يريد.
- ج- المنتسب: هو الذي يتردد على الزاوية، على أنه لا يقيم فيها، وإنما هو يسعى لكسب رزقه بعمله.

وجميع هؤلاء يدعون بـ"الفقراء"^(*) وربما دُعا كذلك بـ"الدرأوش"^(**)، ورئيس (شيخ) الزاوية يقال له "خليفة"، وذلك فيما يقولون أن "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه خلفه على

(1) - الولي طه: المرجع السابق، ص 91.

(*) - الخانقاه: جمع خانكاه، فهي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها "خَوْنَقَاه" أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، إذن تكون الخانكاه نوعاً من المعابد التي يعيش فيها نفر من المسلمين، الذين حبسوا أنفسهم على التعبد دون أن يزولوا أي عمل من شؤون الدنيا، معتمدين على ما يوقفه عليهم مما يكفيهم من مطعمهم وملبسهم وغير ذلك من أغراض الدنيا، التي لا بد منها لمعاشهم وحياتهم اليومية. لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ط2، مطبعة التقدم، القاهرة ص89. وكذلك: الولي طه: المرجع السابق، ص89.

(2) - زاهي نور الدين: طبيعة وآليات الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1991 - 1992م، ص75.

(*) - هؤلاء القوم أخذوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الفقر فخري"، وهم يزعمون أن سيدنا "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه كان يقود فريقاً من الفقراء، وأن سيدنا "علي" كرم الله وجهه كان يقود فريقاً آخر. لمزيد من المعلومات يُنظر:

فقراءه "سلمان الفارسي"، وهذا خلفه من بعده "الحسن البصري"، فكان كل من "سلمان" و "الحسن" يسمى "خليفة"، ولهذا صار يُطلق على كل شيخ من مشايخ الزاوية لقب "خليفة الزاوية"⁽¹⁾.

كانت الزاوية محلا للتعليم ففيها يتم تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث والتوحيد، والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والبلاغة⁽²⁾، وأطلق كذلك على اسم الزاوية المدرسة، لكون تلك الزوايا تضم أحيانا علماء وفقهاء، يلقون الدروس المتقدمة في مختلف العلوم⁽³⁾، وكان التعليم فيها متدرجا في ثلاث مراحل وهي:

- **مرحلة المبتدئين:** كان التلاميذ في هذه المرحلة يتلقون تلقين الحروف والكتابة، وبعدها يدرسون القواعد النحوية وكتب الأجرومية وملحقة الإعراب والأزهرية، وفي مادة الفقه الإسلامي كتب بن عاشر ورسالة بن أبي زيد القيرواني، إلى جانب كتب التوحيد والبلاغة.

- **مرحلة المتوسطين (المستوى الثانوي):** يدرس الطلبة في هذه المرحلة القواعد في كتب "قطر الندى" و"شذور الذهب" وكتاب "الشيخ خليل" في الفقه المالكي.

- **مرحلة المنتهين (القسم العالي):** يتلقى الطلبة فيها دروسا في تفسير القرآن في كتاب "تفسير الواحدي"، والحديث في كتاب "بن أبي حمزة"، والفقه في كتاب "الدير على الشيخ خليل"، إضافة إلى أصول الفقه، التاريخ الإسلامي، السيرة النبوية، المنطق والحساب لعلاقته الوثيقة بعلم الموارد والفلك لمعرفة أوقات العبادات⁽⁴⁾.

- الولي طه: المرجع السابق، ص 94.

(**) - الدراويش: كلمة أعجمية مؤلفة من كلمتين: "دُرّ" معناها "في"، و "بيش" معناها "طرف"، فجمعت هاتان الكلمتان بالعربية في لفظة واحدة، بعد إبدال الباء التي في أول "بيش" بـ"واو" فأصبحت "درويش"، والمراد بأصل معنى هذه الكلمة "المنزورون في الأطراف"، ولهذا فإن الزوايا تكون عادة بأطراف المدن، بعيدا عن منازل الناس. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- الولي طه: المرجع السابق، ص 93.

(1) - نفسه.

(2) - مؤيد عقبي صلاح: المرجع السابق، ص 634.

(3) - ابن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 22.

(4) - شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع وهران، د.ت، ص ص 69 - 70.

ج- عمارة:

أما من الناحية المعمارية فهي نوع من الأبنية الدينية الخالية من المئذنة والمنبر وتضم ميضأة وغالبا ضريح مؤسسها، أو أحد رجال الله الصالحين، وبها قاعة تقام فيها الصلوات الخمس، ماعدا الصلوات الجامعة⁽¹⁾، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلامية وأخرى لسكنى الطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف وإيواء الحيوانات التي تستغل في أعمال الزاوية⁽²⁾، بالإضافة إلى خلوات لنسائك يبغون العزلة والإنفراد للعبادة⁽³⁾، ويلحق بها عادة مقبرة للذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها⁽⁴⁾ وعن مخططها ففي أغلب الحالات يقترب من المدرسة منه إلى المسجد، إذ أنها تعتمد على جدار القبلة كقاعدة لتخطيط البناء⁽⁵⁾، لكنها تختلف عنها لكونها قصيرة منخفضة القباب والعرضات، قليلة النوافذ، فهي في مظهرها العام لا تتسم بالجمال، إضافة إلى أنها كثيرة الرطوبة والعنمة وشكلها يوحي بالعزلة والنقش والهدوء⁽⁶⁾، وخلاصة القول أن الزاوية مكان للعبادة ومأوى ومدرسة.

3-2 - عوامل وأسباب ظهور الزوايا:

إن تاريخ ظهور الزوايا يشوبه نوع من الغموض، إذ اختلف الباحثون عن إعطاء تاريخ معين لتأسيسها، وهذا نظرا لعدم وجود أدلة واضحة تشير إلى ذلك، ويصعب علينا تحديد دقيق لتاريخ ظهورها، لأن المسجد في بداية الأمر كان يأخذ على عاتقه وظيفة التدريس الذي كان لصيقا به، ومرتبطا بالدين والعقيدة⁽⁷⁾، كما أدت المساجد دورا هاما في

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 211.

(2) - بوعزيز يحي: المساجد العتيقة... المرجع السابق، ص 15.

(3) - علم الدين سليمان سليم: التصوف الإسلامي (تاريخ، عقائد، طرق، أعلام)، ط1، مطبعة نوفل، بيروت، 1999 ص 638.

(4) - نسيب محمد: المرجع السابق، ص 27.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 211.

(6) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار المغرب الإسلامي، 1998، ص 270.

(7) - عزوق عبد الكريم: المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007 / 2008، ص 73.

وترجع المصادر التاريخية والدينية إلى أن ظهور الزوايا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بظهور الزهد، الذي انبثق عنه ما يُعرف بالتصوف (3)، الذي هو عبارة عن الامتناع عن الدنيا وملذاتها والتفرغ للعبادة ومجاهدة النفس وحملها على الأخلاق الجميلة، أو بصيغة أخرى هو تعبير عن حاجة النفس الإنسانية إلى الإستكانة إلى منطقة روحية خالصة، وإلى تناول المعرفة بالحدس والذوق والوجدان، وذلك لأن النفس الإنسانية تشعر بالخواء عندما تجد نفسها بحكم الحياة المادية الصرفة، منصرفة إلى حقائق المحسوسات وحدها، مما يجعلها تعيش في خواء من أثر تناولها الحياة في شكلها الظاهري، ومعنى ذلك قصور النفس وعجزها في تلك الحالة عن التفاعل مع الحياة في جانبيها الروحي والمادي على السواء (4).

لقد مر التصوف الإسلامي بمراحل تطور مختلفة، بدأت من مظهر الزهد والتعبد والتفكير في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين إلى مظهر ترك الحياة الدنيا والتفرغ للعبادة الفردية في العصر الأموي، وهو مظهر زاد من حدته الغبن والجور الذين أصابا كثيراً من العامة، نتيجة تحول الخلافة إلى ملك عضوض في هذا العصر (5)، واستغلال الثروة والمال من جانب الخلفاء في مظاهر الترف والرفاهية على حساب الفئات البسيطة من

(1) - عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية ومعمارية وفنية، أطروحة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1999. ص 295.

(2) - كامل صدر: العمارة العربية الإسلامية، الإسكندرية، 1995، ص 14.

(3) - بركات محمد البيلي: الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1993، ص 90.

(4) - حلمي محمود: اللقاء بين التصوف الإسلامي والتجريد التشكيلي، دراسات تاريخية وأثرية، ج 3، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، 1969، ص 96-97.

(5) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص 218.

المجتمع. واشتدّ هذا التيار قوة في عهد العباسيين وبدأت ظاهرة التعدد والتنظيم الجماعي لفئة المتصوفة، ودخلت الدولة في صراع معهم تحت تحريض الفقهاء وقوى ذلك من عزم هذه الفئات وساعد على تبلور نظامها، وعلى انتشار أفكارها، وازدياد أعداد المتصوفة، ومع كثرة أعدادهم وتبلور نظامهم، واستقرار قواعد ومناهج التصوف، كانت مهادنة الدولة إياهم والاعتراف بهم، فأنشأت لهم مبان خاصة بهم، يخلتون فيها للعبادة ويقيمون فيها إقامة تامّة أطلق عليها "الخانقات".

يقول المقرئزي أن الخوانق حدث عملها في الإسلام خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وهي بيوت أعدها الصوفية لكي يخلو فيها إلى عبادة الله تعالى، بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى⁽¹⁾، إلا أن بعض الباحثين يرون أنّ بداية إنشائها كان في نهاية القرن الخامس الهجري بإيران، فأعطيت لها اهتماما كبيرا ووقفت الأوقاف الكثيرة عليها، وبدأ الاتجاه السياسي في اعتمادها أداة من أدوات نشر المذهب السني، مما ساعد على انتشارها⁽²⁾ - فقد كان الاهتمام بها إذن - له أهداف سياسية ومذهبية، تدخل في إطار محاربة التشيع الفاطمي والرغبة في نشر وتثبيت أركان المذهب السني في مصر والعالم الإسلامي. وكان ذلك على يد السلاجقة الذين وقفوا في وجه المد الشيوعي بالعراق والشام كما تبقى سياسة السلطان "صلاح الدين الأيوبي" في هذا الإطار مثلا واضحا على ذلك⁽³⁾ حيث أنه أدخلها إلى مصر بعد القضاء على الفاطميين لتدعيم نشر المذهب السني، واعتمد إنشائها على المماليك، وتطورت تطورا كبيرا في عهدهم، فحدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة في هذا العصر، وأصبح هناك ما يسمى "الطالب المتصوف" و"المتصوف الطالب" فأدت المدرسة وظيفة الخانقات وأدت الخانقات وظيفة المدرسة⁽⁴⁾.

لقد ظهرت طرائق ومناهج مختلفة في التصوف لكلّ منها شيوخ، وانتشرت هذه الطرائق في البلاد الإسلامية، ودخلت في عالم التصوف شوائب كثيرة، وأصبحت الحياة في

(1) - المقرئزي تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص414.

(2) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص218. يُنظر كذلك:

- بعارسية صباح: حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005 / 2006، ص49.

(3) - حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص180.

(4) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص ص218 - 219.

مباني التصوف مدعاة إلى التواكل والكسل لما يجده الناس من موارد الحياة الرغدة المريحة المعتمدة على الأوقاف الموقوفة على هذه المباني، فكانت المطامع المادية في كسب هذه الحياة بعيدا عن حياة البؤس والفقر التي تعيشها طبقات العامة، فدخل في هذا المجال من هم ليسوا أهلا له، ففسد مظهر التصوف وانتقد أهله، وحدث ذلك في عهد المماليك الجراكسة، الذي فسدت أحوال المتصوفة فيه فسادا واضحا، فاننقذت التكايا التي هي مباني المتصوفة وأهلها في ذلك العصر⁽¹⁾.

أما عن وجود الزوايا في المغرب الإسلامي فهو لا يختلف كثيرا من حيث ظروف وتاريخ الظهور، وقد سبق وجود هذه المؤسسة الدينية، منشأة معمارية دفاعية تسمى بـ"الرباط"، المأخوذ من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"⁽²⁾، وكذلك في قوله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا..."⁽³⁾، إذن فالرباط مرتبط ارتباطا وثيقا بالجهاد والدفاع عن النفس، ومنه يمكن تعريفه بالحصون التي تبنى على الحدود، أو ما يعرف بالثغور التي تفصل البلاد الإسلامية وبلاد العدو، وكانت لها خطة خاصة في بنائها، تتكون عناصرها الأساسية من سور حصين يحيط بالرباط ويحميه من الخارج، وتقام في الداخل حجرات للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرج للمراقبة والإشارة، ويتكون الرباط أحيانا من قصر (حصن)، أو عدة قصور، أو محارس متجاورة أحيانا أخرى، وتقطنه حاميات من الجند المتطوعين، وعادة ما يصطحب هؤلاء الجنود أسرهم معهم، ويزاولون أعمالهم اليومية بصورة طبيعية لكسب أقاتهم وأرزاقهم، دون الطمع في أجر أو هبة من الأمراء والحكام، ودون أن يلهيهم ذلك عن الاستعداد للحرب كلما دعا إليها داعي⁽⁴⁾.

كان ظهور الأربطة خلال القرن الثاني للهجرة الموافق للقرن الثامن الميلادي على سواحل إفريقية، لكونها أكثر عرضة للخطر من غيرها من السواحل المغربية، فقد عجت بالرباطات التي انتشرت على طول امتدادها، ثم تلتها في ذلك بقية السواحل المغربية، وصار

(1) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص 219.

(2) - سورة الأنفال: الآية 16.

(3) - سورة آل عمران: الآية 200.

(4) - بركات محمد البيلي: المرجع السابق، ص 66. يُنظر كذلك:

- خالف محمد نجيب: "الأربطة"، مجلة آثار، العدد 06، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، ص 90.

للرباط نظاما عسكريا دينيا، له أصوله وقواعده، وما لبث أن عبر إلى الأندلس خاصة بعد إغارات النورمان الأولى على الأندلس في إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم⁽¹⁾. والمعروف أنّ أول رباطات إفريقية إنشاء وأكثرها شهرة هو رباط "المنستير"، الذي أنشأه "هرثمة بن أعين" إبان ولايته على إفريقية، ثم انتشرت الربط على طول الساحل الإفريقي، فقد تحمس أولو الأمر والناس لإقامتها، يدفعهم إلى ذلك دوافع أمنية ودينية، إذ ابتغوا بها مرضاة الله وثوابه، فأقيمت الربط في سوسة وشفافس وغيرها، وحض المسلمون بعضهم بعضا على سكنى الرباط والحرس فيه اجتهادا واحتسابا، وكان للزهاد والعباد في ذلك الدور الكبير.

انقسمت الربط على الساحل المغربي إلى نوعين: أحدهما قامت الدولة على تشييده والإنفاق عليه، والآخر أقامه الأفراد احتسابا ومشاركة مع الدولة في الجهاد بإذن منها وتنسيقا معها، وإذا استعرضنا سلسلة الربط التي أقيمت على امتداد هذا الساحل من شرقه إلى غربه وجدنا عدة مناطق رئيسية، كان يتجمع في كل منها عدد من الربط المتجاور أو المتقاربة مثلما كان في "طرابلس" وفي شفافس وسوسة والمنستير وتلمسان، وكانت تتناثر بين تلك المناطق الرئيسية رباطات متفرقة، تملأ الفراغات وتسد الثغرات بينها، فشكلت الربط على طول الساحل المغربي حزاما قويا، يصعب اختراقه والتسلل منه، ويقلل من فرص العدو في المباغثة ويحذر المسلمين من شر الإغارات المفاجئة ويقيهم خطرها⁽²⁾. لقد كانت هذه الأربطة ذات وظيفة عسكرية لتحمي ثغور المسلمين وصد الأعداء عنها، ووظيفة روحية حيث كان يلتقي فيها أناس زهدوا مما في الدنيا وقدموا أنفسهم فداء للإسلام والمسلمين دون طمع أو قهر، بل رغبة صادقة وإخلاص تام، واستجابة لدعوة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكانت تتوزع أوقاتهم في هذه الأربطة على عدة أشغال، كالحراسة والتدريب والتمرن على القتال، وفي العمل لكسب الرزق، والعبادة والتقرب إلى الله. ومع تغير المعطيات السياسية واستقرار أحوال المغرب والسواحل على الخصوص من الهجمات الصليبية، تحول الرباط ابتداء من القرن 5هـ/11م إلى رابطة، وقد عرفت هذه الأخيرة فضلا عن استمرار الوظيفة الحربية التي كان يقوم بها الرباط، بروز الوظيفة الروحية أكثر مما مضى، حيث

(1) - بركات محمد البيلي: المرجع السابق، ص 67.

(2) - نفسه: ص 67.

أصبحت الرباطات تستهوي المتصوفة والزهاد حيث وجدوا فيها مبتغاهم كمان يقضون فيها بقية حياتهم متفرغين للعبادة والصلاة⁽¹⁾، أي أنها كانت بمثابة "الملاجئ" التي يأوي إليها العجزة و"البطّالون"، الذين ليس لهم دخل أو يعيشون منه حياة راضية متفرغين للعبادة. ولعل أبرز مثال عن الأربطة هو ذلك الرباط الذي أسسه عبد الله بن ياسين قبل قيام الدولة المرابطية، حيث كان دوره في بداية الأمر مقتصرًا على تعليم الناس تعليماً دينياً، ثم تحضيراً وتدريباً عسكرياً لتغيير الوضع السائد، الذي كان يشوبه الانحراف والبدع والخرافات، لذلك نجد أن العمارة التي غلبت على تلك الأربطة تبدو عسكرية بحتة، ولذلك فالرباط مركز حربي، وثقافي معاً، حربي حسب بناءه الذي يشبه القلعة المحصنة، وثقافي حسب تعليم القيم المرابطين للثقافة الإسلامية، والمعارف الدينية، إذ نجد بأن هناك تداخلاً واضحاً من حيث الوظيفة بين الأربطة، والزوايا⁽²⁾. لم تُعرف الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس الهجري، وسُميت في بادئ الأمر بـ "دار الكرامة"، كالتي بناها "يعقوب المنصور الموحي" في مراكش، ثم أطلق عليها تسمية "دار الضيوف" على ما بناه المرينيون من الزوايا، كالزاوية العظمى التي بناها السلطان "أبو عنان المريني" خارج فاس، ولئن كان السلطان "أبا يعقوب يوسف الموحي 1258 - 1286م" باعتباره أول من أسس زاوية بالمغرب، قد حدد وظيفة هذا البناء في استقبال الوفود الأجنبية، مما يعزز دورها كواحدة من المؤسسات الرسمية، التي كانت تدخل ضمن إستراتيجية تنظيم العلاقات الخارجية للدولة الموحدية⁽³⁾.

استمرت الزاوية في توسعها وتطورها خلال العهد العثماني، لتشهد اهتماماً كبيراً من طرف أهالي المدن والقرى من جهة، وبدعم من الحكام الأتراك من جهة أخرى، إذ أنها لاقت استحساناً وقبولاً لديهم، وذلك لأن شيوخها وقفوا إلى جنبهم أثناء حملاتهم الأولى لصد الغزو الإسباني وطردهم من السواحل الجزائرية، وقد كانت الكثير من الزوايا في مثل هذه المناطق عبارة عن رباطات، يقيم فيها الجند ليكونوا تحت الطلب كلما دعت الضرورة، وبعد تحرير المناطق الشرقية بقيت هذه المهمة مقتصرة على زوايا الغرب الجزائري، نظراً لاستمرار الغزو الإسباني لمدينتي مستغانم ووهران وبعض السواحل المجاورة لها، حيث أنها شكلت قوة كبيرة

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 219.

(2) - عبد الكريم عزوق: المرجع السابق، ص 75.

(3) - حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 181.

بأتباعها وطلبتها الذين تحولوا إلى مجاهدين، لتدعيم الجيوش المحاربة من أجل تطهير هذه المناطق من المستعمرين، الذين دمروا البلاد وأنهكوا العباد ونشروا الفتن القائلة بينهم. وبعد انقضاء الخطر الخارجي، تخلت الزوايا عن دورها العسكري، وتفرغت للجانب الروحي والاجتماعي.

عند البحث والتحري عن كثرة الزوايا في الجزائر خلال العهد العثماني، نجد ذلك مرتبط بعامل مهم، ألا وهو انتشار ما يعرف بالطرق الصوفية في أنحاء مختلفة من البلاد في المدن والأرياف وفي الجبال والصحاري القاحلة، عاش معظم المتصوفة بيتون عقائدهم ويلقبون أتباعهم الأذكار والأوراد، مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا، مؤثرين العزلة والعبادة وكثيرا ما كانوا يعلمون المريدين والعامه مبادئ الدين أيضا، فإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة، ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قصاده ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف علما على المكان فإذا مات يدفن في الزاوية، ويصير الضريح علامة على الزاوية، ويرث الأبناء والأحفاد مكانه وعمله، وتزداد قداسة الزاوية بين أهل الناحية، وتنتشر سمعتها إلى نواحي أخرى بعيدة. وهكذا غرقت الجزائر خلال هذا العهد في التصوف والدروشة، فأصبح العلماء (الفقهاء) يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقه والسبحة والمصافحة والأسودين (التمر والماء)، وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والنبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا. وكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء، فحسب معتقداتهم انه يحميها من العين والغارات ومن نكبات الطبيعة، فهناك صلحاء تلمسان ومدينة الجزائر وقسنطينة وبجاية وغيرها من المدن، وقد ألفت فيهم مخطوطات، نجد أغلبها محفوظة داخل الزوايا⁽¹⁾، وتثبت الإحصائيات أن عدد الزوايا كان يفوق عدد المساجد والمدارس، فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في آخر العهد العثماني، وفي عهد صالح باي كان في قسنطينة ثلاث عشرة زاوية، وهو عدد لا يشمل الزوايا المحيطة بها، وقد كان في عنابة وبجاية وزواوة أعداد مشابهة، أما بالنسبة لمدينة الجزائر فتذكر بعض المصادر أنها كانت تحتوي على إثنا عشرة زاوية.

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص261 و ص467.

3-3- دور الزوايا في الجزائر:

أدت الزوايا في الجزائر عامة دورا بارزا ومهما في تاريخ الجزائر الثقافي، إذ تعد الجزائر من بين البلدان الغنية بالزوايا، فالعدد الهائل الموجود بها لدليل قاطع على ذلك وهذا ناتج عن اهتمام أهلها بالعلم والعلماء، وكذلك تمسكهم بالدين الإسلامي، وتشجيع ذلك بكل الوسائل سواء كانت مادية أو بشرية، حيث كان لها دور كبير بعد ذلك في إخراج وتطهير البلاد من المحتلين، كما كانت ملاذا للفقراء والمساكين وغيرهم من الطبقات الاجتماعية المحرومة، ومعاقلا للأحرار ورباطات للمجاهدين، نذروا حياتهم للعلم والدين والقرآن، وفيها عُلِّموا وتدرّبوا، ومنها تخرجوا لمحاربة الجهل والأمية والمحافظة على كتاب الله، فهي جمعت بين وظيفة التعليم والجهاد في آن واحد، أو بصيغة أخرى تطورت من الرباط إلى مبنى ديني، وهذا ما أعطاهم مكانة هامة في قلب كل مسلم.

ولكن الوضعية الحالية لبعض الزوايا، توحى بفقدان مكانتها في المجتمع، إذ أنها البعض منها أصبح عرضة للخراب والتهديم، وكمنتجع وراعي للبدع والمعتقدات المتنافية مع الشريعة الإسلامية الصحيحة، كما أصبحت الأضرحة والمقامات الملحقة بها كملجأ لممارسة بعض الطقوس والمعتقدات التي حرّمها العلماء، ووضعوها في مرتبة الشرك بالله، هذا إضافة إلى انتشار ظاهرة السرقة والاحتيال، خاصة لمخطوطاتها التي تعتبر من المصادر الهامة للدراسات والبحوث.

إلا أن الزوايا الدينية بمختلف أشكالها وأنواعها تعد ظاهرة من المظاهر العمرانية الإسلامية عبر العصور المتتالية، أدت أدوارا كبيرة في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية بل وحتى السياسية بالجزائر وكل بلدان المغرب، أغلبها إيجابي والبعض سلبي.

فمن الناحية الإيجابية:

- اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة، وعمته بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وساعد ذلك على حمايته من النسيان والضياع والاندثار.
- احتضنت اللغة والثقافة العربية الإسلامية ونشرتها بشكل واسع ومكثف، كما فتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة، وأنفقت عليهم بسخاء، وكان ذلك شكلا من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة، وعملا ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الإستعمارية الفرنسية تتبعها ضد الأهالي الجزائريين.

- عملت على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع التي لم يصل إليها، خاصة الأقاليم الصحراوية النائية، أي أنها أتمت الفتح الإسلامي بعد توقفه، كما فعلت التيجانية والسنوسية.

- عملت على إنهاء الفوارق بين الفئات الاجتماعية المختلفة، فقربت بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين، وشرفاء الأصل وغيرهم، وصهرتهم في بوتقة واحدة، وألفت بينهم جميعا في إطار مفهوم الآية القرآنية "إِنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم"، ومفهوم الأحاديث النبوية المختلفة مثل: "المسلمون كأسنان المشط" و "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"، وهذا الجانب له أهمية خاصة في تاريخ الزوايا بالجزائر ومعظم البلاد الإسلامية.

- ساهمت في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف القبائل والفئات وطبقات المجتمع وذلك بفضل مركز شيوخها وعلمائها، فأدت دور الحكم، وقللت من المشاكل، وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي، وساعد ذلك على التفرغ لمقاومة السيطرة الأجنبية الاستدمارية⁽¹⁾.

- كانت هذه الزوايا مركزا هاما ومخزنا آمنا لدواوين الكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالعلم والتعليم والنسخ والنقل والتأليف والجمع على مر الأزمنة والفترات التاريخية، والتي لا تقدر بثمن، غير أنّ معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر وبلدان المغرب الأخرى وتعرض جزء هام من هذا التراث إلى التلف والضياع خلال مرحلة المقاومة للزحف الاستدماري الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين ميلادي، وخاصة في حرب التحرير الأخيرة في الجزائر.

- شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة، سواء منها المحلية أو الأجنبية، فاتخذت كرياضات، انطلق منها المجاهدون في سبيل تحرير الجزائر فحاربت الدرقاوية الولاية الأتراك المستبدين في شرق الجزائر وغربها، ودحر الاحتلال الإسباني الذي تمركز في الغرب الجزائري، وحاربت الرحمانية والسنوسية الاحتلال الفرنسي في الجزائر. كما أنها أصبحت الملاذ الوحيد للفقراء والمعوزين⁽²⁾.

(1) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... ج1، المرجع السابق، ص ص 217 - 218. يُنظر كذلك:

- عبد الكريم عزوق: المرجع السابق، ص 85.

(2) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... ج1، المرجع السابق، ص ص 218 - 219.

الجنوبية 7,55م، أما الجهة الشرقية فتبلغ 5,20م ومن الجهة الغربية 4,76م، وسبب هذا الانتظام هو بنائها على أرض مائلة، ويتم الدخول إليها عبر مدخل بباب خشبي يبدو أنه أصلي، يقع في الجهة الشرقية تبلغ مقاساته (2×1,60م)، وتظهر هذه القاعة بسيطة في شكلها العام، تتكون من ثلاث أساكيب وبلاطتين، بعقود منكسرة متجاوزة، محمولة على أعمدة أسطوانية ارتفاعها 1,40م متوجة بتيجان بسيطة. (يُنظر الشكل رقم 17/16) و (تُنظر الصور 64/63/62/61)

أما المحراب فهو يتوسط جدار القبلة يظهر بسيطاً في شكله العام. كما فتحت في هذا الجدار نافذتين، واحدة يمين المحراب مقاساتها (1,40م×88سم)، والثانية يسار المحراب مقاساتها (1,87م×88سم)، والشيء المستحدث بقاعة التدريس هو مكتبة صغيرة في الجهة الغربية تضم مجموعة من كتب القرآن والفقه ومختلف العلوم الدينية، وهي موقوفة على الطلبة. وعن تسقيفها فهو مسطح بسيط خال من أية زخرفة. وهذه القاعة مازالت على حالتها الأصلية. (تُنظر الصورة 65)

ب- قاعة تدريس الطلبة الخارجيين: تقع في الجهة الشمالية يتم الدخول إليها عبر مدخل يقع في الجهة الجنوبية، وهي ذات شكل به مربع بسيطة في مظهرها العام، وحسب شيخ الزاوية أنها مخصصة لاستقبال الطلبة الخارجيين، أي الذين لا ينتمون إلى الزاوية، حيث أنهم يقومون بدورات تكوينية الغرض منها تطوير معارفهم ومستواهم العلمي، وكذلك الاحتكاك بطلبة الزاوية، وهي إحدى الأهداف المسطرة من قبل شيوخ الزوايا، كي لا يكون هناك اختلاف في المسائل الدينية. (يُنظر الشكل رقم 17) و (تُنظر الصورة 62)

ج- الخلوة: تقع في الجهة الغربية، وهي عبارة عن بيت صغير، يتم الدخول إليها عبر مدخل عليه باب خشبي مفتوح من الجهة الشرقية مقاساته تبلغ (1,75م×55سم)، وهذه الخلوة خاصة بشيخ الزاوية كانت يخلو فيها للمراجعة وترتيل القرآن والاطلاع على مختلف الكتب الدينية، وهي حالياً لا تؤدي هذه الوظيفة، حيث تم تحويلها إلى مخزن للزاوية.

د- المطبخ: يقع في الجهة الغربية من الزاوية، ويبدو من خلال طريقة بنائه أنه حديث البناء، وهو مخصص للجانب المعيشي للطلبة.

مصطفى، برّد الله ضريحه.. " وكذلك في قوله "...بنا الله لك بيتا في الجنة كما بنيت لنا بيت الكتب بلا أذى ولا منّة..."⁽¹⁾

بالإضافة إلى شهادة بعض المؤرخين منهم "الآغا بن عودة المزارى" في كتابه "طلوع سعد السعود" قائلا: "وهو الذي بنا للعالم العلامة القدوة الدراكة الفهامة، شيخ الراشدية وغيرها على الإطلاق ومجدد القرن الثالث عشر بالاتفاق، من هو بعين العناية ملحوظ ومخلص من الضرائر والحاصر، الحافظ محمد أبو راس بن الناصر، المصريّة ذات العلو الأرفع، وبيت الكتب والمذاهب الأربع"⁽²⁾.

وقد تعرض لذكرها بعض المؤرخين، إلا أنهم اختلفوا في تسميتها، فقد أطلق عليها الكاتب عبد الرحمان الجبلاي في كتابه "تاريخ الجزائر العام" اسم "المسجد" في قوله: "فابتنى له صديقه الباى مصطفى منازلى مسجدا بمعسكر وأسس له به مكتبة حافلة، تحتوي على ما ينيف عن ثلاثة آلاف مجلد، وبها غرفة للمطالعة تدعى بيت المذاهب الأربعة"⁽³⁾، أطلق عليها هذه التسمية - المسجد - ربما لوجود المصلى بها، أو ربما لأنها كانت ولا تزال مكانا لصلاة بعض السكان المجاورين لها، ولا يمكن أن تكون كذلك لأن طريقة بنائها تختلف عن طريقة بناء المساجد.

أما الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول عنها في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي: "كان لأبي رأس مكتبة كبيرة بناها له أحد بايات وهران وسماها بيت المذاهب الأربعة..."⁽⁴⁾، وهنا نجد أن كلا المؤرخين ذكرا وجود مكتبة، غير أنه حاليا لم يعد لها أي أثر. أما أبي رأس الناصر فقد ذكرها باسم "المصريّة" التي هي بيت المذاهب الأربعة والتي كان يفتي ويدرس بها وكذلك باسم "بيت الكتب"⁽⁵⁾، ولما توفي العلامة في سنة 1238هـ حوالي 1823م دفن بهذه الزاوية، وأصبح ضريحه علما على المكان.

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...المصدر السابق، ص 74.

(2) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 328.

(3) - الجبلاي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ط 2، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، الجزائر، 1980، ص 572.

(4) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2... المرجع السابق، ص 379.

(5) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...المصدر السابق، ص 74. يُنظر كذلك:

- المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 10.

أما عن تاريخ بناء الزاوية، فلم يتعرض له أي أحد من المؤرخين، وحسب ما ذكره المؤرخين أن الزاوية تعرضت إلى عدة تعديلات وتجديدات، وهو ما تطرق إليه أبي رأس في كتابه "فتح الإله..."، حيث أنه أشار إلى أن الباي "مصطفى العجمي" أعاد بنائها في ولايته الثانية التي كانت في سنة 1222هـ / 1808م، بالإضافة إلى أن محمد بن عثمان الملقب بـ "بوكابوس" (*) قام بتبويضها وترميمها في سنة 1227هـ الموافق لـ 1812م وذلك في قوله: "ولما افتقرت مصريتنا بيت المذاهب الأربعة للترفيه وأردت تجديد تبويضها وبعض ترميمها وتقبويضها، ذكرت ذلك للباي الأسعد الأقدم الأمجد، الأنجد الأوحد، عزيز النصر ونخبة العصر، وريحانة الدهر السادل على الرعية الأمن والأمان، الباي السيد محمد بن عثمان، اتحفه الله بالرضا والرضوان وألحفه مطاريف التكريم والحنان، فبعث لي مع ساقه مائة ريال بوجهها، قامت أوفى إقامة بترميمها وتبويضها وذلك قبل أن أحج عنه رحمه الله فوفّرني أحسن وفارة،... ولما أوبت من الحج سنة سبع وعشرين ومائتين وألف" (1).

على ضوء المعلومات التي ذكرها أبي رأس، نستنتج أن هذه الزاوية كانت قائمة قبل ثورة درقاوة التي كان تاريخ انتهاءها سنة 1816م. وبعدها لقيه العلامة أبي رأس من محن انقطع فيها للمطالعة والتأليف ونشر العلم وتدريسه ليل - نهار، فتقاطرت عليه التلاميذ من كل ناحية، فكان يلتف حوله زهاء ثمانين وسبعمئة طالب علم، وإنثال عليه الناس يأخذون الفتوى، فكان لا يفتر عن الدرس طوال الأسبوع، ما عدا صبيحة يوم الاثنين المقرر لديه للاستجمام، وتخرج على يده كثيرون (2).

(*) - محمد بن عثمان: تولى أمر البايلك في آخر سنة 1222هـ / 1808م، وهو الباي الشديد في الأمر العابوس الملقب بالرفيق والمسلوخ والمشمتم والمكئى بأبي كابوس، أما لقبه بالرفيق فلأنه كان رقيق الجسم، وأما لقبه بالمسلوخ فإنه لقب به بعد موته الحسم، لكون آغته بالجزائر "عمر" سلخ رأسه وهو حي وأحشاه قطنا، وأما لقبه بالمشمتم فلأنه متشبه بالعرب في الاشتمال بالكساء كالمخزن ولا يلبس لباس الأتراك في غالب أحواله كغيره من البايات، وأما كنيته بأبي كابوس فلأنه كان يحمل الكابوس وهو البشتول ولا يفارقه سفرا وحضرا، وكان يقال له الباي محمد الصغير فرقا بينه وبين أخيه الباي محمد الكبير المجاهد فاتح وهران. لمزيد من المعلومات يُنظر: - المزاري الأغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 329.

(1) - نفسه: ص 339.

(2) - الجيلالي عبد الرحمان بن محمد: المرجع السابق، ص 572.

ج- نبذة تاريخية عن أبي راس الناصري:

تطرق أبي راس الناصري إلى ذكر نسبه في مؤلفه الموسوم بـ: "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، حيث ذكر أنه "محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل الراشدي"⁽¹⁾. المعروف بأبي راس الناصري الجليلي الراشدي المعسكري داراً⁽²⁾. وهو العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفق اللفظ، من هو ليث الدين، أوثق أساس وأوضاً نبراس، الإمام القدوة المتقن⁽³⁾.

أما عن نسبه فيذكر: "إن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁽⁴⁾، ومنه فإنه يؤكد على انتمائه للبيت النبوي رغم أنه ينسب إلى قبيلة بني راشد الزناتية، أما أمه فهي "زولة" بنت السيد الفرح بن الشيخ القطب السيد، أعمر بن عبد القادر التوجاني، ووالده هو الشيخ أحمد من أشهر القراء المعروفين بالصدق والصلاح⁽⁵⁾.

وُلد الشيخ أبي راس الناصر بنواحي مدينة معسكر بقلعة بو راشد بين جبل كرسوط⁽⁶⁾ وهونت⁽⁷⁾، من عائلة فقيرة جداً، أما فيما يخص تاريخ ولادته فإنه هناك تضارب في الآراء حول التاريخ الحقيقي لميلاده، فهناك من يرى أنه ولد يوم 8 صفر 1165هـ/27 ديسمبر

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ... المصدر السابق، ص 25.

(2) - سعيدوني ناصر الدين، أبو عمران الشيخ: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ت. ص 530.

(3) - الحفناوي أبو القاسم محمد: المصدر السابق، ص 332.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ... المصدر السابق، ص 25.

(5) - الحمدي أحمد: "أهمية مخطوط" لقطعة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان في تاريخ الجزائر الحديثة"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع: 12، 1426هـ/2005م، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 230.

(6) - جبل كرسوط: يقع غربي بلدية وادي الناغية على بعد 8 كلم من قرية هونت، وتحديدًا جنوب مدينة معسكر، وهي إحدى قرى دائرة سيدي بوبكر، التي تقع على بعد 50 كلم من مدينة سعيدة، سُمي بكرسوط نسبة إلى ساكنه في قديم الزمان. للمزيد من المعلومات يُنظر: - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 339. وكذلك:

- حمدادو بن عمر: المرجع السابق، ص 52.

(7) - هونت: وهو جبل يقابل جبل كرسوط من الناحية الغربية، للمزيد من المعلومات يُنظر: نفسه: ص 52.

1751م⁽¹⁾، وهناك من يرى أنه ولد في سنة 1150هـ/ 1737م⁽²⁾ وهو رأي أغلبية المؤرخين.

يتضح من سيرته الذاتية أن أسلافه رجال علم ودين وتصوف، فأبوه من القراء الماهرين وجده أعجوبة الزمان في الولاية والصلح، وجد أبيه يضرب به المثل في معرفة الفقه والفتوى ولاسيما علم الفرائض، وأمه "زولة" فيقول عنها أنها كانت "كربيعة العدوية علما وورعا".

غير أن أسرته لم تكن ميسورة، فهي لا تنتمي إلى الخاصة التي جمعت بين الجاه والمال. وقد طاله الفقر في طفولته وصباه على الأقل⁽³⁾، فيقول في هذا الصدد: "لقد استمرت عشر سنين عريانا لا لباس لي إلا خرق كالعدم وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي... ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، ثم أبيع وأكسي"⁽⁴⁾. نشأ فقيرا متسولا، وعاش حياة متقلبة⁽⁵⁾ تجرع رغم نعومة أظافره قسوتها ومرها. نشأ بسهل متيجة حيث استقرت عائلته، وهناك فقد أمه، ثم انتقل مع أبيه إلى حوز مجاجة^(*)، وبعد أن توفي أبوه وهو صغير، كفله هو وأخاه عبد القادر أخوهما الأكبر ابن عمر وانتقل بهما إلى المغرب الأقصى، قبل أن يستقر به المقام في معسكر، بالضبط في منطقة القيطنة⁽⁶⁾.

تربى الشيخ أبي راس الناصري في بيت علم وتقوى وصلاح، ويقول أبو راس في هذا المقام "فأخذنا بعد موت أبينا وانقلب بنا إلى المغرب، أما أخي فيمشي وأما أنا فيحملني على عاتقه لصغري، فكنا معه في الشرائع فقرأت القرآن في حال صغري، ثم قرأت أحكام القرآن

(1) - بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، القبة، دار الرياحنة للكتاب، الجزائر، 2007 ص166. يُنظر كذلك: - الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج3، ص570.

(2) - أبو راس محمد الناصري: الكوكب الدرّي في الكلام على الجدي، تحقيق بوكعب بلقرد، سلسلة تراث أعلام الجزائر - 1، - مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص8. يُنظر كذلك:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص10.

- سعيدوني ناصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص460.

(3) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص11.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص19.

(5) - نفسه: ص5.

(*) - تقع في ولاية الشلف حاليا.

(6) - سعيدوني ناصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي...، المرجع السابق، ص460.

وحفظتها على ظهر قلبي". وبعد أن استقر بالقيطنة^(**) درس الفقه على يد علمائها وفقهائها نذكر منهم الشيخ "محمد بن علي بن سحنون" قاضي معسكر ووالد المؤرخ الشيخ "أحمد بن سحنون" صاحب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" والشيخ "الموفق بن عبد الرحمن الجبالي"، الذي تخرج عنه عدد من العلماء⁽¹⁾.

ثم توجه وسنه لا يتجاوز 15 سنة إلى مازونة، التي ذاع صيتها في تلك الفترة، وهو ما يؤكد في قوله: "... ولما أتقنت القرآن بأحكامه مع الأنصاف التي للشيخ "ابن آزق" والشيخ "الطاهر بن عمرو المغراوي" وغيرهما، انتقلت لقراءة الفقه فقرأت على فقهاء أم معسكر...، ثم سافرت أول صومي لمازونة فلقيت على صغري مشقة المشي، لكن ذلك شأن العلم"⁽²⁾. وكذلك في قوله: "ولما ذكر لي الطلبة مازونة وكثرة مجالسها... وقريحة أشياخها سافرت إليها..."⁽³⁾. استقر بها ثلاث سنوات لتحصيل العلوم الدينية واللغوية، فدرس على فقهاء مختصر خليل وحفظه حفظا وفهما معنى ولفظا، نذكر منهم: الشيخ "مصطفى بن هني" والشيخ "محمد بن إبراهيم" والشيخ "مصطفى بن يونس"، كل منهم مختص في باب من أبوابه، وقرأ الفرائض على الشيخ "البدالي" والقضاء والشهادات والأحكام على أجل قضاة مازونة الشيخ "محمد بن عبد القادر" وتحقيق الصرف وبيع الأجل على الشيخ "أحمد بن نافلة"⁽⁴⁾. خلال إقامته بمازونة، تميز عن بقية الطلبة بشدة الذكاء وقوة الذاكرة رغم صغره. وكان حينذاك يقوم بخدمة الطلبة يسأل لهم الأكل والشراب من بيوت أهل مازونة⁽⁵⁾.

(**) - القيطنة: مشتقة من القطن، وهي موضع القطن، أي الإقامة، وهي قرية تتربع على سهل واسع وفي انعطاف مجرى النهر، بها زاوية سميت باسمها، تخصصت في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد، إلى جانب الحديث وعلوم اللغة العربية من نحو وبيان، لمزيد من المعلومات ينظر كل من: - الآغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ج1، ص12. وكذلك: الأمير عبد القادر: مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1844، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، طبعة خاصة، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص48، وكذلك: محمصاجي قدور: شباب الأمير عبد القادر (أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة)، ترجمة مختار محمصاجي، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص39.

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص14.

(2) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ... المصدر السابق، ص19.

(3) - نفسه: ص43.

(4) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص12.

(5) - نفسه: ص11.

ولما سمع أبو راس الناصر بالشيخ عبد القادر المشرفي(*)، الذي أتقن علوما جمة وبرع فيها، وكان "يخضع له القضاة والولاة ويهابونه ويرجعون إليه في مهمات الدين وفي مصالح عباد الله المهتدين"⁽¹⁾ قدم إليه وهو بضاحية معسكر، والتي يقصد بها زاوية القيطنة حيث التقى به، ودرس على يديه ألفية بن مالك على شرح المكودي التي جعل لها حاشيتين صغرى وكبرى، فتأثر به ولازمه مدة، كان خلالها يغسل ثيابه وثياب أهله⁽²⁾.

ولما شعر بشيء من الاستقلال العلمي، خرج إلى الريف وتزوج وبدأ التدريس، ثم تولى القضاء وقد بقي على هذا الحال سنتين كاملتين تبين له خلالهما: "أن آفات العلم في الريف بادية"⁽³⁾، فانتقل من جديد إلى مدينة معسكر كي لا يذهب علمه. يقول "وشمرت ساق الجد للتدريس ليلا ونهارا وداومت ذلك ستا وثلاثين سنة متصلة وما بطلت فيها يوما واحدا"⁽⁴⁾، وفي معسكر ذاع صيته وقد رشحه الشيخ "المشرفي" إمام الراشدية ليكون خليفته في التدريس، كما خصه بايات الغرب الجزائري بعناية، وأجروا عليه جرايات يستفيد منها في مهماته التعليمية⁽⁵⁾. فاستفاض ذكره وذاع صيته بين الناس، وصارت حضرته في العلم تذكر في الآفاق وتتأخر دروس مصر والشام وتونس والعراق⁽⁶⁾.

أما عن رحلاته فيذكر أبو راس أنها إنما كانت اقتداءً بالجهاذة التحارير، كرحلات الإمام "ابن رشيد السبتي"، و"الخطيب بن مرزوق"، والشيخ "أبي سالم عبد الله بن محمد

(*) - عبد القادر المشرفي: هو عبد القادر بن عبد الله، بن أبي جلال المشرفي الغريسي المعسكري، كان عالما محدثا أمينا، أخذ عن فطاحل العلماء من المغرب والمشرق، ومن مؤلفاته "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسماعيليين بوهران من الأعراب كبني عامر". للمزيد من المعلومات ينظر: المشرفي عبد القادر: المصدر السابق، ص 6. ينظر كذلك: شاوش محمد بن رمضان، بن حمدان الغوثي: الأدب العربي الجزائري عبر النصوص (إرشاد الحائر إلى آثار أدياء الجزائر)، مج 2، د. ط، د. ت، ص 462.

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص 53.

(2) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 12.

(3) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص 53.

(4) - نفسه: ص 22. يُنظر كذلك: - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 12.

(5) - نفسه.

(6) - فيلالي كمال: "هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني"، مجلة المواقف: عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول: الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أبريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، ص 378.

العايشي⁽¹⁾، وكانت أولى رحلة له نحو الجزائر العاصمة سنة 1789م، التي لقي فيها الفقيه القاضي المفتي "محمد بن جعدون"، والقاضي الفقيه الشيخ "محمد بن المبارك"، وكذلك الفقيه والخطيب والمفتي "محمد بن الحَقَّاف"، وعندما ساءله في مسألة نحوية، أجاب عنها ببراعة فلقَّب على غيرها بـ "الحافظ"، ومن علماء الجزائر الذين لقيهم أيضاً، العلامة "الحاج بن الشَّاهد" الذي حضر له يُدرِّس الموطأ. ثم توجه نحو "قسطينة" (كما يذكرها وهي قسنطينة) أتاه علماءها يسلمون عليه، ومنهم قاضي الجماعة "الونيسي" الذي كان "فقيهاً علامة حافظاً بارعاً"⁽²⁾.

أما بالنسبة لرحلاته خارج الجزائر، فكانت البدايات نحو أقطار المغرب الإسلامي فرحل إلى فاس (1215هـ/1801م)، حيث رحَّب به علماءها أحسن ترحيب، وممَّن لقيهم، العالم العامل الشيخ "حمدون" (ت: 1332هـ)، والنَّحوي الشَّيخ "عبد القادر بن شقرون" (ت: 1219هـ)، والفقيه النَّابِه الشَّيخ "محمد بن بنَّيس" (ت: 1214هـ)، والفقيه "الهوري" (ت: 1220هـ). وبعد فاس، عاد إلى تلمسان⁽³⁾. ثمَّ ذهب إلى تونس وفيها قال: "اجتمعت بعلمائها وأجلَّة فقهاءها... فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا وتشاجرنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة..."⁽⁴⁾، وقد نزل فيها على شيخها المفتي "محمد بن المحجوب" (ت: 1243هـ) واجتمع بالعالم الكبير والأديب الأريب "إبراهيم الرِّياحي" (ت: 1266هـ)، معارض الحريري في المقامات⁽⁵⁾. بعد ذلك وجه أنظاره اتجاه المشرق الإسلامي، نحو بيت الله الحرام ولأول مرة سنة 1790م، فركب البحر إلى مصر⁽⁶⁾، وفيها كتب أبي راس الناصري قائلاً: "..... ففي القاهرة لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب الأخيار..... فتناظرنا

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص 91.

(2) - نفسه: ص ص 98 - 99.

(3) - لقد حجَّ أبي راس مرتين، إذ كان الحج وطلب العلم والتجارة، هي العوامل التي دفعت المسلمين إلى الرحلة. للمزيد من المعلومات ينظر: أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص ص 101 - 108. يُنظر كذلك: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د.ت، ص 14.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص 115.

(5) - نفسه: ص ص 109 - 110.

(6) - خدوسي رابح: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، 2003، ص 19. يُنظر كذلك:

- بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، 2007، ص 162.

بالمشاركة في ثورة درقاوة القائمة ضد السلطة العثمانية، وله في تاريخ هذه الثورة تأليف أسماه: "درء الشقاوة في حرب درقاوة". لیتجه بعد ذلك إلى فاس، حيث لجأ إلى السلطان "مولاي سليمان"، فأجازه وأقام هناك مدة أهدى خلالها السلطان الكثير من المؤلفات، كما احتك بالعديد من العلماء والفقهاء، فاشتهر بالمدينة لغزارة علمه وكثرة تأليفه⁽¹⁾.

ترك لنا أبو راس الناصري مصنفات كثيرة، في جميع الفنون والعلوم، بيد أن أغلبها لا يزال إلى يومنا هذا مخطوطا. لقد أكثر أبو راس من التأليف، حيث لا يضاويه في ذلك أحد من الجزائريين باستثناء "أحمد البوني" الذي تجاوزت تأليفه المئة⁽²⁾.

إن هذا العرض البسيط والموجز لمؤلفات أبي راس الناصري، لا يغفل قيمته والإنتاج الفكري لهذا العقل الخصب، ولا يخفي كونه مؤرخ لامع، وأديب بارع، ناظر أشهر رجالات ذلك العصر، وأثبت وجوده وقيمه العلمية، رغم قسوة الظروف في بعض الأحيان⁽³⁾. فهو شخصية لها وزنها، خلفت لنا الكثير من المؤلفات، ظل أغلبها مخطوطا، كما ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية.

اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الحقيقي لوفاة أبي راس الناصري، فيذكر الكتاني أنه توفي رحمه الله يوم الأربعاء 13 جمادى الثانية 1239هـ / 1824م⁽⁴⁾، بينما يورد

(1) - فيلالي كمال: المرجع السابق، ص 378.

(2) - للمزيد من المعلومات حول مؤلفات أبي راس الناصري ينظر:- أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ... المصدر السابق، ص5. - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا ...، المرجع السابق، ج1، ص ص 165 - 173.

(3) - من بين المصاعب التي لاقاها العلامة أبي راس حينما أبطل مزاعم بعض الأسر من غريس المدعية النسب الشريف، من خلال مؤلف أسماه "مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف وذهب"، فانزعج لذلك سكان الراشدية، قاموا بسبه وشتمه وإحراق كتبه وإتلافها. للمزيد من المعلومات ينظر: بوركية محمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار للشيخ أبي راس الناصري المعسكري 1165 - 1238هـ / 1755 - 1823م، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة وهران، 2007 - 2008، ص16.

(4) - الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص 150. ينظر أيضا: نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980، ص278.

المؤرخين أنه توفي بمرض الطاعون يوم 15 شعبان 1238هـ / 27 أبريل 1823م، ودفن بالقرب من بيته في حي باب علي بمعسكر، وعليه بناء مشهور⁽¹⁾، يتألف من ضريح وزاوية سنأتي على ذكرها.

د - وصف المخطط المعماري للزاوية:

الواجهات والمدخل الرئيسي:

تتكون زاوية أبي راس من أربع واجهات، تظهر منها واجهتين فقط وهي الواجهة الجنوبية والشرقية المطلتين على الشارع، أما الواجهة الغربية فهي ملتصقة بمساكن خاصة والواجهة الشمالية يحدها الضريح، أما عن مخططها العام فهي تظهر على شكل غير منتظم.

يتم الدخول إليها عبر مدخل رئيسي مستحدث يقع في الجهة الشرقية، يبلغ طوله 2,10م وعرضه 91سم ومن خلاله نصل إلى الصحن وهو عبارة عن فضاء مكشوف يتخذ شكلا مستطيلا غير منتظم الأضلاع، طوله 7,90م وعرضه 6,50م للعلم أن المدخل الرئيسي الأصلي حسب القائم على تسيير الزاوية كان موضعه في الجهة الجنوبية، وقد غُيِّر عند توسيعها. (يُنظر الشكل رقم 18) و(الصورة رقم 66)

غرفة الشيخ:

يتم الوصول إلى هذه الغرفة عبر مدخل بباب خشبي مفتوح على الصحن من الجهة الجنوبية، وهو متوسط الحجم، ارتفاعه 2,17م، وعرضه 1,03م، وتظهر الحجرة بسيطة في مظهرها العام، فهي ذات شكل مستطيل يبلغ طوله 4,35م، وعرضه 2,20م، كما قد فتح فيها نافذتين واحدة في الجهة الجنوبية والأخرى في الجهة الغربية، كما فتح في جدارها الشمالي، مدخل نصل من خلاله إلى المسجد. كانت مخصصة للشيخ أبي رأس الناصري إذ أنه اتخذها لاستحضار الدروس، والاجتماع بأعيان المنطقة والنظر في الخلافات والقضايا الاجتماعية. (الصورة رقم 67)

(1) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص12. يُنظر كذلك: - الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف الفاسي الحسني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص 333.

بيت الصلاة (قاعة التدريس):

تقع في الجهة الشمالية الغربية، نصل إليها عبر مدخل مفتوح في الجدار الغربي من غرفة الشيخ، تبلغ مقاساته 1,90م×81سم، وهي ذات شكل شبه مستطيل طوله 11,71م أما عرضه فهو غير متساوي، حيث أنه يبلغ 4,70 م من الجهة الشمالية، و4,60م من الجهة الجنوبية، نجد المحراب في وسط الجدار الشرقي، وهو عبارة عن تجويف يعلوه عقد نصف دائري، وشكله نصف أسطواني من الداخل ومضلع من الخارج، يبلغ ارتفاعه 2,15م وعرضه 90سم، وهو بسيط في مظهره العام زين بإطار من المربعات الخزفية حديثة الصنع كما تحتوي بيت الصلاة على ثلاثة نوافذ، اثنان منها في الجدار الشرقي وواحدة في الجدار الجنوبي، وذلك لتوفير الإضاءة اللازمة ولتجديد الهواء، نظرا لكثرة الطلبة الوافدين عليها إليها.

أما عن تسقيفها فنجدته مقسم إلى قسمين متساويين، القسم الأول من الجهة الجنوبية مبني على شكل مسطح، أما القسم الثاني من الجهة الشمالية فهو على شكل أقبية نصف أسطوانية، يبلغ عددها 12 قبوا، ولا نعلم إن كان قد طرأ عليه تجديد أم لا؟ بينما أرضيتها فهي مبلطة ببلاطات حديثة. (يُنظر الشكل رقم 18) و (تُنظر الصور رقم 70/69/68)

الصحن:

يقع صحن الزاوية في الجهة الشرقية أين نجد المدخل الرئيسي وهو ذو شكل غير منتظم، كان يحتوي على مدخل من الجهة الشمالية يوصل إلى الضريح، لكنه أغلق في فترة حديثة بسبب الفوضى التي كان يحدثها الزوار.

وما لفت انتباهنا خلال دراستنا لهذه الزاوية هو عدم وجود بيت الوضوء، رغم أنها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها، وهو ما دفعنا للاستفسار عن ذلك لكن لم نجد إجابة مقنعة، وأغلب الظن أنها كانت موجودة وأزيلت في فترات لاحقة لأسباب تبقى مجهولة. (يُنظر الشكل رقم 18)

- **القبّة:** وهي من المظاهر المعمارية التي تلفت النظر في العمارة الإسلامية⁽¹⁾، وهذا العنصر موروث عن الساسانيين والبيزنطيين. ثم ظهرت لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة وأطلق الجزء على الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله.
- **التربة:** المقصود بها المبنى الضريحي الذي يقام على رمس الميت، واستعمل هذا المصطلح عند الأتراك⁽²⁾.
- **المشهد:** هو من الكلمات التي تحمل مدلولاً دينياً معيناً، وهو المسجد المدفني، أي الذي بُني في الأساس ليكون مدفناً للشخص أو الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة روحية خاصة لدى الناس، وهذا المدفن غالباً ما يكون مخصصاً للمتوفين من آل البيت النبوي الطاهر، ذكرانا كانوا أم إناثاً، وأحياناً يُدفن فيه غيرهم من الأفراد العاديين، الذين عرفوا بين أهل زمانهم بالتقوى والصلاح والعبادة، وهذا المصطلح مشهور عند الشيعة ومتداول في مصر والعراق⁽³⁾.
- **المزار:** هو البناء الذي يستهدفه عامة الناس بالزيارة ويقدمون له الهدايا والندور والقرايين تعبيراً عن عاطفتهم نحو الميت الذي دفن فيه. وقد أطلق عليه هذا المصطلح نسبة إلى الزيارة، وفي بلاد المغرب استعملت كلمة "مربوط" للدلالة على المدفن⁽⁴⁾. وقد عرف أول مزار في قبة الصخرة بالقدس⁽⁵⁾.
- **المقام:** المقصود به ذلك المكان الذي فيه قبر لنبي أو شيخ أو عالم له مكانة عند الناس لعلمه وتقواه وورعه، وقد لا يكون في المزار قبر وإنما يرمز المكان إلى واقعة أو حدث

(1) - مرزوق محمد عبد العزيز: **الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه**، مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص 40.

(2) - عزوق عبد الكريم: "الأضرحة ببجاية، دراسة نموذجية"، مجلة دراسات تراثية، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار - جامعة الجزائر، ع01، 2007، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص 136 - 137.

(3) - الولي طه: **المرجع السابق**، ص 111. يُنظر كذلك: لمعي صالح مصطفى: **القباب في العمارة الإسلامية**، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، د.ت، ص 23.

(4) - عزوق عبد الكريم: **المرجع السابق**، ص 137.

(5) - سامح كمال الدين: **العمارة الإسلامية في مصر**، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1988، ص 9.

له معاني روحية كبيرة في قلوب الناس مرتبطة بالشخصيات الدينية، ومن ثم يبني في المكان مزار يرتاده الناس للزيارة والصلاة، وطلب البركة من صاحب الضريح⁽¹⁾.

ج- عمارة:

يتخذ الضريح شكلا هندسيا على صورتين: قبر على شكل برج وقبر على شكل قبة وقد تنوعت الأضرحة فكان منها البسيط، المنفرد البناء، المتواضع المواد، المكون من غرفة واحدة مقببة مربعة تضم التربة وحدها⁽²⁾. وقد وضع لها الباحثون تقسيما على أساس أن الأصول المعمارية للضريح كثير منها مستوحاة من عمائر وجدت قبل الإسلام وهي كالاتي:

- **التصميم المربع:** وهو الذي يغطي بقبة وتأثيره مسيحي، إذ أنه وجدت بعض الأمثلة لهذا النمط في سوريا⁽³⁾.

- **التصميم الدائري:** وهو الذي يشبه الأبراج، ويرجع أصله إلى منشآت بسيطة وجدت قبل الإسلام⁽⁴⁾.

- **الأضرحة ذات التصميمات الكبيرة:** وهي تقب بقبة كبيرة ونجدها خاصة في إيران، فهي على شكل المنازل التي كانت تعلوها قبة كبيرة والموجودة خاصة بإيران، فهي على شكل المنازل التي كانت تعلوها قباب في المدن الصحراوية الفارسية⁽⁵⁾.

كما كانت القبور في إيران على شكل أبراج أسطوانية، يعلوها أحيانا سقف مخروطي الشكل، وكانت بعض الأضرحة على شكل قاعدة مربعة مغطاة بقبة ويوضع عليه نصب تذكاري على هيئة شاهد قبر، وهذا النوع من العمائر انتشر في المشرق كما في المغرب حتى أصبح الطراز المخصص للضريح الإسلامي المعروف بـ"التربة" أو "القبة"⁽⁶⁾، ولتحويل المسقط المربع إلى دائرة عملت منطقة انتقال مثمثة المسقط، فتطورت خلال العصور اللاحقة، وتعددت أشكالها في البلاد الإسلامية باستعمال الحنايا الركنية أو المثلاث الكروية

(1) - الولي طه: المرجع السابق، ص ص 107 - 108.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 156.

(3) - Marçais. G: *l'architecture musulmane d'occident, Arts et métiers graphiques*, Paris, 1954, p299.

(4) - كونل أرنست: *الفن الإسلامي*، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966، ص 60.

(5) - نفسه: ص 62.

(6) - الولي طه: المرجع السابق، ص 126.

بوجودهم إلى قريهم، ولما جاء الإسلام استمر هذا التقليد، ولعل أول خيمة أقيمت في الإسلام كانت على قبر أم المؤمنين زينب بنت جحش بعد وفاتها في سنة 20هـ / 641م⁽¹⁾. وفيما يخص ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم فأصله حجرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عليها التي توفي فيها عليه الصلاة والسلام، ثم ألحقت بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم في عهد الوليد بن عبد الملك، ثم زودت بقبة في عصر المماليك⁽²⁾. وقبل أن نبدأ الحديث عن تاريخ نشأة هذا التقليد وعن تطور بناء الأضرحة في الإسلام وما يقام فوقها من القباب والأقباء وما يجاورها من المساجد والزوايا والربط، لابد أن نعرف أولاً تاريخ نشأة زيارة القبور، وفي ذلك يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: "زار النبي صلى الله عليه وسلم فبكى وأبكى من حوله، وقال استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزورها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت وفي رواية تذكركم بالآخرة". وروي عن السيدة فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت تزور قبر عمها حمزة في بعض الأيام وتبكي عنده، وقيل عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

أما حكم الدين في زيارة القبور عامة وأضرحة الأولياء بصفة خاصة، فقد جاء في كتب الفقه على المذاهب الأربعة أن زيارة القبور مندوبة، على أنه ينبغي عند زيارة القبور أن يشتغل الزائر بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى وقراءة القرآن للميت، فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، كما ينبغي أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة، فلا يطوف حول القبر ولا يقبل حجراً، ولا عتبة ولا خشباً، ولا يطلب من المزور - أي الولي أو الشيخ - شيئاً إلا غير ذلك⁽³⁾.

أما عن مباني القبور، فقد كره الإسلام البناء على الأضرحة كما كره أيضاً إقامة المزارات واتخاذها أماكن للصلاة، حيث يروى أن الخليفة "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً للصلاة فقال: "ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 362.

(2) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 139.

(3) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 46.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد، من أدركته الصلاة فليصل والّا فليمض" (1).

ومع مرور الزمن نشأت في العمارة الإسلامية دون غيرها عمائر أقيمت على المقابر عرفت بالقباب، وقد كانت القبة في أول أمرها عنصرا معماريا أريد به إظهار أهمية بعض أجزاء المسجد، كما هو الحال في المسجد الأموي بدمشق ومسجدي الأزهر والحاكم في مصر، ومن ناحية أخرى للإشارة إلى هذا الجزء من المبنى، وقد أقبل المسلمون على استعمال القباب في تغطية المبنى المقام على قبور الشخصيات البارزة مثل الملوك والسلطين، أو قبور أولياء الله الصالحين، حتى أطلق اسم الجزء على الكل وصارت كلمة "قبة" اسما للضريح كله، ومن هنا جاء المثل السائر "تحت قبة الشيخ".

وعن أقدم ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة يعود إلى القرن الثالث الهجري، حيث عُرف هذا الضريح باسم "القبة الصليبية للخليفة العباسي "المنتصر" المتوفي سنة 821/هـ246م، وهو يوجد في مدينة "سامراء" بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر العاشق، وقد ضم الضريح إلى جانب المنتصر الخليفة المعتر والمهتدي. ويتكون الضريح من مئنتين خارجي وآخر داخلي وفي الوسط توجد غرفة مربعة، فهو بذلك يشبه في تخطيطه إلى حد كبير قبة الصخرة (69 - 688/هـ72 - 691م)، وقد بني في أركان الغرفة الأربعة مقرنصات حولت المربع إلى مئمن أقيمت فوقه القبة (2).

وانتشر بعد ذلك اتخاذ الأضرحة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما إيران والهند، ومن أشهر الأضرحة الإسلامية نذكر "ضريح إسماعيل الساماني" المبنى سنة 296هـ في مدينة "بخارى"، ثم ضريح الإمام "علي" في "النجف" الذي بناه الحمدانيون سنة 317هـ، ثم ضريح "محمد بن موسى" في مدينة "قم" بإيران سنة 366هـ، وضريح "أولغ بك" في غزنة و"تاج محل" (*) في أكرا، ومقابر الأئمة الزيدية في صعدا باليمن، وكذلك ضريح "السبع بنات" في الفسطاط المبنى سنة 400هـ، كما احتفظت لنا جبانة أسوان بمجموعة كبيرة من

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 364.

(2) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص46. يُنظر كذلك: - الباشا حسن: المرجع السابق، ص139.

(*) - ضريح تاج محل: أنشأه السلطان "شاه جيهان" في سنة 1041هـ/1631م، ليكون ضريحا لزوجته "ممتاز محل". لمزيد من المعلومات يُنظر: - الباشا حسن: المرجع السابق، ص140.

ويتقربون، يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح، آتين من كل فج. وأصبح المشاهد المحايد لا يعرف وهو أمام ذلك هل يشاهد مادب أو ماتم، وهل العابدون يعبدون الله أو يعبدون الشيوخ والمرابطين⁽¹⁾.

وكان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى الوسائل كبناء المشاهد والزوايا والوقف عليها، فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة كانت تعج بالأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين، ولقيت اهتمام من طرف الحكام، حيث قام الداوي الحاج أحمد العليج الأشجي في سنة 1108هـ / 1696م ببناء ضريح "عبد الرحمن الثعالبي" المتوفي سنة 875هـ / 1470م⁽²⁾، كما اشتهرت أيضا مدينة تلمسان ونواحيها بأضرحتها ومشاهدها منها ضريح سيدي الحلوي الأندلسي، وضريح الولي "محمد بن علي حفيد الولي عبد الله بن منصور" الذي بناه الباي إبراهيم الملياني في سنة 1174هـ بأمر باشا الجزائر، كما أن الباي مصطفى المانزالي قد جدد سنة 1218هـ ضريح الولي "عبد الله بن منصور"⁽³⁾. وفي مدينة مستغانم بنى الباي مصطفى بوشلاغم بمنطقة المطمر قبة جلييلة في سنة 1126هـ / 1714م وحبسها على نفسه ودفن عقبه وعقب عقبه⁽⁴⁾، كما عرف عن الباي محمد الكبير انه اعتنى ببناء مشهد الولي "محمد بن عودة" والولي "أحمد بن يوسف الملياني"⁽⁵⁾. وفي مدينة قسنطينة عرفت بمجموعة من الأضرحة نذكر منها ضريح الشيخ "سيدي الكتاني"⁽⁶⁾.

وعن مدينة معسكر في هذه الفترة، فقد شهدت بناء العديد من الأضرحة تخليدا لعلمائها وبياتها، وهي على أنواع، فمنها أضرحة ملحقة بمؤسسة دينية سواء كان جامعا مثلما نجده في الجامع الكبير، أين نجد قبة اشتهرت باسم سيدي عبد القادر الجيلاني، التي تضم قبور بعض بايات معسكر، أو تكون ملحقة بزواية مثلما نجده في زاوية سيدي بوراس

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص467.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص99.

(3) - نفسه: ص ص 263 - 265.

(4) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص ص 275 - 276.

(5) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص132. يُنظر كذلك:

- سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص469.

(6) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 367.

وزاوية سيدي بوسكرين، ومنها ما هو ملحق بمقبرة كضريح سيدي موفق، كما نجد أضرحة منفردة لا تتصل ببناء كضريح سيدي محمد أبي جلال.

وبالإضافة إلى ما ذكر سابقا لاحظنا وجود الكثير من الأضرحة خارج المدينة، إذ أننا وجدنا تقريبا في كل قرية ومدينة ضريحا أو أكثر، سواء كان متصلا بمقبرة أو منفصلا عنها، حتى أصبح رمزا أو تقليدا متعارفا عليه، وهناك من يربط وجود البركة والخيرات بوليهم الصالح، لذلك تعددت أوجه الاحتفالات ومواعيد المناسبات وأصبح هناك تنافس بين القبائل والعشائر على كيفية إقامتها، كما أنها غدت وجهة للنسوة والزوار لطلب الشفاء من الأمراض المستعصية، وأماكن لممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الدين الإسلامي، وقد اعتبرت من طرف العلماء مظهرا من مظاهر الشرك بوحداية الله تعالى.

4-3 - ضريح سيدي بوسكرين:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الجنوبية الغربية من زاوية سيدي بوسكرين، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها.

ب - المؤسس وتاريخ التأسيس:

هذا الضريح يفتقر إلى تاريخ تأسيسه ومؤسسه، إذ أننا لم نستطع التعرف على ذلك بسبب عدم وجود لوحة تأسيسية أو تذكارية، كما أن المصادر لا تتطرق إليه، لكن من المحتمل أنه بني خلال القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي، وهو التاريخ الذي توفي فيه هذا العلامة.

وصف المخطط المعماري:

يقع ضريح سيدي بوسكرين في الجهة الجنوبية الغربية للزاوية، يتم الوصول إليه عبر مدخل يقع في الجهة الجنوبية الغربية للزاوية يبلغ ارتفاعه 1,90م وعرضها 80سم، وعبر سلم يتكون من 12 درجة نصل إلى صحن صغير مقاساته 5,20م طولا و 4,52م عرضا، كما كان يوجد بجانبه في الجهة الغربية ثلاث عيون مائية وهو ما توضحه الصورة القديمة للضريح، غير أنها الآن أغلقت، وذلك بسبب التعديلات التي طرأت عليه، وقد تم فصل الضريح عن الزاوية لتفادي اختلاط الطلبة بالزوار، وفيما يخص مظهره العام فهو بسيط خال من الزخرفة، إذ أنه يتخذ شكلا شبه مربع بمقاسات تبلغ 3,72م من الجهة الغربية و 3,96م

من الجهة الشرقية، و3,69م في كل من الجهة الشمالية والجنوبية. يتم الدخول إلى الضريح عبر مدخل بعقد منكسر يعلوه إطار بدون زخارف، مزود بباب حديدي مقاساته (1,84م × 69سم)، كما زُين في الأعلى من جهاته الأربعة بإفريز مسنن من مادة الآجر.

ومن الداخل لا نجد فيه أي زخرفة، إذ أنه يتخذ الشكل المربع بمقاسات تبلغ 3,40 م طولاً و3,23م عرضاً بمساحة تقدر بـ10,90م⁽²⁾. تحتوي جدرانه الأربعة على حنايا مزودة بعقود صماء منكسرة متجاوزة، الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع ضريح العالم في الجهة الغربية. (يُنظر الشكل رقم 19) و(تُنظر الصور رقم 74/73/72/71)

4-4 - ضريح أبي رأس الناصري:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الشمالية الشرقية من زاوية أبي الراس الناصري، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها، لا يفصل بينهما سوى سور. (يُنظر الشكل رقم 18)

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في معرفة تاريخ تأسيس هذا الضريح لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، لكن حسب ما أشار إليه بعض المؤرخين من أمثال المزاربي في قوله "...ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر، فنسبت له تلك العقبة إلى أن بها اشتهر وعلى ضريحه قبة نفعنا الله به"⁽¹⁾، وهذا يعني أنه بني في السنة التي توفي فيها أبي الراس الناصري (1238هـ / 1823م)، في عهد حكم البايع حسن (1817 - 1831م) المشهور عنه ببناء القباب مثلما فعل للعالم سيدي علي أبي الوفا في سنة 1828م⁽²⁾.

ج- وصف المخطط المعماري:

يظهر الضريح في شكله العام بسيطاً كبساطة صاحبه، يتم الوصول إليه حالياً عبر مدخل يقع في الجهة الشمالية، ندخل من خلاله إلى صحن صغير تتجمع فيه النسوة للتبرك بكرامات هذا الولي الصالح، لكن المدخل الأصلي كان مفتوح في الجهة الجنوبية، حيث صحن الزاوية، ويرجع سبب تغييره إلى تفادي اختلاط النساء الوافدات للزيارة مع الرجال القادمين للصلاة داخل الزاوية. ندخل إليه عبر مدخل بباب خشبي أصلي قليل الارتفاع مما

(1) - المزاربي الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص351.

(2) - نفسه: ص353.

يؤدي بالزائر إلى الانحناء، تبلغ مقاساته (1,79م طولا و79سم عرضا)، ومن الداخل فهو يبدو بسيط في مظهره العام لا نجد فيه زخرفة، إذ أنه يتخذ الشكل المربع بمقاسات تبلغ 3,40م طولا و3,23م عرضا بمساحة تقدر بـ10,90م². فنجد في جدرانه الأربعة حنايا مزودة بعقود صماء منكسرة متجاوزة، الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع ضريح العالم في الجهة الغربية. (يُنظر الشكل رقم18) و(تُنظر الصور رقم75/76/77)

4-5- ضريح سيدي محمد أبي جلال:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الرحبة التي سميت على اسمه، أي في الجهة الغربية من المدينة، وهو لا يبعد كثيرا عن ساحة الركابة حاليا.

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

ج- نبذة تاريخية عن سيدي محمد أبي جلال أمغاري:

هو من ذرية الولي الصالح الشريف الحسني مولاي يعقوب بن محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بجبل مغراوة، وقد استقر بأمر عسكر وله نسل كثير، ومنهم فرقة في غريس يقال لهم أولاد سيدي إبراهيم المغراوي⁽¹⁾.

د- إعادة تصور المخطط المعماري للضريح:

لقد تعرض ضريح سيدي محمد أبي جلال للهدم خلال فترة الاحتلال الفرنسي، حسب ما ذكره لنا القائم عليه وبعض سكان الرحبة، ومن حُسن حظنا أننا وجدنا صورة قديمة له استطعنا من خلالها إعطاء وصف ولو محدود عن شكله العام، كان يتم الوصول إليه بعد عبور درج يوصل إلى مدخل رئيسي مستطيل الشكل، الذي يؤدي بدوره إلى قاعة صغيرة وأقل ارتفاعا، حيث يوجد فيها مدخل يؤدي إلى الضريح، وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل بسيطة في مظهرها العام، تعلوها قبة مثمثة الأضلاع، ونجد الضريح في وسط القاعة، أما من الخارج فقد زينت النهاية العليا للضريح بشريط زخرفي شكل من مادة الآجر. (تُنظر الصور رقم78/79/80/81/82)

(1) - بن بكار بلهاسمي: المرجع السابق، ص276.



0 1A AP Fr AA: i 1/2 v °A

- DBA - 1
- 3/4 BA - 2
- 0 A, A - 3
- P B: BA - 4

على غرار المنشآت الدينية التي ذكرناها سابقا، تحتوي مدينة معسكر على عدة منشآت مدنية، منها ما اندثر ومنها ما يزال قائما إلى غاية اليوم، وهي تتمثل أساسا في الدور والمحكمة والحمامات، وقد استطعنا من خلالها معرفة موقعها داخل النسيج المعماري للمدينة وكذلك طرازها المعماري والفني، وفيما يأتي دراسة مفصلة عن كل منشأة.

1- دار الباي:

أ- الموقع: (ينظر الشكل 23)

تقع دار الباي المسماة حاليا بـ"دار القيادة" في وسط مدينة معسكر، وبالضبط في ساحة الشهداء، يحدها من الجهة الغربية شارع القدس، ومن الجهة الشرقية شارع يخلف بلعيد، وعند التمعن في موقعها نجد أن اختياره لم يكن عشوائيا، وإنما روعي فيه أهمية موقع المراكز الإدارية في قلب المدينة، وهو ما أشرنا إليه في الفصل السابق.

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

هناك غموض كبير يكتنف تاريخ هذه المنشأة، إذ وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد تاريخ بنائها وكذا مؤسسها، وهذا نظرا لعدم وجود كتابة تأسيسية تشير إلى ذلك، لكن عندما بحثنا في مختلف المصادر، وجدنا بعض المعلومات ذكرها الأسير "تيدنا"، حيث أنه قدّم لنا وصفا لأحد أقسام دار الباي، ألا وهي قاعة الاستقبال وهذا في قوله: "واندهشت كل حواسي عند رؤية منظره وأبهة مجلسه... ويجلس فوق سرير العدل، الذي لم يكن سوى من القماش المطرز وكذلك ملابسه. وكل شيء يلمع منه إلى حد يشد الإعجاب، وكانت حيطان القاعة مغطاة بزرابي رائعة الجمال، وفوقها لا نرى سوى الذهب وبنادق، ومسدسات وسيوف بأنواع مختلفة، حيث زُيّنت بالذهب والفضة. ولم يكن بلاطه المحيط به أقل لمعانا"⁽¹⁾.

وحسب علمنا ومما جمعناه من الروايات الشفوية، أن مدينة معسكر لا تحتوي إلا على هذه الدار الإدارية التي وردت في المصدر المذكور، وفيها عاش كاتبها خلال فترة حكم الباي محمد الكبير، لكن السؤال المطروح هو: هل كان في مدينة معسكر مقرا آخر للبايات الذين تولوا الحكم قبل تولي هذا الباي زمام الحكم؟ أم أنّ هذا الباي ربما قام بإعادة بناء مقر البايلك وتوسيعه، أو أنه شيد مقرا جديدا في المدينة، كل هذه الأسئلة تبقى مطروحة ومفتوحة

(1) - عميراوي أحميدة: المرجع السابق، ص54.

على كل الاحتمالات، ويمكن تحديد فترة زمنية للبناء وذلك لضرورة إنشاء مقرا لإدارة بايلك الغرب، وهي منذ أن اتخذت مدينة معسكر كعاصمة للبايلك، أي منذ تولي الباي مصطفى بوشلاغم إلى غاية نقل العاصمة إلى وهران في عهد الباي محمد الكبير.

بعد نهاية الفترة العثمانية وتعرض الجزائر للاعتداء الفرنسي، اتخذت هذه الدار كمقر لقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، منذ مبايعته كسلطان على الجزائر سنة 1832م، وإلى غاية 1841م تاريخ سقوط المدينة في أيدي الاحتلال. وعندها تم تحويل هذا المعلم إلى ثكنة عسكرية إلى غاية 1962م.

وفي سنة 1962م قامت مجموعة من العائلات العسكرية، باتخاذ هذه الدار كمسكن لها إلى غاية ترحيلها في سنة 1996م، وفي يوم 06-03-1996م تم تصنيفها كمعلم أثري، وبتاريخ 12/08/1999م صدر قرار التصنيف بالجريدة الرسمية تحت رقم 87-99.

تعرضت هذه المنشأة إلى كل أنواع التشويه والتغيير في فترة الاحتلال، لكن بعد عملية التصنيف أعيد لها الاعتبار من طرف السلطات الرسمية، فتم ترميمها وتحويلها إلى متحف، غير أن عملية الترميم لم تكن في المستوى ولم تراعى فيها المعايير المتعارف عليها لذلك سارعت عوامل التلف بكل أنواعها في مهاجمة عناصرها المعمارية، فتنشقت سقفها وأرضيتها على اثر تسرب المياه إلى داخلها، وتشوهت واجهاتها، كما تضررت أعمدتها وتيجانها، حتى أصبحت آيلة للانهدام، وهذا ما دفع السلطات المعنية إلى المسارعة إلى إعادة ترميمها، وهو ما تم بالفعل خلال سنة 2011م، وانتهت العملية خلال سنة.

ج- وصف المخطط المعماري:

ج-1- المظهر الخارجي:

تظهر دار الباي في مخططها وشكلها العام شبيهة لقصور مدينة الجزائر، وهو ما أكده لنا المؤرخ "محمد بن عبد القادر الجزائري" في وصفه لدور مدينة معسكر في قوله "...وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر"⁽¹⁾، وعلى العموم فهي تتكون من طابقين وأربعة أجنحة، بشكل شبه مستطيل، حيث تظهر واجهاتها بسيطة، إلا أن الملاحظ

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: المصدر السابق، ص22.

أنها تعرضت إلى تغيير كبير خلال فترة الاحتلال، من حيث فتح الكثير من النوافذ الكبيرة خاصة في الطابق العلوي، أما واجهاتها فكلها ظاهرة للعيان، فالواجهة الرئيسية وهي الشرقية تبلغ مقاساتها 14,3م، أما الواجهة الغربية فمقاساتها 16,5م، وفيما يخص كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية فهما متساويتين من حيث المقاسات والتي تبلغ 25,7م. (تُنظر الصور رقم 90/89/88/87/86)

ج-2- الأقسام الداخلية:

تتكون هذه الدار من طابقين يحتويان على مجموعة من الأقسام، وفيما يأتي وصف مفصل لهما. (يُنظر الشكل رقم 21 و 22)

1- المدخل الرئيسي: يتم الدخول إلى الدار عبر المدخل الرئيسي الذي يقع في الجهة الشرقية مقاساته (2,20م × 1,78م)، أما عن شكله فهو الآخر تعرض للتغيير، وقد اكتشفنا ذلك خلال عملية الترميم الثانية التي أجريت على الدار، إذ أنه كان في الأصل كبير الحجم يعطوه عقد نصف دائري مبني من مادة الآجر. وحسب القائمين عليها كان المدخل في فترة ما قبل الترميم، يتكون من باب كبيرة بمصراعين تتوسطهما ما يعرف بالخوخة، بطريقة تشبه تماما مداخل دور مدينة الجزائر في العهد العثماني، وحاليا غُيِّرت واستبدلت بباب أخرى. (يُنظر الشكل رقم 24) و(تُنظر الصورة رقم 91)

2- الأروقة:

تعرضت أروقة هذه الدار إلى عدة تغييرات في فترة الاحتلال الفرنسي، تمثلت في غلق رواقين كاملين في كل من الجهتين الشمالية والجنوبية في الطابق الأرضي، حيث تم إدماجه مع الحجرة الرابعة ومع مكان الحمام والغرفتين الثانية والثالثة، وكذلك الرواق الجنوبي في الطابق العلوي الذي أزيل نهائيا، كما تم إدماج الأروقة الثلاثة المتبقية مع الغرف وسدّها كلية بإطارات خشبية، جُعل في وسطها نوافذ، وهو ما أفقدها صورتها الأصلية، وقد تبين لنا من خلال تتبعنا لأطوار عملية الترميم التي خضعت لها، أنها شبيهة في تخطيطها لأروقة دور مدينة الجزائر، إذ أنّ هذه الدار كانت تتكون من أربعة أروقة مزينة بالأعمدة والتيجان والعقود، وهو ما يظهر في الأروقة المتبقية في الطابق الأرضي والمحتفظة ببعض صفاتها الأصلية، إلا أنّها تختلف من ناحية المقاسات، فالرواق الشرقي يبلغ طوله 4,5م وعرضه 1,6م، والرواق الغربي طوله 5,4م وعرضه 2,7م، والرواق الشمالي طوله 3,1م

وعرضه 2,1م، وإن اختلفت في المقاسات إلا أنها اشتركت في عناصرها المعمارية، فكلها تحتوي على عمودين وتاجين بسيطين من الحجر الجيري عليها ثلاثة عقود حدوية. (تُنظر الصور رقم 92/93/94/95/96/97)

3- الفناء:

هو وسط الدار، تشرف عليه تقريبا كل الأقسام الداخلية، أما عن شكله فهو غير منتظم، وربما ذلك يعود إلى التغييرات التي أدخلها الاحتلال الفرنسي عليه، حيث يبلغ طول الجهة الشمالية والجنوبية 5,50م، والجهة الشرقية طولها 4,57م وعن الجهة الغربية طولها 5,19م، كانت تتوسطه فسقية من الحجر الجيري هي حاليا محفوظة في المتحف، وقد استبدلت بنافورة حديثة، أما أرضيته فقد بلطت ببلاطات من الرخام. (تُنظر الصورتان رقم 98/99)

4- الوحدات السكنية:

4-أ- الحجرات:

الحجرة الأولى: نلج إليها عبر المدخل الرئيسي، والتي نعتقد أنها كانت في الأصل قاعة للانتظار أو ما يُعرف بالسقيفة، وهي بسيطة في مظهرها العام مقاساتها (3,4 × 2,7م) وبمساحة تبلغ 9,70م²، سقفها شُكّل من ستة أقبية نصف أسطوانية، وعبر هذه الحجرة نصل إلى رواق مفتوح على الفناء، حيث فُتِح في نهايته مدخل معقود بعقد منكسر محمول على عمودين صغيرين، أما سقفه فهو من مادة الخشب وهو مستحدث، كما نجد في جانبيه الشمالي والجنوبي مدخلان يعلوهما عقدان منكسران.

الحجرة الثانية: يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في جدارها الغربي، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (3 × 3,75م) بمساحة تبلغ 8,95م²، تحتوي على نافذتين واحدة في الجهة الشرقية والأخرى في الجهة الشمالية، أما تسقيفها فهو عبارة عن أقبية نصف أسطوانية، ولم نستطع تحديد وظيفة هذه الحجرة، لكن حسب القائمين عليها أنها كانت تحتوي على سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، وقد أزيل خلال عملية الترميم الأولى.

(تُنظر الصورة رقم 100)

الحجرة الثالثة: تقع في الجهة الشرقية، نصل إليها عبر الرواق حيث يوجد مدخلها، وهي حجرة تشبه إلى حد كبير الحجرة السابقة، نعتقد أنها كانت غرفة الاستقبال، بالنظر إلى

موقعها وكبر حجمها، فهي ذات شكل غير منتظم، يبلغ طولها 4,7م من الجهة الشرقية و4,76م من الجهة الغربية، أما عرضها فهو 3,83م، وتبلغ مساحتها 15,18م²، تحتوي على نافذتين واحدة في الجهة الشرقية والأخرى في الجهة الجنوبية، أما سقفها فقد عُمل بنفس طريقة الحجرة السابقة، وفي نهاية الرواق فُتِحَ مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الحديقة كما فُتِحَ في وسط الرواق مدخل آخر بعقد نصف دائري، ندخل من خلاله إلى الرواق الشرقي المطل على الفناء، وهو يتكون من عمودين مزينين بتاجين والتي بدورها تحمل ثلاثة عقود منكسرة، ونجد في الجدار الشرقي خزانيتين جداريتين مزينة بعقدين نصف دائريين.

الحجرة الرابعة: تقع في الجهة الجنوبية، نصل إليها عبر الرواق الشرقي، أين يوجد مدخلها وهي حجرة كبيرة مقاساتها تبلغ (5,2×8,5) وبمساحة تصل إلى 45,00م²، فتحت فيها خمسة نوافذ، ثلاثة في الجدار الجنوبي واثنان في الجدار الشمالي تطل على الصحن، كما فتح مدخل آخر في جدارها الشرقي يربطها مع الرواق الأوسط، أما عن سقفها فهو على شكل أقبية نصف أسطوانية.

الحجرة الخامسة: يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في الجهة الغربية، وهي حجرة ذات شكل غير منتظم (5,25 × 5,50م)، ومن خلال مظهرها العام يبدو لنا أنها تعرضت إلى تغيير كبير خلال فترة الاحتلال، ويظهر ذلك في إضافة نصف جدار في وسط الحجرة الذي قسّمها إلى قسمين، تحتوي هذه الحجرة على مدخل في الجهة الجنوبية يؤدي إلى الحديقة وكذلك نافذة وخزانة جدارية صغيرة مزينة بعقد نصف دائري في الجهة الجنوبية، ومدخلان بدون باب، واحد في الجدار الشمالي والآخر في الجهة الغربية، يؤدي إلى السلم الصاعد إلى الطابق العلوي.

الحجرة السادسة: تقع في الجهة الغربية وهي مستطيلة الشكل مقاساتها تبلغ (2,5×6م)، يتم الدخول إليها في الأصل عبر مدخل يقع في الرواق الغربي، لكننا لم نستطع تحديد المدخل الرئيسي لوجود ثلاثة مداخل، اثنان متشابهين في التصميم والمقاسات ويعلوهما عقدان نصف دائريان، أما الثالث فيقع بينهما لكنه يظهر حديث البناء مقارنة معهما، وهذه الحجرة مزينة بإفريزين متصلين بسقفها، والمسقف باستعمال مادة خشب الصنوبر والعرعار، والملاحظ أن هذه الحجرة تعرضت للكثير من التغييرات والإضافات، منها فُتِحَ مدخلين آخرين متقابلين ومتشابهين من حيث الشكل والمقاسات. (تُنظر الصورة رقم 101)

4-ب - الغرف:

تقع الغرف في الطابق العلوي والتي نصل إليها عبر درجين، يقع الأول في الركن الغربي الجنوبي، والثاني يوجد في الجهة الغربية، حيث يبدو لنا أنه مستحدث، تحتوي هذه الدار على سبعة غرف موزعة على الأجنحة الأربعة.

الغرفة الأولى: تقع في الجهة الغربية نصل إليها بعد صعود السلم الغربي الجنوبي، الذي يؤدي بنا إلى بهو تقدر مساحته بـ 13,60م²، ومن خلاله نجد المدخل الذي يؤدي إليها وهو مفتوح في الجهة الغربية، وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (6,3 × 6,10م)، تحتوي على نافذتين فتحتا في الجدار الغربي عرضها 1م، أما من ناحية ارتفاعها فقد أحدثت عليها تغييرات من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي لتشبه النمط الأوروبي، وفي الجدار الشرقي فتح مدخلان معقودان بعقد نصف دائري يؤديان إلى غرفة أخرى.

الغرفة الثانية: تقع في الجناح الجنوبي، نصل إليها عبر مدخلان، والأول مفتوح على البهو والثاني يربطها مع الغرفة الأولى، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (5,3 × 3,10م) تحتوي على نافذتين فتحتا في الجدار الشمالي تطلان على الصحن، وهي في الأصل تشغل مكان الرواق، كما نجد في جانبيهما خزانة جدارية مستطيلة الشكل، هذا بالإضافة إلى خمسة نوافذ كبيرة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الثالثة: هي الأخرى تقع في الجناح الجنوبي، وتعد من أكبر الغرف تبلغ مقاساتها (5,20 × 10,95م)، تحتوي على أربعة مداخل، اثنان مفتوحان في الجدار الشمالي وواحد في الجدار الغربي والرابع في الجدار الشرقي.

الغرفة الرابعة: تقع في الجناح الشمالي وهي شبه مربعة مقاساتها (2,5 × 2,55م)، تحتوي على مدخلان بعقد نصف دائري، واحد في الجدار الشرقي والآخر في الجدار الجنوبي يؤدي إلى الغرفة الخامسة، كما تحتوي على خزانة جدارية صغيرة يعلوها عقد نصف دائري.

الغرفة الخامسة: توجد في الجناح الشمالي كذلك، وهي الأخرى تعتبر من أكبر الغرف تتخذ الشكل المستطيل بمقاسات تبلغ (2,55 × 11,50م)، تحتوي على خمسة نوافذ، ثلاثة منها فتحت في جدارها الشمالي واثنان في الجدار الجنوبي، هذا بالإضافة إلى خزانة جدارية ومدخل يؤدي إلى رواق نطل من خلاله على الصحن، يحتوي على عمودين أسطوانيين عليهما تاجين بسيطين، تحمل ثلاثة عقود منكسرة متجاوزة سُدت بأطر من الخشب، وفي

ونجد في معظم الأحيان مواقع المطابخ بالطابق الأرضي، بعيدا عن هبوب الرياح لمنع تصاعد الدخان إلى الفضاءات الأخرى في المسكن⁽¹⁾، وهذا ما يطرح عدة تساؤلات منها: ما هي الأسباب والعوامل التي جعلت مكانه بهذا الطابق؟ ومن خلال دراسة توزيع المكونات الداخلية للبيوت تتبين هذه الأسباب، منها سهولة تزويده بالمواد الأولية كالحطب والماء وغيرها، بالإضافة إلى عزله عن الغرف، خاصة منها الخاصة بالضيوف والنوم، وذلك لتفادي الإحراج والفوضى التي قد تنتج عنه، أو لسبب التأمين من المخاطر التي قد تحدث كالحريق وغيره، بالإضافة إلى تزويده بفتحات تكون مفتوحة على الخارج، وبنوافذ مفتوحة نحو الداخل، وذلك لتوفير الإنارة والتهوية اللازمة، خاصة وأن الجو الداخلي للمطبخ يكون حارا ومختلفا عن الجو الخارجي، وذلك ناتج عن أعمال الطهي وغيرها.

وفيما يخص مطبخ دار الباي، فلم نعثر على أثره، حيث تم إزالته نهائيا خلال فترة الاحتلال، لكن من خلال تتبعنا للمخطط المعماري للدار، توصلنا إلى احتمال أن يكون موقعه في الجهة الغربية، اعتمادا على الأسباب المذكورة سابقا.

5-ب - الحمام:

يعتبر الحمام من بين المرافق الأساسية والهامة التي يجب أن تتوفر في المباني عامة والمساكن خاصة، لأنها تتعلق بنظافة الإنسان المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، ولكن هذا لا يعني أن كل المساكن تحتوي على حمام، إذ أن ذلك يكون حسب إمكانيات صاحب البيت ولو كانت كل المساكن تحتوي على حمام لما وجدت الحمامات العامة وهذا دليل صريح على ذلك، ويكون موقعه في معظم الأحيان بالقرب من المطبخ وأحيانا فوقه⁽²⁾، وذلك لعدة اعتبارات منها توفير قنوات مشتركة لإيصال الماء وكذا قنوات لصرفها، وهذا وصف مفصل لحمامات هذه المباني.

يقع حمام دار الباي في الجهة الشمالية من المبنى، حيث أكتشف خلال عملية الترميم مغطى بالتراب، وكان هذا الردم في فترة الاحتلال، يتم الدخول إليه من مدخل الرواق الشرقي، وهو يتكون من ثلاث قاعات مثل تلك الحمامات التي كانت تعرف في عصر

(1) - الزركال خليل حسن: التصميم المعماري للمساكن في المدينة العربية الإسلامية، دراسات في آثار الوطن العربي كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة 1422هـ/2001م، ص 731.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر... ص 13.

الإمبراطورية الرومانية، لكننا وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد القاعات، نظرا للتغيرات التي أدخلتها سلطات الاحتلال عليه، وذلك بتحويل قاعاته إلى مكاتب إدارية، بيد أننا استطعنا تحديد كل قاعة اعتمادا على بعض العناصر المعمارية، لكن دون معرفة شكل ومقاسات كل قاعة، نظرا للتغيرات الكبيرة التي أحدثها الاحتلال الفرنسي، فالقاعة الباردة توجد في الجهة الشمالية الشرقية، ندخل إليها عبر مدخل بعقد نصف دائري مفتوح في الرواق الشرقي، وهي تحتوي على نافذة واحدة في جدارها الشمالي، أما القاعة الدافئة فهي تقع بجانبها، يربط بينهما مدخل بعقد نصف دائري، أما تسقيفهما فهو من مادة الخشب. (تنظر الصورة رقم 104)

وفيما يتعلق بالقاعة الساخنة فيتم الدخول إليها عبر مدخل معقود بعقد نصف دائري مفتوح في الرواق الشمالي، تحتوي على أربعة أوابن، ففي الإيوان الأول نجد نافذة كبيرة وكذلك نافذة صغيرة، أما الإيوان الثالث فهو الآخر فتحت فيه نافذة في الجدار الشمالي بالإضافة إلى نافذة كبيرة في الإيوان الرابع ونافذين في الجدار الجنوبي مفتوحتان على الصحن، وعن تسقيفها فهو على شكل أقبية متقاطعة وكذلك من الخشب. لكن للأسف هذه القاعة تخلو من الأحواض وكل مكوناتها المعروفة، بسبب التغيرات المذكورة سابقا والملاحظة التي وقفنا عليها هي استعمال الخشب في تسقيف القاعات وهي ميزة غير معروفة في الحمامات مما يرجح ذلك تغيير سقفها الذي ربما كان بأقبية متقاطعة والتي استعملت في تسقيف جزء منها.

5-ج- الكنيفات (المراحيض):

يطلق على الكنيف مجموعة من الأسماء نذكر منها: "بيت الراحة" و"المرحاض" و"بيت الطهارة"، ويكون مكانه في أغلب الأحيان محاذيا للمرافق المعيشية وتحت السلالم، ويعرف مكانه بواسطة العين الجدارية في داخله، وكذلك أبوابه التي تقوم على أطر من الرخام أو الحجر الجيري، والتي تكون أصغر حجما من الأبواب الرئيسية⁽¹⁾، وفي كل الأحوال فإن مدخل الكنيف منكسر وملتوي ذو انكسار واحد أو انكسارين، يؤدي إلى حجرة ضيقة تشغل عمقها فتحة الكنيف، وعلى يمينها حوض صغير ضيق ملاصق للحائط ومتصل بمجرى

(1) - عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر... المرجع السابق، ص 89.

الإسلامية، التي تدعو إلى التواضع والالتزام بالحياء والبعد عن الافتخار، الذي قد يولد نوعا من الكراهية والحسد، وهذا راجع إلى اختلاف وضعية الناس من حيث الحالة الاجتماعية فهناك الغني والفقير، وهذا ما يجعل كل البيوت متشابهة كأنها كتلة واحدة وتظهر واجهاتها الأربعة واضحة للعيان، فالواجهة الرئيسية تقع في الجهة الشمالية وهي تختلف نوعا ما عن الواجهات الأخرى، إذ يوجد فيها المدخل الرئيسي الذي يعلوه عقد حدوي عليه باب خشبي يعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي، وقد زُين في الأعلى بإطار من المربعات الخزفية، وشريط من المقرنصات، كما نجد فوقه شرفة أو ما يُصطلح عليها في العمارة الإسلامية اسم "المشربية"، وكذلك تحتوي هذه الواجهة على ثلاثة نوافذ مزدوجة يتوسطها عمود يحمل عقدين حدويين كما أنها غير نافذة، بحيث أنها تظهر مخرمة، ربما الغرض من ذلك هو ستر حريم الدار. (تُنظر الصورتان رقم 106/105)

- المظهر الداخلي:

عند اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى ممر زُينت جوانبه بمربعات خزفية بارتفاع قدره متر، ونجد في نهايته سلم صاعد إلى الطابق العلوي، كما يقابلنا في نهايته مدخل مزود بباب خشبي نصل من خلاله إلى الطابق الأرضي مباشرة، تتكون هذه الدار من أربعة أجنحة، يتوسطها صحن مركزي تتوسطه نافورة مائية ويحيط به أربعة أروقة، وكل رواق يحتوي على ثلاثة أعمدة أسطوانية الشكل، تحمل عقدين حدويين وهذا في كلا الطابقين فالطابق الأرضي مخصص للمرافق المعيشية كالمطبخ والحمام والكنيفات وكذلك المخازن أما الطابق العلوي فهو مخصص للوحدات السكنية، بحيث نجد تقريبا كل رواق يحتوي على غرفتين، كما استوقفنا شيء يشد الانتباه هو وجود بائكة تتكون من ثلاثة دعامات، تحمل أربعة عقود نصف دائرية صماء في كل رواق، وبعض منها تتوسطها مداخل ونوافذ الغرف تعلوها عقود حدوية، وهذا يندر مشاهدته في الدور التي تعود إلى الفترة العثمانية. (تُنظر الصور رقم 111/110/109/108/107)

وحسب ما سمعناه من أصحاب هذه الدار، أنها تعرضت إلى بعض التغييرات وهو ما وقفنا عليه، نذكر منها غلق الرواق الغربي في الطابق العلوي، كما لاحظنا تصدع بعض الجدران جراء الأمطار وعوامل طبيعية أخرى.

3- المحكمة:

كانت في مدينة معسكر محكمتان، حسب ما جاء في المصادر التاريخية، وهما المحكمة التي مازالت قائمة إلى غاية اليوم، وكذلك محكمة أخرى أشار إليها الآغا بن عودة المزاري.

3-1- المحكمة الملحقة بالجامع الكبير:

أ- الموقع: كانت تقع في وسط مدينة معسكر في الساحة المسماة حالياً بساحة مصطفى بن التهامي، حيث أنها كانت ملاصقة للجامع الكبير.
ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

كانت هذه المحكمة في الأصل قبة، بنيت من طرف الباي الحاج عثمان بن إبراهيم بتاريخ فاتح المحرم عام 1167هـ الموافق لـ 29 أوت 1753م، وقد خصصت الدار الملاصقة لها لدفن هذا الباي، أما الجزء المتبقي فقد اتخذ كمقر لمحكمة قاضي معسكر حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزاري في كتابه لطلوع سعد السعود وذلك في قوله: "ثم بنى الدار والقبة الملحقة للجامع الأعظم بالمعسكر المعروفة عند الناس بقبة الباي إبراهيم لكونه مدفوناً بها، وإلا فهي قبة الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به، التي هي الآن محكمة قاضي المعسكر"⁽¹⁾.

تعرضت هذه المنشأة للإزالة خلال فترة الاستقلال، إذ أنها هدمت وأدمجت في بيت الصلاة للجامع الكبير، خلال التوسيعات التي أحدثت عليه في سنة 1962م. (تُنظر الصورة رقم 112).

3-2- المحكمة الرئيسية:

أ- الموقع:

تقع المحكمة المسماة حالياً باسم "محكمة الأمير عبد القادر" في وسط مدينة معسكر، وبالضبط في ساحة الشهداء عند ملتقى شارع بوقصري طاهر من الجهة الشرقية وشارع مصطفى بن بولعيد من الجهة الجنوبية الغربية، وهي تقع بمحاذاة دار الباي، بحيث أنه لا يفصل بينهما إلا الطريق. (يُنظر الشكل رقم 23)

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، صص 284 - 285.

ب - المؤسس وتاريخ التأسيس:

إن الباحث في تاريخ هذه المنشأة سيجد صعوبة كبيرة في معرفة سنة تشييدها وتتفق أغلب آراء المؤرخين أنها أنشأت من طرف الباي محمد الكبير في منتصف القرن الثامن عشر، حيث أنها كانت المحكمة الرئيسية للغرب الجزائري، باعتبار أن مدينة معسكر عاصمة للبايلك، وبعد الفترة العثمانية اتخذها الأمير عبد القادر كمحكمة لدولته الناشئة في سنة 1832م وإلى غاية 1841م وهو تاريخ سقوط المدينة في أيدي الاحتلال الفرنسي. ومنذ هذا التاريخ تحولت إلى مركز للعمل الخيري حتى سنة 1901م. وخلال سنة 1901م حولها الاحتلال إلى حانة للمعمرين ودام ذلك إلى غاية حصول الجزائر على الاستقلال. وبعد هذه الفترة حولت إلى مقهى، وبقيت على هذه الحالة حتى تم تصنيفها بتاريخ 06/03/1996م كمعلم تاريخي وأثري.

تعرضت هذه المنشأة إلى تغيير رهيب، خاصة في فترة الاحتلال الفرنسي، إذ تم تهديم جناح بأكمله لتسهيل شق طريق بالمدينة، وهو ما أفقدها تخطيطها المعماري الأصلي وأثر كثيرا على عناصرها المعمارية، وبعد فترة الاستقلال تم ترميمها وإعادة الاعتبار لها لكن للأسف لم تكن هذه العملية سليمة نظرا لعدم احترام المعايير المتعارف عليها في عملية الترميم، وهو ما أثر سلبا على عناصرها المعمارية، التي تعرضت للتلف لعدم تناسب مادة الترميم مع المادة الأصلية، وبالتالي أصبحت عرضة لمختلف العوامل الطبيعية، خاصة منها الأعمدة والتيجان، وكذلك تشقق السقف وتآكل الأرضية، الأمر الذي دفع بالسلطات المحلية إلى إعادة ترميمها، لإنقاذها من الانهيار، وفعلا تم ذلك خلال سنة 2011م وقد حضرنا أطوارا من هذه العملية، التي اكتملت خلال سنة 2012.

ج - وصف المخطط المعماري:

ج-1 - المظهر الخارجي: تظهر المحكمة من الخارج على شكل مستطيل، وهي تتكون من ثلاثة واجهات فقط، كلها ظاهرة للعيان، وهي الشمالية والجنوبية اللتين تبلغ مقاساتهما 11,93م وكذلك الغربية التي تبلغ مقاساتها 23,12م، أما الواجهة الشرقية فقد تعرضت لإزالة كاملة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، بسبب شقهم لطريق داخلي. (تُنظر الأشكال رقم 29/28/27) و(تُنظر الصورتان رقم 114/113)

ج-2- الأقسام الداخلية:

1- المدخل الرئيسي: يقع المدخل الرئيسي للمحكمة في الواجهة الجنوبية، حيث يبلغ ارتفاعه 2.50م وعرضه 2م، تعرض الباب الخشبي إلى عدة تغييرات، والذي كان في الأصل يتكون من دفتين تتوسطهما باب صغيرة تسمى الخوخة. (تُنظر الصورة رقم 113).

2- الفناء:

يتخذ فناء المحكمة شكلا مستطيلا بمساحة تقدر بـ (44م²)، وهو يتوسط الدار وتشرف عليه مجموعة من العقود المرتكزة على أعمدة متنوعة ومتوجة بتيجان من جهاته الثلاثة في الطابق الأرضي فقط، ولقد بلطت أرضيته ببلاطات رخامية حديثة وذلك في فترة الترميم، كما تتوسطه فسقية حديثة أضيفت أثناء عملية الترميم، وضعت داخل حوض على شكل نجمة مئمنة من مادة الرخام. (يُنظر الشكلان رقم 28/27) (تُنظر صورتان رقم 116/115)

3- قاعة الاستقبال: بعد الولوج عبر المدخل الرئيسي نصل مباشرة إلى قاعة الاستقبال وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (3,98×7,80م)، والملاحظ أنها غيرت تماما، بحيث أنها فقدت كل مواصفاتها ولم يبق فيها ما يثير الإعجاب، وذلك نظرا للتغييرات التي أحدثت عليها خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ولقد فتح في جدارها الشمالي مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الصحن، وكذلك ثلاثة نوافذ في الجدار الجنوبي والشرقي والثالثة في الجدار الغربي والتي يبدو أنها مستحدثة، أما بلاطات أرضيتها وجدرانها فهي حديثة، وضعت أثناء الترميم، وهذا ما أفقدها طابعها الأصلي. (يُنظر الشكل رقم 27)

4- الأروقة:

لم تسلم الأروقة هي الأخرى من عمليات التغيير والإزالة، إذ أنّ المحكمة حاليا تحتوي على ثلاثة أروقة فقط، أما الرواق الرابع والمتمثل في الرواق الشرقي فقد أزيل نهائيا للأسباب المذكورة سابقا، لكن ما يلاحظ على الأروقة المتبقية أنها مازالت محافظة على طابعها الأصلي دون أن يطرأ عليها تغيير كبير، لكن مقاساتها غير متساوية، فالرواق الغربي الذي يعتبر أكبر الأروقة تبلغ مقاساته (2×11,67م) وتوجد به أربعة أعمدة أسطوانية متوجة، تحمل خمسة عقود حدوية، بالإضافة إلى عقدين آخرين في الركن الغربي الجنوبي وعقدين في الركن الغربي الشمالي، بالإضافة إلى أنه يحتوي على خمسة مداخل، أما الرواق

الغرفة الأولى: تقع في الجهة الجنوبية، نلج إليها عبر مدخل مفتوح على الرواق الجنوبي وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (3,74 × 3,99م) وبمساحة تبلغ 16,32م²، تحتوي على نافذة فتحت في الجدار الجنوبي، كما فتح مدخل آخر في جدارها الغربي والذي يبدو أنه استحدث خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

الغرفة الثانية: تتواجد هذه الغرفة في نفس جناح الغرفة الأولى، يتم الدخول إليها عبر مدخل رئيسي ومدخلين ثانويين، فالأول مفتوح على الرواق الجنوبي، أما الآخرين فيربطها مع الغرفة الأولى والثالثة، وهي ذات شكل شبه مربع تبلغ مقاساتها (3,99 × 3,11م) بمساحة تقدر بـ 14,05م²، كما أنها تحتوي على نافذة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الثالثة: نجد هذه الغرفة في الجناح الغربي، يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الغربي، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (9,42 × 2,79م) بمساحة تقدر بـ 28,66م²، وهي تحتوي على أربعة نوافذ، ثلاثة منها فتحت في الجدار الغربي والرابعة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الرابعة: تقع في نفس الجناح - أي الجنوبي - يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الغربي، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (8,75 × 2,79م) وتقدر مساحتها بـ 49,26م²، وهي تشبه تماما الغرفة الثالثة من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية، إذ أنها تحتوي على أربعة نوافذ، نجد ثلاثة منها مفتوحة في الجدار الغربي والرابعة في الجدار الشمالي، كما نجد في جدارها الشرقي مدخل يربطها مع الغرفة الخامسة، والذي يبدو أنه مستحدث.

الغرفة الخامسة: تقع في الجناح الشمالي، ندخل إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الشمالي، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها تبلغ (4,27 × 2,93م) وتبلغ مساحتها 13,93م² تحتوي على نافذة واحدة مفتوحة في الجدار الشمالي وكذلك مدخلان مستحدثان، الأول يربطها مع الغرفة الرابعة والثاني مع الغرفة السادسة.

الغرفة السادسة: توجد كذلك في الجناح الشمالي، وهي الأخرى مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (4,28 × 3,8م) وبمساحة تبلغ 17,73م²، تحتوي على نافذتين الأولى مفتوحة في الجدار الشمالي والثانية في الجدار الشرقي، بالإضافة إلى مدخل مستحدث يربطها مع الغرفة السابقة، وللإشارة فإن تسقيفها كلها مسطح.

وانتشار الإسلام في الأقاليم، كما أنّ تعاليم الدين الجديد وفرائض الغسل والوضوء، جعلتهم يتبنون الحمّام العام الروماني، بل ويدخلونه الإسلام ويوؤونه مكانة لم يحتلها من قبل ويجعلون منه مرفقا عاما وشعبيا بالمعنى الصحيح، والمدن الرومانية ما عرفت قط حتى في أوج ازدهارها ذلك العدد الهائل من الحمّامات العامة، والذي غصّت به المدن الإسلامية.

ومن أخبار الحمّامات الأولى في الإسلام: ثلاثة قامت في البصرة، وكذلك حمّام الفأر الذي أقامه عمرو بن العاص في الفسطاط، الحاضرة التي صار فيها عام 539هـ/ 1144م ألف وست مئة وسبعون حمّاما. وراح عددها يزداد في كل المدن، إلى أن بلغ في بغداد في القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد ستين ألفا، بينما كان العدد في نهاية القرن نفسه ستمائة في قرطبة، أرقام يصعب تصديقها ولكن يستخلص منها دلالة أكيدة على الكثرة. وتجدر الإشارة إلى أنّ المبالغت لم تكن ترافق كل الروايات، فدمشق مثلا كان فيها في القرن السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد اثنان وخمسون حماما، وفي عام 1362هـ/ 1943م ستون، يعمل منها أربعون.

لقد انتشرت الحمّامات حيث انتشر الإسلام من المشرق إلى المغرب وعلى مدى كل العصور، وكان عددها ينحصر أمام ازدياد قيام الحمّامات الخاصة في القصور والأبنية الفخمة، ثم في المتواضعة. ولعل المسلمين هم أول من ألحق الحمّام ببناء المسكن، كما هي الحال في حمّامات قصير عمرة (93هـ/ 712م) وقصر الصرخ (107هـ/ 725م) والاثنتان في بادية الأردن، وقصر الحير الغربي (109هـ/ 727م) في بادية الشام وقصر الزهراء (القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد) في الأندلس⁽¹⁾.

وخلال العهد الفاطمي والمملوكي تواصل الاهتمام بإقامة الحمّامات العمومية، فهذه مدينة الفسطاط كان بها ألف ومائة وسبعون حمّاما، وفي مدينة القاهرة بلغ عددها ثمانين حمّاما في أواخر القرن السابع الهجري، فمنها ما كان مخصصا للرجال وبعضها خاصا للنساء، وأحيانا كانت مشتركة بين الجنسين، بأوقات مخصصة لكل منهما⁽²⁾. ومما يلاحظ عن الحمّامات المملوكية أنها انطبعت بخطة متميزة على غرار منشآت تلك الفترة في مصر

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 138. يُنظر كذلك:

- حضري عز الدين: المرجع السابق، ص ص 38 - 39.

(2) - المقريزي تقي الدين: المصدر السابق، ص 81.

وبلاد الشام، تمثلت في الانتشار والتوسع في كل الاتجاهات وهو ما يسمى بالمخطط المتقاطع المتعامد⁽¹⁾.

وكانت بلاد المغرب والأندلس لا تقل أهمية عن المشرق في الاهتمام بالحمامات فهذه مدينة في قرطبة كان فيها في نهاية القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد ستمائة حمام وكان في مدينة فاس خلال القرن العاشر للهجرة، السادس عشر للميلاد أكثر من مئة حمام بقي منها ثلاثون حتى عام 1361هـ / 1942م⁽²⁾. ومن الحمامات المتبقية آثارها في الجزائر نذكر الحمام المكتشف بمدينة تاهرت الرستمية الذي يعد من أقدم الحمامات التي لا تزال بقاياها الأثرية ماثلة إلى يومنا هذا⁽³⁾. هذا بالإضافة إلى حمامات مدينة تلمسان خلال العهد الزياني⁽⁴⁾.

وفي الفترة العثمانية شهدت الجزائر بناء الكثير من الحمامات في مختلف مدنها فتنوعت بين الخاصة والعامة، نذكر منها حمامات مدينة الجزائر، التي اشتهرت بحمام سيدنا وحمام دار عزيزة وحمام دار عبد اللطيف وحمام الداوي بابا حسن وحمام الداوي حسين⁽⁵⁾، كما بنيت العديد من الحمامات بمدينة قسنطينة، التي بلغ عددها اثنا عشر حماما، حيث اندثر الكثير منها ولم يبق إلا القليل، نذكر منها حمام سوق الغزل⁽⁶⁾. هذا بالإضافة إلى حمام الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي بمدينة مليانة⁽⁷⁾.

أما عن مدينة معسكر فهي الأخرى اشتهرت بحماماتها، إذ أنها لازالت تحتفظ بحماماتها المشهورة، منها مازال قائما إلى غاية اليوم ومنها ما اندثر كحمام الأدهم

(1) - زغلول عبد الحميد سعد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986، ص 485.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 138.

(3) - دحدوح عبد القادر: "تاهرت - تاقدمت معطيات ميدانية ورؤية جديدة"، عن كتاب المؤتمر العاشر للإتحاد العام للآثار بين العرب، ج2، القاهرة، 2007، ص ص 625 - 626.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص 451.

(5) - موساوي سليمة عربية: الحمامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار 1990/1991، ص 113. يُنظر كذلك:

- راجعي زكية: مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية، معمارية وفنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007، ص ص 121 - 124.

(6) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص ص 459 - 460.

(7) - قرمان عبد القادر: المرجع السابق، ص ص 92 - 93.

لم نجد فيها أي أثر لحمام يعود بناؤه إلى الفترة العثمانية.

3-4-3 - حمامات مدينة معسكر:

3-4-1 - حمام البركة:

أ- الموقع:

يقع هذا الحمام في وسط مدينة معسكر، وهو ملاصق للجامع الكبير، وبالضبط عند شارع بوقصري الطاهر. (يُنظر الشكل رقم 30)

ب- أصل التسمية: (*)

أطلق على هذا الحمام تسمية حمام "البركة"، كما أنه يُعرف بتسمية أخرى يطلقها عليه سكان المدينة وهي "الحمام البالي"، بمعنى القديم والعتيق.

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد مؤسسه وتاريخ بنائه، وهذا نظرا لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، كما أن مختلف المصادر لم تذكره، وهذا ما جعل الغموض يكتنفه إلى غاية اليوم، لكن حسب ما ذكره مالكة الحالي أن تاريخ بنائه يعود إلى سنة 1753م وهي معلومة غير مؤكدة تفتقد إلى المصداقية لعدم وجود ما يثبتها، وحسب ما جمعناه من روايات شفوية تشير كلها إلى أن بانيه هو الباي محمد الكبير.

د- وصف المخطط المعماري للحمام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

يظهر حمام البركة ككتلة معمارية شبه مستطيلة بسيطة في شكلها العام، وهو يحتوي على ثلاث واجهات ظاهرة للعيان من الخارج، منها الواجهة الشمالية التي يبلغ طولها 23,70م، والواجهة الغربية بطول 16,50م، وأيضا الواجهة الشرقية التي يصل طولها إلى 14م، أما الواجهة الرابعة فهي الواجهة الجنوبية، إذ أنها تلتصق مع صحن الجامع الكبير ويبلغ طولها طول 23,50م. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تُنظر الصورة 120)

(*) - أشارت بعض الأبحاث إلى أن هذا الحمام هو حمام "الأدهم" الذي بناه الباي محمد الكبير، لكن عند مراجعتنا للمصادر والوثائق الأرشيفية والروايات الشفوية والبحث في المدينة، تبين لنا إلى أن هذا الحمام بُني في رجة عين البيضاء وقد هُدم خلال فترة الاحتلال الفرنسي لإقامة مباني للمستوطنين.

يتم الدخول إلى الحمام عبر المدخل الرئيسي الذي يقع في الجهة الشرقية، عليه باب خشبي مغير يعود إلى الفترة الاستعمارية، والملاحظ أن هذا الباب بسيط في مظهره العام وهذه ظاهرة لا نجدها في الحمامات الجزائرية التي تعود إلى الفترة العثمانية، إذ أننا نجد الباب الرئيسي في معظم الأحيان مزين بإطار من الرخام أو الحجر الجيري يحتوي على زخارف هندسية أو نباتية أو رمزية⁽¹⁾. لكن حسب صاحب الحمام أنّ المدخل الرئيسي غير مكانه الأصلي الذي كان في الجهة الغربية، وهذا هو سبب عدم تطابقه من ناحية الشكل العام مع الحمامات التي تعود إلى الفترة العثمانية. (تنظر الصور 127/126/125)

د-2- الأقسام الداخلية:

تعرض هذا الحمام إلى عدة تغييرات أثرت كثيرا على شكله الأصلي العام، وحسب ما ذكره لنا صاحبه ومالكه الحالي أنه كان يتكون من أربع قاعات، وبالتالي فهو يشبه إلى حد كبير التكوين المعماري للحمام الإسلامي، الذي كان هو الآخر مشكل في غالب الأحيان من أربع قاعات وملحق خاص بالموقد⁽²⁾، وفيما يأتي وصف مفصل لهذه القاعات ووظيفة كل قاعة. (يُنظر الشكل رقم 31)

د-2-1- قاعة الاستقبال:

ذكر لنا صاحب الحمام أن المدخل الرئيسي كان في الجهة الغربية، لكنه تعرض للتغيير وفتح في الجهة الشمالية، وهو ما لاحظناه عند زيارتنا له، فعند اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى قاعة الاستقبال أو الانتظار أو المحرس، التي تقع في الجهة الغربية، وهي ذات شكل مستطيل طولها 10،5م وعرضها 4،40م، وأرضيتها مبلطة ببلاطات متنوعة الزخارف، وفي الجدار الشمالي الشرقي منها فتح مدخل بباب خشبي نصل من خلاله إلى القاعة الباردة. (يُنظر الشكل رقم 31) و(تنظر الصورة رقم 126).

(1) - موساوي سليمة عربية: المرجع السابق، ص 90.

(2) - سوردا (ج): "حمام"، ترجمة محمد معتز، ج 14، دائرة المعارف الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

1986م، ص ص 17 - 43.

د-2-2- القاعة الباردة:

هي بمثابة القسم الأول من الحمام وتسمى أيضا قاعة خلع الملابس، وقد اختلفت تسميتها من منطقة إلى أخرى، فهي تعرف في مراكش ومصر بـ "المسلخ أو المسلح" وفي المشرق تعرف "المسلح أو المسلّح"⁽¹⁾.

يتم الوصول إلى هذه القاعة في الأصل عبر المدخل الرئيسي، لكن حاليا وبسبب التغييرات يتم الدخول إليها عبر المدخل المستحدث، الذي يؤدي إلى رواق صغير فتح فيه مدخل نلج من خلاله إلى القاعة الباردة، وهي كبيرة الحجم ذات شكل مستطيل مقاساتها (13,2م×5,9م)، أرضيتها ترتفع بحوالي 50سم، وهي مفروشة يتخذها المستحمون للاستلقاء بعد الاستحمام، وحسب صاحب الحمام كانت تحتوي على سدة خشبية تستعمل للاستلقاء والمبيت، كما كانت تحتوي على حوض مائي.

وفي الركن الجنوبي الغربي نجد سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، وبجانبه فتح باب آخر يؤدي إلى القاعة الدافئة. كما نجد بمحاذاته مكان مخصص لصاحب الحمام يعرض فيه لوازم الاستحمام، ويقبض فيه الأجرة من الزبائن، بالإضافة إلى أن جدران هذه القاعة زودت بمشاجب لتعليق الملابس والمناشف ولوازم المستحمين، أما سقفيهما فهو مسطح بسيط.

(يُنظر الشكل رقم 33) و(الصورتان رقم 129/128)

د-2-3- القاعة الدافئة:

وهي القسم الثاني الذي يتكون منه الحمام، حيث أنها تقع في الجهة الشرقية الجنوبية يتم الوصول إليها ، عبر مدخل بباب خشبي يربطها مع القاعة الباردة في الجهة الغربية وهي عبارة عن قاعة مستطيلة، بسيطة في شكلها العام طولها 3م وعرضها 2.90م، تحتوي على حوض مائي في الجهة الشرقية، كما نجد بمحاذاته الكنيفات، وقد فتح في الجدار الجنوبي مدخل بباب خشبي ارتفاعه 1.70م وعرضه 0.97م يؤدي إلى القاعة الساخنة، وقد بلطت أرضيتها ببلاطات حديثة تعود إلى فترة الاحتلال، أما سقفاها فهو على شكل قبة نصف أسطواني. (تُنظر الصورة رقم 129)

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص140، يُنظر كذلك:

- كيال منير: المرجع السابق، ص151. وكذلك: - رفعت موسى محمد: المرجع السابق، ص235.

د-2-4- القاعة الساخنة:

تقع هذه القاعة في الجهة الجنوبية الشرقية، يتم الدخول إليها من القاعة الدافئة في الجهة الشمالية عبر مدخل بباب خشبي، يفتح نحو الداخل ويغلق بطريقة آلية، حيث يُثبت طرف الحبل بالباب، ويمر إلى حلقة تشبه البكرة بأعلى الباب، ثم يصل إلى الجهة المقابلة ثم يعمل على سحب الحبل فتغلق الباب من وراء الخارج، الغرض منها المحافظة على الحرارة داخل القاعة، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل مقاساتها 5.10×7.7م، تتوسطها "مصطبة" مربعة الشكل طول ضلعها 1.50م، وهي تسمى عند أهل المنطقة بـ "السرة" وتعلوها قبة مزلعة مزودة بأربعة فتحات غطيت بقطع من الزجاج، وذلك لإضاءة القاعة كما أنها تحتوي في جهاتها الأربع أحواض مائية صغيرة مخصصة للماء الساخن والبارد وحسب ما ذكره لنا صاحب الحمام أنها كانت مزودة بحوض مائي مخصص للطائفة اليهودية، تقام عليه طقوس لاعتناق الديانة اليهودية، كما يوجد في القاعة إيوانين صغيرين يعلوهما عقد نصف دائري، واحد في الجهة الشرقية والآخر في الجهة الغربية، وهما مخصصان للاغتسال، كما أنهما يعتبران كخلوة، استحدثهما المعمار المسلم لإتمام الطهارة لبقية الجسد، وتجنب كشف العورة عند المرأة والرجل⁽¹⁾.

تحتوي هذه القاعة أيضا حجرة صغيرة في الجهة الشرقية، وهي مكان مخصص للعروسة وتسمى عند أهل المنطقة بـ "بيت العروسة"، حسب ما ذكره صاحب الحمام، وهذا يعد جزء من تقاليد المنطقة، حيث أن العروسة الحديثة في عرسها أعطيت لها مكان خاص بها، لتمييزها عن باقي النساء تقديرا واحتراما لها، ولقد بلطت أرضية القاعة ببلاطات مستحدثة. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تُنظر الصورتان رقم 130/131)

د-2-5- الفرناق:

أما القسم الثاني الذي يتكون منه هذا الحمام فهو موجود في المستوى الأرضي أين يقع الفرناق وأجزائه، ويتم الدخول إليه من قاعة الانتظار في الناحية الغربية عبر مدخل يؤدي إلى فناء مكشوف، نصل عبره إلى سلم أرضي يؤدي إلى حجرة صغيرة، وهو يعتبر من الأجزاء الهامة التي يتكون منها الحمام، حيث أن البناء يوليه عناية خاصة وأهمية كبيرة

(1) - موساوي سليمة عربية: المرجع السابق، ص 214.

خاصة في استعمال مواد البناء التي تتحمل شدة الحرارة، وهو يتكون من الفرن والنحاسية.
(تنظر الصورة رقم 132)

- الفرن (الموقد):

هو المكان المخصص لوضع الحطب وحرقه، شكله أسطواني يتكون من فتحتين حيث يدخل من الفتحة الأولى الحطب المعد للاحتراق، كما ينظف عن طريقها الفرن من الرماد، بالإضافة إلى أنها تسمح بمرور الهواء الساخن والدخان المنبعث منه إلى أروقة الحرارة عبر الفتحة الثانية، من خلال ممرات أرضية مبنية من الآجر وموزعة على القاعة الساخنة ارتفاعها حوالي المتر، وقد ذكر لنا صاحب الحمام أنه يدخل إليها حبوا لتنظيفها وصيانتها في كل عام، وهي تساعد على تسخين بلاط الحمام وأرضيته ليعطيها ذلك نوع من الدفء، وجو ملائم للاستحمام، وما تبقى من تلك البقايا يتجمع ليصعد في المدخنة (فحل الحمام) في الركن الغربي، وهذه المدخنة تقوم داخل الجدار وترتفع إلى عدة أمتار⁽¹⁾، لكي لا يتأذى السكان المجاورين للحمام من الدخان المنبعث من الداخل.

- النحاسية (البرمة):

هي الوعاء الذي يتم فيه تسخين الماء المعد للاستحمام، حيث أنه يتكون من جزئين الجزء الأسفل المقوس، وهو الذي يستقبل ألسنة اللهب، ويسمى حلة الدخاني⁽²⁾ والجزء العلوي الذي تثبت بواسطته النحاسية فوق الفرن، ويتغذى خزان الماء الساخن عن طريق فتحة تربطه بخزان الماء البارد، ويحتوي الخزان أيضا على فتحات تغذي عيون الأحواض الصغيرة. (أنظر الشكل رقم 16-6).

كما يوجد في القاعة مخزن للفحم، وهو مبني من الآجر على شكل دهليز مسقف بسقف نصف أسطواني. والملاحظ أنّ صاحب الحمام أدخل عدة تغييرات على الفرناق كاستعمال الوسائل الحديثة في عملية التسخين. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تنظر الصورتان رقم 133/134)

(1) - كيال منير: المرجع السابق، ص 166.

(2) - نفسه.

وارتفاعه 2,43م نصل من خلاله إلى غرفة الانتظار أو ما يسمى المحرس، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (2,80×2,69م)، تحتوي على مصطبتين عرضهما 69سم وارتفاعها 60سم هما تمتدان على طول وعرض القاعة، ومبلمتان ببلاطات حديثة، أما عن أرضية القاعة فهي من بلاطات آجرية حمراء أصلية، وسقفت بأقبية نصف أسطوانية طولية تتوسطه فتحتان مستطيلتان مزودتان بقطع زجاجية، الغرض منها توفير الإضاءة، كما فتح في جدارها الجنوبي مدخل بباب خشبي بدهنتين عرضه 1,17م وارتفاعه 2,47م. (تُنظر الصورة

رقم 136)

د-2-2- القاعة الباردة:

تقع في الجهة الجنوبية وهي ذات شكل غير منتظم، يتم الدخول إليها من باب المحرس، وهي واسعة جدا تحتوي على مكان القابض في ركنها الشرقي الشمالي، ونجد في وسطها أربعة أعمدة أسطوانية مصنوعة من الحجر الجيري ومتوجة بتيجان بسيطة تحمل أربعة عقود نصف دائرية، وقد ربطت ببعضها البعض بأوتاد حديدية، الغرض منها تثبيتها وتقويتها ومنع تصدعها أثناء الكوارث الطبيعية، وكذلك وضع بعض أغراض الحمّام مثل المناشف، كما نجد في هذه القاعة مجموعة من المشاجب مثبتة في كل جدرانها، وكذلك على أسرة خشبية موزعة على كل جوانبها، مخصصة لاستلقاء المستحمين بعد الانتهاء من الاستحمام.

وحسب صاحب الحمّام فقد أدخلت عدة تعديلات عليها منها الإنقااص من ارتفاع المصاطب الموجودة فيها، والتي كانت تحتوي على فراغات صغيرة لوضع الأحذية، كما تم إزالة المكان المخصص لتحضير الشاي للزبائن الذي كان موقعه في الركن الغربي الشمالي الذي مازال فيه المدخنة الممتدة إلى السطح الخارجي، كما استحدثت منفذ للنجدة يربطها مع القاعة الساخنة في الجهة الشمالية، وتحتوي القاعة على مدخل منزوع الباب الخشبي في الجدار الشمالي يربطها مع القاعة الدافئة وكذلك مدخل آخر في الجدار الشرقي يؤدي إلى ممر ضيق يوجد به السلم المؤدي إلى السطح، أما عن تبليط الأرضية فهي من بلاطات آجرية حمراء أصلية، وسقفها فقد سُكِل من أقبية نصف أسطوانية عرضية. (تُنظر صورتان

رقم 143/137)

د-2-3- القاعة الدافئة:

يتم الدخول إليها عبر مدخل بدون باب من القاعة الباردة مقاساته (2,5م×96سم) وتتخذ هي الأخرى شكلا غير منتظم، تحتوي على مقاعد حجرية موزعة على الجهتين الشمالية والجنوبية، كما فتح في جدارها الشمالي ثلاثة فتحات للإضاءة والتهوية، وحسب ما صرح به صاحب الحمام أنها عرفت عدة تغييرات، مست غلق مدخلين كانا في الجهة الشمالية يؤديان إلى مخزن الحطب، وحولا حاليا إلى خزانة وحوض مائي، كما استحدث بداخلها مرحاضين، وعند استفسارنا عن مكانهما الأصلي من صاحب الحمام أجاب بعدم معرفته لذلك، وفي الجهة الشرقية فتح مدخل بباب حديث الصنع يؤدي إلى القاعة الساخنة أما عن أرضيتها فهي ببلاطات حديثة، وسقفها من الأقبية النصف أسطوانية. (تُنظر الصورة رقم 138)

د-2-4- القاعة الساخنة:

تقع في الجهة الشمالية الشرقية، يتم الدخول إليها من القاعة الدافئة عبر مدخل بباب ينغلق آليا، وهي ذات شكل مستطيل، تحتوي على رواقين سقفهما نصف أسطواني في كل من الجهتين الشمالية والجنوبية، يتوسطهما فضاء مغطى بقبة نصف كروية ومحمولة على أربعة عقود نصف كروية ترتكز على أربعة دعائم ضخمة قليلة الارتفاع ومدمجة في الجدران، وهذه القاعة هي الأخرى عرفت عدة تغييرات إذ أنها كانت تحتوي على 24 حوضا صغيرا موزعة على جوانبها للاستحمام، ثم استبدلت بأحواض جديدة وتم زيادة عددها ليصل إلى 34 حوضا، كما كانت تحتوي على فتحة لمراقبة منسوب الماء في الأحواض، ثم سدت بالإضافة إلى إزالة مقعد حجري رخامي في الجهة الجنوبية كان مقابلا للمقعد الموجود حاليا في الجهة الشمالية، وذلك لفتح منفذا للنجدة يؤدي إلى القاعة الباردة. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تُنظر الصورتان رقم 140/139)

د-2-5- الفرناق:

هو قسم معماري قائم بذاته ويقع خارج الحمام في الجهة الشمالية وهو يقع في مستوى منخفض عن الحمام، ويتم الوصول إليه عبر مدخل من الجهة الغربية، إذ أنه يتكون من الفرن والنحاسة ومخزن الحطب.

- الفرن (الموقد): (تُنظر الصورة رقم 141)

هو عبارة عن حجرة صغيرة مستطيلة الشكل، تبلغ مقاساتها (3×1,49م)، يتم الدخول إليه عبر مدخل بباب حديدي حديث، يحتوي على الموقد في الجهة الجنوبية، حيث يوجد مكان وضع الحطب الذي تعلقه البرمة، لكن حالياً استبدل بمضخة حديثة.

- النحاسية (البرمة):

كان من سوء حظنا عدم معرفة شكل برمة هذا الحمّام، لأنها أزيلت نهائياً على قول صاحب الحمّام، وحسب ما قدمه لنا من معلومات عنها، فهي عبارة عن وعاء متوسط الحجم مصنوع من مادة النحاس. والملاحظ أن حجرة الموقد تحتوي على مدخل يؤدي إلى فتحة كبيرة الحجم نصل من خلالها إلى الممرات الأرضية، المخصصة لمرور الهواء الساخن الناتج عن الموقد وذلك لتسخين أرضية الحمّام، وهي مبنية من مادة الآجر، وحسب ما ذكره صاحبه أنه يقوم بتنظيف هذه الممرات سنوياً من الرماد. (يُنظر الشكل رقم 37)

- مخزن الحطب:

يقع بجوار الموقد من الجهة الغربية، وهو عبارة عن حجرتين كبيرتين شكلهما مستطيل. (تُنظر الصورة رقم 142)

د-2-6- السطح:

هو عبارة عن فضاء كبير يتم الوصول إليه عبر مدخل مفتوح في القاعة الباردة والذي يؤدي بدوره إلى سلم خشبي صاعد إلى غرفة صغيرة مبنية على السطح لمنع دخول مياه الأمطار إلى الداخل، ويحتوي سطح الحمّام على غرفة كبيرة في الجهة الشمالية كانت عبارة عن مخزن للأمتعة وكذلك اتخذت كأسطبل للخيل بالنسبة للزوار الأجانب، وما يدل على ذلك هو وجود حلقات صغيرة كانت تستعمل لربطها، وكان يتم إدخالها من المدخل الذي يربطها مع قسم الفرناق بحكم أن ارتفاعه منخفض نوعاً ما، مما دفع صاحب الحمّام على تهيئة ممر يؤدي إليه مباشرة. (يُنظر الشكل رقم 36)

4-3-3- حمّام حمزة:

أ- الموقع:

يقع حمام حمزة في رحبة باب علي، وبالضبط في شارع بن دادة مصطفى، في وسط مجموعة من البنايات الخاصة.

ب- أصل التسمية: كان يُعرف هذا الحمام عند سكان رحبة باب علي باسم حمّام "الحاج سعيد ماسري" وقد سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى مالكة الأول، ثم اشتهر بعد ذلك عندهم باسم حمّام "حمزة".

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

بُنِي هذا الحمام من طرف "الحاج سعيد ماسري" وهو من بني ميزاب، حيث أنه مات ولم يخلف من يرثه، لذلك جعله وقفا لله، ومداخيله حبسا على الفقراء من المسلمين.

أما عن تاريخ تأسيسه فهو غير معروف بالضبط، وهذا نظرا لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، بالإضافة إلى أننا بحثنا في مختلف المصادر ولم نجد له ذكرا وهذا ما جعل الغموض يكتنف تاريخه، لكن حسب المعلومات التي ذكرها لنا مالكة الحالي أنه بُني خلال القرن الثامن عشر.

د- وصف المخطط المعماري للحمام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

يتكون هذا الحمام من مستوى أرضي وطابقين، وتظهر منه واجهة واحدة فقط وهي الواجهة الرئيسية، التي زخرفت بمجموعة من الأطر، ويقع المدخل الرئيسي في وسط الواجهة الشمالية، حيث يبلغ ارتفاعه 2,5م وعرضه 1,5م، فهو مزود باب خشبية ويعلوه عقد نصف دائري. كما يوجد مدخل آخر تبلغ مقاساته (1,17×2م) يؤدي إلى المستوى الأرضي للإشارة فإن الحمام في حالة ترميم شاملة يقوم بها صاحبه، نظرا لتدهور حالته وانحيار جزء من سقف إحدى غرف الطابق العلوي، وقد سمحت لنا عملية الترميم من الإطلاع على مواد البناء وكذلك طريقة تخطيطه، ومعرفة العناصر المعمارية الأصلية والمستحدثة.

د-2- الأقسام الداخلية:

د-2-1- المستوى الأرضي:

يتم الدخول إليه- كما ذكرنا سابقا- من المدخل الثاني، الذي يؤدي إلى ممر طوله 12م وعرضه 1,17م، نصل من خلاله إلى سلم من ثلاثة درجات، والذي يؤدي إلى مدخل قاعة كبيرة ذات شكل غير منتظم، وتحتوي على ثلاثة دعائم لرفع السقف وثلاثة فتحات صغيرة للإضاءة، وهذه القاعة مخصصة لتخزين الحطب والفحم. كما يؤدي السلم السابق إلى ممر ثان عرضه 1,70م، يوجد به مدخل يؤدي إلى حجرة أخرى مستطيلة الشكل مقاساتها (5,42×11,27م)، تحتوي على ستة دعائم وكذلك سلم بُني في الجهة الشمالية يؤدي إلى الطابق الأرضي، وقد كانت مخصصة كذلك لتخزين أغراض الحمام. كما أنّ الممر يؤدي في نهايته إلى ممر آخر طوله 10,94م وعرضه 1,37م، وكذلك إلى مدخل ممر آخر عرضه 2,66م وطوله 4,09م وهو يؤدي بدوره إلى سلمين، السلم الأول صاعد إلى الطابق الأرضي، والسلم الثاني يؤدي إلى الفرناق. (يُنظر الشكل رقم38) و(تُنظر صورتان رقم 145/144)

د-2-2- الطابق الأرضي:

د-2-2-1- قاعة الانتظار (المحرس):

عند اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى قاعة الانتظار، والتي تتكون من قاعتين متجاورتين، فالقاعة الأولى ذات شكل شبه مستطيل طولها 6,21م من الجهة الجنوبية و7م من الجهة الشمالية، وعرضها 2,60م، بها دكة مستطيلة في الجهة الغربية والجنوبية (كراسي) ارتفاعها 0,60م، كسيت بمربعات خزفية أصلية ذات أشكال هندسية في كل جوانبها الشمالية والغربية، وهي مخصصة للجلوس لانتظار دورهم في الاستحمام، كما فتح في الجدار الجنوبي مدخل بباب خشبي، يؤدي إلى القاعة الثانية وهي ذات شكل غير منتظم مقاساتها (2,69×2,10م)، تحتوي هي الأخرى على دكة مستطيلة الشكل في الجهات الغربية والجنوبية والشمالية وهي متشابهة مع دكة القاعة السابقة، مكسوة بمربعات خزفية أصلية ذات أشكال رمزية قوامها أهلة، وقد فتح في جدارها الشرقي مدخل يؤدي إلى ممر منكسر عرضه 1,25م، نجد بجانبه مكان مخصص لصاحب الحمام من أجل قبض ثمن الاستحمام، ومن حسن حظنا أننا وجدنا حتى الصندوق الأصلي الذي يوضع في النقود، إذ

أنه مصنوع من مادة الحديد ومزخرف بدوائر بارزة. (يُنظر الشكل رقم 39) تُنظر الصورة رقم (154/148/147).

د-2-2-2- القاعة الباردة:

يتم الوصول إلى هذه القاعة عبر باب السقيفة، الذي يؤدي إلى مدخل منكسر جدرانه مكسوة ببلاطات خزفية أصلية، والغرض منه هو كسر التيار الهوائي القادم من الخارج وحجب المستحمين من نظر الناس الموجودين في السقيفة وهم في حالة عارية في هذه القاعة، فهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (7,79×11,88م)، تحتوي على صفين من الدعامات عددها ستة في كل صف، بالإضافة إلى دعامتين في وسطهما، كما فتح في جدارها الشمالي مدخل عرضه 0,77م، يؤدي إلى قاعة غير منتظمة القياسات وهي غير محددة الوظيفة، كما نجد مدخلين في جدارها الغربي، فالأول يؤدي إلى سلم صاعد إلى الطابق العلوي، أما الثاني فهو يؤدي إلى المصلى، وهو ذو شكل مستطيل مقاساته (2,23×3,03م)، أما الجدار الجنوبي فقد فتح فيه مدخلان، المدخل الأول عرضه 1,08م يؤدي إلى ممر طوله 4,09م وعرضه 1,56م، والذي بدوره يؤدي للسلم الهابط إلى المستوى الأرضي، أما المدخل الثاني فهو يوصل إلى القاعة الدافئة. (تُنظر الصورة رقم 149)

د-2-2-3- القاعة الدافئة:

نصل إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الباردة، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (1,60×5م) وما لفت انتباهنا أنها ضيقة جداً، ولعل ذلك يعود إلى احتمال تعرضها إلى التغيير في مرحلة ما، كما أنها تحتوي على دكة في جدارها الشمالي وهي مخصصة للجلوس، وكذلك نجد في الجهة الشرقية منها مرحاضين، بالإضافة إلى مدخل مفتوح في جدارها الجنوبي يربطها مع القاعة الساخنة.

د-2-2-4- القاعة الساخنة:

تقع في الجهة الجنوبية من الحَمَّام، يتم الدخول إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الدافئة، وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (8,24×8,18م)، تتوسطها "مصطبة" مربعة الشكل طول ضلعها 1,25م، إذ أنها تسمى عند أهل المنطقة بـ "السرة"، يتوسطها عمود أسطواني الشكل، متوج بتاج بسيط يحمل أربعة عقود ترفع القبة المضلعة، والتي زودت بأربعة فتحات مغطاة بالزجاج، الغرض منها إضاءة القاعة، كما أنها تحتوي على أحواض

مائية صغيرة، وضعت في جهاتها الأربعة، وكذلك نجد في الجهة الجنوبية أربعة حجرات صغيرة مبنية على شكل أواوين يعلوها عقود نصف دائرية، ثلاثة منها مخصصة للاغتسال والرابعة هي بيت العروسة مخصصة للعروسة. (تُنظر الصور رقم 152/151/150)

د-2-2-5- الفرناق:

يقع في المستوى الأرضي في الجهة الجنوبية الغربية، يتم الدخول إليه عبر سلم نازل من الطابق الأرضي من القاعة الباردة، وكذلك عبر ممر يربطه مع مدخل المستوى الأرضي وهو يتكون من الفرن والنحاسة.

- الفرن (الموقد):

وهو عبارة عن حجرتين صغيرتين مستطيلتين في شكلهما، تبلغ مقاسات الحجر الأولى (3م×1,49م)، حيث نجد فيها مدخل مفتوح يربطها مع الحجر الثانية، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (3م×1,32م)، تحتوي على الموقد في الجهة الشمالية، بحيث يوجد مكان وضع الحطب الذي تعلوه البرمة.

- النحاسة (البرمة):

كان من حسن حظنا أننا شاهدنا شكل برمة هذا الحمام قبل إزالتها نهائياً، فحسب صاحب الحمام الذي يقوم حالياً بأعمال ترميم شاملة، أنه سوف يستغني عنها ويستبدلها بآلات حديثة للتسخين، فهي عبارة عن وعاء كبير مصنوع من مادة الحديد، وضع تحت الموقد وتم إدارته ببناء من قوالب الآجر، وقد ربط بقنوات القاعة الساخنة، ولها نفس مواصفات برمة حمام البركة. (تُنظر الصورة رقم 153)

د-2-3- الطابق العلوي:

يتم الوصول إلى هذا الطابق عبر السلم الصاعد من الطابق الأرضي، الذي يقع في الجهة الغربية الشمالية، والذي يوصل إلى مدخل يؤدي إلى قاعتين كبيرتين جعلتا كمرقد فالقاعة الأولى تقع في الجهة الشمالية وهي ذات شكل غير منتظم طولها 10,26م وعرضها من الجهة الغربية 7,20م ومن الجهة الشرقية 3,50م، وقد فتح في جدارها الشمالي أربعة نوافذ، وتوجد في الجدار الجنوبي ثلاثة خزانات، أما القاعة الثانية فيتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في الجهة الغربية، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (11,88م×7,84م)، تحتوي على صفيين من الأعمدة، في كل صف ستة منها، يتوسطها فراغ مكشوف على الطابق

الأرضي مقاساته (2,92×4,22م)، كما فتح في جدارها الغربي نافذة وكذلك مدخل مزود بباب خشبي في الجهة الجنوبية، يؤدي إلى ممر طوله 5,50م وعرضه 1,36م، يحتوي في نهايته الشرقية على كنيف، وفي نهايته الغربية مدخل بدرج يؤدي إلى غرفة صغيرة مقاساتها (2,56×3,34م)، تحتوي على كنيف في الجهة الجنوبية وعلى مدخل يؤدي إلى سلم نازل إلى المستوى الأرضي، كما توجد غرفة أخرى معزولة تقع في الجهة الجنوبية الغربية مقاساتها (2,82×3,94م)، ليست محددة الوظيفة، وقد سقطت قاعات هذا الطابق بالأقبية النصف أسطوانية. (تنظر الصورتان رقم 156/155)

4-3-4- حمام الأدهم:

أطلق على هذا الحمام تسمية حمام "الأدهم"، والتي تعني "الأكل"، وهو يرمز إلى الإنسان الأسمر اللون، نسبة إلى بانيه الباي محمد الكبير، الذي كان ذو بشرة سمراء، ومنه أخذ لقب "محمد الأكل"⁽¹⁾، لكن للأسف أنّ هذا الحمام هُدم وأزيل خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

أ- المؤسس وتاريخ التأسيس:

يُنسب هذا الحمام من حيث البناء إلى الباي محمد الكبير المقدم الذكر، وهذا حسب ما ذكره أحمد بن علي بن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني"، في قوله "...كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناءً وشكلاً، الذي بناه قربه وهو من أعز مبانيه"⁽²⁾. لكن لم نستطع تحديد تاريخ بنائه بالضبط، لعدم ورود ذلك في مختلف المصادر التي تصفحناها وهذا ما جعل الغموض يكتنفه.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص15.

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص128.

4-3-5- حمام الباي:

أ- الموقع:

يقع حمام الباي- الازدهار حاليا- وسط مدينة معسكر، وبالضبط في نهج محمود مقابلا لشارع المسرح الجهوي.

ب- أصل التسمية:

كان يُعرف هذا الحمام باسم حمام "الباي"، ثم غيّر اسمه بعد الاستقلال تحت اسم حمام "الشفاء"، وبعد ذلك باسم "الازدهار".

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

يكتنف هذا الحمام غموض كبير من حيث تاريخ تأسيسه ومؤسسه، ولكن حسب الوثائق التي بحوزة ملاكه حاليا فهو يعود إلى الفترة العثمانية⁽¹⁾، ويرجح أن بنائه يعود إلى سنة 1789م، وهي الفترة التي حكم فيها الباي محمد الكبير بايلك الغرب (1779-1799م)، ولعل تسميته "بحمام الباي" والتي اتخذها في بداية الأمر تزيد من احتمال بنائه من طرف هذا الباي، كما أنّ "ابن سحنون الراشدي" ذكر أن هذا الباي أنشأ مباني كثيرة في المدينة وحبسها على جامعها الأعظم ومدرسته، فمنها ما قام بذكره ومنها ما لم يذكره وذلك في قوله: "...وبنى له فرنا وغير ذلك تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه..."⁽²⁾. أما عن وضعه الحالي فهو ملك لعائلة "وذان محمد"، وهو مغلق بسبب نزاع بين الورثة.

د- وصف المخطط المعماري للحمام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

بني هذا الحمام ملتصقا مع عدة مباني، إذ لا تظهر منه إلا واجهة واحدة وهي الواجهة الشمالية، أين نجد المدخل الرئيسي، الذي تقدر مقاساته بـ (1,75 × 0,60م)، وهو مزود بباب حديدي حديث نو مصراعين. كما فتحت في هذه الواجهة ثلاثة نوافذ متوسطة الحجم مزينة بعقود مصنّجة، الغرض منها الإضاءة والتهوية، لأنها المنفذ الوحيد لذلك. كما ثبتت فيها لوحة فيها كتابة تشير إلى اسمه "حمام الازدهار". (تُنظر الصورة رقم 157/158)

(1)- Archivo historicos nacional, Oran, Madrid campana.

(2)- الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص ص 128.

د-2- الأقسام الداخلية: (يُنظر الشكل رقم 42)

د-2-1- قاعة الانتظار (المحرس):

بعد اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى قاعتين مخصصتان للاستقبال والانتظار وهي ظاهرة لم نجدها في الحمّامات السابقة، فالأولى تقدر مقاساتها بـ(1,75 × 0,80م) زودت بمصاطب تمتد على طول وعرض الحجرة وهي مكسوة بمربعات خزفية حديثة، كما فتح فيها مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الحجرة الثانية، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (2,45 × 1,80م)، وهي الأخرى مزودة بمصاطب تمتد على طول وعرض الحجرة ومكسوة بمربعات حديثة، كما فتح فيها مدخل بباب خشبي يؤدي إلى القاعة الباردة. (تُنظر الصورتان رقم 160/159)

د-2-2- القاعة الباردة:

يظهر شكل هذه القاعة غير منتظم، وهي تشبه إلى حد كبير قاعة حمّام القرشالي فهي تظهر على شكل فضاء في الوسط محاط بأربعة أروقة ترتفع عن الأرضية بحوالي 50سم، وتشرف عليه أربعة بوائك تحتوي على أربعة أعمدة أسطوانية في ثلاثة منها وخمسة أعمدة في البائكة المتبقية، وهي متوجهة بتيجان بسيطة، تعلوها عقود نصف دائرية وتحتوي هذه القاعة على سدة مبنية في الجهة الجنوبية تقدر مقاساتها بـ(11 × 2م)، يتم الصعود إليها عبر سلم خشبي عدد درجاته تسعة درجات، وكانت تستخدم هذه السدة كمبيت لعابري السبيل حسب ما صرح به صاحبه. (تُنظر الصورة رقم 161)

ونجد في الركن الشمالي مجلس صاحب الحمّام الذي تقابله مجموعة من الخزائن الجدارية، مخصصة لوضع لوازم الاستحمام، وكذلك مدخل مقاساته (1,50 × 0,75م) يؤدي إلى حجرة مستطيلة مقاساتها (5,5 × 4,5م) تستعمل كمصلى لوجود المحراب فيها.

لقد زودت هذه القاعة بثلاثة نوافذ، كما نجد في وسط سقفها فتحات دائرية صغيرة مزودة بزجاج الغرض منها توفير الإضاءة، أما عن أرضيتها فهي مبلطة ببلاطات حديثة وسقفها مسطح بسيط.

د-2-3- القاعة الدافئة:

يتم الوصول إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الباردة مقاساته (1,40 × 0,70م) وهي ذات شكل مستطيل تبلغ مقاساتها (15 × 4م)، تظهر وكأنها رواق، وهي تحتوي على

حوض مائي، وخمسة مراحيض كسيت جدرانها بمربعات حديثة على ارتفاع المتر، أما عن أرضيتها فهي مبلطة ببلاطات حديثة وسقفها بسيط مسطح. (تُنظر الصورة رقم 162)

د-2-4- القاعة الساخنة:

نلج إليها بعد اجتياز المدخل الذي يربطها مع القاعة الدافئة والذي تبلغ مقاساته $(1,30 \times 0,90$ م)، وهي تظهر في شكلها العام مستطيلة الشكل تقدر مقاساتها بـ $(3,10 \times 2,30$ م)، تعلوها شبه قبة تظهر وكأنها أقبية متقاطعة مبنية فوق جدران القاعة مباشرة، ومزودة بفتحات للإضاءة في أعلى جدرانها، كما توجد في وسطها سرّة مربعة مقاساتها $1,80$ م، بالإضافة إلى دخلات تشبه الأوابين مزينة بعقود حدوية، وكذلك نلاحظ وجود قنوات حديدية مثبتة على الجدران ومتصلة بأحواض الاستحمام التي يبلغ عددها ثلاثة وعشرون حوضاً، زُود كل حوض بحنفيتين واحدة للماء البارد والأخرى للساخن. كما نلاحظ أن هذه القاعة تحتوي على زخرفة رمزية وكتابية سننطق إليها في الجانب الفني.

كما تحتوي هذه القاعة من الجهة الشمالية الغربية على حجرة جانبية تُعرف محلياً بـ "بيت العروس" تبلغ مقاساتها $(2,90 \times 2,10$ م)، وقد زودت بحوضين مائيين، وفيما يخص تخطيط أرضيتها فهي من البلاطات الحديثة. (تُنظر الصورة رقم 163/164)

أما عن الفرناق فقد كان يقع في الجهة الشرقية، لكنه حالياً مسدود، ونجهل حتى مكانه بالضبط بسبب التغييرات التي طرأت على الحمام، فالمعروف عن موقعه أنه يكون في غالب الأحيان خلف القاعة الساخنة، لكن الملاحظ وجود بنايات أُقيمت في مكانه المفترض، وقد عوض حالياً باستعمال الأجهزة الحديثة للتسخين.

باستقراء كل الفترات التاريخية التي شهدتها مدينة معسكر، يلاحظ أن كل المنشآت المتبقية تعود إلى الفترة العثمانية، وقد تنوعت بين الدينية والمدنية والعسكرية، فالدينية جمعت بين الجوامع والمدارس والمكتبات والزوايا والأضرحة، وهو ما يدل على تطور الحياة الثقافية والتعليمية خاصة في فترة الباي محمد الكبير، الذي سخر إمكانات كبيرة لجعل المدينة كقبة للعلماء والطلبة، كبنائه للمدرسة المحمدية وإقامة أوقاف لها، كما اشتهرت بعلمائها الفطاحل الذين كان لهم دور فعال في مجال التعليم، ولعل بناء الأضرحة على قبورهم لتكريمهم لخير دليل على ذلك.

أما المدنية فنتمثل في الدور والمنازل والمحاكم والحمامات وهي الأكثر عددا بمقارنتها بالمنشآت الأخرى، وعن المنشآت العسكرية فهي قليلة وقد تعرضت للتهديم والتخريب بسبب الأحداث والوقائع التي عرفتها المدينة، خاصة في أواخر العهد العثماني، ولم يبق منها إلا السور الخارجي وأثار بعض طبنانات المدافع.

قام كل باي بتخليد ذكراه بمنشأة تحفظ اسمه وأعماله، إلا أن منجزات الباي محمد الكبير في مجال البناء والتعمير تبقى هي الأكثر على الإطلاق وفي كل مدن البايك، نظرا للسياسة السلمية التي اتبعها في حكمه التي تميزت بالصرامة في تنفيذ القوانين، وكذلك كسب حب الرعية من خلال بناء منشآت عمومية خاصة منها الدينية والتعليمية.

أما عن مخططاتها المعمارية فهي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في عواصم مدن البايك كمستغانم ووهران ومدينة قسنطينة عاصمة بايك الشرق ومدينة المدية عاصمة بايك التيطري، لكن ما يعاب فيها هو قلة الثراء الفني، إلا في بعض النماذج منها كجامع عين البيضاء.



Ò ÍBÀ¨ •AÒ mAf½ :S BRAÁn ½
Ò Î¼½ZNA

Ò ÍBÀ¨ •AP Bñb•A:¾ÉPA½v °A
Ò ÍBÀ¨ •AjuBÄ•A :Í ß RA½v °A
É MÄTÈ ÖÄJaeÄ½ :S BRA½v °A

الفصل الأول: المخططات المعمارية:

1- الجوامع:

من خلال الأبحاث التي أجريت على جوامع ومساجد الجزائر عامة، يلاحظ أنه ابتداءً من القرن 11هـ/17م - أي مع دخول الجزائر تحت سلطة العثمانيين - استحدث طراز وفن معماري جديد ومميز بذاته، وبرغم استقرار أصوله ومعالمه الرئيسية في عصر بايزيد الثاني (1481- 1512م) فإنه مضى في تطوره سعياً وراء أشكال جديدة وصور وملامح مبتكرة والطابع الأساسي في فن العمارة العثماني هو القبة الوحيدة أو القباب المتعددة، وقد اتبع هذا الطراز في البناء بأشكال وصور متنوعة وبوحدات مختلفة، ويحتل المسجد الأخضر في مدينة بورصا منزلة مرموقة في العمارة العثمانية، يليه مسجد مراد الثاني بأدرنة الذي بناه سنة 1436م.

وقد أثر فتح القسطنطينية سنة 1453م على الفن العثماني تأثيراً واضحاً، أدى إلى العديد من التغييرات التي طرأت على المساجد المتنوعة التي أنشئت في العاصمة الجديدة مثل تحويل كنيسة القديسة "آيا صوفيا" بعد الفتح إلى مسجد، الأمر الذي كان له وقعه البالغ على سائر فنون العمارة، حتى أصبح مقصد كل المعماريين لدراسة مصادر الجمال داخل قبته، ويرجع الفضل إلى المهندس المعماري "سنان باشا" (*) في إدراك أبعاد البناء العظيم في مسجد آيا صوفيا، وفي تطويع عناصره لمجارية الفن المعماري الإسلامي، استطاع سنان أن يحقق هذا الهدف في مسجد "شاه زاد" الذي بناه سنة 1548م، كذلك شيد هذا المهندس مسجد السلطان "سليم الثاني" في أدرنة (1).

لقد أصبح هذا الابتكار المعماري الذي قدمه المهندس المعماري البار "سنان باشا" منطلقاً لتخطيط المساجد العثمانية، وأصبح علامة خاصة بالدولة العلية العثمانية. وبالتالي أصبحت العمارة الدينية الإسلامية - في آخر أدوارها وأعلى درجات تطورها - مجموعة من الطرز المعمارية الرائعة التي يختلف بعضها عن بعض في التفاصيل، ولكنها تتحدث جميعاً عن روح إسلامي غلاب، ولا تخطئ العين تبين الأسس المعمارية العربية الأولى في أعماق

(*) - ينحدر أصله من أب مسيحي، عاش ما بين (1489-1578م)، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- ثروت عكاشة: المرجع السابق، ص 117.

(1) - نفسه: ص ص 117 - 118. يُنظر كذلك: مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 90-91.

- التأثير العثماني في تخطيط الجوامع بالجزائر:

من خلال فحص تخطيط الجوامع والمساجد الجزائرية في العهد العثماني ونظامها المعماري، يتضح أنها بنيت وفق طرازين رئيسيين، سارا جنبا إلى جنب طيلة هذه الفترة. **الطرز الأول:** هو طراز الجوامع التي نجد بيت الصلاة فيه قائم على الأعمدة والدعامات ومزود بصحن مكشوف تتوسطه - غالبا - فسقية للوضوء، وتحيط به أروقة تغطيها قباب ضحلة.

أما **الطرز الثاني:** فهو الجوامع ذات القبة المركزية في بيت الصلاة، تكتنفها مجموعة من القباب وأنصافها⁽²⁾، وفيما يأتي تفصيل لمميزات وخصائص كل طراز.

أولا/ الطراز المحلي القائم على الأعمدة والدعامات:

يعتبر هذا الطراز النواة الأولى للجوامع الإسلامية عامة، إذ أن أصوله تعود إلى المسجد النبوي في المدينة، حيث تقوم فيه بيت الصلاة على الأعمدة والدعامات، سواء كان يشتمل على صحن أو يخلو منه، ويغطي بسقف مسطح أو جمالوني، ويكون حجم هذا النوع من المساجد كبيرا أو متوسطا أو صغيرا، منتظم التخطيط أو غير منتظم، وينتشر في معظم المدن الكبيرة والصغيرة، يتوسط مراكز المدينة أو في أحيائها السكنية أو على مشارفها. ومن ناحية مظهرها فهي قليلة الزخرفة أو تخلو منها نهائيا، ونجد منها نماذج كثيرة في الجزائر⁽³⁾، خاصة منها المدن الكبيرة كمدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة ومعسكر ومليانة

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 101.

(2) - أبو رحاب محمد السيد محمد: "ملاحح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط- دراسة أثرية مقارنة"، أعمال ملتقى دولي - تلمسان الإسلامية بين التراث المعماري والعمراني والميراث الفني ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان 2011، ص 144. يُنظر كذلك:

- مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 89-90.

(3) - لعرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر"، المؤتمر الخامس لجمعية الأثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي 3، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002، ص 530.

وغيرها، ولكنها عرفت عدة تغييرات وتجديدات لعدة أسباب منها: الممارسات التي مارسها الاحتلال الفرنسي، حيث أنه هدم جلها ولم يبق منها إلا القليل.

أما من حيث التخطيط العام للمساجد الجامعة الجزائرية في العهد العثماني، فيمكن تقسيمها إلى نمطين رئيسيين من خلال نظام توزيع البلاطات داخل بيت الصلاة.

النمط الأول: هو النمط التقليدي المحلي الذي تكون عقود بائكاته موازية لجدار القبلة، أو ما يعرف بنمط البلاطات الموازية لجدار القبلة، وهو على نوعين فالنوع الأول يحتوي على المجاز القاطع أو الرواق الأوسط العمودي على جدار القبلة ومقابلا للمحراب، أما النوع الثاني فهو يخلو منه، ونجد أن الجامع الكبير بمعسكر ينتمي إلى النوع الأول، الذي اعتمد في تخطيطه على بيت الصلاة المتكونة من بلاطات وأساليب تتوسطها البلاطة المستعرضة المتصلة مباشرة بالمحراب، بالإضافة إلى الأروقة والصحن، رغم أن هذا العنصر الأخير قد استغني عنه وتم دمجها في بيت الصلاة، وهذا النوع سابق لفترة الأتراك، وهو يتميز باتساع بيوت الصلاة وكثرة الأعمدة التي تحمل السقف، وكذلك تتميز بالتفنن في هياكل المحاريب واتجاهها إلى زيادة عمق الحنية، والتوسع في استعمال الأقواس المدببة وأقواس حذوة الفرس والسقوف الخشبية المزخرفة. (يُنظر الشكلان 07 - 08)

ونجد هذا النوع بالمشرق في الجامع الأموي بدمشق وجامع الأزهر بالقاهرة⁽¹⁾، كما نجد منه نماذج بالمغرب كجامع القرويين والأندلسيين بفاس ومساجد أخرى تعود إلى الفترة المرينية بالمغرب الأقصى، كمسجد شالة، وجامع المدرسة البوعنانية بفاس القديمة، ومسجد أبي الحسن، ومسجد الشرابليين، ومسجد جزام بن عامر، ومسجد رأس عين أزيلتين بفاس القديمة⁽²⁾، وكذلك لجوامع ومساجد الجزائر كالجامع الكبير المرابطي بتلمسان الذي جُدد سنة (1136هـ/1136م) ومسجد سيدي أبي الحسن (696هـ/1296م) ومسجد أولاد الإمام (710هـ/1313م) ومسجد سيدي بومدين (739هـ/1339م) ومسجد سيدي إبراهيم

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص86، يُنظر كذلك: نوبصر محمد حسني: المرجع السابق، ص124، وص184.

(2) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص146.

(759هـ/1358م)، وكذلك جامع القصبية الخارجي بالجزائر العاصمة⁽¹⁾، وجامع سيدي لخضر وجامع سيدي الكتاني بقسنطينة⁽²⁾.

وما يتميز به مخطط الجامع الكبير بمعسكر هو وجود البلاطة المستعرضة أو ما يصطلح عليه بالمجاز القاطع التي تربط المحراب بمؤخرة الجامع، حيث أنه يظهر أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى، كما أنها أصبحت تقسم الجامع إلى قسمين متساويين تقريبا وهذا التقليد المعماري عُرف قبل الفترة العثمانية، فقد ظهرت إرصاصاته الأولى في الجامع الأموي بدمشق، ثم انتقل إلى جوامع أخرى مثل جامع الأزهر بالقاهرة (359-361هـ/969-971م)⁽³⁾، وكذلك في جامع قرطبة بالأندلس الذي شيده عبد الرحمن الداخل الأموي عام 170هـ/786م، بالإضافة إلى جامع القيروان عندما أعيد بناؤه في عام 221هـ/836م، والمسجد الجامع بمدينة سوسة الذي شيده في عام 236هـ/851م، وجامع الزيتونة الذي وُسع سنة 250هـ/864م⁽⁴⁾، والجامع الكبير الذي جُدد سنة 530هـ/1136م وجامع سيدي بومدين بتلمسان المؤسس سنة 739هـ/1339م⁽⁵⁾، وأيضا نجده في بعض الجوامع المرينية كما هو الحال في الجامع الكبير بفاس الجديد، وجامع الحمراء بفاس الجديد أيضا، وجامع باب الجيسة بفاس القديمة⁽⁶⁾. (تُنظر الصورة 26)

أما من ناحية شكل الجامع الكبير بمعسكر فهو يتكون من مسقط أفقي يشغل مساحة مستطيلة أكثر اتساعا منها عمقا، أي أنّ المحراب يتوسط أحد الضلعين الطويلين للجامع ووزعت بلاطاته في مساحات مستطيلة أيضا أكثر اتساعا منها عمقا، في حين شغل الصحن مساحة مستطيلة متوسطة يقع في الجانب الشمالي الشرقي (يُنظر الشكل رقم 07)، وهذا النوع من المساقط لبيت الصلاة نشأه في الجامع الأموي بدمشق وجامع الأزهر⁽⁷⁾، وكذلك في جامع القرويين وبعض الجوامع الموحدية كجامع تينملل والكتيبة الأول المندثر، والكتيبة

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 454.

(2) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 505.

(3) - نويصر محمد حسني: المرجع السابق، ص ص 124 - 174.

(4) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 96 - 97.

(5) - قرمان عبد القادر: المؤسسات التعليمية... المرجع السابق، ص ص 106 - 107.

(6) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 147.

(7) - نويصر محمد حسني: المرجع السابق، ص ص 124 - 174.

الثاني بمراكش وجامع المنصور بقصبة مراكش، وجامع الأندلس بفاس القديمة⁽¹⁾، وكذلك في بعض الجوامع العثمانية بالجزائر كجامع القصبة الخارجي بالعاصمة⁽²⁾، وجامع سوق الغزل بقسنطينة⁽³⁾.

والملاحظ على الجامع الكبير أنه كان ملحقا بضريح، يضم بعض رفات بايات بايلك الغرب- والذين أشرنا إليهم سابقا - حيث أزيل في فترة لاحقة، وهذه الظاهرة سابقة للعهد العثماني، إذ أنها ظهرت في جامعي سيدي بومدين وسيدي الحلوي بتلمسان، كما ظهرت إرهاباتها الأولى في المغرب الأقصى، عندما شيد أبو الحسن المريني^(*) مسجدا جامعاً بجوار ضريح الشيخ محمد بن صالح بمراكش فيما بين (720 - 722هـ / 1320م - 1322م)، وأصبح الضريح هو النواة الرئيسية التي التفت حوله عدد من الوحدات، مكونة مجموعة معمارية ضخمة، وقد حدث الأمر ذاته فيما يتعلق بجامعي سيدي بومدين وسيدي الحلوي^(**)، حيث أصبح الجامع مبنياً ضمن مجموعة معمارية ضمت ضريحاً ومدرسة وميضأة وحمامات وغير ذلك⁽⁴⁾. (يُنظر الشكل رقم 07) و(تُنظر الصورة رقم 20)

أما في العهد العثماني فقد شاعت ظاهرة إلحاق الأضرحة بالأبنية الدينية ومن أمثلتها نذكر القبة الضريحية الملحقة بالجامع الأخضر وجامع سيدي الكتاني ومسجد حفصة وسيدي

(1) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 142.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 454.

(3) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 505.

(*) - هو السلطان علي بن عثمان بن عبد الحق المكنى بأبي الحسن المريني، تولى زمام الحكم سنة (731هـ / 1330م) وتوفي سنة 752هـ / 1351م، يُنظر: التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياذ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 153، وكذلك: - ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل: روضة النسرين في ملوك بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م، ص 35.

(**) - هو العالم والفقير والمدرس أبو عبد الله الشوذي الأندلسي من اشبيلية، التي كان قاضياً فيها في آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم نزل بتلمسان وفيها مكث وتوفي ودفن، سُمّي بالحلوي لأنه كان يصنعها ويبيعها للصبيان. يُنظر:

- ابن مریم: المصدر السابق، ص 68 - 70.

(4) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 143.

قموش⁽¹⁾، بالإضافة إلى مسجد سيدي الهواري ومدرسة خنق النطاح التي دفن بها البابي محمد الكبير بوهران.⁽²⁾

ثانيا/ طراز الجوامع ذات القبة المركزية (الطرز الوافد):

تعددت أنماطه المعمارية وتنوعت أشكاله التخطيطية، ولكن هل كان نظام هذه الجوامع وتخطيطها هو طبق الأصل لما هو موجود في تركيا؟ وهل يشترك معها ومع نظام الجوامع وتخطيطها في الولايات العثمانية الأخرى في المشرق والمغرب؟ الواقع أنه طراز صاغته الجزائر وشكلته بطريقة خاصة بها، ولكن بتأثير من المظاهر المعمارية العثمانية فمن أبرز عناصره القبة، وبفحص مخططات هذه المساجد ومقارنتها بمخططات المساجد العثمانية في تركيا في أنماط تخطيطها المتعددة، يمكن استشفاف طبيعتها وصلتها بها، وبالتالي يمكن تحديد مظاهر التأثير العثماني فيها، وأهمها ثلاثة يمكن حصرها في التالي:

1- مساجد قاعة الصلاة فيها مربعة، مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مئمنة ورواق يحيطها من جميع جهاتها، مقسم إلى فراغات مربعة، غُطي كل منها بقبيبة صغيرة مثل جامع عين البيضاء وجامع الباشا بوهران وجامع البابي بعناية.

2- مساجد بيوت صلاتها مربعة، تغطيها قبة مركزية تقوم على حنايا ركنية، مثل جامع صفر.

3- مساجد أتبع في تخطيط قاعة الصلاة فيها على هيئة صليب، أحد أضلاعه أكثر امتدادا من الأضلاع الأخرى، وغطي فيه الفراغ المربع الكبير بقبة مركزية، تحيطها قببيبات صغيرة والباقي بأقبية اسطوانية⁽³⁾ كالجامع الجديد بالجزائر العاصمة.

لقد كان اختيار مدينة الجزائر كعاصمة فيما يعرف بدار السلطان، تأثير مباشر على الحركة والإنتاج المعماري خاصة الديني منه، الذي أخذ القسط الوافر فيها، وما طراز المساجد ذات القبة المركزية إلا دليل واضح على ذلك، وقد أنجز هذا الطراز من الجوامع

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 509.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 65، يُنظر كذلك: - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 204. وأيضا: - المزاوي الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 298.

- عميراوي أحيدة: المرجع السابق، ص ص 82-83.

(3) - لعرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص ص 530 - 531.

في الجزائر نذكر: جامع صفر، جامع علي بتشين، الجامع الجديد، جامع الداوي بمدينة الجزائر، وجامع الأخضر وسيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباشا بوهران وجامع عين البيضاء بمعسكر.

ومن خلال دراسة مخطط جامع عين البيضاء، الذي يعتبر النموذج الوحيد الموجود في مدينة معسكر، تبين لنا أنه ينتمي إلى النوع الأول من المساجد التي تكون فيها قاعة الصلاة مربعة، مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مثمثة ورواق يحيطها من جميع جهاتها، مقسم إلى فراغات مربعة، غُطي كل منها بقببية صغيرة وأقبية متقاطعة. (يُنظر الشكل رقم 11) و(تُنظر الصور رقم 39-44-58)

ولعل أن استعمال المخطط القائم على القبة المركزية في الجوامع العثمانية يعود إلى أول مسجد عثماني واضح المعالم هو "أولو جامع" الذي أنشأه "أورخان" في "بروسة"، وهو مسجد جميل له بيت صلاة فسيح متعدد الأروقة، وفي منتصف الرواق الأوسط تقوم قبة كبيرة، وهناك قباب صغيرة فوق الرواقين المحيطين بذلك الرواق الأوسط، وقد كثرت المساجد الشبيهة بمسجد "بروسة" في بلاد الأناضول والروملية (*).

ولكن المساجد العثمانية الكبرى التي أنشئوها بعد أن أصبحت دولتهم إمبراطورية كبرى أخذت تنظر إلى عمارة كنيسة "آيا صوفيا" وتتأثر بها تأثراً واضحاً، فقد وجد المعماريون الأتراك في مبنى تلك الكنيسة الرائعة - التي تحولت إلى مسجد - حلولاً مرفقة لمشاكل كثيرة كانت تحول بينهم وبين الإنشاء الفخم الوافر الضوء، فاستطاع المعماري العثماني من خلالها تقليد هذا الشكل المعماري في مهارة بالغة، وبدا ذلك بوضوح في جامع "المحمدية" الذي أنشأه السلطان "محمد الفاتح" فيما بين سنتي (1463 و 1469م)، وكذلك في مسجد السلطان "بايزيد" (1501 - 1507م) الذي أنشأه المهندس "خير الدين" في اسطانبول ثم دخلت العمارة العثمانية في مرحلة جديدة من التطور على يد "سنان باشا" المذكور آنفاً حيث قام بهندسة مسجد "شاه زاده" (1543 - 1548م) وجامع السليمانية (1550 - 1556م)

(*)- الروملي: يراد به ما دان للعثمانيين من بلاد النصارى في بلاد اليونان ومقدونيا، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 90.

ومسجد السليمية في أدرنة (1570- 1574م) منطلقا من تخطيط الكنيسة المذكورة الذي طوره وفق المنظور العثماني للعمارة الدينية⁽¹⁾.

لقد تأثرت إيالة الجزائر كغيرها من الإيالات العثمانية كمصر وليبيا وتونس وغيرها بهذا الطراز الوافد، ولعل النماذج القائمة من المساجد الجزائرية التي تعود إلى هذه الفترة لخير دليل على ذلك، نذكر منها جامع صفر بالجزائر العاصمة (940- 941هـ / 1534م) وجامع الباشا بوهران (1206هـ / 1792م) وجامع الباي بعنابة (1206هـ / 1792م).

أما أوجه التشابه بين الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بمعسكر فهو وجود المحراب في وسط جدار القبلة والقبّة التي تعلوه، وهذه الميزة المعمارية ظهرت قبل العهد العثماني حيث نجدها في جامع القيروان التي أضيفت له سنة (221هـ / 836م) عند تجديده وتوسعته من قبل الأغالبة، وكذلك في جامع الزيتونة (250هـ / 864م)، وكذلك بالجامع الكبير بتلمسان ومسجد سيدي أبي مدين بالعباد، بالإضافة إلى احتواء كل منهما على صحن مكشوف لا يتوسطهما، رغم أن صحن الجامع الكبير حاليا أدمج مع بيت الصلاة، وقد زود كل منهما بأماكن للوضوء. بالإضافة إلى وجود مئذنة واحدة في كليهما، لكنهما يختلفان من حيث الشكل.

2- الزوايا:

لقد اتخذت الزوايا في مخططاتها المعمارية عدة أنماط وأصناف.

فالنمط الأول اصطلح عليه الجامع الزاوية أو الخانقاه.

أما النمط الثاني فسُمي المدرسة الزاوية.

وبالنسبة للنمط الثالث فهو القبّة الزاوية.

إلا أن هذه الأصناف لا توجد بينها فوارق كبيرة، فالزاوية في هذه النماذج جاء تخطيطها متأثرا بتخطيط عمارة المسجد أو المدرسة أو الضريح⁽²⁾.

وعند دراسة المخططات المعمارية لزاويتي أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين في مدينة معسكر، توصلنا إلى أنهما تنتميان إلى النمط الأول من الأنماط المذكورة سابقا، والتي تجمع بين مهمة التدريس في الزاوية وإقامة الصلوات الخمس، رغم وجود قبّة الضريح التي

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، صص 89- 91.

(2) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، صص 522.

فُصِلت عن المكونات المعمارية للزاوية، حيث جُعِلت لها مدخلا خاصا بها غير المدخل الرئيسي للزاوية، فالزاوية الأولى أُطلق عليها بعض المؤرخين اسم المسجد كما ذكرناه سابقا وهذا يعود إلى كثرة روادها للصلاة فيها. أما عن المخطط العام لهاتين الزاويتين فهما مختلفتان من حيث المكونات المعمارية فزاوية أبي راس الناصري تتكون من قاعة التدريس وبيت الشيخ أو المدرس والضريح وفي وسطها نجد الصحن، أما زاوية سيدي بوسكرين فهي مكتملة من ناحية التكوين المعماري للزاوية، فهي تضم المكونات المذكورة سابقا وتزيد عليها بغرف الطلبة والمخزن والمطبخ والكنيفات وبيت الخلوة وغرفة خاصة بالضيوف، كما أن الصحن الذي يتوسطها كبير المساحة. (تُنظر الأشكال رقم 16-17-18)

وعند التمعن في مخطط هاتين الزاويتين نستخلص أنهما عبارة عن مجمع معماري جمع بين عناصر المعمار الديني والمدني، فمن المسجد أخذنا اتجاه القبلة نحو مكة، ومن المعمار المدني أخذنا وحدات الإعاشة والمطابخ⁽¹⁾، ومن ناحية الحجم فهما صغيرتان، وقليلة النوافذ، وخاليتين من الزخرفة والجمال المعماري، لذلك فشكلهما العام يوحي بالعزلة والتشف والهدوء، ووظيفتهما تتطلب بأن تكون فيهما غرف لتحفيظ القرآن، وأخرى لترتيبه، وأخرى لنوم شيخ الزاوية والطلبة وحتى المنتسبين والزوار والمسافرين⁽²⁾.

أما عن ظاهرة إلحاق الأضرحة بالزوايا في بلاد المغرب فكان خلال الفترة العثمانية وهو ما نجده في الجزائر، ومن أمثلتها نذكر زاوية سيدي عبد المؤمن وزاوية بن عبد الرحمن بقسنطينة، وكذلك بتونس في زوايا المنستير مثلما هو الحال في زاوية سيدي بوعلي وزاوية سيدي مسعود⁽³⁾، وحتى في المغرب الأقصى كزاوية سيدي الغازي^(*) بتافيلالت⁽⁴⁾، كما

(1) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 32.

(2) - عزوق عبد الكريم: المرجع السابق، ص 72، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج 1، ص 269. وكذلك: - صباح بعارسية: المرجع السابق، ص 76.

(3) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 522 - 525.

(*) - سيدي الغازي: هو العلامة والشيخ أبي القاسم سيدي الهادي السوسي الأصل والذي ولد سنة 1403/801م، وتوفي حوالي سنة 1483/878م بتافيلالت (سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار)، كان طالبا متفهما في العلوم الدينية، انتقل من سوس إلى تافيلالت واستقر بقصر تبوكرت وأسس به مسجدا لإقامة الصلاة والتعليم قبل أن يشيد الزاوية. لمزيد من المعلومات يُنظر: - تاوشخت لحسن: عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية، ج 2، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، 588.

(4) - نفسه: ص 592.

عرفت مصر هذه الظاهرة المعمارية، حيث يظهر ذلك في ضريح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره أول ضريح ألحق بمدرسة، ثم أصبحت القاعدة بعد ذلك إلحاق القباب بالمدارس والمساجد والخانقاوات⁽¹⁾.

3- الأضرحة:

تعد الأضرحة من المنشآت المعمارية الدينية التي لاقت اهتماما كبيرا من طرف المسلمين، إذ أنها اعتبرت كطريقة مثلى لتكريم العلماء والأولياء الصالحين، وقد عرفها معماريا الجنرال "كوفي Cauvet" بأنها منشآت جنازية صغيرة ومقببة، بأشكال مختلفة ومتعددة حسب طبيعة كل منطقة⁽²⁾، وعليه فقد اتخذت الأضرحة في تصميمها المعماري الشكل التقليدي المعروف، وهو مربع فوقه قبة، على واجهاته الأربع فتحات عبارة عن عقود، وقد استعمل هذا التخطيط لأول مرة في "باليرمو palermo" بصقلية، كما يوجد في بعض الأضرحة صحن ذو بوائك يمتد أمام حجرة القبر، كما هو الحال في أضرحة بني مرين وبني زيان بتلمسان، مثل ضريح سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم⁽³⁾.

لقد تعددت الأضرحة في مخططاتها المعمارية واتخذت أشكالا مختلفة حسب مكانة صاحب الضريح في المجتمع وكذلك طبيعة المنطقة الجغرافية، وقد قدم لنا الجنرال كوفي Cauvet في مقاله هذه الأنواع نوردتها على النحو الآتي:

- أضرحة ذات قباب نصف كروية.
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة مسقفة بسقف مسطح أو بسقف يعلوه قرميد.
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرميد.
- أضرحة ذات قباب مخروطية.
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرفات⁽⁴⁾.

ورغم تنوع الأضرحة وظهورها بأشكال مختلفة ومتعددة، إلا أنّ النوع الشائع في الجزائر والأقدم هو الأضرحة المربعة ذات قباب نصف كروية محمولة على منطقة انتقال

(1)- ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص27.

(2)- Cauvet. (C) : « Les Marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique », revue Africaine, Paris, 1923, p435.

(3)- عزوق عبد الكريم: الأضرحة... المرجع السابق، ص138.

(4)- Cauvet. (C) : **op.cit**, p...

يُنظر كذلك: عزوق عبد الكريم: الأضرحة... المرجع السابق، ص138.

مثمثة الشكل، وفي بعض الأحيان لا نجد منطقة انتقال، ويظهر لنا الضريح على شكل مربع توضع فوقه القبة مباشرة⁽¹⁾، وهذا الطراز هو الشائع في الأضرحة الموجودة في مدينة معسكر، إذ أن ضريح أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وسيدي محمد بوجلال وسيدي موفق اتخذت الشكل المربع عليه قبة نصف دائرية مضلعة ترتكز على مربع انتقل فيه إلى المثلث عن طريق حنايا ركنية مجوفة وبسيطة، نجد في جدرانها الداخلية الأربعة عقود نصف دائرية صماء، أما القبر فهو بسيط يخلو من الشواهد المزينة والمبينة فيها تاريخ الوفاة والأدعية المعروفة في بعض الأضرحة والقبور التي تعود إلى العهد العثماني في كل من مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة في مقبرتي سيدي الكتاني والجامع الأخضر⁽²⁾. (تُنظر الأشكال رقم 18-19-20)

4- المنشآت السكنية والإدارية:

كان من الطبيعي أن يتأثر المخطط العام للبيت العربي بالدين الجديد كما تأثرت العمارة والفنون وأسلوب الحياة⁽³⁾، حيث أتبع في طريقة تصميمه تعاليم الدين الإسلامي التي تدعو إلى التواضع وعدم الافتخار والتخلي بالتقشف، وتجنب التطاول في البنين، لتفادي الفروق الطبقيّة وإيذاء المستضعفين⁽⁴⁾، لذلك جاء تصميمه تصميمًا مشتركًا في هيكله العام الذي روعي فيه ظروف المناخ ونوعية المكان⁽⁵⁾، لتتماشى مع حياة الناس، ويوفر لهم الأمن والراحة والاستقرار، ثم سعى بأن يجد فيه كذلك الرفاهية والجمال، وكان لتحقيق هذه الأغراض يختلف باختلاف الزمان والبيئة ومستوى الفرد من حيث الفقر والغنى⁽⁶⁾، وهكذا نجد مساكن الفئات الفقيرة بسيطة لا تغنى بالزخارف والتزيين، كما نجد بيوت الفئات الغنية مستكملة لكافة الشروط الصحية، وجميع ضروب الرفاهية⁽⁷⁾.

(1) - Marçais. G: Op.cit, p300.

(2) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص536.

(3) - الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص612.

(4) - عبد الفتاح رؤاس قلعه جي: مدخل إلى علم الجمال، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1411هـ/1991م، ص55.

(5) - عكاشة ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص92، يُنظر كذلك:

- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص609.

(6) - فاجة أحمد جمعة: موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، دمشق، 2000م، ص141.

(7) - رفعت موسى محمد: المرجع السابق، ص237.

وعلى العموم فإن طبيعة الدور وكيانها في العالم الإسلامي جاءت متشابهة، وذلك نتيجة لتفاعلات كبيرة بين العوامل الدينية والاجتماعية وغيرها من المؤثرات، التي تطبع كل مجتمع بطابع خاص من مكان إلى آخر ومن عصر لآخر⁽¹⁾، لأنها تعبر دائما عن المظهر الثقافي والحضاري للأسرة والمجتمع، فهو الخلية الأساسية للمدينة ومحور نموها وتنظيمها وتطورها⁽²⁾.

لقد تطورت الوحدات السكنية في المدينة الإسلامية عبر العصور بطريقة لبست ثوبا واحدا هو الإسلام، كما تطورت من حيث امتدادها الأفقي وصورتها العمودية، وكانت في منشئها تخضع للمنظومة القيمية الإسلامية في جانبها الإنشائي وتحولاتها المعمارية، وذلك بطريقة تحفظ كيان الأسرة وحرمتها وحربتها الشخصية، ولا تحدث ضررا بالغير جارا كان أو عابر سبيل، وذلك بكيفية تتفق مع القاعدة الأصولية المنافية للضرر والإضرار: "لا ضرر ولا ضرار"، وهي قاعدة أخذ بها الفكر العمراني للمسلمين⁽³⁾، ويتضح تفاعل المعمار معها فيما ابتكره من عناصر معمارية وما طبقه من كتل في المنشآت السكنية، حيث تعود المسلمون في القرون الأولى للهجرة (1-2هـ/7-8م) في الأقاليم المفتوحة، بناء مساكنهم في المدن الجديدة المنشأة على أيديهم، أو المدن القائمة قبلهم بشكل أفقي وعلى المستوى الأرضي، وهو ما حدث في مدينة الفسطاط في مصر التي أنشأها عمرو بن العاص بعد فتح مصر في سنة 641هـ/641م، حيث أنها شهدت حركة عمرانية ومعمارية كثيفة في وقت قصير، بما وفد عليها من عناصر سكانية عديدة من العرب وغيرهم فازدحمت بالمباني⁽⁴⁾ وحدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكان واليه على مصر عمرو بن العاص أن "خارجة بن حذافة" كان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومتمولي الشرطة لعمر بن العاص، استقر بفسطاط مصر، وضاق عليه سكنه فبنى غرفة في طابق علوي، وكان أول من أحدث ذلك في مصر، وربما في المدن الإسلامية جميعا، وفهم الناس ذلك خطأ أن

(1) - إبراهيم عبد العالي محمد: العمارة والعمران في الوطن العربي، ط3، دار الراتب الجماعية، بيروت، 1986، ص26 يُنظر كذلك: - لرج عبد العزيز: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية: دراسة أثرية معمارية وفنية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999م، ص 374.

(2) - قاجة أحمد جمعة: المرجع السابق، ص141.

(3) - لرج عبد العزيز: العمران الإسلامي... المرجع السابق، ص87.

(4) - نفسه: ص ص 90 - 91.

خارجة يتعدى على عورات المسلمين من جيرانه، ولا شك أنهم اشتكوا أمره إلى والي مصر عمرو بن العاص، فلما لم يحصلوا منه على جواب، رفعوا القضية إلى الخليفة عمر نفسه فكتب الخليفة إلى واليه على مصر يقول: "...أما بعد فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها... والسلام"⁽¹⁾، ومن خلال هذه الحادثة يتضح لنا أمران:

الأول: استهجان المسلمون الأوائل بناء المساكن عمودية على شكل طوابق.

الثاني: إن هذا الاستهجان لم يكن لذاته، وإنما كان توجسا من المسلمين ومن الجيران من كشف حرمتهم والإطلاع على خصوصياتهم وأسرارهم الخاصة، والاعتداء على حرمتهم الفردية، وهو ما يتنافى والقيم الإسلامية⁽²⁾.

لقد خضع الامتداد الأفقي للمنازل في الفترة العثمانية لعدة أمور هامة أولها المكان الذي أنشئ عليه الأثر⁽³⁾، أي مساحة تلك الدور وامتدادها، والتي تتحكم فيها ظروف النفوذ وسيطرة بعض العائلات في الأحياء المختلفة من المدينة⁽⁴⁾، بالإضافة إلى وظيفة صاحب المنشأة وقدرته المالية التي تساعد على الصرف⁽⁵⁾، وكذلك طبيعة المواد التي بنيت منها وقلة كثافة السكان وضآلة أثمان الأرض أيضا⁽⁶⁾.

كان هذا التصميم شائعا في مدينة معسكر منذ الفترة العثمانية، حيث كانت تكثر المساحات الفارغة من جهة، وقلة السكان من جهة أخرى، ولكن بعد أن عرفت المدينة اكتظاظا بالسكان أدى إلى نمو المدينة، وتقلص المساحات المخصصة للبناء، وبالتالي كلما نمت المدينة وازدادت كثافتها السكانية كلما ضاقت بهم وانحصر البنيان في داخلها أفقيا

(1) - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العرب، القاهرة 1961، ص 148.

(2) - لعرج عبد العزيز: العمران الإسلامي...، ص 92.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 203.

(4) - كيال منير: المرجع السابق، ص 152.

(5) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 203.

(6) - كيال منير: المرجع السابق، ص 152.

وهو ما كان يؤدي بالمهندس المعماري إلى الارتفاع بالوحدات السكنية في صورتها العمودية كحل عمراني ومعماري لتناقص الفراغات، وانعدام الفضاءات داخل الأسوار لدرجة لم يكن ممكنا معها الحفاظ على المساحات الخضراء من حدائق ويساتين، ومن جهة أخرى فإن الارتفاع بالمبنى لم يكن مسموحا له أن يتجاوز ارتفاع أسوار المدينة، وهو ما كان يؤدي أمام النمو الأفقي والعمودي للوحدات السكنية إلى اكتظاظ المدينة بالمباني، والذي عنه انفجار عمراني تخرج المدينة عن أسوارها أو تمتد خارج أسوارها⁽¹⁾، وهذا ما عرفته مدينة معسكر حيث وصلت البناءات إلى غاية حدود الأسوار الخارجية، الأمر الذي دفع الباي وإدارته للبناء في فحوص المدينة والسماح للسكان للبناء فيها، وهو ما نتج عنه تكون ما يعرف بالرحبات التي بلغ عددها خمسة كما ذكرناه سابقا.

ورغم هذه الإجراءات الإدارية للقضاء على مشكلة الاكتظاظ إلا أنه مع مرور الزمن دفع بالمهندسين المعماريين إلى تغيير نمط وطريقة البناء، فتحول الامتداد الأفقي إلى التركيب العمودي الذي يتطلب التوسع على حساب الطابق الأرضي، بحيث أن كثرة الأفراد في الأسر وغلاء المساحات الأرضية المتبقية من المدينة، دفع الأهالي إلى التفكير في بناء الطوابق العليا باعتباره الحل الوحيد والمناسب الذي يرفع الحرج عنهم، ويوفر لهم الاتساع ويخرجهم من المحنة والصعوبة التي يعيشون فيها.

أما عن فكرة تعدد الطوابق في البيوت والارتفاع بالوحدات السكنية عموديا، قد عرفت في الحضارات القديمة كتكريت ومصر⁽²⁾، حيث بينت ذلك الحفريات وأعمال التنقيب التي أجريت في الفسطاط بين عامي 1970/1964م⁽³⁾، وفي بلاد الرافدين بين عامي 1927/1926م، والتي أكتشف فيها مباني ذات طابقين بسلم داخلي، وغرف تتجمع حول حوش مفتوح⁽⁴⁾، وكذلك المجسمات والرسوم الجدارية التي نشاهدها في قبور الفراعنة وتواصل ذلك في العهد الروماني، والتي تظهر في الرواق المحمول على الأعمدة الذي كان

(1) - لعرج عبد العزيز: العمران الإسلامي... المرجع السابق، ص 88.

(2) - نفسه: ص 610.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 189.

(4) - لمعي مصطفى صالح: عمارة الحضارات القديمة، دار النهضة العربية، 1983، ص 53.

عنصرها ما في العمارة الرومانية يحيط بفناء البيوت، حيث عثر عليه مستعملا في مدينة "إبلا" في أواخر القرن الألف الثالث، وفي "ماري" أوائل الألف الثاني قبل الميلاد⁽¹⁾.
لقد تأثر مسقط البيت العربي الإسلامي بذلك، لتلاؤمه مع الحياة الدينية والاجتماعية والمناخية السائدة، ويلاحظ في هذا التصميم الانتماء إلى الداخل⁽²⁾، ويتجلى ذلك في المساكن والقصور الإسلامية التي بنيت في فترات مختلفة، حيث بدأت تظهر جذورها الأولى منذ حوالي منتصف القرن 7/هـم بالفسطاط في مصر وفي مساكن بلاد الرافدين⁽³⁾، وكانت عملية مستهجنة آنذاك، ومع حلول القرنين الثالث والرابع الهجريين الموافق للقرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ازدادت الظاهرة وضوحا ليصل عدد الطوابق في العصر الفاطمي في مصر إلى أربع طوابق كحد أدنى، ولا شك أن المدن الكبرى كدمشق وبغداد والقيروان وفاس قد شهد نفس الأحوال⁽⁴⁾. كما تجسد ذلك في عمارة سدراتة⁽⁵⁾، والقصر الزيري بمدينة أشير وقصور قلعة بني حماد التي تتألف من صحن حوله الأجنحة⁽⁶⁾.

ويفسر عدم تعدد الطوابق في المساكن الإسلامية في العصور المبكرة إلى التزام المسلمين بسياسة التقشف، والبعد عن التعالي في البنين، التي قد تخلق نوعا من الغيرة والحسد بين الأفراد، أي بين الغني والفقير، وكذا تجسيد مبدأ احترام الجار وعدم كشف عوراته، وذلك ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما إقبال المسلمين على تعدد الطوابق في المساكن، فيعود ذلك إلى تأثير المسلمين بالبلدان الأخرى، خاصة بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية على إثر الفتوحات، والتي كانت فيها العمائر تتكون من أكثر من طابق، وهذا ما حفز المسلمين إلى إتباع نفس النمط في البناء، كما أن ازدياد عدد السكان واكتظاظ المدن وغلاء أسعار الأراضي المخصصة للبناء

(1) - الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص 610.

(2) - لمعي مصطفى صالح: المرجع السابق، ص 53.

(3) - الشافعي فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج 1، عصر الولاية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة، 1970، ص 445، يُنظر كذلك: - بهنسي عفيف: المرجع السابق، ص 321.

(4) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 445.

(5) - Bouruiba. R : Cites disparues, art et culture, Ministère de l'information, Alger, 1979, p63.

(6) - Golvin. L : Le Maghreb centrale..., p180. يُنظر كذلك:

- Marçais. G : Algérie médiévale, monuments et paysages historiques, arts et métiers graphiques, Paris, 1957, pp 34-35.

ومن جهة أخرى ربما يعود إلى محدودية الإمكانيات المادية للأفراد، لأن أغلب سكانها فلاحين، وهذا مما جعل مساكنها متشابهة، بحيث أنها تظهر كتكتلة واحدة على مستوى واحد. لقد صممت مخططات المساكن على شكل أربعة أجنحة من طابق أو أكثر حول فناء تتوسطه نافورة⁽¹⁾، وتشرف عليه المرافق المعيشية والوحدات السكنية المختلفة، والتي تتخللها العناصر المعمارية بمختلف أنواعها من عناصر الحمل والتدعيم والارتكاز، والتي لها دور كبير في الحفاظ على توازن المبنى وتوزيع أقسامه بطريقة منظمة، بعيدة كل البعد عن الفوضى وبشكل يراعي التناظر والتناسق في التوزيع.

والملاحظ على مباني ودور مدينة معسكر أنها خضعت لهذا التخطيط، حيث اتخذت في تخطيطها شكل المربع والمستطيل، وأحيانا بشكل غير منتظم، وذلك يعود إلى طبيعة المكان أو الموضع الذي بنيت فيه الدار في الشارع أو الحي المرتبط بتخطيطه (مستقيم أو منحرف مائل)، وكذا من حيث المساحة المخصصة للبناء، بالإضافة إلى التغييرات التي أحدثتها الاحتلال الفرنسي عليها، وعموما فهي تتكون من طابقين - طابق أرضي وعلوي - تتوسطها أفنية محاطة بأربعة أروقة، تفتح عليها مداخل ونوافذ المرافق المعيشية والوحدات السكنية بطريقة التناظر والتقابل والتشابه في المظهر العام، ومزينة بأعمدة متنوعة تحمل عقودا لها نفس النمط.

فالمخطط العام لدار الباي جاء شبه مربع، مقاسات أضلاعه غير منتظمة يتكون من أربعة أجنحة بواجهات بسيطة المظهر، يتوسطها فناء مركزي يحتوي على حوض بداخله نافورة، كما تحيط به مجموعة من الأعمدة عليها تيجان تحمل عقود موحدة النمط، وفي جوانبه أربعة أروقة تتوزع عليها الوحدات السكنية والمرافق المعيشية، والملاحظ عليه هو كثرة النوافذ المفتوحة على الخارج، وذلك ما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، لكن ذلك يعود إلى التغييرات التي أدخلها الاحتلال الفرنسي عليه، لأن المبنى حُوّل إلى مركز إداري خاص بالجيش الفرنسي، كما أنه يحتوي على مرافق كانت عبارة عن مخازن حُوّلت خلال فترة الاحتلال إلى اسطبلات، محاطة بسور خارجي يحمي المبنى من أي اعتداء خارجي. (يُنظر الشكلان 21-22)

(1) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص ص 223-224.

وبالنسبة لدار الميزابي فإن مخططها العام جاء على شكل شبه مربع، تظهر منه واجهتين فقط، أما الواجهتين المتبقيتين فهما متلاصقتين مع عمائر أخرى، وهي تتكون كذلك من أربعة أجنحة بفناء مركزي يحده أربعة أروقة تتوزع عليه المرافق المعيشية والوحدات السكنية، كما زودت الواجهة الرئيسية في الطابق العلوي بمشربية تطل على الشارع، وهي عبارة عن شرفة بارزة عن جدار البيت، تؤدي دور النافذة في الطابق العلوي، بحيث يرى من في داخل المسكن خارجه من دون أن يُرى، بفضل فتحات المشربية الضيقة، وهي عنصر يحافظ على حرمة البيت كما أدت وظيفة أخرى وهي تبريد ماء الجرار التي توضع فيها ولعلها أخذت اسمها منها، كما أنها تخفف قوة الضوء الداخل إلى البيت منعكسا أو مباشرة مع السماح للهواء بتخللها مصفى مما يحمله من غبار⁽¹⁾. (تُنظر الصورتان رقم 107/106)

أما فيما يخص مخطط المحكمة فهو في الأصل مربع الشكل، يتكون من أربعة أجنحة بواجهات بسيطة المظهر، يتوسطها فناء مركزي يحتوي على حوض مزود بنافورة، وتشرف عليه مجموعة من الأعمدة عليها تيجان تحمل عقود موحدة النمط، وفي جوانبه أربعة أروقة تتوزع عليها المكاتب الإدارية. (يُنظر الشكلان رقم 27-28)

وما يُلاحظ أنّ هذا المخطط الأصلي طرأ عليه تغيير خلال فترة الاحتلال، إذ أن المحكمة عرفت إزالة جناح بأكمله ألا وهو الجناح الشرقي، وهذا من أجل شق طريق ينفذ إلى وسط المدينة كما ذكرناه سابقا، ودليل ذلك هو وجود قطع واضح للعيان لعقود الرواقين الشمالي والجنوبي الذي كان يمتد لعقود الرواق الشرقي، بالإضافة إلى نقص أعمدة الرواقين (تُنظر الصورة 115)، كما نلاحظ أن الطابق العلوي غير مطابق لمواصفات الطابق الأرضي، وذلك من حيث عدم وجود الأعمدة والعقود التي تشكل الأروقة المسقفة، وهذا ما يطرح عدة تساؤلات حول هذا الشكل، فالمتعارف عليه من خلال مخططات المنشآت العثمانية بمختلف أنواعها أنها بنيت في أغلب الحالات بطريقة التطابق أي مواصفات الطابق الأرضي تتكرر في الطابق العلوي من حيث شكل الأروقة، وهو ما يرجح فرضية قيام سلطات الاحتلال بإزالة الأعمدة والعقود التي ترفع سقف أروقة الطابق العلوي، كما نلاحظ فتح عدد كبير من النوافذ في الطابق الأرضي نحو الخارج، وهو ما يتعارض مع

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 384.

وفيما يخص الوحدات السكنية بمفهومها العام فهي تتكون من قسمين رئيسيين في المبنى ونجد لكل قسم مميزاته الخاصة، و هذان القسمان هما الحجرة والغرفة، حيث أن الحجرة يكون موقعها دائما في الطابق الأرضي، أما الغرفة فيكون موقعها دائما في الطوابق العلوية، وكلاهما يعتبران كمكان للسكون في البيت، حيث أن منها ما تتخذ لاجتماع أهل الدار، وأخرى للأكل والنوم، ومنها ما يخصص للاستقبال والضيوف.

وقد وجدت في المنازل الإسلامية ولاسيما في العصر العثماني أكثر من قاعة في المنزل الواحد، ومن هنا أطلقت عليها الحجرات للسفلية والغرف للعلوية تمييزا لها عن بعضها البعض⁽¹⁾، ويكون توزيع الوحدات السكنية حسب ما تفرضه العوامل الطبيعية، حيث أن حجرات الطابق الأرضي لقضاء فصل الصيف لتوفر الرطوبة، وغرف الطابق العلوي لفصل الشتاء، وذلك لكونه أكثر استفادة من أشعة الشمس مما يبعث الدفء إلى الغرف، كما يخصص منها جناح خاص لاستقبال الضيوف يسمى "البراني" أو المضافة التي تعرف بـ"السلامك"، وجناح للسيدات وهو القسم الداخلي الذي يعرف بـ"الحرملك"⁽²⁾، وفي معظم الأحيان نجد الطابق العلوي مخصص للحياة العائلية⁽³⁾ وكل هذه العوامل جعلت النساء خاصة يفضلن الطابق العلوي على الطابق الأرضي.

وانطلاقا من هذه المعطيات نستنتج أن التصميم الداخلي للغرفة يأتي حسب الوظيفة التي تؤدي فيها، وكلها تقريبا تشترك في خاصية واحدة تتمثل في الشكل المستطيل، فقد تمكنت الدراسات من ضبط بعض المقاييس التي يكون فيها العمق أكبر من العرض⁽⁴⁾، كما أن توزيعها يكون حول الصحن من جهاته الأربع، وكذلك في تخطيطها الطولي تبعاً للأروقة، جعل التصميم العام للمسكن يفرض هذا المقياس، وذلك يعود إلى عدة اعتبارات

(1) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 231.

(2) - نفسه: ص 237، يُنظر كذلك: - خماس نجرة: المرجع السابق، ص 21،

- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 183.

(3) - قاجة أحمد جمعة: المرجع السابق، ص 142.

(4) - Reveault. J: palais et résidence d'été de la région de Tunis, XVI- XIV siècle, C.N.R.S, Paris, 1947, p63.

وعوامل فرضت هذا التصميم منها تلاصق البيوت مع بعضها البعض وبالتالي ضيق المساحات المخصصة للبناء والتوسع، وجعلها في اتجاه واحد دون الإخلال باستقامة الشارع بالإضافة إلى الطول المحدود للأعمدة والألواح الخشبية المستخدمة في التسقيف والتي تتراوح أطوالها غالبا ما بين 2 و 2.50⁽¹⁾، كما أن هذه الوحدات إذا كانت ذات طول وعرض كبيرين تكلف صاحب البناء أموال باهظة في تهيئتها وخاصة في تسقيفها، كما أنها تكون معرضة للتشقق والانهييار إذا لم تراعى فيها شروط البناء، وهذا ما جعل البناء المسلم يستغني عن ذلك ويختار الاستطالة المحدودة حسب توفر المواد اللازمة والابتعاد عن التكلفة.

والملاحظ من خلال دراسة الوحدات السكنية في دور مدينة معسكر أن المعمار أو البناء لم يجعل مقاسات الحجرات والغرف متشابهة، حيث أنها اختلفت فيما بينها وذلك حسب الوظيفة التي تؤدي فيها، كما أن اهتمامه انصب على الغرف في الطابق العلوي دون الحجرات في الطابق الأرضي، حيث نجدها أكثر اتساعا وحجما، ومزينة بمختلف العناصر المعمارية كالخزائن الجدارية، والزخارف الفنية، بطريقة متقنة، خاصة منها البلاطات والمربعات الخزفية، مما أضيف ذلك عليها جمالا وبهاءً، وهذا دليل واضح على مكانة غرف الطابق الأول عند الأسر، حيث جعل منها مكان لاستقبال الضيوف والنوم والاجتماعات وأحيانا للأكل (أنظر الصورتان رقم 25/27)، أما الحجرات فلم يوليها اهتماما كبيرا، إذ أن مظهرها العام جاء بسيطا فأحيانا مزدانا بالزخرفة وأحيانا أخرى دون ذلك.

ومن خلال دراسة مخططات المساكن والدور العثمانية بالجزائر لاحظنا أن هذه المباني مفتحة نحو الداخل، وذلك ما يتلاءم تعاليم الدين الإسلامي واتجاهاته الاجتماعية، وخاصة فيما يتعلق منها بالمرأة⁽²⁾. بالإضافة إلى أن عامل المناخ الذي كان له دور كبير في تصميمات هذه المباني، حيث يظهر ذلك في سقفها التي جعلت على شكل جمالوني مائل وذلك لقسوة المناخ في مدينة معسكر خاصة في فصل الشتاء التي تعرف تساقط الأمطار والثلوج، وهو ما جعلها خالية من السطوح التي نشاهدها بكثرة في مباني مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

(1)- Marçais. G: **Op.cit**, p442.

(2)- الريحاوي عبد القادر: **قلم عالمية... المرجع السابق**، ص 612.

5- الحمّامات:

تتكون حمّامات مدينة معسكر معماريا من قسمين متلاصقين عمارة، منفصلين استعمالا، لكل منهما مدخله الخاص، أول هذين القسمين هو الحمّام نفسه، المكان الذي يؤمّه المستحمّون، والذي يدخله الزبائن من باب ضيق يكون منكسرا في بعض الأحيان مثلما نجده في حمّام حمزة، وذلك لعدة أسباب منهما: ما يتعلق بالجانب الصحي وهو حماية المستحمين من التيار الهوائي، الذي قد يسبب الإصابة بالأمراض، خاصة بعد الاستحمام حيث يكون الإنسان شبه عاري، وكذلك الحفاظ على الجو الداخلي للحمّام خاصة وأن المدخل مزود بباب خشبي، وكذلك حجب المستحمين من أعين المنتظرين، سواء كانوا رجالاً أو نساءً تفاديا لأي إحراج قد يكون خاصة في وجود الأقارب، أين يكون الاحترام والحياء من الظهور أمام بعضهم بشكل عاري.

لقد عرفت الحمّامات العامة مخطّطين اثنين من حيث الشكل: الأول بيزنطي طغت فيه القاعة الدافئة على ما سواها، وكانت بثمانية أضلاع أو باثني عشر، أما المخطّط الثاني فهو طولي تصطف فيه قاعات مستطيلة تحتل فيه الأولى بدل الدافئة، وتميّزت به العصور المبكرة، ولكن ابتداءً من القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد أصبح الحمّام العثماني النموذج المحتذى، حاملا معه بعنّا للإرث البيزنطي الأصلي ولكن بمسقط طولي، وقد اكتفى في أكثر الأحيان بقاعات ثلاث: "البراني" و"الوسطاني" و"الجواني"⁽¹⁾.

فهو ينقسم بدوره إلى أربعة أقسام:

- **قاعة الاستقبال:** تُعرف كذلك باسم "المحرس" في تونس وقسنطينة⁽²⁾، ونجدها في غالب الأحيان تحتوي على مقاعد أو مصاطب حجرية مخصصة لجلوس المستحمين، مثلما نجده في حمّام البركة والقرشالي وحمزة، أما من ناحية التسقيف فنلاحظ أن حمّام القرشالي قد انفرد في تسقيفه بالأقبية النصف الأسطوانية بالمقابل نجد سقف كل من حمّام البركة والقرشالي مسطح. (تُنظر الصور رقم 136-147-148-159-160)

- **القاعة الأولى الباردة،** لخلع الملابس. وهي مزوّدة بخزائن وطاقات غير نافذة توضع فيها الملابس والمناشف ولوازم المستحمين، وتسمى في المشرق "المشّح أو المشّح"، وفي مصر

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 141.

(2) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 547.

ومراكش "المسلخ"، وهي محاطة بمقاعد خشبية كبيرة مثلما نجده في حمّام البركة أو حجرية مثلما نشاهده في حمّام حمزة، وتتصل هذه القاعة في كلا الحمّامين بالمراحيض التي تليها بواسطة ممّرات متعرجة على جانب من الطول للفصل بين الجوين الداخلي والخارجي.

اختلف تخطيط هذه القاعة في الحمّامات المدروسة، فنجدها في حمّام البركة مستطيلة الشكل بسيطة في مظهرها العام، كانت تحتوي على سدة علوية مخصصة لنزلاء الحمّام من المسافرين وهذا ما تتميز به حمّامات قسنطينة في كل من حمّامي سوق الغزل وبن البجاوي (يُنظر الشكل رقم 31)، بينما نجدها في حمّام القرشالي كبيرة الحجم غير منتظمة في شكلها العام يتوسطها فضاء مربع مزين بأربعة عقود وأعمدة وهي مشدودة إلى بعضها البعض بقضبان حديدية، وتستعمل كذلك لوضع المناشف. لعل أهم ميزة تميزت بها هذه القاعة هو احتوائها على موقد لتحضير الشاي للزبائن وهو ما نجده في حمّام سوق الغزل بقسنطينة⁽¹⁾، أما عن سقفها فهو من الأقبية النصف أسطوانية (يُنظر الشكل رقم 35). وفيما يخص حمّام حمزة فهي الأخرى اتخذت شكلا خاصا بها، فهي مستطيلة الشكل كبيرة الحجم تحتوي على سدة يظهر من خلال مواد بنائها أنها حديثة البناء. (يُنظر الشكل رقم 39)، وهو الشكل ذاته الذي تظهر عليه قاعة حمّام الباي. (يُنظر الشكل رقم 42)

القاعة الثانية الدافئة، نجدها أكثر دفئا من الأولى تخلع فيها الملابس شتاءً، وتسمّى في فاس "البراني"، وفي دمشق "الوسطاني - البراني"، وفي القاهرة "البيت الأول"⁽²⁾. وتتميز هذه القاعة بحجمها الصغير وشكلها البسيط في حمّام البركة فهي تحتوي على حوض مائي، أما بالنسبة لحمّام القرشالي فهي كبيرة الحجم بالمقارنة مع سابقتها يوجد فيها مصاطب حجرية وحوض مائي وفتحات للإضاءة والتهوية، بينما نجد سقفها مشكل من الأقبية النصف أسطوانية، وفيما يخص حمّام حمزة والباي فهما صغيرتان جدا وبسيطة في مظهرها العام.

(تُنظر الأشكال رقم 31-35-39-42)

القاعة الثالثة الساخنة، أو المحمّ أو العرّاقة، حيث يتصبّب العرق، فالحرارة مرتفعة فيها، وجوّها يعبق بالبخر وبالعطور المتصاعدة من الصابون المطيّب ووسائل الاستحمام الأخرى فهي تعتبر أهم قاعة بالحمّام، حيث أن تسميتها تختلف هي الأخرى من منطقة إلى أخرى

(1) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 550.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 141.

فنجدها تسمى في تونس "الزقاق"، وفي القاهرة "الحرارة"، وفي دمشق "الجواني"، وفي فاس "الداخلي"، وهذه القاعة هي مكان الاستحمام الحقيقي، فيها مخادع أو خلوات أو مقصورات وتكون مجهزة بمقاعد حجرية أو مصاطب ومغاطس وأجران من حجر أو رخام، تعدّل فيها حرارة المياه التي تصل إليها من حنفيات مركزة فوقها يجري الماء البارد من بعضها إلى بعضها الآخر⁽¹⁾.

لقد جاء تخطيط هذه القاعة بشكل متشابه في كل من حمامات البركة وحمة والباي فقد اتخذت الشكل المربع الذي تتوسطه مربعة تُعرف بـ"السرة"، وسقفها من قبة مضلعة محمولة على أربعة عقود نصف دائرية تتركز على عمود متوج موضوع فوق السرة، كما نجد في هاتين القاعتين خلوات ودخلات غائرة في الجدران تشبه الأواوين، لكل منها خاصية تشتهر بها مثل "بيت العروسة" المخصصة للمرأة المتروجة حديثاً، وهي من التقاليد المحلية التي نجدها كذلك في حمام "الشيخ" بمدينة مليانة⁽²⁾، وكذلك منها ما هو مخصص للاغتسال.

أما القاعة الساخنة في حمام القرشالي فشكلها يختلف عن سابقتها، فهي مربعة الشكل تحتوي على رواقين مسقوفين بقبوين نصف دائريين، ويتوسطهما فضاء مغطى بقبة نصف كروية تقوم على حنايا ركنية.

والملاحظ أن كل القاعات الساخنة تميزت بميزات مشتركة منها احتوائها على أحواض للاستحمام وفتحات مزججة لتوفير الإضاءة ومصاطب حجرية للجلوس، وكذلك استخدام القبة في التسقيف، وهي ميزة عرفت كذلك في حمامات الجزائر خلال العهد العثماني منها حمامي "سيدنا" (القرن 10هـ/16م) و"الجيش" (القرن 11هـ/17م) بالجزائر العاصمة⁽³⁾، وكذلك في حمام "بن البجاوي" في قسنطينة⁽⁴⁾ وحمام "الشيخ" بمليانة (القرن 11هـ/17م)⁽⁵⁾.

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 141. يُنظر كذلك: - كيال منير: المرجع السابق، ص 151.

(2) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 99.

(3) - موساوي عريبة: المرجع السابق، ص 128 - 140.

(4) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 551.

(5) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 99.

وفيما يخص القسم الثاني فهو مخصص للخدمات التقنية والتشغيل، ويسمى في الشام الخزانة وفي تونس الفرناق ويضم الموقد والمرجل، المعروف بالحلّة في الشام والنحاسة في تونس، وفيه توجد خزانات المياه الباردة والحارة، وتتدفع منه لتتوزع داخل الحمام بواسطة سواقي أو أفنية فخارية أو رخامية أو رصاصية أو خشبية، وحسب دورها تجري المياه مكشوفة، أو تحت الأرض أو في الجدران. وتصل إلى الحمام من شبكة المدينة أو من بئر ترفع مياهها بآلات تديرها حيوانات الجر، وتتصرف المياه المستعملة بواسطة "بلاليع" ومجارير خاصة. (تُنظر الأشكال رقم 31-35-39-42)

ومن هذا القسم أيضا تتم تهوية الحمام، ويفصل بين القسمين جدار حاجز رقيق تتخلله فتحات تسمح بدخول البخار إلى قاعة الاستحمام، بينما نجد الجدران الأخرى سميكة جدا، لتساعد على حفظ الحرارة، ويتم تسخين الماء بوقد الزيل والحطب اللذان يخزان بمستودعات ملحقة. وقد أقيم مخزن هذه الحمامات على أرض أقل انخفاضا من مستوى الحمام، وذلك لتمكين الدخان والبخار من المرور تحت بلاط الحمام واستغلاله ليسهم في تدفئته⁽¹⁾. وهذا الوصف ينطبق تماما على حمامات معسكر إلا في بعض التفاصيل الصغير، وهو ما وقفنا عليه في حمام حمزة الذي من حسن حظنا أننا شاهدنا مكان الفرناق بكل مكوناته الأصلية وبالتفصيل قبل إزالته وتعويضه بآلات حديثة، لأننا زرناه وهو في حالة ترميم، وفيما يخص فرناق حمامات البركة والقرشالي والباي فقد أحدثت عليها تغييرات كثيرة إذ أنها زودت بآلات حديثة، ولكن من خلال الأوصاف التي قدمت لنا فإنهم جميعا متشابهين من حيث المكونات، وكذلك من حيث الموقع فكلهم متواجدون خارج الحمام في المستوى الأرضي، ويتكون أساسا من حجرة للفرنناق وحجرات أخرى مخصصة كمخازن للحطب.

كما تشترك هذه الحمامات من حيث وجود دهاليز أو ممرات أرضية متصلة بالفرنناق مبنية من مادة الآجر، وهي مخصصة لمرور الهواء الساخن لتسخين أرضية الحمام، وكذلك لمرور الدخان إلى المدخنة، فهي متوسطة الارتفاع ويتم تنظيفها سنويا من قبل صاحب الحمام من الرماد، (يُنظر الشكل رقم 37) ولعل ما يتصل بالفرنناق هو مخازن المياه، حيث

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 140.

نجد مخزن المياه في حمّام البركة بالقرب من الفرناق لكن جلب المياه متصل مع قنوات مياه المدينة، وعند نفاذها يتم جلبها بالشاحنات، أما حمّام القرشالي فهو يحتوي على بئر خاصة توجد بجانب الفرناق، يتم إيصال المياه إليه عن طريق مضخات حديثة، وبالنسبة لحمّام حمزة والباي فهما كذلك لا يحتويان على بئر، وهما يتزودان من قنوات مياه المدينة التي تخزن في صهاريج كبيرة موضوعة في القاعة الباردة.

الفصل الثاني: العناصر المعمارية:

1- المئذنة:

هي مكان الآذان، أو موضع مناداة المؤمنين خمس مرات في اليوم، إيذاناً بمواقيت الصلاة، وقد أطلقت عليها عدة تسميات منها ما ذكره البلاذري أنها كانت تسمى في العراق باسم المنارة، كما سميت في بلاد المغرب بالصومعة. ولم تكن في بادئ الأمر من العناصر المعمارية الأساسية في أماكن الصلاة العامة، حيث أنّ مسجد المدينة الذي هو نواة عمارة الجوامع والمساجد لم تبني له مئذنة، ويروى أنّ بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤذن على أطم (بناء مرتفع). فقد ينادى للصلاة على سطح الجامع أو فوق بناء مجاور، أو أمام باب المصلى⁽¹⁾.

لقد طال الجدل بين العلماء حول الأصل المعماري الذي اشتقت منه المئذنة، فذهب البعض إلى أنّ منار الإسكندرية (فاروس) هو النموذج الذي احتذته المآذن، على حين دحض البعض الآخر هذه النظرية وعلى رأسهم "كريبول"، الذي ارتأى أنّ المآذن الإسلامية نشأت في الشام في أثناء الخلافة الأموية، محاكية الأبراج المسيحية المربعة السائدة في سوريا من قبل الفتح الإسلامي، والمستمدّة بدورها من أبراج المعابد الوثنية المربعة، مدللاً على صحة رأيه بعبارة أوردها المقدسي تفيد أنّ مآذن سوريا كانت كلها مربعة⁽²⁾.

دخلت المئذنة متأخرة على بناء المسجد، ويُعتقد أنّ أولها تلك التي بناها بالحجارة في البصرة "زياد بن أبيه" عامل معاوية على العراق في سنة 45هـ/665م، تلا ذلك بناء أربع صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص في الفسطاط في سنة 53هـ/672م، بهمة من "مسلمة بن مخلد" عامل معاوية ويزيد ومعاوية الثاني على مصر، وأقام المنارات في معظم

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص332، يُنظر كذلك: مؤنس حسين: المرجع السابق، ص114.

(2) - عكاشة ثروت: المرجع السابق، ص128.

مساجد الفسطاط الأخرى. أما مآذن المسجد الأموي فمتأخرة عن هذين التاريخين وعن إقامة المسجد نفسه. ذلك أن الوليد أبقى على الأبراج الرومانية والمسيحية ورفع بعضها لتصبح في مستوى واحد⁽¹⁾.

تتكون المئذنة معماريا من مدخل وقاعدة وبدن وشرفة وجوسق وسلم داخلي أو خارجي، وهو ما ينطبق على مئذنتي الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بمعسكر، لكنهما مختلفتان من ناحية الشكل والمخطط، فمئذنة الجامع الكبير مربعة الشكل تقوم على قاعدة مربعة يعلوها بدن مكون من ثلاثة أقسام مفصولة بطنفين، فالقسم الأول بسيط يحتوي على فتحات صغيرة، ويليه القسم الثاني الذي زين في واجهاته الأربع بإطار عليه عقد مفصص أصم تتوسطه فتحات صغيرة، أما القسم الثالث فهو أكثر زخرفة إذ أنه زين بصفتين مختلفتين من العقود تتكرر في واجهاته الأربعة، فالصف الأول عبارة عن إطارين عليهما عقدين منكسرين متجاوزين من النوع الأصم، والصف الثاني هو عبارة عن ثلاثة عقود صماء مفصصة متوسطة الحجم، وينتهي البدن بأفاريز متدرجة، ثم تليه الشرفة وهي المكان المرتفع الذي يصل إليه الدرج، حيث نجد فيها فراغا يسمح بحركة المؤذن في الاتجاهات الأربع وتنتهي هذه المئذنة بالجوسق المثمن الأضلاع، المزود بقبيبة مضلعة عليها جامور يحمل هلال. (يُنظر الشكل رقم 09) و(تُنظر الصورتان رقم 21-37)

وفيما يخص التكوين الداخلي للمئذنة فنجد كلاهما تحتوي على مدخل مفتوح في بيت الصلاة يؤدي إلى الدرج الصاعد الذي يلتف حول نواة مركزية مربعة مفرغة أو ملئ، ينتهي عبر عدة دورات بذروة البرج الأول، وهي مزودة بفتحات تشعب المزازل للإضاءة والتهوية.

لقد اتخذ شكل المئذنة الشكل المربع أو الطراز المحلي رغم أنها بنيت خلال الفترة العثمانية، ويعود جذور هذا الطراز في بلاد المغرب إلى أول مئذنة مربعة بجامع القيروان ومنه انتشرت عبر كامل البلاد وتعدت إلى الأندلس، ومن أمثلتها نذكر مئذنة جامع صفاقس وقلعة بني حماد والمآذن الموحدية كمئذنة جامع الكتبية والمآذن الزيانية كمئذنة الجامع الكبير بتلمسان. كما استخدم هذا الطراز في كثير من المباني التي تعود إلى الفترة العثمانية ونجد

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 333، يُنظر كذلك: مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 114.

أشهرها وأكثرها رقة ورشاقة مؤذنة جامع "علي بننشين 1032هـ/1622م" وجامع "سفير 941هـ/1534م" وجامع سيدي عبد الرحمن "1108هـ/1696-1697م" والجامع الجديد "1070هـ/1660-1661م"⁽¹⁾.

أما مؤذنة جامع عين البيضاء فهي تنتمي إلى الطراز الوافد من تركيا، فقد بنيت بقاعدة مربعة يعلوها بدن مئمن الأضلاع نجد في أركانه ثلاثة كريات متراكبة تشبه التقافيح من الحجر الجيري، وينتهي بدنها بذروة على شكل طنّف يبرز عن جدارها يسمح باستدارة الفارغ العلوي الذي يلتف معه المؤذن في الدعوة إلى الصلاة، وقد زُود بدرابزين حجري لحمايته من السقوط وإعطائه حرية التحرك في كل الاتجاهات، وقد اتخذ الجوسق نفس شكل البدن وهو تعلوه قبببة مضلعة عليها جامور يحمل التقافيح الثلاثة والهلال. أما من الداخل فهي الأخرى يتم الدخول إليها عبر مدخل في بيت الصلاة، يتم الصعود على الذروة أو ممشى المؤذن عبر درج مبني من الآجر يلتف حول نواة مركزية تنتصب كتلة واحدة، وقد فتح في البدن والجوسق فتحات للإضاءة والتهوية وتخفيف الضغط العلوي، وهي واسعة من الداخل وضيقة من الخارج تظهر على شكل مستطيل. (يُنظر الشكل رقم 14) و(تُنظر الصورتان رقم 38-59)

وهذا النوع من المآذن لم يكن مألوفا في بلاد المغرب، وإنما هو من التأثير العثماني الذي حلّ بالبلاد بعد التحاقها بالدولة العثمانية. علما بأنه الطراز الأكثر ترددا في مصر وكثيرا من البلاد الشرقية، ولا يستبعد أن يكون هذا التأثير قدم من مصر قبل قدومه من تركيا نفسها، ونجد منه أمثلة كثيرة في الجزائر منها مؤذنة جامع القصبة البراني (1233هـ/1818م) ومؤذنة جامع القصبة الجواني (1234هـ/1818-1819م) ومؤذنة جامع سفير بالجزائر العاصمة ومؤذنة جامع الباشا في وهران (1207هـ/1792م) ومؤذنة جامع الأخضر بقسنطينة⁽²⁾.

والملاحظ أن هذا النوع من المآذن الوافدة من تركيا ذات البدن المئمن أو الأسطواني لا يرقى في حجمه وفي شكله ومظهره ولا في رشاقته وتوازنه وانسجامه للمآذن العثمانية في

(1) - لعرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص 532.

(2) - نفسه، يُنظر كذلك: - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 290 - 293. وكذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 567.

تركيا، كماذن "جامع بايزيد الثاني" في "أدرنة" وماذن جامع السلطان "سليمان" و "الشاه زاده" في اسطنبول. كما أن المعمار الذي قام بتخطيط جامعي معسكر احترام خصائص ومميزات كل طراز، فالطراز المحلي الذي مثله الجامع الكبير القائم فيه بيت الصلاة على البلاطات والأسايب والأعمدة والعقود وضع له المئذنة المربعة، أما الطراز الوافد المتمثل في جامع عين البيضاء القائم في بيت الصلاة على القبة المركزية والقببات فقد جعل له مئذنة مضلعة.

والمخطط المذكور لا يعني أنه احترام في كل الجوامع، إذ نجد في بعض النماذج أن المعمار الجزائري استخدم الطرازين معا في منشآته دون اعتبار للتخطيط المعماري للمسجد فالتخطيط ذي الطراز العثماني يجعل له مئذنة ذات طراز محلي مغربي، كجامع "علي بتشين" والجامع الجديد بالجزائر العاصمة، أو يبني مئذنة ذات طراز عثماني في تخطيط محلي تقليدي كمئذنة جامع "القصة البراني" بالعاصمة، أو مئذنة جامع الأخضر بقسنطينة.⁽¹⁾

2- المحراب:

جمع محاريب: صدر بيت أو قاعة أو مجلس أو مصلى، أرفع مواضعها وأكرمها ومنها سُمي محراب المسجد، ومحاريب بنو إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها، وفي ذلك قوله تعالى: "LA AĀĒĀ 306xb"⁽²⁾. ويرى بعض علماء اللغات السامية أن اللفظ حميري، أي من اللهجات العربية الجنوبية. وقد دخل إلى اليمن من الحبشة مع النصرانية في صورة Mikrab، وأصله الحبشي Mekurab بمعنى الكنيسة أو المعبد أو الحنية التي يوضع فيها تمثال القديس.

أما معماریا فهو عنصر من أهم العناصر الأساسية في العمارة المسجديّة، والمحاريب نوعان: مسطحة ومجوّفة. تميزت الأولى بالأضرحة، وظهرت كذلك في بعض المساجد رديفة للأساسي المجوف، وتأخذ المحاريب المسطحة غالبا شكل الحنية ولكن دهنا بالألوان أو رسما بالخزف أو حفرا في الحجر أو تنزيلا بالرخام أو نقشا على الخشب⁽³⁾.

(1) - لعرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني..." المرجع السابق، ص 533 - 534.

(2) - سورة مريم: الآية 11.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 351. يُنظر كذلك: - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 67.

الأرض وترتفع فوق القامة بقليل، وتتعدد أنواعها وأهمها أربعة:
الأول: مسقطه نصف دائري تعلوه قبة أو قبو طولي قليل العمق، والثاني مسقطه مستطيل
يغور في الجدار وتعلوه نصف قبة، والثالث مسقطه كالسابق ولكن لا قبة له ويكون أكثر
اتساعاً وارتفاعاً، والرابع تطور للثالث يتداخل فيه محرابان أو أكثر.

لقد اختلفت الروايات حول زمن ظهور المحراب الأول، غير أنها أجمعت على أنه
متأخرة عن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فأول الروايات ترى أنه ظهر أيام الخليفة أبي
بكر الصديق رضي الله عنه في سنة 11هـ/632م في المسجد النبوي بالمدينة، وثانيها ترى
بأنه ظهر في سنة 13هـ/634م أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المكان
الذي أقيم فيه المسجد الأقصى، وهناك يرجع ظهوره إلى زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي
الله عنه سنة 24هـ/644م أثناء زيادته في المسجد النبوي، كما يرى آخرون أنه يعود إلى أيام
عقبة بن نافع في العمارة الأولى للمسجد الجامع في القيروان عام 50هـ/670م، وكذلك إلى
أيام ولاية عمر بن عبد العزيز لدى إكمال بناء المسجد النبوي بالمدينة سنة 90هـ/708م
هذا بالإضافة إلى روايات أخرى وكلها لا تتعدى زمن الخلافة الأموية⁽¹⁾.

تميزت محاريب المنشآت الدينية بمدينة معسكر والمتمثلة في الجوامع والزوايا
بتشابهها واتخاذها شكلاً موحداً، إذ أنها عبارة عن تجويف مضلع وبارز عن جدار القبلة،
وهذا النوع من المحاريب عُرف قبل العهد العثماني، ويظهر ذلك في محراب جامع القيروان
وجامع قرطبة بالأندلس والجامع الكبير بتلمسان، كما نجد منه نماذج عديدة بالجزائر
العثمانية كمحراب الجامع الجديد وضريح سيدي عبد الرحمن، وكذلك جامع الباي بعنابة
وجامع الباشا بوهران وجامع سيدي الكتاني بقسنطينة⁽²⁾.

والملاحظ أن محرابي الجامعين زُينا بعمودين بتاجين مختلفين في الجانبين، كما جُعل في
الفتحة العلوية لكل المحاريب عقود مختلفة الأشكال سيأتي ذكرها لاحقاً يُنظر الشكلان
رقم 12 و 14) وتُنظر الصورتان رقم 27-46). أما زخرفة الحنية من الداخل اقتصر على
محراب جامع عين البيضاء، وهي عبارة عن زخارف جصية متنوعة وبجانبها كتابة تأسيسية

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 352-353. يُنظر كذلك: - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 69.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 205. وكذلك: - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 573.

للجامع تعلوها طاقيات مضلعة تم وصفها سابقا. ولم ينفرد هذا الجامع بهذه الزخرفة، إذ نجد بعض محاريب الجوامع السابقة لهذه الفترة وخلالها قد زخرفت بها أيضا، نذكر منها على سبيل المثال محراب الجامع الكبير الحمادي وجامع سيدي الكتاني ومدرسته وزاوية بن عبد الرحمن بقسنطينة، وكذلك الجامع الجديد بالجزائر العاصمة⁽¹⁾.

وقد غُطي البروز الخارجي لمحرابي الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بنصف قبيبية مضلعة متناسقة في شكلها مع المحراب، أما محراب زاوية أبي راس الناصري فقد غُطي بغطاء حديدي نصف دائري. (تُنظر الصور رقم 70/52/28)

3- المنافذ وعناصر التهوية والإضاءة:

3-1- المداخل وأطرها:

المدخل هو الفتحة القائمة في سور المدينة أو الحصن أو الخان أو في واجهة المسجد والقصر والبيت وغير ذلك⁽²⁾، وقد عرف هذا العنصر منذ القدم نظرا لأنه يعتبر المنفذ الرئيسي للدخول إلى المبنى وذلك بعدة أشكال، ففي مصر القديمة مثلا بني على شكل منحنى⁽³⁾، وفي المباني الإسلامية تميزت بالضخامة وارتفاع عقودها وأطرها⁽⁴⁾، كما أن المعمار المسلم حرص على أن المدخل الخارجي للمنازل لا يؤدي إلى الفناء مباشرة⁽⁵⁾ عكس ما كان في بعض العمائر القديمة، حيث كان الباب مفتوحا مباشرة نحو الداخل، لذلك جعل تخطيطه على شكل ممر منكسر، والذي عُرف في العمارة الإسلامية بالمدخل المنكسر، كما أطلقت عليه تسمية "الباشورة" في العراق.

وظهوره بهذه الطريقة راجع إلى سببين، أولها: وقاية وحماية من بداخل المنزل من الحریم من أعين المتطفلين والفضلاء والمارين الأجانب⁽⁶⁾، حيث إذا ما فتح الباب فإن الزائر

(1) - يُنظر كل من: دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 576.

- بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 206.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 218. يُنظر كذلك: - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(3) - خماس نجرة: المرجع السابق، ص 67.

(4) - نفسه: ص 357.

(5) - الباشا حسن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مج 1، ط 1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999، ص 218.

(6) - الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

يجد أمامه جداراً ومن ثم ينحرف يمينا أو يسارا حتى يدخل، وبذلك إذا فتح الباب لا يشاهد من الداخل، ولا تتكشف عورات المبنى بمختلف أنواعه سواء كانت مسكن أو حمام⁽¹⁾ وهذا ما يعطي نوعاً من الطمأنينة والاستقلالية للعائلة أو الزبائن⁽²⁾، كما أنه يحافظ على جو المبنى ونظافته من العوارض الجوية كالتيارات الهوائية المحملة بالغبار⁽³⁾، وثانيها: يرجع إلى الاستحكامات الحربية في أن دور المسلمين أشبه بالحصون والقلاع فالمدخل المنكسر يحد من قوة اندفاع أي عدو مهاجم وبذلك يحميها من الفتن والثورات التي تحصل في الداخل والخارج، فالداخل إلى الدار يستغرق وقتاً حتى يدخل إلى رحبة الدار⁽⁴⁾، وهذه التقاليد المعمارية استمرت مع التقاليد الإسلامية، والتي بدأت منذ العصور الأولى الإسلامية في منازل الفسطاط⁽⁵⁾ وفي دار الإمارة في الكوفة ودور سامراء⁽⁶⁾، ثم استمر مع العمارة المغربية في مساكن تيهرت الرستمية ومساكن مدينة أشير وقصور قلعة بني حمّاد وبجاية ومساكن تلمسان وندرومة، ثم مساكن مدينة الجزائر في العصر العثماني مثل منزل الداوي بابا حسن ومنزل الداوي حسين⁽⁷⁾.

ومن خلال دراستنا لمباني مدينة معسكر بمختلف أنواعها لاحظنا أنّ بعض مداخلها مزودة بممرات منكسرة، خاصة منها الحمامات كحمام القرشالي وحمزة وكذلك الدور كدار الباي ودار الميزابي، حيث جاءت مقاسات المداخل متفاوتة حسب كل مبنى، ففي دار الباي يظهر عبارة عن ممر يؤدي إلى رواق بانكسار واحد فقط، أما دار الميزابي فمدخلها يؤدي إلى ممر متصل بدرجين الأول يؤدي إلى الطابق الأرضي، والآخر صاعد إلى الطابق

(1) - الباشا حسن: موسوعة العمارة... المرجع السابق، ص 211، يُنظر كذلك: - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 435.

(2) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 68.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 108.

(4) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 68، يُنظر كذلك: - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 435.

(5) - الباشا حسن: موسوعة العمارة... المرجع السابق، ص 218، يُنظر كذلك:

- الريحاوي عبد القادر: البيت في المشرق العربي...، ص 19.

(6) - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 68. يُنظر كذلك: - محمد رفعت موسى: المرجع السابق، ص 108.

(7) - راجعي زكية: مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007، ص 159.

العلوي، أما الحمّات فمداخلها متصلة بممرات بانكسار واحد تؤدي إلى قاعة الانتظار (المحرس). (تُنظر الصور رقم 91-105-126-135-145-158)

وما يلاحظ على أغلب مداخل المباني المدنية في الجزائر عامة وجود مجموعة من الأطر، والتي تعتبر من العناصر المعمارية الزخرفية التي تظهر من الخارج ولعل سر ذلك هو الاستعداد لاستقبال الضيوف، وكذلك منع مياه الأمطار من الولوج إلى الداخل، وذلك ما يظهر في منشآت مدينة معسكر، فمدخل الجامع الكبير الأصلي زُيّن بإطار حجري تعلوه ظلّة خشبية عليها زخارف نباتية وهندسية ورمزية، كما تثبتت تحتها لوحة التأسيس، أما مدخل جامع عين البيضاء فهو الآخر يوجد به إطار من الحجر الجيري مزين بعقد مفصص وهلالين يعلوه إفريز مدرج.

كما نجد حمّام حمزة مزود بإطار لكنه غير مكتمل، حيث لم يبق منه إلا العقد وكذلك بصفة أقل في حمّام القرشالي بسبب تعرضه للتغيير، أما بالنسبة للدور فنجد منها دار الميزابي التي يظهر إطار مدخلها غير مكتمل، فقد زُيّن بعقد وتجميعات من المربعات الخزفية، كما نجد في دار الباي آثارا لإطار المدخل، ظهر خلال عملية الترميم.

ويتكون إطار الباب من مجموعة من الأقسام وهي كالآتي:

أ- **العتبة**: يطلق عليها اسم الأسكفة عند أهل الشام⁽¹⁾، ثم انتقلت لفظة أسكفة إلى الأتراك فيقولون أسقوفة، وهي القاعدة الأرضية التي يوطأ عليها، ويدور فيها صائر الباب⁽²⁾ والتي يرتكز عليها العمودان أو الدعامتان، لها شكل مستطيل مصنوعة من الرخام، حيث أنها تعتبر كموضع للقدم قبل الدخول، وتثبيتها في الأرض يعطي الباب مزيدا من القوة، ويمنع تسرب الماء، أو الغبار، أو الهواء، أو الحشرات، أو غير ذلك إلى داخل المبنى⁽³⁾، كما نجدها مرتبطة بعادات وتقاليد متنوعة منها ما هو متعلق بالأعراس.

ب- **الدعامتان**: وظيفتهما حمل عقد الباب، تتميزان بشكلهما المستطيل المزين بزخارف فنية قوامها زهرة محورة داخل مستطيل.

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 3، ص 172. يُنظر كلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 15.

(3) - نفسه: ص 51.

ج - الفقرة: وهي حلقة تقع في وسط العقد، مزينة بزهرة يتوسطها رمز نجده في أغلب الأحيان عبارة عن هلال رمز الدولة العثمانية.

د- البنائى: وهي عبارة عن قوسان متقابلان تصل بينهما الفقرة اللذان يكونان العقد وهما مزخرفان بزخارف هندسية ونباتية قوامها أزهار محورة موضوعة داخل شكل مستطيل.

هـ- الكتف أو المنكب: ويسمى ذلك في تونس بكوشة العقد، وهي عبارة عن جزء مكمل للبنائى يشبه المثلث مزين في وسطه بهلال أو نجمة سداسية⁽¹⁾. (ينظر الشكل 45)

وتصنع هذه الأجزاء من الرخام أو الحجر الكلسي، ويتم ذلك عن طريق تقديم طلبات إلى الجهات المعنية مثل إيطاليا لتصنع القطع المطلوبة بطريقة متفق عليها⁽²⁾، وقد شاع استعمال هذه الأطر في مختلف المباني الجزائرية خلال العهد العثماني، حيث نجدها في مداخل جامع صفر والجامع الجديد⁽³⁾ وقصر عزيزة ومنزل عبد اللطيف والرايس حميدو والداي باب حسن والداي حسين بالجزائر العاصمة⁽⁴⁾، وكذلك في جامع سيدي الكتاني وقصر أحمد باي بقسنطينة⁽⁵⁾، والملاحظ أن معظمها صنعت بطريقة متقنة ومزينة بمختلف الزخارف.

3-2- الأبواب:

يعتبر الباب عنصرا مهما في مختلف المنشآت المعمارية، فهو ما تسد به فتحة المدخل من خشب ونحوه، أو مما يغلق عليه من مصراع أو مصراعين أو أكثر⁽⁶⁾، وهي ضرورات المسكن، لأنها تحافظ على حرمة وتمنح سكانها الأمن⁽⁷⁾، وقد تكون هذه المصاريع بسيطة متواضعة من خشب عادي ساذج بغير زخارف، أو المزخرف والذي لا شك فيه أن المسلمين كانوا قد برعوا في عمل الأبواب الخشبية، وتفنونوا في تزيين كل جزء من أجزائها، حتى صارت هذه الأبواب تحفا فنية رائعة، كانت تحمل الحشوات الصغيرة

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص ص 122 - 123.

(2) - Marçais. G: L'architecture musulmane... op.cit, p449.

(3) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 349.

(4) - راجعي زكية: المرجع السابق، ص 159.

(5) - دحدوح عبدالقادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 601.

(6) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(7) - الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

المتبقية في عمل أشكال هندسية مختلفة⁽¹⁾، تجمع بعضها إلى بعض في توزيع فني رائع وهذه المباني المخصصة للدراسة تحتوي على مجموعة من الأبواب المختلفة باختلاف مرافقها، حيث أنها تميزت بالضخامة في المداخل الرئيسية والبساطة والصغر في الأقسام الداخلية، وهذا ما جعل طريقة بنائها مرتبطة بنوعية الوظيفة التي تؤدي داخل المبنى، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهي كالآتي:

أ - الأبواب الرئيسية:

هي عبارة عن مداخل كبيرة مزودة بأبواب تتميز بالضخامة والتركيب⁽²⁾ مؤطرة بأطر من الرخام، أو الحجر الكلسي، ونجدها في الواجهات الرئيسية للمباني كما هو الحال في هذه المنشآت المخصصة للدراسة، حيث أن الباب الرئيسي لجامع العين البيضاء يظهر كبير الحجم مازال محافظا على شكله الأصلي المتكون من مصراعين ومزين بأطر هندسية ومسامير نحاسية، وبالإضافة إلى ذلك نجد باب حمام القرشالي مازال على حالته الأصلية فهو يتكون من مصراعين مزخرفان بزخارف هندسية، أما أبواب المنشآت المتبقية فهي حديثة وتتكون من مصراعين ومنها بدون باب مثل حمام حمزة.

وعادة ما نجد هذه الأبواب تصنع من خشب الأرز المتين، والذي يدعم بمسامير من البرونز والنحاس، حيث أنها تتخذ أشكال هندسية تتمثل في الرؤوس المستديرة المحزوزة⁽³⁾ كما أنّ الأبواب في المباني العامة والرسمية والأبواب في المباني الخاصة بالحكام وعلية القوم وأبواب مساكن عامة الناس كل منها يختلف للاختلاف في الحجم والقدرة المادية، ويتم فتح هذه الأبواب نحو الداخل، كما أنها مؤطرة بإطار خشبي تكمن أهميته في تثبيت الباب ومنعه من الخروج عن إطاره نحو الخارج بواسطة مسامير كبيرة، ونجد أبواب الدور عادة تحتوي على فتحة مربعة في أعلى الباب، مؤطرة بإطار خشبي بارز مسيَّج بقضبان حديدية متقاطعة، تستعمل لإدخال النور والهواء، وتُمكن من بالداخل برؤية الطارق من الخارج وتكون مزودة بحلقة حديدية في الوسط تستعمل لطرق الباب.

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 150.

(3) - سبينسر ولیم: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر

1980، ص 98.

ب - أبواب الأقسام الداخلية:

تظهر كل هذه الأبواب متشابهة تقريبا في مظهرها وشكلها في كل مبنى، ففي دار الباي والمحكمة تعرضت كلها للتغيير أثناء عملية الترميم، لكن على نفس النمط الأصلي تتميز بالتشابه في كل من الطابق الأرضي والعلوي، وهي تتكون من مصراعين، وهي مصنوعة من حشوات خشبية بأشكال مستطيلة نفذت بطريقة عمودية وأفقية، الهدف منها إعطاء الباب أكثر قوة وصلابة وتحمّل (أنظر الصورة رقم 36). أما بالنسبة لأبواب المنشآت المتبقية فقد تعرضت للتغيير واستبدلت بأبواب حديثة دون مراعاة شكلها الأصلي.

وفيما يخص التركيب المعماري فيتكون الباب من العناصر التالية:

* الساكف:

هو عنصر يوازي العتبة بالجهة العليا من الباب⁽¹⁾، والذي يدور فيه الصائر والصائر أسفل طرف الباب الذي يدور أعلاه⁽²⁾، كما عرفها الإيطاليون كذلك فيطلقون عليها اسم «scuffa»⁽³⁾، وله مدلول في المعتقدات الجزائرية إذ يعتبر ملامسة العروسة له فألا سيئا، ويصنع الساكف من الخشب يحفر في أحد جانبيه ثقب يدخل فيه محور الباب لتسهيل عملية دوران المصراع وتثبيته.

* المصراع:

وهو ضلفتا الباب الذي يتكون منه، وهو إما يتكون من ضلفة واحدة، أو من ضلفتين، وذلك حسب موقع الباب والوظيفة التي يؤديها في المبنى، ويتكون المصراع بدوره من إطار وعوارض تتخللها حشوات مجمعة تصغر وتكبر وتزداد زخارفها أو تنقص تبعا لإمكانية صاحبها⁽⁴⁾.

* الخوخة:

هي الفتحة الصغيرة في الباب الكبير، إذ أنها تقطع من وسط كل مصراع في الأبواب الكبيرة والعريضة، ولقد كان السبب في تصميمها هو أن بوابات المباني كانت كبيرة

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 218، يُنظر كذلك:- رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 3، ص 172.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 16.

(4) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

ونظرا إلى أن فتح هذه البوابات بكاملها للاستخدام اليومي، لم يكن أمرا عمليا سهلا أو ميسورا، فقد لجأ الصنّاع إلى عمل خوخة في وسطها على هيئة باب صغير للاستعمال اليومي، دون حاجة إلى فتح الباب الكبير الذي لم يكن يفتح- في حالة القلاع والحصون- إلا للجنود عند خروجهم للقتال أو عودتهم منه، وفي حالة الأبنية الأخرى إلا للضرورة التي تقتضيه⁽¹⁾ وتستعمل الخوخة في الحالات العادية، حيث أن المصراعين لا يفتحان إلا للضرورة، كالمناسبات والأعراس، أو لإدخال متاع كبير إلى المبنى، كما أنها تبعث الطمأنينة والمحافظة على من في داخل البيت⁽²⁾.

* المزلاج:

يطلق عليه اسم "زلاج" أو "شجار" وكذلك اسم الضبّاب في مصر، وهو القفل الحديدي أو النحاسي أو الخشبي⁽³⁾، الذي يستخدم في غلق الباب ويفتح بدون مفتاح، وإذا كان الباب يفتح بمفتاح فإنه يسمى "مزلاق"، وعادة ما يكون في أغلب الأحيان من حديد "مبسط"، يثبت على الباب بواسطة قطع حديدية، ليستقر بعدها في فتحة حديدية أخرى في صندوق الباب أو في المصراع الثاني الثابت، ولا يفتح الباب إلا من الداخل، أو يحيط بربط بالمزلاج ويخرج من ثقب فيه، وبكفي أن يسحب من الخارج ليفتح الباب، ويسمى "سقاطة" أو "ساقوطة" أو "ضبة"⁽⁴⁾ الذي يتخذ كمقفل لغلّق الأبواب، ونجد مركزه في غالب الأحيان في وسط حافة الباب.

* **الحلقة:** هي ما تعلق على الباب ليقرّع بها، وتسمى أيضا مدق الباب أو مدقة، أو مطرقة⁽⁵⁾، كما أنها مأخوذة من الفارسية "زُرْفِين" ومعناها حلقة صغيرة تغلق في سلسلة ليدق بها على الباب⁽⁶⁾، وهي عبارة عن دائرة مفرغة تعلق بالجزء العلوي من الخارج ليقرّع بها الباب، ونجد بعضها عادية على عدة أشكال، كشكل يد متحركة تحمل كرة صغيرة يطرق بها على مسمار كبير الدائرة مثبت بالباب، وربما شابهت حدوة الفرس، وهناك حلقات تعد آية

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 99.

(2) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 68.

(3) - نفسه.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 376.

(5) - نفسه: ص 138.

(6) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 84.

في الصناعة المعدنية والنحاسية بشكل خاص، فقد تأتي مزينة بأنواع من زخارف يدخل الأرابيسك في تصويرها تتداخل خطوطها ويخرم سطحها، وكأنه منسوج من خيوط مطرزة حتى أن الجمالية كثيرا ما طغت على الوظيفة⁽¹⁾.

تعبّر هذه الحلقة عن أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى إذ أن المعمار المسلم جسدها إتباعا لقوله تعالى: «بِأَنَّهَا مِنْهَا»⁽²⁾. وبذلك فإنها وسيلة استئذان، فمن خلال هذه النصوص القرآنية يتبين لنا أن كشف عورات المسلمين والإطلاع عليها لا يجوز شرعا إلا بضوابط وشروط حددتها الشريعة الإسلامية، وقد جسد المعمار المسلم هذه النصوص وجعلها واقعا ملموسا، تجسده عناصر المنشآت السكنية وأقسامها الداخلية، عملا بتلك الأوامر والنواهي السابقة الذكر وأيضا الموروث الذي خلفه سلفنا الصالح نتاجا لعقيدة سليمة جسدت القاعدة الأصولية المعروفة " لا ضرر ولا ضرار"⁽³⁾. والملاحظ أن كل أبواب مباني مدينة معسكر العثمانية تفتقر لهذه الحلقات، وربما يعود ذلك إلى التغييرات التي أحدثت على أبوابها.

3-3- الألفية:

يطلق على الفناء عدة تسميات مختلفة باختلاف الأماكن واللهجات، فهو يعرف باسم الصحن والباحة وساحة⁽⁴⁾ ووسط الدار في العامية الجزائرية، وكذلك الباحة السماوية في سوريا⁽⁵⁾ والعري والعرين والحوش عند أهل مصر⁽⁶⁾، وهو الفراغ المكشوف أو المغطى المحدد بواسطة حوائط أو مباني⁽⁷⁾، إذ أنه يعتبر من بين العناصر القديمة التي عرفت في مختلف العصور السابقة للإسلام، بحيث لا يمكن تحديد جغرافيته أو بداية تاريخه، فهو

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص138.

(2) - سورة النور: الآيتان 27 - 28.

(3) - لعرج عبد العزيز: العمران الإسلامي... المرجع السابق، ص90.

(4) - ابن منظور: المصدر السابق، مج3، ص413. يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص240.

(5) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص68.

(6) - سامي محمد نوار: المرجع السابق، ص125.55، يُنظر كذلك: - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص185.

(7) - محمد حسين جودي: المرجع السابق، ص62.

المثال أو النموذج الأصلي الذي ظهر فيه المنزل القديم بصفة عامة⁽¹⁾، كما عرف في عمارة بلاد الرافدين في العصر السومري والأشوري، وفي عمارة مصر القديمة، كما أنه سمة من سمات المباني السكنية لحوض البحر الأبيض المتوسط منذ العصور القديمة اليونانية والرومانية، وكان يعرف بالمسقط ذي الفناء المحاط بأعمدة.

كان الفناء النواة التي تجمعت حولها عناصر المسكن اليوناني، كما وجد في الجزيرة العربية، وفي عهد الإسلام ظهر لأول مرة في منزل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجده في المدينة المنورة سنة 622هـ⁽²⁾.

ومهما يكن عن أصول الفناء فهو في الحقيقة قلب المبنى أو جوهره وضابط الإيقاع بالنسبة للمنزل، وكذلك الرئة الخاصة بأهله، وبذلك فهو يشكل الجزء الرئيسي له، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأجزاء الأخرى⁽³⁾، وله مكانة كبيرة في أسلوب السكن والحياة المعيشية، يفاجئ الداخل إليه بإحساس الانتقال من جو البساطة إلى جو غني بكل مظاهر الجمال والبهجة، لما يراه في الفناء وعناصره⁽⁴⁾، والحجرات التي تطل عليه من جميع جهاته بألوانها وزخارفها وحليتها حول الفتحات والأبواب⁽⁵⁾، وكذلك الواجهات المحيطة به من عناية فائقة معمارياً وفنياً، فالأرض مبلطة بالحجارة أو الرخام الملون⁽⁶⁾، وهذا يوحى إلى أن الإسلام اهتم بجوهر الأمور وليس بظواهرها⁽⁷⁾، وزيادة على ذلك له وظائف ومنافع عديدة وهي:

أ- **الناحية الصحية:** يمد الفناء أقسام البيت من حجراتها وغرفها وملاحقها النور والهواء وأشعة الشمس، ويلطف من برودة الجو شتاءً وحرارته صيفاً، فهو يتحول إلى خزان كبير للهواء البارد في ليالي الصيف⁽⁸⁾، ذلك أن الهواء يهبط إلى أدنى مستوى ليلاً، ثم ما يلبث أن

(1)- Marçais. G: Manuel d'art musulman, T2, Paris, 1926- 1927, p804.

(2)- محمد حسين جودي: المرجع السابق، ص62، يُنظر كذلك: - عفيف بهنسي: المرجع السابق، ص191.

(3)- يُنظر كل من: - محمد حسين جودي: المرجع السابق، ص63. - رفعت موسى محمد: المرجع السابق، ص222.

- خمّاش نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية، مطبعة رياض، دمشق 1401-1402هـ/1981-1982، ص3.

(4)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص628.

(5)- جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص62.

(6)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص628.

(7)- جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص62.

(8)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص629، يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق

ص240. - لرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص389. - Shaw : Op,cit, p 95.

يتسرب إلى الغرف فيلطف حرارتها، ويظل محصورا بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من الليل كأنه خزان للترطيب⁽¹⁾، كما أنه يقلل من نسبة الغبار ويبعد منافذ البناء عن الجو الخارجي⁽²⁾.

ب - الناحية الاجتماعية:

يعتبر الفناء النافذة التي يطل منها الإنسان على الكون اللانهائي تظله على الدوام قبة السماء بشمسها ونجومها وغيومها، ويحس فيه بالحرية المطلقة والهدوء والطمأنينة، كما أنه مكان التقاء أفراد الأسرة وتعاونهم، ومقر الجلسات الصباحية والمسائية واللقاءات الاجتماعية، وهو مكان نشاط كثيف لأهل البيت للجلسات والاجتماعات وإحياء الحفلات والسهرات ومناسبات أخرى⁽³⁾، كما أنه مجال واسع تقضي فيه النساء جل ساعتهم الطويلة في النسيج والطرز⁽⁴⁾، وبذلك نستنتج أن اهتمام المعمار المسلم كان ينصب على الواجهات الداخلية للمبنى أكثر من الواجهات الخارجية، لذلك طُور الفناء إلى أن تحول إلى حديقة فيحاء تفجرت فيها المياه، بحيث أصبح الحوش فردوسا أرضيا⁽⁵⁾.

ويكون الفناء في غالب الأحيان مركزيا مكشوبا ذو شكل مربع⁽⁶⁾، وأحيانا مستطيلا تتوزع عليه عناصر الدار المختلفة، وتتوسطه نافورة أو فسقية يجري إليها الماء ليلطف جو الدار، كما يزرع حولها لإعطاء مدخل الدار منظرا جميلا⁽⁷⁾، بالإضافة إلى أنه أستعمل كخزان لجمع مياه الأمطار النازلة من على سطح المنازل عبر الأفنية المكشوفة، حيث أنها تصل إليه بواسطة قنوات من الفخار توضع في صلب الجدران وتحت الأرض⁽⁸⁾، لذا اعتنى المعمار بتبليطه ببلاطات رخامية، أو بمربعات من الآجر أو الحجر الجيري⁽⁹⁾.

(1) - عكاشة ثروت: المرجع السابق، ص 85.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 240.

(3) - Golvin. L: **palais et demeures d'Alger à la période ottomane**, paris, 1988, p48.

- يُنظر كذلك: الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

(4) - Cotreau M.J: **Op.cit**, p 552.

(5) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 62.

(6) - Raymond. A: **Grand villes arabes à l'époque ottomane**, Paris 1985, p307.

(7) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 223.

(8) - Marçais. G: **L'architecture musulmane...Op.cit**, p442.

يُنظر كذلك: - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 124.

(9) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 188.

لقد جاءت أشكال أفنية المباني المخصصة للدراسة مختلفة الأشكال، ففي المساجد لم يبق منها إلا صحن جامع عين البيضاء، الذي طرأ عليه تغيير في بلاطات أرضيته والتي كانت من الحجارة المنحوتة، غير أنه مازال يحتفظ بالحوض المائي والنافورة التي تتوسطه أما صحن الجامع الكبير فقد تم إزالته وإدماجه في بيت الصلاة وفيما يخص الزوايا فصحن كلا الزاويتين مكشوفان وتخطيطهما غير منتظم وخاليان من النافورة، غير أن صحن زاوية سيدي بوسكرين أكبر حجما من صحن زاوية أبي راس الناصري. (تنظر الصورتان 60-62)

أما عن الدور، فنفاء دار الباي يظهر شكله غير منتظم بمقاسات مختلفة، وذلك يعود إلى التعديلات التي أدخلت عليه أثناء فترة الاحتلال، وكذلك عند الترميم، ولم تبق منه إلا عنصر النافورة على حالتها الأصلية، أما فناء دار الميزابي فمازال محافظا على طابعه الأصلي العام دون أن يطرأ عليه تغيير ما عدا تغيير النافورة، وفيما يخص فناء المحكمة فإنه تعرض كذلك إلى تغيير كبير، على إثر هدم الجناح الرابع وهو ما أثر على شكله العام. (تنظر الصور 98-62-107-115-116)

ورغم التغييرات التي طرأت على هذه الأفنية إلا أن المعمار كان يراعي الدقة في مقاسات تشكيل أضلاعها، وكذلك في توزيع العناصر المعمارية التي تحيط بها، حيث نلاحظ تساوي الأبعاد بين الأعمدة وبنائها في اتجاه مستقيم، والتي تحمل بدورها العقود بتنظيم محكم، مما أدى ذلك إلى توافق وتراكب مسقط الطابق الأرضي مع مسقط الطابق العلوي دون اختلال، وهي ميزة تميزت بها البيوت ذات الطوابق⁽¹⁾، كما قام البناء بهذه العملية من أجل المحافظة على التوازن لأجزاء المبنى، حتى لا تختل تلك الأجزاء المعمارية⁽²⁾، لأنها نقاط اتصال بين مختلف الأجنحة وأجزائها⁽³⁾.

(1)- Golvin. L: palais...Op.cit, p48.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور...المرجع السابق، ص62.

(3) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...المرجع السابق، ص389.

3-4- النوافذ والشمسيات:

أ - النوافذ:

هي عنصر معماري مهم لا يمكن الاستغناء عنه لأنه مصدر للتهوية والإضاءة⁽¹⁾ وكذلك للإشراف على الخارج، وقد اختلفت أشكالها وأحجامها حسب طبيعة ونوع المبنى وفي غالب الأحيان اتخذت الشكل المستطيل العمودي على الجدار، وهو ما نجده في المباني الدينية كالجامع الكبير الذي تميزت نوافذه بكونها كبيرة، فشكلها مستطيل من الخارج يظهر بسيطاً مزينة بعقد حدوي، ومن الداخل فتحت داخل فتحة دائرية في الجدار مزينة بعقد نصف دائري وتعلوها فتحة صغيرة، أما نوافذ جامع عين البيضاء فهي ذات شكل منفرد تماماً، حيث نجدها في المئذنة وبيت الصلاة ضيقة من الخارج واسعة من الداخل مزينة بمختلف العقود، وهي تشبه إلى حد كبير المزاعل في المنشآت العسكرية، ولعل السبب في بنائها بهذا الشكل هو تخفيف كمية الإضاءة ومنع دخول أشعة الشمس مباشرة، وكذلك الحد من رؤية المؤذن إلى عورات البيوت فوق المئذنة العالية مع مراعاة الإضاءة والتهوية، كما نجد نوافذ أخرى فتحت في أضلاع القبة المركزية وهي صغيرة الحجم ومزينة بعقد حدوي. أما عن نوافذ الزوايا فهي الأخرى تظهر مستطيلة الشكل مزينة بعقود نصف دائرية مفتوحة على الداخل والخارج. (تُنظر الصور 35-53-54-55)

بينما نجد النوافذ في المسكن الإسلامي واسعة تطل على الصحن الداخلي، وضيقة وقليلة في الواجهات الخارجية، وذلك لأغراض مناخية ودينية واجتماعية، فلا يجوز أن يتعرض داخل الدار لأنظار الفضوليين من خارجه⁽²⁾، لذلك تفتح من الخارج في أعالي البيوت حرصاً على حرمة الناس داخل بيوتهم⁽³⁾. كما جعلت عليها شبابيك حديدية لمنع أي تسلل أو سرقة أو اعتداء خارجي، والعكس بالنسبة في الداخل أين نجد معظمها وتكون واسعة وأحياناً مسيجة، وذلك ما أثار نوعاً من التساؤل: ما هو الهدف من ذلك؟ وحسب تقديراتنا أن تفسير ذلك يعود إلى عدة أسباب، منها صحية وأمنية في نفس الوقت، حيث أنّ

(1) - يحيى وزيري: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، ج3، القاهرة 1999 ص65، يُنظر كذلك:

- رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص270، - الزركلي حسن خليل: المرجع السابق، ص731.

(2) - وزيري يحيى: المرجع السابق، ج3، ص65.

(3) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص68.

الدار عادة ما يكون فيها عمال سواء كانوا رجالا أو نساءً، ومن ثمة فإن حريم الدار لا يضعون ثقتهم الكاملة فيهم، خوفا من أي سرقة أو عمل آخر قد يؤدي إلى خلق المشاكل بين أفراد العائلة، وبذلك هذا يتطلب غلق الأبواب والنوافذ بعد الخروج، وبذلك تفتقد الدار للتهوية وأشعة الشمس، مما قد يتسبب في ظهور الأمراض بمختلف أنواعها ولتفادي هذا الأمر قام البناء بوضع تسييجات من الحديد على النوافذ، من أجل حماية الدار من أي اعتداء قد يحدث من جهة، و تمكينها من التهوية والإضاءة من جهة أخرى.

وهذا الانفتاح على الداخل كانت له مبررات دون شك، وذلك لتعويض الانغلاق على الخارج الذي يظهر على الجدران من خلال ضيق الفتحات عليها⁽¹⁾، بالإضافة إلى دواعي صحية لأن المثل يقول: "الدار التي تدخلها الشمس لا يدخلها الطبيب".

لقد جاءت نوافذ هذه المباني مختلفة من مبنى لآخر في أشكالها وأحجامها، ففي دار الباي، نجدها مفتوحة بكثرة نحو الخارج وموزعة بين الطابق الأرضي والعلوي ، وذلك يعود إلى أن المبنى تعرض للتغيير وحول إلى مركز إداري أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وهي متشابهة كلها تقريبا في أشكالها ومقاساتها، وهي مسيجة بقضبان حديدية متقاطعة من الداخل والخارج، كما أن نوافذ المحكمة تظهر بنفس الشكل لتعرضها هي الأخرى للتغيير وهي مسيجة بقضبان حديدية متقاطعة كما أنها زينت بعقد إهليلجي، وهي تغلق بدفتين خشبيتين تتخللها قطع من الزجاج الملون بمختلف الألوان زادت من جمالها خاصة عند سطوع أشعة الشمس عليها. (تنظر الصورة رقم 122).

أما بالنسبة لنوافذ دار الميزابي فمازالت على حالتها الأصلية، فنجد عدد منها مفتوح على الخارج في الطابق العلوي، وهي عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يتوسطها عمود أسطواني متوج يعلوه عقدان حدويان يقسمها إلى قسمين، وضعت عليها شبكة مخرمة من الجص، الغرض منها صيانة حرمة الدار من أعين الناس في الخارج عند تطلع المرأة للخارج، وكذلك حماية الغرف من الغبار وكسر أشعة الشمس خاصة في فصل الصيف. (تنظر الصورتان 106-111)

(1) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 121.

وفيما يخص الحمامات فالغالب عليها أنها قليلة النوافذ بسبب المحافظة على الجو الداخلي، لكن ذلك لم يمنع من وجود بعضها في كل من حمام البركة والباي في القاعة الباردة وكذلك في غرف الطابق العلوي، والأمر ذاته في حمام حمزة التي فتحت في الطابق العلوي وهي كبيرة الحجم ومزينة بعقود حدوية. (تنظر الصورتان 156-157)

ب - الشمسيات:

هي نافذة صغيرة مؤلفة من لوح حجري أو رخامي أو جصي مفرغ بزخارف هندسية أو نباتية أو كتابية، وغالبا ما تملأ الفراغات بزجاج ملون⁽¹⁾، وأحيانا تترك فارغة، وبعضها يتكون من دفتين، أحدهما على الوجه الخارجي، والأخرى على الوجه الداخلي للحائط، وتكمن أهمية هذا العنصر المعماري في تخفيض نسبة تسرب الطاقة الحرارية إلى داخل الغرف، والحد من قوة الانبهار الضوئي الناتج عن الشمس، وذلك بواسطة التخاريم الجصية المدعمة بالزجاج الملون والمتعددة الأشكال، تعطي ضوءا مريحا للعين يضفي جوا خاصا من الراحة والهدوء، كما يمكن تحديد وظيفتها في حركة الهواء وتجديده⁽²⁾، واستعمل المسلمون ذلك لأول مرة في العصر الأموي لتخفيف شدة ضوء الشمس⁽³⁾، والملفت للانتباه هو أن الشمسيات الموجودة في العمائر المدنية الجزائرية موزعة بطريقة منظمة فوق العناصر المعمارية، عكس ما نجده في العمائر التونسية مثلا التي توضع بعدد الأفراد فقط أي واحدة فوق الباب والأخرى فوق النافذة⁽⁴⁾.

تحتوي المنشآت المخصصة للدراسة على نموذج واحد فقط من الشمسيات ويظهر ذلك في المحكمة، وقد كانت قبل عملية الترميم الثانية مغلقة وغير ظاهرة للعيان، لكن بعد تعرية الجدران ظهرت آثارها فوق باب الحجرة الثالثة في الطابق الأرضي، وتتميز هذه الشمسيات بشكلها المستطيل المتوج بعقد نصف دائري، ويتراوح ارتفاعها ما بين 0,20م و0,30م وعرضها ما بين 0,15م و0,20م، وتظهر كأنها مفرغة بمظهر بسيط من الخارج أما من الداخل فقد تعرضت التخريبات الجصية للتلف جراء التغييرات التي أحدثت على

(1) - زكي محمد حسن: *أطلس الفنون الإسلامية*، ج1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1981 ص 497، يُنظر كذلك:

- غالب عبد الرحيم: *المرجع السابق*، ص 234.

(2) - وزيري يحيى: *المرجع السابق*، ج4، ص 68.

(3) - جودي حسين محمد: *المرجع السابق*، ص 65.

(4) - Reveault. J: *Op. cit*, p95.

المحكمة ككل، والمتعارف عليه أنها تزين بزخارف جصية هندسية تتخلله قطع من الزجاج الملون، مثلما نجده في مباني مدينة الجزائر ومليانة⁽¹⁾. (تنظر الصورة 120)

3-5- الدعائم والحوامل:

أولاً - الدعائم والأعمدة:

أ - الدعامة:

هي عماد البيت الذي يقوم عليه⁽²⁾، وتكون كركيزة من خشب أو عمود حجري من قطعة واحدة أو مبني من عناصر بنائية مختلفة تدعم حائطا أو تحمل سقفا أو تحمل العقود الحاملة للسقوف مثل الأعمدة، وتكون أضخم من الأعمدة العادية قاعدتها مستطيلة أو مربعة وتقام الدعائم بشكل رئيسي لإسناد الجدران والسقوف وتقويتها، وتوزع لهذه الغاية في الأركان أو على بوائك أو تحت الأقواس والعقود وحيث يرى المعمار حكمة في وضعها⁽³⁾، وهناك ظاهرة يجب الإشارة إليها وهي الاستخدام المزدوج من أعمدة ودعامات في مبنى واحد، حيث أنه يعد قديما في العمارة الإسلامية، وربما جاء ذلك بسبب عدم توفر الأعمدة الرخامية وندرتها، وصعوبة الحصول عليها، وما تكلفه من جهد ومال في سبيل ذلك، مما كان يدعو المعمار إلى استعمال ما توفر منه واستكمال ما نقص ببناء الدعائم⁽⁴⁾.

لقد استعملت الدعائم بصفة قليلة في هذه المباني بالمقارنة مع الأعمدة، ونجد القسط الأكبر منها في حمّام القرشالي، حيث أنها استخدمت في رفع قبة القاعة الساخنة وكذلك في حمّام حمزة في نفس القاعة وهي كلها مدمجة مع الحائط، بالإضافة إلى ذلك استعملت في قاعة صلاة الجامع الكبير. (تنظر الصورتان 30-139).

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 273 - 274. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 132 - 133.

(2) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 108.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 189.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...، ص 557. يُنظر كذلك: - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل في العمارة

الإسلامية، دراسة نموذجية للمنشآت المدنية لمدينة مليانة في العهد العثماني"، مجلة آثار، العدد 8-2009، معهد الآثار جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص 216.

ب - الأعمدة:

هي ما تحامل النَّقْلُ عليها من فوق كالسقف يُعَمَدُ بالأساطين المنصوبة⁽¹⁾، أو ما يدعم به السقف أو الجدار⁽²⁾، فنقول عمد السقف: أقامه بعماد ودعمه وعمد الحائط دعمه وجعل له عماداً⁽³⁾، ولقد أخذ العمود تسميات عدة، فهو عمود في المشرق، وسارية في المغرب، وشمعة في لبنان، وللأعمدة دور كبير في حمل العقود والسقوف، حيث أنها تعتبر بمثابة الركيزة الأساسية التي تحمي المبنى من الانهيار، لذلك نجد استعمالها في المباني يعود إلى الفترة القديمة، حيث خصصت لها مراكز خاصة لصناعتها، وقد تطورت مع مرور الزمن والعصور اللاحقة، واستخدمت منها أنواعاً مختلفة، منها الأعمدة المربعة والمستديرة والمركبة وغيرها في العمارة المصرية القديمة، وكذلك اشتهرت بها العمارة الإغريقية حيث ابتكر العمود الدوري والآيوني والعمود الكورنثي الذي انتقل من العمارة الرومانية إلى العمارة البيزنطية، ثم أضاف الرومان إلى هذه الأعمدة المثلثية إليها نوعين آخرين، أولهما العمود التوسكاني الذي كان اشتقاقاً مبسطاً من العمود الدوري، وثانيها العمود المركب⁽⁴⁾.

أما في العصر الإسلامي فقد بدأ المسلمون باستخدام جذوع النخيل لحمل سقوف مساجدهم الأولى، مثلما حدث في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، وفي مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وغيرهما⁽⁵⁾، ثم أخذوا بعد ذلك في استخدام ما وجدوه من أعمدة الأبنية القديمة خاصة منها المهجورة، في البلاد التي فتحوها، ولاسيما الأبنية الإغريقية والرومانية والبيزنطية والقبطية⁽⁶⁾، فانفقوا بأعمدتها وتيجانها وقواعدها فيما شيدوه من عمائر⁽⁷⁾.

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، مج4، ص295.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص34.

(3) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص194.

(4) - وزيرى يحيى: المرجع السابق، ج2، ص49، يُنظر كذلك:- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص293.

- رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص194.

(5) - نفسه: ص203.

(6) - نفسه: ص194، يُنظر كذلك:- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص34.

(7) - حسن محمد زكي: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م ص152. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، صص211-212.

ولكن ما لبثوا أن استنفذوا ما وجدوه من الأعمدة في هذه العمائر القديمة واعتمد البناء على عموده الخاص به، بعد أن أتقنت الصناعة ونضج الفن واستقل، واستعملوا طرازهم الفني الجديد فابتكروا أول هذه الأشكال أعمدة أسطوانية البدن ذات تيجان قوسية أو رمانية نرى أمثلة منها في أطلال "قصر المعتصم" المعروف "بالجوسق الخاقاني"⁽¹⁾، وبعدها تنوعت أشكال الأعمدة الإسلامية ما بين الشكل الدائري والمثلث والمستطيل⁽²⁾، واستعملت لعدة أغراض منها ما ألصقت بالجدران للتدعيم حيناً وللزخرفة في أغلب الأحيان الأخرى خاصة عند استعمالها على جانبي الأبواب والمداخل⁽³⁾.

لم تكن الأعمدة الإسلامية كثيرة الارتفاع، ولم تتجاوز المترين إلا قليلاً، وكان يعوض عن هذا القصر برفع العقود فوقها، ثم يعلوا بعضها بعضاً أحياناً للحصول على العلو المطلوب للسقوف، ومن الناحية المعمارية للعمود يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية وهي: التاج وتعلوه القرمة وتعلوه هذه الحدارة، التي يستريح عليها كتف العقد ويرتكز التاج على البدن وهذا يتكئ على قاعدة دائرية تحملها حلقات، قد تخرج عن دائرة أسفل العمود، وعادة تحمل الدائرية وله أساس تحت مستوى بلاط الأرض تسمى وسادة⁽⁴⁾.

تحتوي مباني الجزائر العثمانية على نوعين من الأعمدة هي الأعمدة المصنوعة من الرخام، والأعمدة المصنوعة من الحجر الجيري أو الكلسي، فالنوع الأول مستورد من إيطاليا بحيث لم يكن للأتراك مثل هذا الإنتاج المتقن الصنع⁽⁵⁾.

أستعمل في هذه المباني المخصصة للدراسة أربعة أنواع من الأعمدة، وذلك حسب كل مبنى، منها ما هي مشتركة ومنها خاصة بكل مبنى، كما أنها تشترك في مادة الصنع بحيث أن كلها مصنوعة من الحجر الجيري، وسنذكر مميزاتها وخصائص كل نوع فيما يأتي:

(1) - كونل أرنست: المرجع السابق، ص 34، يُنظر كذلك: - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 207.

(2) - حسن محمد زكي: المرجع السابق، ص 153.

(3) - وزير يحيى: المرجع السابق، ج 2، ص 49.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 193. يُنظر كذلك: - عقاب محمد: المرجع السابق، ص 130.

(5) - Marçais. G: L'architecture musulmane...op.cit, p443.

يُنظر كذلك: قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 213.

1- العمود الأسطواني:

يعتبر هذا العمود الأكثر استعمالاً في المباني المخصصة للدراسة، حيث نجده مستعملاً بكثرة في الجامعين، وذلك في بيت الصلاة الجامع الكبير الذي وضعت فيه بشكل مزدوج وأحياناً ثلاثية ملتصقة ببعضها البعض، كما نجد منها عمودان في المحراب، ونفس الاستعمال كان في جامع عين البيضاء إذ أنها جعلت مزدوجة ورباعية، لكنها أقل حجماً من سابقتها والملاحظ أنها بدون قواعد ما عدا أعمدة المحرابين، وإضافة إلى ذلك فقد استعملت في قاعة التدريس في زاوية سيدي بوسكرين وهي الأخرى بدون قواعد. (تنظر الصور 31-32-45-64)

كما نجد استعمالها بكثرة في المنشآت المدنية، ويظهر ذلك في دار الباي في كلا الطابقين الأرضي والعلوي، حيث استخدمت في رفع عقود الأروقة، وهي متوسطة الارتفاع كما أنها بدون قواعد، ونفس الاستخدام كان في المحكمة في الطابق الأرضي، لكنها تظهر أكثر اتقاناً وجمالاً عن غيرها فهي تركز على قواعد دائرية بحجم يتناسب مع ارتفاعها بالإضافة إلى ذلك تم توظيف هذه الأعمدة في دار الميزابي، إذ أنها تظهر مرتكزة على قواعد مربعة في الطابق الأرضي وبدون قواعد في الطابق العلوي. وزيادة على ذلك نجدها مستعملة في الحمامات كحمام البركة والباي، ويظهر استخدامها في عدد منها في القاعة الباردة، كما نجد أيضاً عموداً اسطوانياً موضوعاً فوق السرة لرفع عقود قبة القاعة الساخنة وهو ما نجده أيضاً في نفس القاعة بحمام حمزة وكذلك في القاعة الباردة في حمام القرشالي.

(ينظر الشكل رقم 25) (تنظر الصور 93-107-108-115-128-137-151-161)

لقد وجدت الأعمدة الأسطوانية في العمارة المصرية القديمة، حيث تشاهد أمثلتها في معبد الملك "سي تي الأول"، ولها قواعد تبرز عن البدن في شكل مفرطح على الأرض لتؤدي وظيفتين، أولهما توزيع ثقل العمود على أساس المبنى⁽¹⁾، وثانيها منع تسرب الرطوبة إلى العمود نفسه، فلا يتآكل بمرور الزمن، ثم انتقلت هذه الأعمدة من العمارة المصرية القديمة إلى العمارة اليونانية والرومانية، وامتد استخدامها إلى العصر البيزنطي، ومنها إلى العمارة

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 208.

2- العمود المربع:

استعمل هذا النوع من الأعمدة بصفة قليلة في هذه المباني، حيث نجد منه نماذج في حمّام حمزة بالقاعة الباردة والطابق العلوي، وهي ذات شكل مربع وارتفاعها يمتد على غاية السقف. (تُنظر الصورة رقم 149). ومن ناحية الجذور التاريخية لهذا العمود فقد وجدت في العمارة المصرية القديمة منذ عصر الأسرة الرابعة وكانت أعمدة قوية غير مزخرفة، وذات أشكال ضخمة تهدف إلى التعبير - على ما يبدو - عن قوة هذه الأسرة وعظمتها، ثم استمر استخدامها بغير انقطاع في عمائر العصور القديمة اللاحقة، أما في العصر الإسلامي فلم يكن لهذا العمود دور يذكر لأنه لم يستخدم فيها بصفة العمود، وإنما أستخدم بصفة الدعامة⁽²⁾.

ثانيا - التيجان:

يعد التاج جزءا من أجزاء العمود، إذ أنه القطعة المكوّنة من مجموعة النتوءات والزخارف التي تعلو الأعمدة والدعامات والركائز⁽³⁾، فهو يستخدم للربط بين الحامل والمحمول، ومهما كان التاج بسيطا أو مركبا فهو يحتوي دائما في القسم العلوي على وجه مزخرف تعلوها الوسادة، وهذه الأخيرة تكون موضوعة فوق أو بداخل مسطح مربع أو مستطيل، كما تعطي عادة نتوءا أكبر من الأقسام التي توجد تحتها.

كما أنه يعتبر من بين العناصر المعمارية القديمة التي استخدمت في مختلف المباني، وقد استعمل المسلمون في الأبنية التي أقاموها في عهدهم الأول لحكمهم ما وجدوا من تيجان، سواء كانت متصلة بالأعمدة أو منفصلة عنها كما هي من غير تعديل وأدخلت في صميم البناء، ويتكامل عناصر الحضارة الجديدة أخذ شكل تاج العمود يبتعد شيئا فشيئا عن النماذج الجاهزة الأولى⁽⁴⁾، ولم يعد مقبولا الأسلوب الروماني أو البيزنطي أو الساساني

(1) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 177-407، يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 293.

- رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 209. و - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 214.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 207.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 97.

(4) - Marçais. G: Manuel d'art... op.cit, p2.

الزخرفة وحتى في المادة، فمنذ القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد⁽¹⁾ اتخذ العمود في العمارة الإسلامية تاجا خاصا إسلامي الانتماء، وراح يتطور ويتلون ويتنوع ضمن الخط العربي الجميل بأنواعه المختلفة، ولقد أعطى فن العمارة الإسلامية للتيجان أشكالا وزخارف متنوعة حيث ابتكر الصانع المسلم أنواعاً عديدة من التيجان⁽²⁾، اختلفت باختلاف المادة المصنوعة منها، أو البلد المقامة فيه، أو العهد الراعي لرفعها تلك الرعاية، وذلك الاهتمام وأصالة الحضارة أضافت إلى الفن الإنساني بشكل عام روائع جديدة تختلف اختلافاً بيئياً عن كل ما سبق، وإن بقي التاج البيزنطي مثلاً على صلات مع جذوره الأولى، فالتيجان الإسلامية المتأخرة، وحتى الكثير من المتقدم منها يعد ابتكاراً جديداً وإبداعاً إنسانياً وعطاءً حضارياً رائعاً⁽³⁾.

لقد توجت أعمدة مباني مدينة معسكر العثمانية المتبقية بثلاثة أنواع من التيجان المنحوتة من الحجر الجيري، والتي تميزت بالبساطة وعدم التكلف في معظمها، فقد استعمل النوع الأول من هذه التيجان بكثرة في دار الباي والمحكمة، رغم أنها فقدت الكثير من عناصرها الزخرفية ولم يبق منها إلا القليل، الذي مازال محافظاً على حالته الأصلية، وهذا بسبب عمليات الترميم غير السليمة، كما أن مادة الصنع غير صلبة تأثرت بالعوامل الطبيعية. وهي عبارة عن تاج قديم شكله ناقوسي يبلغ طوله 20سم، وبه أربعة فصوص محورة وبارزة، تستدير في نهايتها لتشكل ما يشبه القرون، وقد شغل الأوسط بمثلث بسيط في شكل برعم نباتي، كما يظهر هلال صغير كرمز للخلافة العثمانية، ومن خلاله يتبين مدى اهتمام الصانع بهذه القطعة المعمارية التي جسد عليها مظهر من مظاهر الفن وهذا النوع ميزة من مميزات العمارة الجزائرية، حيث أطلق عليه "جورج مارسي" اسم "التاج الجزائري"⁽⁴⁾.

(1) - كونل أرنست: المرجع السابق، ص25.

(2) - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص70. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 217.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 96- 97.

(4) - Dokali, R: *Les mosquées de la période turque à Alger*, S. N. E. D, Alger 1974, p43.

والذي أشتق بدوره من التاج العربي⁽¹⁾، والمشتق كذلك من التاج الكورنثي القديم. (ينظر الشكل رقم 43) و(تنظر الصور 92-93-117).

أما النوع الثاني فقد توج به عمودا محراب الجامع الكبير، يحتوي على زخارف بسيطة تتمثل في أوراق متراسة وبارزة الحواف تشبه القرون، موضوعة في صفين وتدور حول التاج، نقشت في جوانبه العلوية أوراق محورة، وهي تشبه إلى حد كبير التيجان ذات الطراز السعودي⁽²⁾. (تنظر الصورة رقم 27)

وعن النوع الثالث، فهو موجود في جامع العين البيضاء وحمّام حمزة، حيث أنه ينتمي إلى التيجان البسيطة، الذي يتكون من عدة طبقات متراكبة ومتدرجة، يبدو لنا من شكلها العام أنّ صانعها متأثر بالطراز الدوري. (تنظر الصورة رقم 45)

ثالثاً - العقود:

العقد هو ما عقد من البناء، والجمع أعقاد وعقود⁽³⁾، وهو البناء المقوس أي المعطوف الذي يعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر، ويشكل عدة فتحات في البناء أو يحيط بها⁽⁴⁾، ويرجح الباحثون أن العقد نشأ في بلاد ما بين النهرين، حيث ينذر الشجر ويعزُّ الحجر، وكانت مادته الأولى الطين والحجر، وإن فرضته الطبيعة فرضاً، فلا شك أنه أتاح الفرصة للتحرر من القيود التي تمليها قياسات الخشب وأوزان الحجارة، ووضع حداً لتحكمها باتساع المداخل والفتحات وارتفاعها، كما أن الأبنية الفرعونية واليونانية لم تعرف العقود وكان يكفي بوضع حجارة مستطيلة فوق الأعمدة المرتفعة لإقامة الفتحات البنائية، وكذلك كانت معظم البيوت العادية التي أقيمت في العصر الإسلامي، فساكف النافذة أو الباب كان جذع شجرة يحدد طوله وقدرته على الحمل، واتساع المداخل والمناور وحتى ارتفاع البناء وكان الباب أو النافذة يصغران عندما تستبدل الأشجار بالحجارة، نظراً لصعوبة رفع الكبيرة منها ومعالجتها وإن كان اللجوء إلى العقد ضرورة حيث لا يوجد إلاّ الطين، فهذا لا يعني أنه

(1)- Marçais. G: **Manuel d'art...** op.cit, p 431.

(2)- بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 227.

(3)- ابن منظور: المصدر السابق، مج 4، ص 289.

(4)- فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 334، يُنظر كذلك: - وزير يحيى: المرجع السابق، ج 2، ص 61.

لم يظهر حيث تكثر الغابات والصخور⁽¹⁾، إذ أنه انتقل بعد ذلك إلى الحضارة الرومانية والبيزنطية⁽²⁾.

لقد تبنت العمارة الإسلامية العقود لفتحاتها ولما رب أخرى، ولا سيما في الأماكن العامة والقصور، ولكنها لم تتوقف أمام العقد الكامل (نصف دائري)، إلا قليلا وطغى على الأبنية الدينية والمدنية العقد المنكسر في المشرق والعقد الحدوي في المغرب، كما ابتكر المسلمون أنواعا عديدة منها⁽³⁾، وكان كل إقليم من أقاليمها يفضل بعض العقود عن البعض الآخر⁽⁴⁾.

أما بالنسبة للوظيفة التي تقوم بها العقود بمختلف أشكالها وأوضاعها وأحجامها في المباني هي نقل الأحمال المؤثرة عليها إلى الحوائط أو الأعمدة والدعامات الحاملة لها⁽⁵⁾ كما أنها من الوسائل الهامة والأساسية في حفظ توازن المبنى، وتخفيف الضغط العلوي والثقل وتوزيعه بما يقوي المبنى ويزيد في مداه الزمني، غير أن تحقيق هذه الغاية يرجع بالدرجة الأولى إلى المواد المستعملة في بنائها وطريقة البناء نفسها، وكلما كانت المواد المستخدمة ثقيلة كلما كان الدفع العلوي أشد، وهو ما يقال بالنسبة للحجارة، أما الآجر والجص والخشب فهي المواد الأكثر خفة والأسهل استخدامًا، والأجمل مظهرًا بما يدخل عليها من أساليب النقش والزخرفة⁽⁶⁾، ويبني العقد عادة إما برفع الفقرات على صقالة خشبية تنزع بعد وضع المفتاح⁽⁷⁾، وتتنوع طريقة تنظيم الآجر في مداميك بناء العقود، ولكنها تعتمد جميعها على قالب خشبي يحدد خطوطه التحديدية القائمة أو المقوسة وتنقسم إلى جزئين تفصلهما قطعة مستعرضة، تمتد بين نقطتي منبت العقد على الجانبين، وإذا كان العقد منكسرا أو مدببا تزداد لوحة أخرى في منتصفه.

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 276.

(2) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 219.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 279، يُنظر كذلك:

- Violet. D: Dictionnaires d'architecture, article « arc », Bruxelles, Belgique, 1979, p24.

(4) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 150.

(5) - سامي محمد نوار: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص 126.

(6) - لخرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص 667.

(7) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 190.

أما تنظيم الصفوف نفسها فتبدأ من أسفل إلى أعلى بطريقة منتظمة، ثم بطريقة مائلة عندما تصل إلى مستوى بداية التقويس، لتتحول إلى الميل التدريجي والاستمرار في ذلك، حتى تصل إلى مفتاح العقد فيتترك فراغا مثلثا قاعدته مقوسة إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل في منتصف التقويسة، ويحدده تنظيم قطعتي آجر أو أكثر بطريقة شاقولية، وتتنظم على جانبيها في ذلك الفراغ بقية قطع الآجر بطريقة شبه شاقولية⁽¹⁾.

أما شكل العقد فيأتي من فتحة بطنه، وليس من واجهته المقابلة للنظر، لأنه عندما لا يوازي الخط المقوس للفتحة قد لا يتماشى مداميك الجدار، ويشكل معها سطحاً واحداً، أو يبرز عنها أو يغور فيها⁽²⁾. ويتكون العقد من الناحية المعمارية من:

1- **الجنزير:** وهو عبارة عن مجموعة الكتل المتركب منها العقد، وتسمى الكتلة الواحدة منها صفحة.

2- **مفتاح العقد:** وهي الصفحة العليا التي تتوسط الصنج إذا كانت مساوية لباقي صنج العقد شكلاً وحجماً.

3- **تاج العقد:** وهو الصنجة المتوسطة في العقد بشرط أن تكون بارزة لأعلى.

4- **خصر العقد:** وهي الصنجة الأولى من العقد عند بدء انحنائه.

5- **رجل العقد:** وهو الجزء الذي يرتكز عليه الخصر.

6- **التفخيخ:** وهو المستوي السفلي لمنحنى العقد.

7- **التتويج أو التجريد:** وهو المستوى العلوي لمنحنى العقد⁽³⁾.

8- **كوشة العقد:** هي المساحة المثلثة التي تتحصر بين قوس العقد وبين المربع المحيط من أعلاه، وبذلك يكون لكل عقد محاط بإطار مربع كوشتان مثلثتان على الجانبين، كانتا في غالب الأحيان تنقشان بالعديد من العناصر الزخرفية⁽⁴⁾. (يُنظر الشكل 45)

(1) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص 667. يُنظر كذلك: قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 220.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 276، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 190.

(3) - سامي محمد نوار: المرجع السابق، ص 126 - 127.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 329. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 143.

الهندسية وعدد مراكزها، وهذا ما وقفنا عليه في مباني مدينة معسكر العثمانية، التي تحتوي على خمسة أنواع من العقود وهي كالتالي: (تُنظَرُ الأشكال رقم 44)

أ- **العقد الحُدُوي:**

هو عقد مستدير يتجاوز محيطه نصف محيط الدائرة⁽¹⁾ ويزيد قطره على ارتفاعه، أو يرتفع مركزه عن رجليه فيتألف من قطاع دائرة أكبر من نصفها، وسمي بذلك نسبة إلى الحُدوة الحديدية التي تتركب في حافر الفرس لمنعه من التآكل، كما يسمى عقد "تعل الفرس"⁽²⁾، ويبدو أنه كان معروفا في العمارة البيزنطية، حيث عثر عليه في قصر "بيتي باس" في روما على تجويف صغير يشبه في شكله حدوة الفرس يرجع تاريخه إلى ما بين سنتي (100-155م)، غير أن استخدامه لم يكن شائعا في عمارة هذا العصر بشكل ثابت أو ملحوظ⁽³⁾. ولكن حسب آراء الباحثين أن أصوله المعمارية معروفة قبل الإسلام بمائتين وثلاث وستين سنة، أي عام 359م في معمارية مار يعقوب في تركيا⁽⁴⁾.

لقد ميز هذا النوع من العقود العمارة الإسلامية في الشام والمغرب والأندلس⁽⁵⁾، وأقدم مثال على ذلك موجود في المسجد الأموي بدمشق ويظهر ذلك في عقود البائكات المحيطة بالصحن والشبابيك التي تعلو تلك العقود⁽⁶⁾، كما يتضح أن هذا النوع من العقود لم ينتشر في العمارة العربية بالشرق الإسلامي مثلما انتشر بالمغرب والأندلس⁽⁷⁾، حيث يمكن القول بأنه هاجر إليه منذ العصر الإسلامي المبكر، وأصبح من أشهر مميزات العناصر المعمارية هناك⁽⁸⁾، خلال القرنين (2-3هـ/8-9م) عندما وُجد في جامع قرطبة بالأندلس

(1) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 201.

(2) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 150.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 194.

(4) - فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 336.

(5) - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 69.

(6) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 201، 203.

(7) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 150.

(8) - فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 203، يُنظر كذلك: - يحيى وزيري: المرجع السابق، ج 2، ص 49.

(169هـ/786م) ومسجد القيروان (221هـ/836م) وقصر الزهراء قرب قرطبة (325هـ/940م)⁽¹⁾.

لقد أستعمل هذا النوع من العقود بكثرة في الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، وذلك في عقود بوائك بيت الصلاة وكذلك في المحرابين وبعض النوافذ، كما نجده في عقود أبواب ونوافذ دار الميزابي، وفي مدخل حمام حمزة وعقود نوافذ الطابق العلوي. (يُنظر الشكل 45) (تُنظر الصور رقم 26-30-44-105-145)

ب - العقد نصف الدائري:

هو العقد الذي كان يرسم قوسه على هيئة نصف دائرة بغير تدبيب في قمته أو تطويل في أرجله أو أطرافه⁽²⁾، وقد أستعمل هذا النوع من العقود في مدخل حمام دار الباي وكذلك في بعض عقود أروقة المحكمة، وعقود القاعة الباردة والساخنة في حمام القرشالي. (تُنظر الصور رقم 104-115-116-137-139)

يعتبر هذا النوع من أقدم العقود السابقة للإسلام، وليس هناك اتفاق بين الدارسين عن أول من استعمله في العالم، ولا عن بداية ظهوره، إلا أن استعماله استمر لفترات طويلة سواء في التاريخ القديم أو في التاريخ الإسلامي⁽³⁾. وقد أستخدم في العمائر الرومانية والبيزنطية بشكل ملحوظ من دون زيادة أو نقصان لم يتجاوزها ولم يشرعوها⁽⁴⁾.

اختلف الباحثون في أصله الذي تضاربت الآراء حول ظهوره، فلقد تعامل به الرومان في عقودهم، وكذلك ورثه البيزنطيون من بعدهم مع نصف الدائرة من دون زيادة أو نقصان لم يتجاوزها أو يشرعوها، ومنها انتقل إلى العمارة الإسلامية⁽⁵⁾، وانتشر في كامل أقطارها وخاصة في الشام والمغرب والأندلس⁽⁶⁾، حيث يوجد أقدم مثال لذلك في أقدم أثر عربي

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 281، كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 194.

(2) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 221.

(3) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص 176. يُنظر كذلك: - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 173.

(4) - نفسه: ص 203.

(5) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 195.

(6) - فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 335.

إسلامي قائم في العالم هو قبة الصخرة^(*)، بالإضافة إلى قصر الحير الشرقي (110هـ/728م)، وفي قصر الأخيضر ببادية العراق الذي بناه عيسى بن موسى العباسي سنة (161هـ/777م). وكذلك في الجوسق الخاقاني في سامراء^(**)، إلا أن الدكتور رشيد بورويبة يرى أنه ظهر لأول مرة في الجامع الأموي بدمشق، وذلك لاعتباره أن عقود قبة الصخرة طفيفة الانكسار⁽¹⁾. وصفوة القول أن العقد نصف الدائري كان قد انتشر في جميع العصور والأقطار الإسلامية، كما كان منتشرا في العالم القديم والوسيط، وفي الشرق والغرب وإذا كان من الصعب تبعا لذلك معرفة أول عصر ابتكر فيه⁽²⁾.

ج- العقد المنكسر:

يتألف هذا العقد معماريا من قوسين يتقاطعان في رأسه، يقع مركز دائرتيهما في داخل العقد وعلى مستوى قاعدته، والملاحظ على هذه العقود أنها تختلف في كل مبنى وذلك في نسبة الانكسار ويعود ذلك إلى المكان الذي بني فيه العقد والوظيفة التي يؤديها، فنجد العقود الواقعة في الحنايا الركنية في الأروقة ذات انكسار حاد في كل مبني، مثلما نجده في المحكمة وعقود بعض نوافذ جامع عين البيضاء، أما العقد المنكسر المتجاوز فنجد استخدامه في عقود الأروقة ومثال ذلك أروقة طابقي دار الباي، وكذلك في بعض عقود أروقة المحكمة وفي محراب وقاعة التدريس زاوية سيدي بوسكرين ومدخل ضريحه. (يُنظر الشكل رقم 21) و(تُنظر الصور رقم 92-95-72).

(*) - قبة الصخرة: شيدها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة (72هـ/691م)، لحماية الصخرة التي عرج منها الرسول صلى الله عليه وسلم، لمزيد من المعلومات يُنظر: - نجرة خماش: المرجع السابق، ص 21.

- الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 203.

(**) - سامراء: اسمها الأصلي "سر من رأى"، وهي تقع إلى الشمال من بغداد على بعد 130 كلم تقريبا على الضفة اليمنى من نهر الدجلة، شيدها الخليفة المعتصم بالله سنة 221هـ / 736م ونقل إليها مقر الحكم من بغداد، لمزيد من المعلومات يُنظر: - سامح كمال الدين: العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص 84.

- خماش نجرة: المرجع السابق، ص 21.

(1) - Bouruiba. R: *Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo- islamique*, S.N.E.D ET O.P.U, Alger, 1986, p129.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 195.

أما عن جذوره التاريخية فيرجعه أكثر الدارسين إلى العمارة البيزنطية، على أساس أنه وجد في كنيسة "قصر ابن وردان" قرب حمص في سورية (560-564م)⁽¹⁾، كما أن هناك من يرجعه إلى الفترة الفارسية مدعين رأيهم بالعقد المنكسر الموجود في جدار الواجهة الخلفية لطاق كسرى (271-272م)⁽²⁾، ومنه من يرجعه إلى العمارة المصرية القديمة على أساس أن منه قبو في معبد الرمسوم بمدينة "طيبة"، يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثاني (1292-1225 ق.م)، ومهما يكن من أصل هذه النماذج السابقة على الإسلام، فإن هذا العقد لم يزهدهر إلا في العمارة الإسلامية دون غيرها، وقد وجدت أقدم أمثله في دمشق ولاسيما في المسجد الأموي على عهد الوليد بن عبد الملك (714/هـ796م).

ولم يكتف المعمار المسلم فيما يتعلق بهذا العقد المنكسر الذي يتكون من قوسين وإنما ابتكر منه ووصله بخطوط مستقيمة عند رجليه ورفع على الأعمدة، حتى استطاع بذلك أن يحصل على العقد المنكسر المتجاوز، مثلما حدث في مسجد صغير في دامغان جنوب بحر قزوين يرجع تاريخه إلى القرن (3/هـ9م)، ثم في مصر في العصر الفاطمي، ثم عرف في المغرب⁽³⁾، وخاصة في العمارة الجزائرية خلال العهود الطويلة من المرابطين إلى العثمانيين⁽⁴⁾.

د - العقد الإهليجي:

يعتبر هذا العقد من مميزات العمارة الجزائرية خلال العهد العثماني، حيث أطلق عليه عدة تسميات منها اسم العقد نصف إهليجي⁽⁵⁾، أو ما يسميه "جورج مارسى" بالعقد ذي مقبض القفة⁽⁶⁾، والذي اقترح بتسميته "العقد الجزائري"، حيث أنه عقد متجاوز مبتور نتج من تراكب عقد مزدوج⁽⁷⁾، ولقد اختلف الباحثون في أصوله المعمارية، ولكنه لم يعرف إلا في الجزائر التي انفردت به عن غيرها من البلدان الإسلامية، بل حتى عن المغرب الأقصى

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص279، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص202.

(2) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص159.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص279، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص202.

(4) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص224.

(5) - Bouruiba. R: **Apport de l'Algérie...**op.cit, p137.

(6) - Marçais. G: **L'architecture musulmane...**op.cit, p450.

(7) - Cotreau. J: **Op.cit**, p574.

وتونس والأندلس الذي لم يصل إلى عمائرهم⁽¹⁾. ويذكر الأستاذ جورج مارسى أنه يوجد في مباني شبه جزيرة البلقان المشيدة في القرن السابع عشر الميلادي⁽²⁾، ومهما كان الأمر فانه عقد جزائري ذو أصول تركية⁽³⁾. اقتصر استعمال هذا النوع من العقود على المحكمة فقط دون سواها من المباني الأخرى، حيث أنه استخدم في الخزائن الجدارية والنوافذ. (تُنظر الصورة رقم 122)

هـ- العقد المفصص:

فصص الشيء فصل بعضه عن بعض، أما تعريفه معماريا فهو العقد الذي يتألف من سلسلة عقود صغيرة وأقواس متتالية أو أنصاف دوائر صغيرة متتالية⁽⁴⁾، يسمى كل منها فصاً تلتف على بطن العقد وتتفخ مع فتحته، وهو عبارة عن عقد دائري ذي مركز واحد ينتهي رجلاه نهاية مستقيمة، وتنتهي أقواسه نصف دائرية. وقد عرف هذا النوع في العمارة الساسانية في طاق كسرى الذي ينسب إلى شابور الأول (272-274م)، ثم انتقل إلى العمارة الإسلامية المبكرة خلال القرنين (2-3هـ/8-9م)، ومن أمثله في الواجهة الخارجية لبوابة بغداد بمدينة الرقة (155هـ-772م)، كما وجدت له أمثلة أخرى في شبابيك الضلع الجنوبي لجامع سامراء الكبير (234-236هـ/848-850م)⁽⁵⁾، ويكون بثلاثة فصوص كما عرفته العمارة الشامية، وظهر لأول مرة في قصر الحير الغربي (169هـ/727م)⁽⁶⁾.

كما كان نصيب هذا العقد من التطور في عمارة المغرب والأندلس هائلا، فعدد المعمارين في هذه العمائر من أشكاله، وزادوا هذه الأشكال روعة وجمالا⁽⁷⁾، فقد عرفت العقد المفصص الذي يبدأ عدد فصوصه من الخمسة ليصل إلى الواحد والعشرين، حيث أصبح من مميزاتا بشكل خاص منذ عهد الحكم المستنصر بالله في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) في مباني كل من طليطلة وغرناطة⁽⁸⁾، كما عرف في

(1) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص140.

(2) - Marçais. G: *L'architecture musulmane...op.cit*, p450.

(3) - Cotreau. J: *Op.cit*, p574.

(4) - بهنسي عفيف: فنون...المرجع السابق، ص151.

(5) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص200.

(6) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص336.

(7) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص200.

(8) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص209.

جامع عمرو بن العاص (212هـ/827م)، وفي منبر جامع القيروان (221هـ/836م)، وفي جامع أحمد ابن طولون (266هـ/879م)، وغير ذلك من الأماكن⁽¹⁾.

لكن المستوى التقني المميز الذي يظهر بوضوح على شكل فصوص، وانتشاره الواسع في المغرب تجاوز كل أبعاد الاستعمال المشرقي لها، حيث كان الإقبال على استعماله عظيماً⁽²⁾، لاسيما في تلك التعديلات والزيادات التي قام بها "الحاكم المستنصر بالله" في مسجد قرطبة (350هـ/961م)⁽³⁾، وكذلك في الجامع الكبير بتلمسان وفي محراب الجامع الكبير بقسنطينة (530هـ/1136م)، ثم استخدم في الفترة العثمانية ويظهر ذلك في كل من محراب الجامع الأخضر ومدرسة سيدي الكتاني وزاوية بن عبد الرحمن⁽⁴⁾، وكثرة استعملاته جعلت المباني الأندلسية والمغربية تنفرد بها عن باقي العمائر الإسلامية في المشرق.

أما عن استعماله في مباني مدينة معسكر فاقصر على إطار المدخل الرئيسي لجامع العين البيضاء فقط، فالعقد يتكون من ثمانية عشر فصا، وقد أنجز بطريقة متموجة متقنة ومنظمة ومرتبة في نسق واحد. (يُنظر الشكل رقم 12)

و- العقد الأصم:

هو العقد المبهم أو الكاذب، أي الغائر غير النافذ⁽⁵⁾، وتكون حوافه بارزة عن سمت الحائط، وغالبا ما يكون نصف دائري الشكل⁽⁶⁾، فهو يأخذ شكل مدخل أو باب أو نافذة وظهور العقود الصماء على المساحات الواسعة يحقق من الرتابة ويُجَمَل البناء، ويردد خطوط النوافذ وزخارف الأبواب ويحافظ على الوحدة ويجمع بانسجام العناصر المعمارية المختلفة، وربما استعمل العقد المبهم الغائر كمشكاة أو خزانة أو رف لتأدية خدمات وظيفية

(1) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص337.

(2) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص151.

(3) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص226.

(4) - لعرج عبدالعزيز: المباني المرينية...، ج1، المرجع السابق، ص253. يُنظر كذلك:

- دحدوح عبدالقادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص626.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص285.

(6) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص191.

شتى، إلى جانب ما يؤديه من خدمات فنية وجمالية تدل على مهارات بنائيه⁽¹⁾، واستخدم في العمارة الإسلامية ليحدد مكان المحراب في كثير من مساجد إيران وأضرحة العراق وغيرهما من الأغراض المختلفة⁽²⁾.

استعمل هذا العقد في تزيين الواجهات الأربع لمئذنة الجامع الكبير، وهو على نوعين فالنوع الأول يقع في أسفل البدن وهو عقد مفصص كبير من يتكون من تسعة عشر فصاً وثلاثة عقود أخرى مفصصة تتكون من سبعة فصوص موضوعة في نهاية البدن، أما النوع الثاني فهو يظهر في وسط المئذنة وهو عبارة عن عقدين كبيرين منكسرين متجاوزين وبالإضافة إلى ذلك استعمل في منزل الميزابي في الطابق العلوي وهي عبارة عن أربعة عقود نصف دائرية صماء في كل رواق، كما نجد نماذج أخرى في ضريحي أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين، حيث نجد في جوانبها الأربعة أربعة عقود صماء منكسرة متجاوزة، أما وظيفته فهي جمالية وكذلك معمارية لرفع قبة الضريح. (تُنظر الصورة رقم 37).

3-6- العناصر الوظيفية:

أ- الخزائن الجدارية:

أطلقت هذه اللفظة على مكان حفظ الأشياء وتصنيعها⁽³⁾، لذلك أولى المعمار المسلم أهمية بالغة لهذا العنصر المعماري، فقام بإحداثه بكثرة المنشآت الدينية والمدنية خاصة في العثمانية، حيث أننا نلاحظ على البيت العثماني قلة الأثاث بالغرف، وذلك ما جعلها واسعة وشاغرة، لكن هذا لا يعني أن أصحابها لا يملكون المستلزمات الخاصة بهم، وبالبيت حيث أن المعمار قام بتخصيص أماكن أحدثها في سمك الجدران عبارة عن دخلات غائرة وضع فيها رفوف وزين أعاليها بعقود مختلفة وأحياناً تركها بسيطة، وذلك لتجنب الاكتظاظ والفوضى، التي قد تحدث عندما يضع حاجاته في الغرف من جهة، كما أنها لا تكلف كثيراً في بنائها⁽⁴⁾، وتبقى لمدة طويلة دون تلف⁽⁵⁾.

(1)- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 285.

(2)- رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 191. يُنظر كذلك: - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 227.

(3)- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 158.

(4)- Golvin. L: Palais et demeures...Op.cit, p 79.

(5)- وزير يحيى: المرجع السابق، ج 4، ص 53.

بما أن الخزائن الجدارية اشتهرت بها المباني العثمانية فهذا يعني حتما أن مباني مدينة معسكر لا تخلو منها، وقد وجدنا منها نماذج مختلفة الأشكال وبظهر ذلك في الجامع الكبير، حيث أن المعمار جمع بينها وبين النافذة في مكان واحد، وكذلك في دار الباي في الحجرة الخامسة وهي مزينة بعقد نصف دائري، والغرفة الثانية بالطابق الأول وهي مستطيلة الشكل، بالإضافة إلى خزنة أخرى مزينة بعقد نصف دائري في الغرفة الرابعة، وتحتوي المحكمة أيضا على نماذج منها وذلك في الحجرة الأولى والثانية في الطابق الأرضي، كما أنّ الحمامات لم تخلو منها إذ يحتوي حمام حمزة على ثلاثة خزائن في القاعة الأولى من الطابق العلوي (المرفد).

ب - السلالم:

إن المعنى اللغوي للسُّلم يتمثل في الدرجة أو المرقاة، وسُمي السلم سلماً لأنه يسلمك إلى حيث تريد، وسمي بهذا الاسم لأنه يؤدي إلى غيره⁽¹⁾، وهو مجموعة من الدرجات بين أدوار المبنى⁽²⁾، أي أنه الدرج الذي يصعد عليه، ودرجة السلم إذا كان لها جزء بارز عن موضع القدم في الصعود يسمى أنف الدرجة، وموضع وضع القدم يسمى نائمة، وارتفاع الدرج يسمى قائمة⁽³⁾، كما يطلق عليه تسمية مراهص⁽⁴⁾.

تعتبر السلالم ضرورة حتمية في المنشآت المعمارية، لذلك نجد معظم المباني المخصصة للدراسة تحتوي على هذا العنصر الهام، باعتبارها تتكون من طابقين وهو ما يستدعي وجودها، حيث اختلف عددها في كل مبنى. فنجد منها ما هي رئيسية وأخرى فرعية، كما أن طريقة بنائها مختلفة منها المبنية على شكل انكسارين، تستند فيه الدرجات على جدارين. وهذه الطريقة في البناء نجدها في المنشآت المدنية، ففي دار الباي التي كانت تحتوي على سلمين، يقع الأول في الركن الجنوبي الغربي حيث أنه مازال محافظا على بعض مميزاته الأصلية، والسلم الثاني كان موقعه في الحجرة الثانية، وقد أزيل خلال عملية

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، مج15، ص191.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص150.

(3) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص97.

(4) - نفسه: ص163.

الترميم الأولى، هذا بالإضافة إلى استحداث سلم ثالث في الجهة الغربية خلال حقبة الاحتلال.

وبالنسبة للمحكمة فإنها تحتوي على سلم واحد فقط مازال على حالته الأصلية، وهو يقع في وسط الجناح الغربي، تبلغ عدد درجاته ثمانية عشرة درجة مبنية من الحجر الجيري ودرجاتها مكسوة بمادة الخشب، كما كسيت جوانبه بمربعات خزفية حديثة على ارتفاع يبلغ المتر تقريبا، كما تحتوي دار الميزابي على سلم رئيسي نصل إليه بعد اجتياز المدخل الرئيسي وهو كذلك يتكون من عدة درجات كما كسيت جوانبه بمربعات خزفية. (تنظر الصورة رقم 123)

ومن المنشآت الأخرى المحتوية على السلم نجد الحمامات، ويظهر ذلك في حمام البركة الذي يوجد به سلم رئيسي يقع في الركن الجنوبي الغربي من القاعة الباردة، والملاحظ أنه بني بشكل مستقيم يؤدي مباشرة إلى الطابق العلوي، بالإضافة إلى حمام حمزة الذي يحتوي على أربعة سلالم، فالسلم الأول يتكون من ثلاثة درجات مرتبط بممر المدخل الرئيسي، وهو يؤدي إلى ممر متصل بسلم الثاني يوجد في الجهة الشمالية، وكذلك سلمين آخرين، فالأول صاعد إلى الطابق الأرضي، والثاني يؤدي إلى الفناء، وكل هذه السلالم تستند على الجدار في طريقة بنائها. وفيما يخص حمام القرشالي فقد احتوى على سلمين فالأول يتم الوصول إليه من القاعة الباردة من الجهة الشرقية عبر مدخل يؤدي ممر وهو سلم خشبي يؤدي إلى السطح، أما السلم الثاني فيوجد في قسم الفناء نصل عبره إلى الخزانات المائية والمخازن.

وبالنسبة للطريقة الثانية فهي السلالم الدائرية أو اللولبية، ونجدها عادة في المآذن مثلما يتضح ذلك في مؤذنتي الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، ومن مميزات ما تكون ضيقة نوعا ما وتكون فيها عدة مصاطب للاستراحة، نظرا لارتفاع المؤذنة مما يتطلب ذلك بناء درجات كثيرة، ومن ناحية سقف السلالم فعادة ما تكون من الأقبية المتقاطعة مثلما هو موجود في أسقف المباني المذكورة.

وعلى ضوء ما تم عرضه عن السلم، يتبين لنا أن هذا العنصر المعماري يعد من عناصر البناء الداخلية المهمة، التي كان يوليها المعمار أهمية كبيرة منذ القدم، وذلك لأنها وسيلة للربط بين مختلف أجزاء المبنى، أي أنها بمثابة حلقة وصل بين الطوابق، فقد عرف

في العمائر الرومانية باستثناء المسارح والمدرجات، وكانت السلالم ضيقة نوعا ما، تستعمل ذات المنحدرات المستقيمة وأخرى لولبية⁽¹⁾، وهي تبني عموما بشكل الانكسار أو الانعطاف مصنوعة من مادة الحجر أو الخشب⁽²⁾، وتبلىط بالأواح من الرخام أو ببلاطات خزفية مزينة بأنواع الزخارف الفنية، وذلك لقطع ودرء الملل الذي قد يحس به الصاعد⁽³⁾. (يُنظر الشكل رقم 46).

اعتاد المعمار المسلم أن يجعل السلالم الداخلية في أماكن خاصة بها عرفت ببيير السلم، وكانت هذه السلالم عبارة عن مجموعة من القلبات (الدرجات)، تختلف أعدادها تبعاً لاختلاف الارتفاع المطلوب الصعود إليه، وتنتهي كل منها ببسطة، وكانت القلبة الأولى تستند إلى الأرض مباشرة من ناحية، وعلى الحائط المقابل لها من ناحية أخرى، بينما تستند القلبة الثانية على القلبة الأولى وهكذا، كذلك كانت هذه الحوائط الخارجية لهذه السلالم دور في تماسك الدرجات، أما طريقة عملها فكانت تتم غالبا من خلال عقد حجري تُصب عليه طبقة خرسانية، يشكل سطحها العلوي على هيئة درجات حجرية نائمة وأخرى قائمة، إلا أن تركيب السلم بهذه الطريقة خارجا عن الحوائط كان يؤدي كثيرا إلى عدم بقائه لفترة طويلة، كما أن انهيار درجة منه يؤدي بالضرورة إلى انهيار باقي الدرجات لارتكاز كل درجة فيه على التي قبلها، وكانت تدعم هذه السلالم بذراعين خشبيين يساعد على الصعود⁽⁴⁾. (يُنظر الشكلان رقم 47-48).

ج- الدرايزين:

لفظ فارسي لكلمة لاتينية « Balustrade » وهي كلمة دخيلة أصلها فارسي وتعريبها "جلفق"، ويطلق عليها اسم دريز في الجزائر، وهو عبارة عن قائم يعلوها متكأ⁽⁵⁾، أو هو كل ما تم بناؤه من حديد أو خشب أو غيرها من المواد في جوانب السلالم أو حواف

(1) - Cotreau. M.J: *la maison mauresque...op.cit*, p584.

(2) - كيال منير: المرجع السابق، ص152.

(3) - حماد محمد: *السلالم في المباني*، ط3، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1997، ص60.

يُنظر كذلك: - مرزوق محمد عبد العزيز: *الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس*، دار الثقافة بيروت لبنان، ص72.

(4) - حماد محمد: *المرجع السابق*، ص 24، يُنظر كذلك: - نوار سامي محمد: *المرجع السابق*، ص150.

(5) - غالب عبد الرحيم: *المرجع السابق*، ص184. يُنظر كذلك:

- Cotreau. M.J: *la maison mauresque...op.cit*, p584.

الأروقة في الطوابق العليا، المشرفة على الصحن أو السطح كشرفة هوائية تقي جسم الإنسان من السقوط، ولقد اتخذه اليونان في أبنيتهم من الحجر وغيرها ماعدا الخشب، فكان ثقل على الطابق السفلي⁽¹⁾، فاستبدل بالخشب وصنع منه بدقة غير متناهية تطل على الأفنية الداخلية للبيوت، وذلك لما تمتاز به من خفة والسهولة في زخرفتها بأشكال مخزومة من العناصر النباتية والهندسية وغيرها.

ومن خلال وقوفنا على درابزينات منشآت مدينة معسكر وجدناها موجودة فقط في المنشآت المدنية، وكلها تعرضت للتغيير دون معرفة أسباب ذلك، ففي دار الباي لا نجدها تماما بسبب إدماج أروقة الطابق العلوي مع الغرف فسدت بالبناء وكذلك بألواح خشبية فتحت في وسطها نوافذ، ونفس الأمر بالنسبة للمحكمة والتي استبدلت درابزيناتها ببناء جدار على ارتفاع المتر لوضع غطاء زجاجي فوق الفناء لمنع دخول مياه الأمطار، وبأقي المنشآت المتمثلة في دار الميزابي وحمّام حمزة فقد صنعت الدرابزينات من مادة الحديد، والمتعارف عليه أن مميزات درابزينات المنشآت العثمانية أنها تتألف من ثلاث طبقات أفقية، تتمثل في المسند الناتئ في الجزء العلوي والنعل في القاعدة، وفي الوسط شريط من إطارين أفقيين وعموديين، والذي يحدد مساحة مربعة وأخرى مستطيلة، وبهذا شكل أطرا مفرغة، في حين تتصل الطبقات الثلاثة المذكورة بقضبان معزولة⁽²⁾.

3-7- عناصر التسقيف:

تعدد التسقيف في عمارة المباني الإسلامية، حيث أنه تتوع تبعا لشكلها ومادتها البنائية المتاحة من خشب وحجر أو آجر أو قصب وحسب البيئة ومؤثراتها وخاصة الأمطار⁽³⁾، وقد سُقفت هذه المباني بثلاثة أنواع وهي: التسقيف بالأقباء والتسقيف بواسطة القباب والتسقيف الخشبي، وهذا تفصيل لخصائص ومميزات كل نوع:

(1)- Cotreau. M.J: la maison mauresque...op.cit, p584.

(2)- قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص159.

(3)- نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص96. يُنظر كذلك: - وزير ي يحيى: المرجع السابق، ج4، ص33.

أ - التسقيف بالأقبية:

القبو: هو طاق معقود بعضه إلى بعض⁽¹⁾، أو سلسلة من عقود طولية متتالية، وهو ذو أشكال مختلفة تم استخدامه في تغطية كثير من الأجزاء البنائية في العمارة الدينية والمدنية والعسكرية، ولاسيما في الإيوانان والأروقة والحجرات والممرات والمداخل نحو ذلك، مما شاع استخدام هذه الأقباء فيه بسبب عدم تعرض سطوحها المنحنية لأشعة الشمس خلال ساعات النهار خلافا لما يحدث بالنسبة للسطح الأفقي، وبالتالي يقلل الضغط الحراري على الفراغات الداخلية فيها⁽²⁾. قام المعمار بتطوير هذا العنصر المعماري وابتكر منه نوعين هما الأقبية المتقاطعة والأقبية النصف أسطوانية.

أ-1- الأقبية المتقاطعة: استعمل هذا النوع في تسقيف الفراغات الركنية لبيت صلاة جامع العين البيضاء، وكذلك في حمّام دار الباي، وتكمن أهمية هذا النوع في تحمله لثقل المبنى، بتوزيعه على جوانب الجدران، ومنه حماية البناء من التصدع⁽³⁾، وهي نفس العملية التي يقوم بها العقد ومن ذلك فإن العقد ما هو في واقع الأمر إلاّ قبو دفعٍ موضعي⁽⁴⁾. (تُنظر الصورة 104)

أ-2- الأقبية النصف أسطوانية: نجد هذا النوع الأكثر استعمالا في هذه المباني إذ سقفت به معظم حجرات دار الباي في الطابق الأرضي (من الحجرة الأولى إلى الخامسة)، وكذلك غطيت به القاعة الدافئة ومخزن الفحم بحمّام البركة، بالإضافة إلى استخدامها في تسقيف قاعة الانتظار "المحرس" في حمّام القرشالي وهي عبارة عن أقبية طولية، وأيضا القاعة الباردة والدافئة ورواقين في القاعة الساخنة. (تُنظر الصور 100-134-143)

عُرف التسقيف بالقبو نصف الأسطواني أو ما يسمى بالأقبية الطولية منذ عصور موغلة في القدم، فقد وجد منها مثال في "الرمسيوم" في مدينة طيبة الفرعونية وينسب إلى عصر رمسيس الثاني أي ما بين سنتي (1292 و 1225 ق.م)، ثم انتقل إلى الفارسيين

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص310.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص232. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص160.

(3) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص81.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني الميرية... المرجع السابق، ج2، ص599.

والرومان والبيزنطيين⁽¹⁾، وكان يشيد في هذه الفترات باللبن. والواقع أن السقوف الخارجية للأقبية لم تكن دائما مقبية أو مقببة، بل كانت تعمل في بعض الأحيان ولاسيما في العصر الروماني بسطوح مستوية، من خلال ملئ الفراغات الموجودة فيها بطبقة شبه خرسانية ويغلب على الظن أن الأقبية التي عرفتها عمائر العصور القديمة كانت مظهرا من مظاهر التطور التي حدثت في عمل الأكوخ الأسطوانية لعصور ما قبل التاريخ، ومن أقدم أمثلتها الباقية، قبو قناة فخارية في خرسباد يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وأروعها طاق كسرى الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الميلادي⁽²⁾، ومن هذه العمائر القديمة انتقل إلى العمارة الإسلامية المبكرة من العهد الأموي، وظهر في تغطية قصور بادية الأردن⁽³⁾ في كل من قصر عمرة، وحمام الصرخ الذي شيد من الحجر المنحوت وفي قصر المشتى وقصر الطوبة، وقصر الأخيضر العباسي الذي شيد من قوالب الطوب واللبن⁽⁴⁾.

ب - التسقيف بواسطة القباب:

القبة هي بناء دائري المسقط مقعر من الداخل مقبب من الخارج. تتألف القبة من دوران قوس على محور عمودي، لتصبح نصف كرة تقريبا، يأخذ مقطعها شكل قوس على محور عمودين ليصبح نصف كرة تقريبا، وتقام مباشرة على فوق مسطح أو ترتفع على رقبة مضلعة أو دائرية أو على حنايا ركنية أو مثلثات ركنية أو مقرنصات لتسهيل الانتقال من المربع إلى المثلث ثم إلى الدائرة، وقد تكون القبة كبيرة أو صغيرة أو ببيضاوية أو نصف كروية أو بصلية أو مخروطية أو مضلعة، وفي هذا أو ذاك معلم معماري تميزت به أغلب الأبنية الدينية عند المسلمين وغيرهم، وكانت تبنى فوق الهياكل الوثنية والمعابد اليهودية والكنائس المسيحية والأضرحة الإسلامية⁽⁵⁾.

(1) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص198، يُنظر كذلك:

- Adam. J.P: **La construction romaine, matériaux et techniques**, 3^{ème} édition, A et T, Picard, paris, 1995, p191.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص232.

(3) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص164، 166.

(4) - نفسه: ص199.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص309، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص222.

وهي تعتبر من العناصر المعمارية التي عرفت منذ القدم، وذلك في العراق وفارس بسبب عدم تواجد الأحجار الكبيرة من جهة وضرورة ارتفاع السقوف لتخفيف وطأة الجو الحار فيها من جهة أخرى، ثم انتقلت فكرتها إلى الطراز الروماني الذي عرفها بعد أن ورث الرومان الإمبراطورية الإغريقية في الشرق ثم البيزنطيين⁽¹⁾، ويغلب على الظن أن المسلمين كانوا قد نقلوا بناء القباب عن الساسانيين والبيزنطيين والأقباط⁽²⁾، وأقبلوا على استخدامها بشكل خاص لتغطية ما شيده من مباني، وكانت القباب التي عرفت العمارة الإسلامية ذات أنواع وأشكال مختلفة تم ذكرها سابقاً⁽³⁾، ولعل أبعدها تلك الموجودة في مصر وسوريا. أما في المغرب فقد كانت القباب معظمها نصف كروية تقريباً، ولم تكن فيها زخارف خارجية إلا نادراً.

تؤدي القبة دوراً هاماً في المباني لما لها من وظائف متنوعة، إذ نجد استعمالها بكثرة في التسقيف، وذلك لأنها أكثر تماسكا من السقوف المستوية، ولها أهمية دينية، حيث تضيف على البناء قدسية وتعطيه نوعاً من الشموخ والعظمة، فالتقعر الحاصل في سقف القبة من الداخل يقود الإنسان إلى تأمل قلما يجده في الأبنية المسطحة، أو القائمة على سلسلة من الأعمدة، ووجود الفراغ في القبة أدى هو الآخر إلى تخفيف الثقل، كما أنها تقلل من الضغط الحراري على الفراغات الداخلية، وبالتالي التقليل من سطوع الشمس على السطح صيفاً وشتاءً⁽⁴⁾، وإعطاء الغرفة أكثر اتساعاً من الداخل، كما أن شكلها النصف كروي يجعل مياه الأمطار تنزل بطريقة انسيابية تحمي السقف من تأثيراتها، وكذلك الرغبة في الحصول على عدد من التكوينات المعمارية بقصد قطع الملل عن الناظرين، وشد أنظارهم إلى ما هو متعدد الجوانب، ومختلف التكوينات المعمارية⁽⁵⁾. ونظراً لأهميتها المعمارية والجمالية لاحظنا من خلال دراسة مباني مدينة معسكر العثمانية كثرة استعمال هذا العنصر المعماري.

(1) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 166.

(2) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 227.

(3) - عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص ص 223 - 224.

(4) - الجمعة أحمد قاسم: "العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى"، مجلة نصف سنوية لجامعة

حلب، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1402هـ/1982م، ص 47.

(5) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص 186.

كانت هناك طريقتان لبناء القباب بالطوب، حيث يتم في أولاهما وضع الطوب المربع في صفوف أفقية على جوانب مركز القبة صفاً فوق آخر حتى تتلاقى في قمته وكان يتم في جوانبها وضع الطوب المربع رأساً بدلاً من وضعه أفقياً لكي يتكون القبو أو القبة من سلسلة من الحلقات أو الشرائح ذات وصلات تشع من المركز، توضع كل طوبة فيها مقابل الطوبة السابقة عليها، ويتم لصقها بمونة طفلية غروية لدرجة تكفي لأن تبقى في مكانها حتى تكتمل الحلقة وتقل ومقابلة ومطابقة للحلقة التالية قد تم عمله، ولكي تنقص المسافة في عملية الوصول إلى مركز القبة كان ضرورياً وضع ثلاثة أو أربعة مداميك من الطوب المشار إليه بشكل أفقي في البروز، يعلق كل مدامك منها فوق المدامك القائم تحته⁽¹⁾. كما نجدها مزودة بفتحات مغلقة بالزجاج للإضاءة، كما عمد المعمار إلى إحداث نوع من الانحناء البسيط عليها نحو الخارج، بغية منع تسرب مياه الأمطار والثلوج داخل القبة⁽²⁾. وتتنوع القباب حسب طريقة بنائها فمنها المبنية بنمط الرقبة والأخرى بدون رقبة فالنمط الأول نجد منه نموذج واحد وهو القبة المركزية بجامع العين البيضاء، واتخذت هذه الرقبة الشكل المضلع المثلثن يتطابق تماماً مع شكل القبة، كما فتحت فيها نوافذ صغيرة معقودة بعقد حدوي عليها زجاج، ومن الداخل فهي تظهر بسيطة بدون زخرفة، عكس ما نجده في بعض الجوامع التي تميزت بجمال زخرفتها الجصية كقبة محراب جامع سوق الغزل وقباب جامع سيدي الكتاني⁽³⁾. أما النمط الثاني وهو الشائع في مباني المدينة وتميزت به باقي القباب، حيث نجد بدن القبة يرتكز مباشرة على القاعدة بعد انتهاء الحنايا الركنية وتحول المربع إلى المثلثن، وهي ظاهرة ليست مقتصرة على قباب هذه المباني فقط، وإنما نجد هذا النمط أيضاً في جامع الباشا بوهران والجامع الجديد بالجزائر العاصمة والجامع الأخضر وزاوية سيدي عبد المؤمن بمدينة قسنطينة⁽⁴⁾.

أما فيما يخص شكل القبة فقد أحصينا نوعين نحن بصدد ذكرهما:

(1) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 222.

(2) - الجمعة أحمد قاسم: المرجع السابق، ص 47-48.

(3) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 637.

(4) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 263، يُنظر كذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 637.

ب-1- القباب المضلعة: نجد منها نماذج كثيرة في مباني المدينة منها قبة المحراب، وقببية المئذنة بالجامع الكبير، والقباب الخمسة التي يحتوي عليها جامع عين البيضاء، بالإضافة إلى قبة أضرحة أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وسيدي موفق، وكذلك قبة القاعة الساخنة في حمامي البركة وحمزة. (تُنظر الصور 29-51-73-77-85)

ب-2- القبة النصف كروية: يوجد منها نموذج واحد فقط في القاعة الساخنة في حمام القرشالي. (تُنظر الصورة 140)

وتنقسم القباب تبعا لمناطق انتقالها إلى عدة أقسام، وذلك ما نحن بصدد ذكره من خلال قباب المباني المدروسة. فالقسم الأول هو عبارة عن شكل كروي مثلث مقلوب في قمته المتجهة نحو الأسفل وقاعدته نحو الأعلى، والهدف من ذلك هو تحول شكل المربع إلى شكل دائري، ونجد هذا النوع في قبة القاعة الساخنة بحمام القرشالي، كما نجد منها نماذج في جوامع الجزائر كالجامع الجديد وقبتي الجامع الأخضر بقسنطينة⁽¹⁾، ويرجع الفضل في ابتكار هذا النوع إلى العرب الشاميين في بلادهم منذ القرن الرابع ميلادي، إذ استعملوها للانتقال بالمساحات المربعة إلى مناطق مستديرة تتركز عليها الحافات السفلى للقباب⁽²⁾.

أما القسم الثاني المتعلق بالحنايا الركنية فنجد منها نموذج واحد يوجد في الجامع الكبير، وزخرفت أركان القبة بشكل يشبه ورقة بفصين، وهذه ظاهرة جديدة لم نعهدها في من قبل، إذ أن المتعارف عليه هو ظهورها بدون زخرفة أو تزخرف بالمحارات مثلما نجده في قباب جامع الباشا في وهران وجامع كتشاوة وصفر بالجزائر العاصمة وكذلك في بعض جوامع قسنطينة مثلما يظهر في قببية المحراب بالجامع الكبير الحمادي وقباب جامع سوق الغزل وجامع سيدي الكتاني وكذلك الجامع الأخضر⁽³⁾.

وفيما يخص القسم الثالث فيتمثل في مثلثات ركنية بسيطة، ونجد استعمال هذه هو الشائع في هذه المباني، يتقدمها قبة المحراب في جامع العين البيضاء، فالملاحظ عليها عدم

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 262، يُنظر كذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 634.

(2) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 139.

(3) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 262، يُنظر كذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 636.

وجود مرحلة انتقالية بين المربع والمثمن بل وضع هذا الأخير مباشرة على المربع، بينما زينت المثلاث الناتجة عن ذلك بأربع نجوم مئمنة، كما استخدم في باقي قباب هذا الجامع وكذلك في قبة ضريحي أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وحمّام البركة، كما نجده له عدة نماذج في مدينة قسنطينة زاويتي بن عبد الرحمن وسيدي عبد المؤمن وحمّام سوق الغزل⁽¹⁾ وكذلك في قبة القاعة الساخنة بحمّام دار الباي بمدينة مليانة⁽²⁾.

ج- التسقيف الخشبي:

لقد كان استعمل هذا النوع من التسقيف قليلا، حيث أنه اقتصر على بيت الصلاة في الجامع الكبير والذي وضع على شكل جمالوني وغطي من الخارج بالقرميد لحمايته من مياه الأمطار والثلوج وأشعة الشمس التي تؤثر في هذه المادة، لكن مواد التسقيف المستعملة حاليا حديثة وضعت بنفس الطريقة الأصلية. كما نجده أيضا في سقف الحجرة السادسة لدار الباي ومكان وجود الحمّام، بالإضافة إلى سقف الحجرة الأولى والثانية في المحكمة، والملاحظ أن الألواح الخشبية المستعملة في هذين المبنىين مغيرة حديثا، حيث تم ذلك أثناء عملية الترميم الأولى، أما العوارض فإنها أصلية وهي عبارة عن أعمدة طبيعية مهذبة موضوعة بطريقة عرضية. وقد تمت عملية بنائه بطريقة التقاطع، وذلك بتركيب ألواح خشبية وضعت بطريقة أفقية طولية، بحيث ربطت هذه الأجزاء الخشبية بواسطة غراء يصنع محليا⁽³⁾، تحملها عوارض خشبية عرضية تثبتت في جوانب الجدران. (تُنظر الصور 36-101-121)

أما عن نوعية الخشب المستعملة في التسقيف فهو من خشب العرعار الذي يتميز بالصلابة وقوة التحمل والبقاء لمدة زمنية طويلة دون أن يتلف.

عُرف التسقيف الخشبي خلال العصور القديمة خاصة عند الإغريق والرومان، حيث يتوفر الخشب بكثرة في إيطاليا والأقطار الشرقية، والجدير بالذكر أن ظاهرة تغطية المباني بالأخشاب نادرة الشيوخ في العمارة العربية المبكرة في العصر الإسلامي حيث أول ما أستعمل في تسقيف المباني الإسلامية هو جريد النخيل، ثم بعد ذلك عمل سقفه من

(1) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 634.

(2) - قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص 98.

(3) - خلاصي علي: قصبة الجزائر وقصر الداوي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه السلك الثالث، جامعة الجزائر، 1985م

الفصل الثالث: مواد البناء وتقنياتها:

1- مواد البناء:

أ- **الحجارة:** تعتبر من المواد الأكثر استعمالاً في البناء، وهي على أنواع كثيرة استغل بعضها للبناء كالبازلتي والجيري والكذآن (نوع من الحجر وسط الطوب والآجر) والحلان (الحجر الجيري الأسمر). كما يختلف اسم الحجر باختلاف مادته، فطريقة قطعه تعطيه أسماء أخرى فهو غشيم ودبش إذا كان غير معالج، وهو منقوش أو منحوت أو منجد حسب مهارة صنعه⁽¹⁾. وقد سار المسلمون على نهج من سبقوهم في الحضارات القديمة من حيث استعمال هذه المادة وذلك في بناء الجدران حيث تيسر لهم، وأقاموا به الأسوار والدعائم على اختلاف أنواعها. كما استعمل لتبليط الأرض ورفع العقود والقباب ومدّ مجاري المياه الداخلية والسواقي وتعمير قواعد الجدران الترابية وتثبيت أصول الدعائم الخشبية، وقد جعل دبشا مع الطين في أساسات الأسوار. ولعل أهل الشام كانوا من أبرع من أتقن التعامل مع هذه المادة المعمارية المهمة⁽²⁾. ولم يقتصر استعمال الحجارة على الأعمال البنائية فقط بل استخدم مخزماً للنوافذ والزخارف، وكتبت عليه التواريخ والأسماء، وندرته في بعض البلاد لم تمنع إطلاقاً من أن تقام به فيها الأبنية الفخمة والقصور والمساجد.

استعملت الحجارة بكثرة في بناء منشآت مدينة معسكر بمختلف أنواعها، وهذا لعدة اعتبارات منها كثرة هذه المادة في المنطقة وسهولة الحصول عليها، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك هي دار الباي والمحكمة وحمّام حمزة، وقد تسنى لنا معرفة استعمالاتها من خلال مشاهدتنا وتتبّعنا لأطوار عمليات الترميم الشاملة لهم، فقد استعملت الحجارة الجيرية الكلسية غير المشذبة بكثرة في أساس الجدران وفي رفعها، وكذلك في صنع بعض العناصر المعماري كأعمدة والتيجان، كما وجدنا استعمالاً محدوداً للحجارة المنحوتة ويظهر ذلك عند مدخل السلم المؤدي إلى الطابق العلوي للمحكمة، كما استخدمت في تبليط صحن جامع عين البيضاء والتي أزيلت في الفترة المعاصرة.

ب- **الرخام:** هو نوع من الحجارة أبيض أو ملّون أو مجزّع، ناعم وهش⁽³⁾، يتشكل من الحجر الكلسي الصلب، ويتكون من بلورات الكلسيت أو الدولوميت، التي تنشأ من عمليات التحول الطبيعية الشديدة تحت ضغوط كبيرة في طبقات الأرض السفلية، ويختلف لونه تبعاً لاختلاف

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص126.

(2) - نفسه: ص126، يُنظر كذلك:

- Adam. J. P: Op.cit, p23.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص199.

ما يتخلله من الشوائب، التي تضيف إليه كثيرا من الجمال عند صقل سطحه إذ يصبح ناعما، لكن في غالب الأحيان يكون ناصع البياض، وبذلك فهو يتكون من نوعين: البسيط الذي يتخذ لونا موحدا، وذو الأوعية الذي تختلف فيه الألوان وتكثر فيه الخطوط غير المنتظمة⁽¹⁾.

ويتميز الرخام بدقة جزيئاته وصلابته، حيث أنه مقاوم للضغط الكبير الناتج عن الثقل والذي يقدر بحوالي 300 كلغ/سم²، كما أنه مقاوم أيضا للظواهر الطبيعية مثل الأمطار والتلوج والحرارة، الأمر الذي جعل منه مادة من المواد الأساسية التي تستعمل في المباني المعمارية بعدة أشكال مختلفة، منها كأطر للأبواب وفي الأعمدة والتيجان وفي تغطية الجدران وكنافورة للماء⁽²⁾، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "...وربما عولي على الحيطان بقطع الرخام ..."، وكذلك في قوله " ...بعد أن توضع قصاع^(*) الرخام القوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصهريج..."⁽³⁾.

أما عن طريقة استخدامه في البناء، فقد كانت تتم التغطية الرخامية عن طريق صقل الألواح وتجهيزها لكي تلتصق على الجدران والأرضيات، وذلك وفق أسلوبين، الأول يطلق عليه اسم "الوزرات الرخامية" التي تُعمل وتزين بطرق مختلفة مثل الحفر والتلبيس، وإن كانت غالبا ما تعتمد على ألوانها فقط، وذلك بثنيتها متجاورة، إما في أوضاع أفقية أو رأسية، والثاني يطلق عليه اسم "الرخام الخردة"، ويتم عن طريق تجميع قطع صغيرة منتظمة من الرخام وفقا للتكوينات الزخرفية المراد إحداثها، ثم تلتصق بعد ذلك في أماكنها⁽⁴⁾.

لقد استعملت هذه المادة بصفة قليلة في مباني مدينة معسكر، واقتصر ذلك على حمام القرشالي في مقعدين بالقاعة الساخنة، وسبب ذلك يعود إلى غلائها لكونها كانت تستورد في أغلب الحالات من البلدان الخارجية كإيطاليا، الأمر الذي دفعهم إلى تعويضها بالحجر الجيري، وقلّة مراكز صناعتها بالجزائر رغم توفر المادة الخام.

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 169.

(2) - Docali. R: Op,cit, p59.

(*) - القصاع يقصد بها النافورات.

(3) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر... المصدر السابق، مج 1، ص 435.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 102.

لقد عُرف الرخام في الحضارات القديمة خاصة منها الإغريقية والرومانية والبيزنطية ثم عرفت العمارة الإسلامية حتى في الأبنية الأولى. فقد استعمله بن الزبير لأزر الكعبة وأرضها، ومنه كانت أعمدة مسجد بني أمية في دمشق ومنبره وكسوات محاريبه وعضائه كما أستعمل في بلاد المغرب والأندلس ويظهر ذلك في محراب جامع القيروان الذي جدده زيادة الله بن الأغلب، وكذلك سقف قصر الزهراء قرب قرطبة⁽¹⁾. كما صنعت منه الأعمدة والتيجان وأطر الأبواب والمنابر والأحواض المائية والسلسبيلات والنوافير في الجزائر العثمانية، كما هو موجود في جوامع الجزائر العاصمة كالجامع الجديد وجامع صفر وكذلك بجامع سيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباشا بوهران⁽²⁾.

ج- الآجر:

هو طين مطبوخ، واحده أجْرُه، أصله من لفظ فارسي معرب⁽³⁾، وهو من أهم المواد التي استعملت في البناء، ومازالت في كل البلاد الإسلامية وخاصة في الأماكن التي يُعزَّر فيها الحجر كإيران، والأبنية المشيّدة به قليلة المقاومة إذا ما قيست بتلك التي تعمر بالحجارة ويعتبر الآجر من المواد القديمة التي صنعها الإنسان واستعملها في عملية البناء، وهو عبارة عن مادة طينية معالجة يحكم عجنها وتجفيفها، ثم تعرض الطين للحرق في الأفران حتى تتصلب، ويصبح آجر أحمر، وكلما زادت فترة تعرض الطين للنار زادت صلابته⁽⁴⁾، وبذلك تصبح مهياًة للاستعمال.

وتتطلب صناعة الآجر طينة ذات صفاء لكي تسهل عملية القولية التي تتم بواسطة قالب خشبي بدون قاع وتكون مقاساته مختلفة، ولكنه يخضع لقاعدة عامة بحيث يكون طول الآجر يساوي ضعف عرضه، وعرضه يساوي ضعف سمكه، وبعدها يجفف ويدخل إلى الفرن مع قطع أخرى من الزليج والقرميد في غرفة الحرق تحت درجة حرارة تتراوح ما بين 800° و 1200°، وهي حرارة كافية لتحليل مركباتها الكيميائية وتلاحمها حيث تتحول إلى

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص199، يُنظر كذلك: - نوبصر حسني محمد: المرجع السابق، ص118.

(2) - لعرج عبد العزيز: مظاهر التأثير العثماني...المرجع السابق، ص335، يُنظر كذلك:

- بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص350.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، مج1، ص24.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص11.

قطع صلبة ومتماسكة الأجزاء، ومن مميزاتا أنها خفيفة الوزن بسيطة الشكل، ولكنها من المواد المفضلة للبناء وخاصة في بناء العقود والحنايا والدعامات، وذلك لأنها خفيفة الوزن في حالة استعمالها كعنصر محمول، وصلبة في حالة ما إذا أدت دور العنصر الحامل⁽¹⁾.

ولم ينحصر استخدامه في جزء معين من البناء دون الآخر، كما لم يتميز به عهد دون عهد، وظهرت قوالبه بقياسات مختلفة، كانت ذات زوايا أحيانا، ومكورة جزئيا⁽²⁾، وكان من الطبيعي أن تغطي المسطحات الآجرية في المباني غالبا بطبقة من الجص، أو بالمواد الأخرى للحصول على واجهة بنائية مستوية من جهة، وستر عيوب القوالب الآجرية فيها من جهة أخرى، وقد تفنن البناء في بنائه وتكسيته حسب الضرورة والحاجة، فأول ما صنع كان غير مجوف مستطيلا فقط، لكنه ما لبث أن تكعب واستدار ليساعد على الزخرفة، أما الآجر المفرغ فلم يُعرف إلا في وقت متأخر⁽³⁾.

تم استعمال هذه المادة بكثرة في منشآت مدينة معسكر بمختلف أنواعها، ويظهر ذلك بوضوح في دار الباي والمحكمة، وكذلك في الجوامع والأضرحة والحمّامات، حيث أنه استعمل جنبا إلى جنب مع الحجارة، خاصة في تشكيل العقود والنوافذ والأبواب والمآذن والمحاريب والقباب. (تُنظر الصورتان 97-119)

يعود استعمال الآجر إلى فترات قديمة خاصة عند شعوب بلاد الرافدين والفرس والرومان والبيزنطيين وغيرهم، كما أنه يعتبر من المواد الأولى التي استعمالها المسلمون في أبنيتهم، وبعد ذلك في تاريخ العمارة الإسلامية تطورا مهما، إذا عرفنا أن المسجد النبوي كانت مواده من اللّين وجذوع النخل، فمعه ظهرت مواد معمارية أخرى في كل أجزاء البناء وكل أنواعه وفي كل العصور الإسلامية وحتى كل البلاد، مع فارق القلة والكثرة اللذين تفرضهما طبيعة البلد الجيولوجية، فاستعمل الآجر في الجدران الأموية ومنه بنيت قبل ذلك جدران جامع عمرو بن العاص في الفسطاط وجدران مسجد الكوفة وبعد ذلك في قصر المشتى وقصر الطوبة في بادية الأردن، والقباب في العصرين الفاطمي والأيوبي وأول العصر المملوكي

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 171.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 28، يُنظر كذلك:

- رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 11.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 29.

بناه المعتصم، والأضرحة كمدفن إسماعيل بن أحمد السامانى فى بخارى، والدعائم فى جامع الحاكم بالقاهرة (380هـ/990م). كما استعمل فى مختلف منشآت بلاد المغرب والأندلس منها المرابطية كجامع ندرومة⁽¹⁾ والجامع الكبير بتلمسان والجزائر العاصمة وكذلك مئذنة الجيرالدا بالأندلس⁽²⁾.

وإضافة إلى الآجر كانت تصنع من المادة الطينية مواد بناء أخرى نذكرها على النحو الآتى:

- القرميد:

هو آجر مشوي يصنع من طينة متجانسة وذات جزيئات دقيقة تظلى بالطلاء حتى لا تكون مسامية، وذلك لأنه معرض للأمطار على الدوام، كما أنه يشكل بواسطة قوالب معقدة تصنع من الجص أو الخشب أو الحديد بأشكال متعددة ومختلفة، ولكنه غالباً ما يكون على شكل نصف أسطواني مخروطي الشكل، يوضع عند البناء بالتناوب العكسي أي مقعر ثم محدب، ويكون محيطه السفلي أكبر من نصف محيطه العلوي حتى يمكن تركيبه بطريقة منتظمة وثابتة، ويتم تثبيته بواسطة الملاط. أما من حيث استعماله فهو يوضع على شكل كورنيشات فى حواف السقوف وكذلك للسقوف المائلة التى تكون بنسبة متوسطة وذلك لتفادي انزلاقها، ونجدها فى غالب الأحيان ملونة بالأحمر أو الأخضر. وقد شاع استخدامه فى بلاد الشام والمغرب والأندلس، ولاسيما فى قصر الحير الغربى وقصر الحمراء بغرناطة⁽³⁾. (يُنظر الشكل رقم 49 والصورة 36).

وفىما يخص استعمالاته فى منشآت مدينة معسكر فنجد أنه استعمل فى تغطية سقوفها ويظهر ذلك فى سقف الجامع الكبير والمحكمة ودار الباى والذى وُضع على شكل جمالونى

(1) - فيسة محمد رابح: المنشآت المرابطية فى مدينة ندرومة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير فى الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004 - 2005، ص 62.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 28، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 11.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 4، ص 24. يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 28.

- رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 12.

وكذلك في زاوية سيدي بوسكرين الذي وضع بشكل مائل، لكن الملاحظ عليه أنه جُدد تقريبا في كل المنشآت المذكورة بسبب تأكله لتأثره بمختلف العوامل الطبيعية.

- **قنوات صرف المياه:** هي مجرى تبنى تحت الأرض من قرميد أو حجر، تشكل هذه القنوات بواسطة عجينة خشنة، نجد فيها أثر الدولاب، وتشكل فوهاتنا بطريقة تسمح بإدخال الواحدة في الأخرى حتى تكون قناة متلاصقة فيما بينها بمقاسات مختلفة، كما نجدها توضع داخل الجدران أو تحت الأرض في معظم الأحيان، وذلك لصرف المياه خارج المبنى، أو إلى صهاريج خاصة لتخزينها واستغلالها في فصل الصيف الحار⁽¹⁾، وهو ما وقفنا عليه في المحكمة خلال عملية الترميم، إذ أن المبنى زُوّد بقنوات فخارية على عمق المتر تقريبا، ولها نفس المواصفات المذكورة سابقا شكلا وتركيبا.

وقد عرفت قنوات صرف المياه منذ القدم، وتحديدًا حوالي القرن 16 و17 ق.م في أوغاريت المدينة الكنعانية في سوريا، حيث عثر على أقنية حجرية لتصريف المياه ومزاريب في السطوح لتصريف مياه الأمطار، وأنابيب من الفخار لنقل المياه وأخرى تحت الشوارع لتصريف المياه المالحة⁽²⁾، ثم استعملها الرومان والبيزنطيين وبعدها عرفها المسلمون الذين اهتموا بشبكات المياه فمدّوا الأقنية إلى مسافات بعيدة لإيصالها إلى الصهاريج والقصور والبساتين والحقول ومساجد المدن وحمّاماتها ومنازلها، مثل قناة يزيد بن معاوية في دمشق كما عمل هشام قناة تجر المياه إلى قصر الحير الغربي، وقد أحيطت القلاع الأيوبية في مصر والشام بأقنية مكشوفة زيادة في تحصينها⁽³⁾.

- البلاطات الخزفية:

تصنع هي الأخرى من المواد الطينية، وقد أتقن المسلمون صناعة البلاط الخزفي وزخرفوه ولوّنوه وبلطت به الأرض والجدران، كما توصّلوا إلى طلي البلاطات الخزفية بالذهب الخالص واستعملت في تغطية قباب المساجد والأضرحة⁽⁴⁾، وقد اشتملت المباني الدينية

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص319. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص172.

(2) - الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص610.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص320.

(4) - نفسه: ص89.

والمدينة التي أنشأت خلال الفترة العثمانية على عدد كبير من البلاطات الخزفية التي استخدمت في تبليط الأرضيات في مختلف الأماكن، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع منها النوع المصنوع في تركيا، والنوع المصنوع في تونس، والنوع المصنوع في أوروبا⁽¹⁾، وهو ما نجده في مباني مدينة معسكر، ولكن للأسف لم يتبق منها إلا نماذج قليلة في الجامع الكبير، أما المنشآت الأخرى فقد أزيلت واستبدلت بأخرى حديثة. (تُنظر الأشكال 56/55/54) و(الصورتان 34-165)

ج- الملاط :

هو مزيج من جير ورمل، وبصيغة أخرى هو الطين الذي يجعل بين سافتي البناء ويملط به الحائط، كما يستعمل لتطين الحجارة أو طلي الجدران، وقد ينقش فيه ويعالج كالجبص⁽²⁾، وهذه الطينة تستخرج من تحت الأرض، وتطوع في الماء⁽³⁾، ويتكون عموما من مواد طبيعية تتمثل في حبيبات الرمل والطين والماء والتي تعد بطرق مختلفة، ويخلط الكل بنسب متفاوتة بإضافة الجير كمادة لاحمة. وبعد خلطه نحصل على المونة التي توضع بين المداميك لتماسكها، ولإستخدامها في رفع الجدران المبنية من الدبش، وهو أيضا ما يطلى به الحائط بعد تمام بناءه، ويوضع لتقوية الحائط وحمايته من الأمطار، وتهيئته للزينة والزخرفة⁽⁴⁾.

لقد ذكر ابن خلدون هذه المادة في مقدمته في قوله "...فمنها البناء بالحجارة أو الآجر يقام بها الجدران ملصقا ببعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها فيلتحم كأنها جسم واحد..."⁽⁵⁾.

ومن خلال هذا القول يتبين أن للملاط دور كبير في ربط وتماسك مواد البناء فيما بينها، كما يمثل هذا الأخير المادة الأكثر ضعفا في البناء، إذ يجب أن يكون مكدسا وكثيفا

(1) - لرج عبد العزيز: الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1990 ص19.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج9، ص681.

(3) - لرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص657.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص176.

(5) - عبد الرحمن ابن خلدون: العبر... المصدر السابق، مج1، ص726.

وذا سمك منتظم حتى يكون الثقل موزعا بين أجزاءه بالتساوي، كما يجب وضع مواد البناء بشكل متداخل منتظم لتفادي تشققها وفقدان تماسكها، وتكمن أهميته فيما يأتي:

- التحامه الجيد مع مواد البناء وسرعته في التصلب.
- مقاومته للضغط الناتج عن الثقل، وكذلك للتأثيرات المناخية.
- تسوية المساحات غير المنتظمة أثناء البناء.
- حماية البناء من الرطوبة لأنه غير مسامي⁽¹⁾.

ونظرا لهذه المميزات التي تتوفر في الملاط، لاحظنا أنه استعمل كمادة أساسية في بناء منشآت مدينة معسكر، وقد وقفنا على ذلك في كل من دار الباي والمحكمة خلال عملية الترميم التي أجريت عليهما، حيث أنه استخدم كمادة لاحمة في بناء الجدران والعقود.

د - الجص :

هو لفظ أعجمي معرب للفظة "كج"، والتي تعني الشيء الجامد⁽²⁾، يسمى أيضا القصة والجبس، وهو يتحصل عليه من الصخور الرسوبية التي تتكون من كبريتات الكالسيوم المائية، يطحن ويسخن إلى درجة حرارة مختلفة من 150° إلى 170°⁽³⁾، تجعل بعضه عاديا صالحا للبناء، والبعض الآخر أرقى سريع التصلب يستخدم في الزخرفة القالبية⁽⁴⁾.

يتطلب الجص كمية كبيرة من الماء ودرجة عالية للحرق، وذلك ليكون أكثر صلابة كما أنه لا تتجز به الأعمال المعرضة للرطوبة لأنه لا يتحمل التأثيرات المناخية، وهو يعتبر من أحسن المواد عازلا للحرارة والصوت، لذا أستخدم في تغطية الجدران والتسقيف والتنميق والتزيين الزخرفي سواء كانت مقولبة أو مخزمة داخل المباني⁽⁵⁾، وفي هذا الصدد يقول بن خلدون: "ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع من فوق الحيطان

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 167.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج1، ص 463.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 64، يُنظر كذلك:

- Adam. J.P: Op.cit, p69.

- نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 34.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص 641.

(5) - نفسه: ص 641.

التناسب تخريما بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق وراء."(1). استعمل الجص في هذه كل المباني المخصصة للدراسة، وذلك في تكسية الجدران والسقوف والقباب، حيث تعد قبة محراب جامع عين البيضاء كنموذج رائع يعبر عن مدى قيمة هذه المادة في البناء والزخرفة. (تنظر الصور رقم 47-48-49-50)

لقد عرفت هذه المادة استخداما واسعا منذ الفترات القديمة، مثل الحضارة المصرية والرومانية والفارسية وغيرها، وبعدها استعملت في كل الأبنية تقريبا، منذ العصر الأموي كقصر الحير الغربي، كمادة للبناء أو للزخرفة أو لتكسية حجارة الجدران أو آجرها، جميعها أو في بعض أقسامها، مصقولة أو مقولبة أو مخزّمة ولاسيما في سامراء في القرن الثالث للهجرة (9م)، ومن ثم مع الطولونيين في مصر وبعدها في شمال إفريقيا، وبانتقال صناعة الجص إلى المغرب والأندلس بلغ أرقى درجات الإبداع والفن. ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزيّن بركة قصر الزهراء قرب قرطبة، والزخارف الداخلية في جامع القرويين في فاس والمسجد الجامع بتلمسان ومقرنصات العقود في واجهات قصر الحمراء وأعمدته وعقوده(2).

هـ- الخشب:

هو من المواد الأولية التي استعملت جذوعا وأغصانا، ثم خشبًا في البناء عموما والعمارة بشكل خاص، وتعتبر هذه المادة ذات أهمية كبيرة منذ القدم، فهي أساسية من حيث أنها متعددة الاستعمالات، لذلك استخدمت بكثرة في العمارة والفنون الإسلامية(3)، فمن جهة البناء نجدها كمادة تستعمل في عدة عناصر معمارية، كأن تكون عنصرا حاملا، أو نجدها في صناعة عدة أدوات تستعمل في البناء من جهة أخرى، فبهذه المادة يتم تشكيل القوالب أو الصقالة وغيرها من الأدوات، كأساسات الجدران ومداميكها فمنها كانت دعائم ودهاليز المناجم والسدود وآلات المعاصر ومعدّات الحصار، وأعمدة السقوف والسقوف نفسها

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر...المصدر السابق، مج1، ص412.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص120.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص99.

بجسورها وروافدها وألواحها، فهو يمثل الهيكل الرئيسي الذي تركز عليه التغطية، سواءً في حالة وجود القرميد أو في حالة بناء سطح فوق المبنى⁽¹⁾. (تنظر الصورة رقم 101)

كما أنها تعد مادة أساسية في عمل المنتجات الخشبية، حيث نجده في الأبواب وأغلقها والنوافذ والركائز والسقوف والخزائن والدرابزين⁽²⁾، بالإضافة إلى استخدامها في عمل الظلّات وبناء السلالم⁽³⁾، وهذا التعدد في الاستعمال دليل قاطع على أنها ذو أهمية بالغة في المباني، وفيها يقول العلامة ابن خلدون مبينا ذلك: "... ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخشب المحكمة النجارة أو السانجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالدساتر..."⁽⁴⁾، ويقول أيضا: "... وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلق لأبوابهم..."⁽⁵⁾.

يعتبر الخشب من المواد العضوية المقاومة للضغط، وتكون هذه المقاومة حسب نوعية الخشب المستعمل في تلك المجالات المذكورة سابقا، ومن هذه الأنواع نذكر خشب العرعار والأرز والسنوبر، كما أنه يعد كعازل جيد للحرارة. وللخشب عدة عيوب إذا قطع في فصل غير مناسب، وكدس في أماكن تكثر فيها الرطوبة، حيث ينتج عن ذلك فقدان الصلابة والتآكل والتسوس مع مرور الزمن⁽⁶⁾.

استعمل الخشب كمادة رئيسية في مباني مدينة معسكر، فمنه شكل سقف بعض المباني كسقف الجامع الكبير وبعض حجرات وغرف دار الباي والمحكمة، كما صنعت منه الأبواب والنوافذ في كل المباني والظلة التي تتقدم المدخل الرئيسي للجامع الكبير، واستخدم أيضا في بناء السلالم كسلم المحكمة وسلم حمام القرشالي، كما استخدم في صنع الخزائن

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص120. يُنظر كذلك: Adam: J .P: Op.cit, pp91.93 -

- عمر الأمين: مواد البناء وتقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) للفترتين الزيرية والحماضية (أشير، قلعة بني حماد، بجاية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص128.

(2) - Marçais. G: L'architecture musulmane... Op.cit, p450.

(3) - حماد محمد: المرجع السابق، ص70.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر...المصدر السابق، مج1، ص434.

(5) - نفسه: ص436.

(6) - لمزيد من المعلومات عن أنواع الخشب وتلفها وطرق حمايتها من ذلك يُنظر:

- Karsenty. G : La fabrication du bâtiment, le gros-œuvre, T1, édition Eyrolles, Paris 1997 pp424,426.

والأثاث. ويلاحظ أن نوع الخشب المستعمل اقتصر على خشب العرعار والصنوبر لاشتتار المنطقة بهما، ونجد منها ما استعمل كما هو في الأصل دون نجارته كعوارض للحمل ومنها ما هو متفن الصنع حوّل كألواح للتغطية والزخرفة.

لقد نالت هذه المادة اهتماما كبيرا عند المسلمين، فرغم قلة الشجر في أغلب البلاد الإسلامية إلا أن ذلك لم يمنع من الحصول عليه، كما كان على النجارين تدبير أمرهم بالكميات المقننة التي تصل إليهم، وبالقياسات التي بين أيديهم وإلاّ يبدّروا ويسرفوا، وعليهم أن يستغلوا قطع تلك المادة الثمينة مهما صغرت فكانت نجارة إسلامية أهم ميزاتها ابتكار الحشوات وقطع الخرط.

وكانت أنواع الخشب تختلف باختلاف مواطنه وأشهرها الصنوبر في كل المناطق الجبلية، ومنه صنعت أبواب قبة الصخرة في عهد الخليفة العباسي المقتدر، وكذلك سقوف قصر الزهراء بالأندلس⁽¹⁾، ومختلف العناصر المعمارية في جوامع ومساجد والمباني المدنية في بلاد المغرب على مر العصور. وقد كانت الجزائر تحتوي على مراكز لصناعته اقتصرت معظمها على المدن الرئيسية كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان⁽²⁾.

و - المعادن:

تعتبر المعادن كمادة أساسية في البناء، وهي تشمل عدة أنواع منها النحاس والحديد والبرونز والرصاص وغيرها، ولكون مدينة معسكر غنية بمناجم النحاس والرصاص والحديد ساعد ذلك على إقامة دور للصناعة فيها وبضواحيها كقلعة بني راشد⁽³⁾.

1- النحاس:

معادن أصفر أو أحمر يأخذ اللون الأول إذا خالطته معادن أخرى والثاني إذا كان صافيا، وقد سماه العرب بالصففر، أو الشبه لأنه يشبه الذهب. وقد استعمله المسلمون في مجالات كثيرة فصنعوا منه الثريات والمسارج والمباخر والأباريق والأوعية⁽⁴⁾، وبعض الأدوات

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص ص 174 - 175.

(2) - طيان شريفة: الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج1، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007 - 2008، ص ص 122 - 138.

(3) - Peyssonnel. L, et Des fontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T2, Paris, 1838, p183.

(4) - لمزيد من المعلومات عن الصناعات النحاسية يُنظر: طيان شريفة: المرجع السابق، ص ص 122 - 138.

العلمية كالأسطراب والكرة السماوية، وغلفوا برقائقه المخزّمة الأبواب أو بعض حشواتها ومن أشهر المدن في تصنيعه كانت مدينة المرية ومدينة فاس⁽¹⁾.

نجد استعمالات هذه المادة المعدنية في منشآت مدينة معسكر قليلة رغم توفرها، ولا نعلم إذا كانت تحتوي على مصنوعات كثيرة منها أم لا، لكن ما وقفنا عليه اقتصر على النحاسة في كل من حمّام البركة والقرشالي، وأيضا حنفيات الماء وجامور وكريات وهلال مؤذنة جامع عين البيضاء.

2- الحديد:

يعتبر الحديد المادة أكثر شيوعا واستعمالا مقارنة بالمعادن الأخرى، خاصة في مجال البناء، وذلك لصلابته ومقاومته لكل الظروف القاسية، وهو يضم مجموعة من الأنواع، فمنها ما يتميز بعدم النقاوة وهو سهل التكسر، وأنواع أخرى نقية يسهل تشكيلها بالطرق⁽²⁾.
وبما أن مدينة معسكر غنية بهذه المادة المعدنية، فقد سهّل ذلك من الحصول عليها واستخدامها في كل المجالات، حيث صنعت منها شبابيك نوافذ الحجرات ومزالج الأبواب ومسامير طويلة تدعم الأبواب و تربط الباب بإطاره الخشبي وكذلك كأوتار لربط الأعمدة والعقود لتدعيمها وتثبيتها مثلما هو موجود في القاعة الباردة من حمّام القرشالي. (تُنظر الصورة رقم 137)

2- طريقة البناء وتقنياتها:

أ- طريقة البناء:

يعتبر اختيار الموقع المخصص للبناء أولى الخطوات التي يقوم بها المهندس المعماري أو البناء، وذلك وفقا لعدة معايير ومعطيات تتعلق بالأرضية المراد البناء فيها من جهة، وحسب طبيعة المبني من جهة أخرى، وبعد الانتهاء من هذه العملية المهمة تليها الخطوة الثانية وهي اختيار اتجاه المبني، حيث أن المهندس يقوم بمعالجة نوع التربة ومدى تحملها للثقل عبر مختلف الفترات، وذلك لتجنب الظواهر الطبيعية، واختيار الاتجاه الملائم

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 434.

(2) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص 81.

وتقسيم المساحة الداخلية وتحديد المنافذ الرئيسية والثانوية، كما توضع تبعا لموقعها الطبوغرافي⁽¹⁾.

ومن خلال دراستنا لمواقع مباني مدينة معسكر نجدها موزعة حسب نوع المبنى وأهميته في المدينة، فنجد الجوامع والمركز الإدارية تتمركز في الوسط، أما المنشآت الأخرى فتتصل بالأحياء والدروب، وفيما يخص اتجاهاتها فنجدها مختلفة مرتبطة باتجاه الشوارع والأزقة.

الأساس: هو أصل البناء، وبمفهوم آخر هو القاعدة التي في باطن الأرض لحمل البناء داخليا وخارجيا يقوم على عنصر العلم والفن⁽²⁾، وهو يحفر له في الأرض، وتملأ الحفرة بالحجارة والمادة اللاحمة، والأسس لم تكن تختفي كلها تحت الأرض ففي المواقع المنحدرة كانت ترفع لاستواء الأرضية، وعليه فهو مرتبط بالأرضية التي يقوم عليها المبنى وما تتميز به من شدة المقاومة أو ضعفها، مع التأكد من سلامة بيانات جهد التربة ومراعاة عامل الأمان اللازم للتصميم، والتأكد من أن مساحة الأساس كافية لتوزيع الأحمال على المبنى مع مراعاة عمق وأبعاد الأساس⁽³⁾، وذلك يؤثر في قوة المبنى وصلابته ودوامه ومقاومته للارتجاجات الأرضية والزلازل⁽⁴⁾، وذلك ما يستوجب عند عملية بنائه استعمال مادة قوية وصلبة ومتينة وعديمة التأثير بالتغيرات الجوية من درجة الحرارة والرطوبة لتفادي تفتتها تحت تأثير الأحمال، لأن وظيفة الأساس هي نقل ثقل المنشأة إلى تربة الأرض المقام عليها هذا الأساس، وهو نوعان:

1- النوع الأول: يطلق عليه تسمية **الأساس الطبيعي**، وفيه تستغل طبيعة الأرض الصخرية الغير قابلة للضغط، بحيث يمكن البناء عليها مباشرة، وذلك بعد حفر وتسوية الصخرة دون الحاجة إلى عمل أساس لتشييد البناء.

2- النوع الثاني: وهو ما يسمى **بالأساس الاصطناعي** وهو ما يبني من الحجر أو الآجر ويستخدم في الأراضي القابلة للضغط لحمل أجزاء المشيد عليه ولتوزيع الضغط على

(1) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص654.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج7، ص301. يُنظر كذلك: غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص48.

(3) - جمعة حسين محمد: الشروخ والترميمات، مكتبة الدراسات والاستشارات الهندسية، الزيتون 1992، ص23.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص654.

الأرض، وكثيرا ما كانت تبنى الأساسات من الدبش (الحجر غير المشدب) أو الآجر والمونة⁽¹⁾.

وطريقة بناء الأساس تتم وفق طبيعة الأرض وشكلها، فالأرض المستوية يبني على مستوى واحدة مثلما نجده في المحكمة (ينظر الشكل رقم 50)، وفي الأراضي المنحدرة يبني الأساس بحجارة ذات أشكال مختلفة الأحجام لتكون صلبة وقوية، وتظهر فيه كل السافات أفقية على شكل سلم، وبما أن موقع مدينة معسكر يغلب عليه الانحدار جعل ذلك أساسات أغلب المباني تنتمي إلى النوع الثاني، كما يتضح ذلك في الجامع الكبير وجامع عين البيضاء والزويتين والأضرحة، ودار الباي وحمّام البركة وحمّام القرشالي وحمّام حمزة وحمّام الباي ودار الميزابي، ويختلف انحدار أرضية كل مبنى حسب موقعه، ويتم استعمال التراب المستخرج من عمق الحفر ليصفى ويستخدم كملاط تملئ به الفراغات استعدادا لحمل الطابق الأول⁽²⁾. (ينظر الشكل رقم 51)

وعند الانتهاء من ملئ الأساس بالحجارة والملاط يشرع في بناء الجدران بالحجارة، لتظهر في الأخير أقسام المبنى موزعة حول الصحن مع مراعاة فراغات المدخل والنوافذ والشمسيات والعقود⁽³⁾.

أما فيما يخص الجدران الداخلية فهي مكونة من سافات متناوبة من الدبش والآجر والخشب الذي يستخدم في التدعيم، وبناء العقود وذلك في حمله للمواد المشكلة له، وهي الطريقة المتبعة في كل من دار الباي والمحكمة وحمّام حمزة بحكم أننا لاحظنا ذلك خلال عملية الترميم التي أجريت عليهم، وهو ما ينطبق كذلك على بقية المباني حسب المعلومات التي قدمها لنا أصحابها عند قيامهم بعملية ترميم الأجزاء المتضررة، كما أننا لاحظنا ذلك في بعض الأماكن التي أصابها التلف. (ينظر الشكل 52)

كان يعتمد في استقامة الجدران على الدقة في النظر والملاحظة، وذلك لعدم وجود خيط المضمار الذي لم يكن معروفا آنذاك⁽⁴⁾، مما فتح ذلك باب الافتراض في استعمال لوحة طويلة لمعرفة استقامة الجدران، وعند الانتهاء من رفع الجدران يتم الانتقال إلى وضع

(1) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 14.

(2) - Reveault. J: L'habitation tunisoise...Op.cit, p53.

(3) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 175.

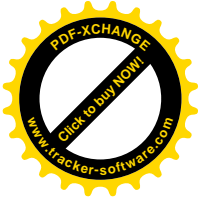
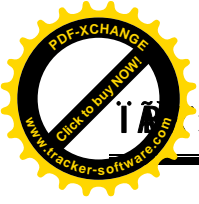
(4) - Reveault. J: L'habitation tunisoise...Op.cit, pp54- 55.

أعمدة القاعة الباردة في حمّام حمزة وبناء مخزن الحطب بحمّام البركة (تنظر الصورة رقم 134)، وقد بُني على شكل سافات منتظمة ومتساوية في طريقة بنائها، وذلك لأن العناصر أو المواد المستعملة لها عدة أشكال ومقاسات موحدة، حيث تلتحم هذه المواد فيما بينها بواسطة ملاط كثيف ذو نوعيات مختلفة حسب غاية البناء والوظيفة التي ستقام داخله مثل القصور والحمّامات... الخ. (يُنظر الشكل رقم 53)

ويتم الحصول على أشكال وتقنيات مختلفة ومتعددة إذا بنيت بتراكيب متنوعة، غير أن المهم من ذلك هو التداخل الكامل، خاصة إذا بني حائط ذو سمك معتبر، أو يتخذ كدعامة أو ركنا يدعم به البناء كما أنه عازل حراري في نفس الوقت.

بالإضافة إلى طريقة أخرى يكون فيها سمك الحائط مكون من صف واحد من الآجر بوضعية طولية أي بطريقة "الشناوي"، حيث أنها تستعمل في بناء الجدران الداخلية لتقسيم المبنى، وتمثل هذه التقنية تداخلا بسيطا بين المواد، ولكنه ذو دور فعال في حمل سقف المبنى، كما يمكن وضعه بطريقة عرضية ينتج عنها سمك أكبر للحائط وأكثر دعم للبناء وذلك ما يعرف بـ "الأديّة"، وهاتين الطريقتين في البناء بالآجر شاهدناها بوضوح في كل من دار الباي والمحكمة، ويستخدم الآجر في بناء الطوابق العليا لخفته وقوته⁽¹⁾، وما لفت انتباهنا أن البناء قد جمع بين تقنية البناء بالآجر وتقنية البناء بالدبش غير المهدب في نفس الموضع، ومن ذلك نجد تشكيل العقود يكون بالآجر لسهولة عملها والجزء المتبقي من البناء يكون من الدبش، وهو ما يظهر بوضوح في دار الباي والمحكمة وحمّام حمزة، ولعل هذا المزج بين التقنيتين يرتبط بالتركيب البنائي للعناصر المعمارية من جهة وتقوية المبنى من جهة أخرى.

(1) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 11.



جمعت مباني مدينة معسكر في مخططاتها المعمارية بين النمط المحلي والنمط الوافد خاصة منها المساجد، حيث استطاع المعمار أن يوظف كل طاقاته من أجل سد العيوب، أخذاً بعين الاعتبار العوامل المؤثرة في المباني كالزلازل والمناخ وغيرها، وذلك باستخدام عناصر معمارية تتناسب مع نوعية المبنى ووظيفته، بالإضافة إلى استعمال مواد بناء محلية مقاومة لمختلفة العوامل الطبيعية وبتقنيات متطورة، ولعل بقاء هذه المنشآت إلى غاية الفترة الحالية لخير دليل على مدى تطور الهندسة المعمارية خلال الفترة العثمانية.



Ò mAfA:©HjAAn ´A
Ò TÏ°A

Ò TjaleA •A:¾EPA½v °A
Ò TÏ°A² iBaA:ï ÑRA½v °A

الفصل الأول: المواد الزخرفية:

1- الحجر:

لقد رأينا في السابق أهمية الحجر الجيري في البناء من حيث رفعه وتدعيمه، وقد تعدت هذه الأهمية في استعماله كمادة في الزخرفة والتزيين، نظرا لاعتباره مادة غير مكلفة وغير صعبة في التشكيل الزخرفي، لذلك اتخذ منه الفنان مادة بديلة عن الرخام في حالة عدم الحصول عليه بسبب تكلفته الباهظة وندرته في بعض الحالات، الأمر الذي جعل منه من المواد التي أعطيت اهتماما كبيرا في الجزائر، حيث أنه أستعمل في عدة مجالات مختلفة، كما اعتنى به صناع ونقاش مدينة الجزائر خلال العهد العثماني⁽¹⁾، وأعطوه أشكالاً رائعة.

نجد استعمالات هذه المادة كانت بكثرة بدلا عن الرخام في منشآت مدينة معسكر وذلك يعود إلى توفرها في المدينة من جهة، وسهولة استعمالها وتوفر الصناع والحرفيين المهتمين بها، فصنعت منها تيجان الأعمدة وزخرفت بأنواع الزخارف، ويظهر بشكل خاص في تيجان أعمدة الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، وتيجان قاعة التدريس بزواوية سيدي بوسكرين، وكذلك في تيجان أعمدة الطابق الأرضي والعلوي في دار الباي وفي المحكمة وأيضا في تيجان القاعة الباردة بحمام الازدهار، ويظهر من خلالها مدى تفنن الصناع في تشكيلها وزخرفتها بإتقان. لكن ما يلاحظ على هذه المادة تأثيرها بمختلف العوامل الطبيعية الأمر الذي يجعلها معرضة للتلف وتشويه عناصرها الزخرفية وهو ما نشاهده في تيجان المحكمة، حيث أن أغلبها فقدت زخارفها الفنية.

2- الجص:

يعتبر الجص من المواد الزخرفية المهمة التي استعملها الفنان منذ الحضارات القديمة وذلك لسهولة التحكم فيه لتشكيل العناصر الزخرفية، وبقائه على أصله لمدة طويلة دون أن يتلف إذا وفرت له شروط المحافظة. تعتبر حضارة وادي الرافدين والحضارة الساسانية أكثر الحضارات استخداما للزخارف الجصية⁽²⁾، ثم انتقل استخدامه لدى المسلمين بدءا من الفترة الأموية، حيث استخدمت طريقتين منها: جص ذي زخارف محفورة أو بالقالب، وجص ذي

(1)- Marçais. G: Manuel d'art ...op.cit, p462.

(2) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...المرجع السابق، ص642.

زخارف مرسومة (فريسكو)، مثلما يتضح في بعض الأمثلة بقصر خربة المفجر وقصر الحير الغربي وقصير عمرة⁽¹⁾، كما تطورت الزخرفة الجصية خلال العصر العباسي ويتجلى ذلك في زخارف سامراء في القرن الثالث للهجرة، ومن ثم انتقلت إلى الطولونيين في مصر وبعدها إلى شمال إفريقيا، وبانتقال صناعة الجص إلى المغرب والأندلس بلغ أرقى درجات الإبداع والفن. ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزين بركة قصر الزهراء قرب قرطبة (القرن 3هـ-9م)، وقلعة بني حماد بالجزائر والزخارف الداخلية في جامع القرويين في فاس (القرن 6هـ-12م)، والمسجد الجامع بتلمسان، ومقرنصات العقود في واجهات قصر الحمراء (القرن 8هـ-14م)، وتيجان مدرسة العطارين في فاس (القرن 8هـ-14م)، ومحراب مولاي إدريس في المدينة نفسها⁽²⁾.

أما عن استعمالات الجص خلال الفترة العثمانية فلم يقل عن ما ذكر سابقا، حيث أنه استخدم في زخرفة مختلف المنشآت المعمارية، بل أبدعوا في ابتكار أساليب وطرق زخرفية ترتبط بمميزات وخصائص الفن التركي، ولعل ما تزخر به الجزائر من منشآت تعود إلى هذه الفترة لدليل قاطع على ذلك، منها منشآت مدينة معسكر، والتي يمثلها جامع عين البيضاء بزخارفه البهية والجميلة التي مازالت على أصلها، تحاكي كل من يشاهدها وتبعث في نفسه راحة، وتبين له مدى تفوق الفنان وبراعته في التشكيل وإتقان هذه الزخرفة، وكذلك درجة تحكمه في استعمال الألوان واحترامه للمكان المقدس الموجودة فيه، كما نجد زخارف جصية أخرى في الحجرة الثانية بالمحكمة.

من خلال الزخرفة الجصية الموجودة في هذا الجامع تبين لنا أن الفنان اتبع في عملها طريقتين وهما.

أ- **طريقة الزخرفة بالحفر:** تتم هذه الطريقة بالحفر على الجص مباشرة بعد تفرغ وتسوية مسطحات الجدران، وقبل أن تجف يبدأ بالحفر عليها مباشرة بواسطة أزامل ومثاقب ذات رؤوس مختلفة، حادة ومسطحة ومستديرة على حسب الشكل الزخرفي المراد تشكيله، ويكون التصميم هنا مسطحا، بحيث تظهر الأشكال الزخرفية وكأنها على مستوى واحد، خالية من الروح الآلية المملة التي تسود الزخارف المصنوعة بالقالب، وأغلب الزخارف التي تستخدم

(1) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 643.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 120. يُنظر كذلك: نوبصر محمد: المرجع السابق، ص 369.

بهذه الطريقة هي الزخارف الكتابية⁽¹⁾. وقد استعملت هذه الطريقة في الأشرطة الكتابية وزخارفها النباتية التي تزين إطار المحراب، ويظهر الحفر بارزا، مزج فيه الفنان بين الزخرفتين لملئ الفراغ وإعطائها أكثر جمالية فنية. (تنظر الصور رقم 47-48-49)
ب - طريقة الزخرفة بالقالب:

تتم هذه الطريقة بصناعة قوالب من الجص أو من الطين بعد أن تحرق لإكسابها قوة وصلابة، وتكون الزخارف في هذه القوالب بارزة وبصورة معاكسة للزخارف، ولهذه الطريقة أهمية بالغة، حيث تمكن الفنان من زخرفة مساحات كبيرة في أسرع وقت وبأقل تكلفة وجهد يسير⁽²⁾، وتتبع هذه الطريقة المراحل الآتية:

- عمل النموذج نفسه، ويجب أن يكون مطابقا للعنصر الزخرفي المراد تكراره.
- يبدأ في حفر النموذج مع مراعاة أن يبدأ بالعناصر الكبيرة الخارجية، ثم الأقل إلى الداخل وفي هذه الحالة تظهر الزخارف بارزة فوق الأرضية الغائرة، مع مراعاة المحافظة على زخارف هذا النموذج، لاستخدامه مرة أخرى في حالة تكرار العناصر الزخرفية الواحدة على الجدران ومطابقة بعضها البعض، ويسمونها أهل الصنعة اسم "فارغ" أو "قالب سلبي".
- بعد الانتهاء من عمل النموذج المزخرف والمطلوب يتم دهانه بمادة دهنية، لتمنع التصاق الجص اللين، الذي يصب فيه لاستخراج الكمية المطلوبة.
- يبدأ بذلك عملية الصب في هذا الفراغ، بمعنى استخراج صورة النموذج الأصلي للقالب وهذا ما يسميه أهل الصنعة "الفارغ" أو "النسخ الإيجابية"، ويجب مراعاة ملئ التجاويف خاصة الدقيقة في أثناء عملية الصب، وذلك بنفخ الجص السائل بشدة حتى تنطبع تفاصيل أجزاء النموذج صغيرها وكبيرها⁽³⁾.

ولصناعة القالب السلبي غالبا ما تستخدم مادة صلبة، فإما تكون من مادة الجص ذاتها ويجب أن يكون هذا النوع الجيد شديد الصلابة، ولا يتعرض مطلقا للهواء والرطوبة

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: شحاتة عزة علي عبد الحميد: النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدنية في العصرين المملوكي والعثماني، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، 2008، ص63.

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص705.

(2) - نفسه: ص706.

(3) - شحاتة عزة علي عبد الحميد: المرجع السابق، ص64.

وأحيانا تستخدم مادة الطين لعمل القالب السلبي، حيث تأخذ نماذج من الخشب ثم تحرق هذه القوالب الطينية لاكتسابها الصلابة⁽¹⁾.

لقد استعملت هذه الطريقة في بقية الزخارف الموجود في جامع عين البيضاء، ويظهر ذلك في الجزء العلوي من تجويفة المحراب وطاقيته والقبة التي تتقدمه، والعقود التي تحملها. وقد قام الفنان بتلوين العناصر الزخرفية، وتنفذ هذه العملية إما بخلط الألوان من مادة الجص وهي سائلة، وإما أن تطلّى الجدران بالألوان بعد زخرفتها على الجدران⁽²⁾.

كما نجد منها نموذجا آخر في الحجرة الثانية من المحكمة أين زُينت بها الحواف العلوية للجدران، وهي عبارة عن شريط زخرفي قوام زخارفه أشكال هندسية تتمثل في دوائر وأهلة، وكذلك نباتية محورة عبارة عن أزهار وفروع وأوراق محورة. (تُنظر الصورة رقم 121)

3- الأجر:

لقد رأينا استعمالات هذه المادة بكثرة في مجال البناء نظرا لمواصفاتها ومميزاتها التي تتماشى مع متطلبات البناء، وهو ما دفع الفنان المسلم إلى استغلالها في مجال الزخرفة فالأجر يعطي ترابطا جماليا رائعا، ويعمل في هذه الحالة على هيئة بروز علوي فوق المداخل وفتحات الشبابيك، ويتخذ زاوية ميل مناسبة، تركب عليه وحدات نصف أسطوانية مفرغة في صفوف متراسة تتحصر في صفين أو ثلاثة، يتم تركيبها بطريقة تصاعدية بحيث يكون الصف العلوي مركبا على الجزء العلوي المسلوب من الصف السفلي وهكذا⁽³⁾ وذلك ما يعرف بالأفاريز، وتكون غالبا عند نهاية الطوابق على شكل صفوف متدرجة البروز⁽⁴⁾، وهو ما يظهر بوضوح في مباني مدينة معسكر، خاصة في جامع عين البيضاء وضريح سيدي محمد بوجلal ودار الباي والمحكمة والدار الكبيرة وحمّام حمزة. (تُنظر الصور رقم 78 - 88 - 108)

(1) - شحاتة عزة علي عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 64 - 65.

(2) - نفسه: ص 67.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 12.

(4) - عقاب محمد: المرجع السابق، ص 195.

4- البلاطات والمربعات الخزفية:

تعد الصناعات الخزفية من أهم الفنون التطبيقية الإسلامية بوجه عام والعثمانية بوجه خاص، فقد تطورت هذه الصناعة في العالم الإسلامي بشكل كبير، وأصبح هناك مراكز مشهورة في تلك الصناعة ملك إيران والعراق وبلاد الشام ومصر وبلاد الأناضول. وقد ارتبط الخزف التركي ببلاد الأناضول بمجيء الأتراك وفتحهم لتلك البلاد واتخاذهم الأناضول وطناً لهم وأصبح هناك بعض المراكز المهمة في صناعة الخزف، سواء في عصر السلجقة مثل "قونية"، أو في العصر العثماني مثل "إزنيك" و"كوتاهية"⁽¹⁾.

وقد عرف الأتراك السلجقة والعثمانيين الفسيفساء الخزفية في تغطية الجدران وقد شاع هذا الأسلوب بشكل كبير جدا عند السلجقة بالأناضول، واستمر استخدامه عند الأتراك العثمانيين، ولكن استخدم هذا الأسلوب وهي الفسيفساء الخزفية في العمائر العثمانية المبكرة أو التي تنتمي إلى الطراز العثماني المبكر، أو طراز "بورصة"، وبعد ذلك فضل العثمانيون استخدام البلاطات الخزفية في تغطية الجدران وفي زخرفة عمائرهم. وخلال القرن السادس عشر والسابع عشر أصبحت الدولة العثمانية بمثابة إمبراطورية كبيرة، سيطرت على غالبية البلاد الإسلامية، ووصل الفن العثماني إلى قمة تطوره، ويظهر الأسلوب الفني العثماني المتطور في عدد كبير من العمائر والآثار، ويعكس في نفس الوقت مدى ما وصل إليه الفن التركي والإسلامي من احتشام وقوة⁽²⁾.

وبحكم أن الجزائر كانت إحدى الإيالات العثمانية المهم في حوض البحر المتوسط تأثرت بالفنون التطبيقية العثمانية، كان من بينها الصناعات الخزفية وبالخصوص البلاطات والمربعات، التي نجدها مستعملة بكثرة في العمائر الجزائرية بمختلف أنواعها على عدد هائل من البلاطات والمربعات الخزفية، وهي تتنوع من حيث مصدرها وقيمتها الفنية، ونجدها تحل مكانة كبيرة في القصور، حيث أنها عوضت الفسيفساء الخزفية ابتداء من القرن 16م في بلدان المغرب، ولقد عرفت المربعات الخزفية بعدة أسماء، وذلك حسب كل منطقة، حيث

⁽¹⁾ - عبد الحافظ عبد الله عطية: دراسات في الفن التركي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2007، ص ص

⁽²⁾ - نفسه: ص 18.

يطلق عليها اسم "الزليج"Zellis(*) في المغرب الإسلامي⁽¹⁾، واسم "الكاشي" في العراق وكذلك اسم "الزليزي" في مصر⁽²⁾.

استعملت هذه المربعات في أماكن متعددة، حيث كسيت بها أسافل الجدران بعلو متر أو أكثر، كما شكلت منها أفاريز تطوق مختلف الوحدات المعمارية بالإضافة إلى استعمالها تحت سقوف الغرف، والأروقة، والسقائف، وأحيانا أركان الغرف والسوالف⁽³⁾ التي تطوق ترابيع عقود الأروقة عموديا، وأطر الأبواب والنوافذ⁽⁴⁾، وكذلك المدافئ والخزائن الجدارية والأواوين والمخازن، أما البلاطات فقد استعملت في تبليط الأرضيات.

وقد عرفت البلاطات والمربعات الخزفية المستعملة في المنشآت المعمارية بالجزائر العثمانية عموما بثلاثة أنواع منها، النوع المصنوع في تركيا، والنوع المصنوع في تونس والنوع الثالث مجلوب من أوروبا، وقد أضفت على هذه المباني رونقا وجمالا وأناقة ترتاح لها نفس الإنسان، وخاصة أثناء الانبهار الضوئي الذي يشع من الصحن على الغرف فينعكس على بريق وألوان البلاطات، كما أنها تؤدي وظيفة ودور العازل والطرء الحراريين، فهي توفر الجو الملائم احتماله سواء كان بردا أو حرارة، كما تساعد في عملية التنظيف لشدة نعومتها⁽⁵⁾.

تتميز البلاطات والمربعات الخزفية الموجودة في مباني مدينة معسكر بالتنوع، وقد استعمل الفنان في تلوين عناصرها الزخرفية عدة أكاسيد معدنية أعطت ألوانا متعددة، وذلك ما سمح بإعطاء كل عنصر زخرفي لونه الطبيعي، وفيما يلي توضيح مبسط عن الأكاسيد يبين علاقة اللون بالمعدن:

(*) - الزليج: التسمية التي أعطيت للبلاط الخزفي أو القاشاني في المغرب والأندلس المنحدر من الفسيفساء والتي عوضتها منذ القرن 16م، لمزيد من المعلومات يُنظر: - مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب... المرجع السابق، ص 76- 77. - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 423.

(1) - مرزوق محمد عبد العزيز: المرجع السابق، ص 76.

(2) - نفسه.

(3) - السوالف: أشرطة من بلاطات خزفية تنزل بشكل عمودي إلى التاج من الحزام الذي يعلو بوائك الصحن، لمزيد من المعلومات يُنظر: - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 423.

(4) - عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر... المرجع السابق، ص 201- 202.

(5) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 184.

اللون	الأكاسيد
الأخضر	أكسيد النحاس + أكسيد الرصاص
الأزرق	أكسيد الكوبالت + أكسيد الحديد
الأسمر	أكسيد المنغنيز + أكسيد الحديد
الأصفر	أكسيد الكحل + أكسيد الحديد
الأبيض	أكسيد الرصاص + لانقوب (نوع من التربة)
الأسود	أكسيد الرصاص (i)

وانطلاقا مما سبق سنقوم بإعطاء المميزات والخصائص العامة التي تتميز بها هذه البلاطات والمربعات الخزفية، بذكر عناصرها الزخرفية والألوان المستخدمة في ذلك وطريقة الرسم.

المربعات والبلاطات الخزفية المستعملة في مباني مدينة معسكر:

النوع ومكان الاستعمال	المواضيع الزخرفية وألوانها	رقم الشكل	رقم الصورة
مربعة استعملت لتكسية الجدار الشمالي للجامع الكبير	هي عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها أزهار قرنفل مشعة من دائرة مركزية تحيطها حلقة من براعم وأوراق نباتية محورة وذلك في اتجاه الأركان الخارجية، استعمل في تلوينها اللون الأصفر الفاتح والداكن المائل إلى البرتقالي، وكذلك اللون الأزرق الفاتح والتركوازي.	55	165-أ
نفس المكان والاستعمال	هي عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها شبه مربع متداخل غير منتظم، تشع منه أوراق خماسية الفصوص وأوراق على هيئة أوراق الأكانتس محورة، وحفظت هذه العناصر باللون الأبيض على أرضية كوبالتية رقيقة، ويحيط هذه العناصر جميعها سيقان محورة متصلة بأوراق خماسية	56	165-ب

(1) - ماهر سعاد: الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمركزية والوسائل التعليمية، 1977، ص319، يُنظر كذلك: - خلاصي علي: المرجع السابق، ص341.

		الفصوص مشدوخة الوسط وذلك باللون الأصفر على أرضية بيضاء مزرقة وحددت العناصر باللون البني الفاتح.	
ج-165	54	عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها دائرة تتوسطها زهرة الرمان، يوجد في الأركان أربعة أوراق خماسية، وقد لونت هذه العناصر باللون الأزرق الفاتح والتركوازي على أرضية بيضاء.	نفس المكان والاستعمال
د-165		عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها أشكال مضلعات تتوسطها زهرة الورد بساق وأوراق.	نفس المكان والاستعمال

5- الخشب:

تعتبر مادة الخشب من المواد المهمة في زخرفة المباني، وذلك نظرا لقيمتها الوظيفية والجمالية، لذلك اهتمدى الفنان المسلم المهتم بمعالجة الخشب إلى الأساليب الصناعية وطرق زخرفية جديدة أملتها عليه حواسه المتفاعلة مع مكونات الطبيعة وعناصرها المختلفة التي كان لها الأثر البالغ في تشكيل التحف والنماذج الخشبية، سواء كانت قائمة على المباني التي لا تتفصل عنها كالسقوف والقباب والأعمدة والأوتار الخشبية بين العقود⁽¹⁾.

ولعل أرقى ما وصلت إليه الصناعة الخشبية الإسلامية هي صناعة التحف المختلفة وخاصة في صناعة الأبواب، إذ عمد إلى استعمال القطع الصغيرة بتقطيعها بأشكال هندسية مختلفة وتشبيك بعضها ببعض بتوزيع متين بديع، مما يرفع عدد القطع في المصراع الواحد أحيانا إلى المئات، وكلها محفورة مخرمة مرصعة ومزينة أحيانا بمختلف المواد من صدف وعاج ونحاس وغيرها، وهذه القطع الصغيرة تستعمل كحشوات، والتي تنتوع تصاميمها وتتداخل مع قطع أخرى، أو في أطر قوية لتشكل مصراع نافذة أو باب أو خزانة أو سقف وهي تحدث أشكال هندسية في غاية التعقيد مثل المستطيلات والمعينات والمربعات والمثلثات والأشكال النجمية.

والمؤسف أن المصنوعات والتحف الخشبية في مباني مدينة معسكر لم يبق منها نماذج أصلية كثيرة، نظرا لتعرضها للتلثف أو التغيير أو التخريب، ولم يتبق منها إلا نماذج

(1) - بورابة لطيفة: المرجع السابق، ص73.

قليلة تظهر في باب المدخل الرئيسي لجامع عين البيضاء وحمّام القرشالي، ومن خلال مظهرهما تظهر لمسة الإتقان والدقة في التركيب والصنع، حيث نتج عن ذلك تكويننا زخرفيا هندسيا بأشكال ومقاييس مختلفة تتمثل في المربعات والمستطيلات والمعينات. (تُنظر الصورة رقم 135) لقد اتبع في صناعة وزخرفة أبواب المداخل والغرف والخزائن الجدارية والنوافذ والدرابزين والخزائن الخشبية، عدة أساليب وطرق نذكرها على النحو الآتي:

أ- طريقة التجميع والتعشيق: هي صناعة التحف الخشبية من قطع صغيرة أو حشوات من الخشب ذات أشكال هندسية مختلفة، تُجمع معا وتعشّق داخل إطارات هندسية منتظمة⁽¹⁾. فكانت تتخذ أشكالا هندسية كالأشكال النجمية أو السداسية وغيرها، والتي حفر عليها زخارف عربية مورقة غاية في الدقة والإبداع⁽²⁾. وكان وراء ابتكار الحشوات عاملين أساسيين هما:

1- العامل المناخي: وذلك لأن مناخ أكثر البلاد الإسلامية متشابه يميل إلى الحرارة واختلاف الطقس بين الجفاف والرطوبة والبرودة والحرارة، وذلك ما يعرض الألواح الكبيرة إلى التمدد والتقلص، وبذلك إلى التقوس عبر الزمن فتتعرض إلى التلف، وهذا لا يلاحظ في القطع الصغيرة⁽³⁾.

2- العامل الاقتصادي: وهو أن معظم البلدان الإسلامية تفتقر لأنواع الجيدة من الخشب الذي حمّل النّجار على التدقيق في استعماله، وعدم التفريط في أية قطعة منه مهما صغر حجمها⁽⁴⁾، وكذلك انسجاما مع فكرة الزهد وعدم التبذير⁽⁵⁾.

ولعل أبرز أنواع التعشيق هي تعشيق النقر واللسان والتعشيق المنطوية⁽⁶⁾، وتعد هذه الطريقة قديمة، ابتكرت من طرف المصريين في العصور الأولى لحضارتهم⁽⁷⁾.

(1) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص165.

(2) - خليفة ربيع حامد: الفنون الإسلامية في العصر العثماني، ط4، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2007، ص198.

(3) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص517.

(4) - مرزوق محمد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ص165-166.

(5) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص517.

(6) - عقاب محمد الطيب: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002 ص44.

(7) - جودي محمد حسين: الفن العربي الإسلامي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 1419هـ -1998م، ص155.

وتتم تعشيقة النقر واللسان بجمع قطعتين من الخشب ببعضهما، وذلك بنقر إحداهما بالمنقار وتشكيل اللسان في القطعة الأخرى، ثم يُدخل اللسان في النقر ويُثبتا بالغراء، أما التعشيقة المنطوية فيتبع فيها عدة مراحل، وذلك بتجهيز القطعة الخشبية المراد تعشيقها حسب المقاسات المطلوبة، ثم تحدد أماكن التعشيق بعد إلزام القطعتين ببعضهما البعض ورسم خطوط متعامدة بعرض وجهي القطعتين وتحديد العمق المطلوب للتعشيق، وأخيرا تتركب القطعتان للجمع بصفة نهائية بواسطة الغراء أو المسامير⁽¹⁾.

ب- **طريقة الخروط:** هو عبارة عن قطع خشبية صغيرة مستطيلة الشكل، كانت تجمع بعضها إلى بعض لتكوّن أشكالاً فنية مخرمة⁽²⁾. يتم تشكيل هذه التقنية بتجميع قطع صغيرة من الخشب المخروط على أشكال مختلفة، حتى تبدو وكأنها شبكة منسوجة من قطع خشبية صغيرة، ولعل أجمل مثال على ذلك هي المشربيات. لقد بلغت هذه التقنية مستواها في الإتيقان في العهد العثماني، حيث تفنن الفنان في عملها من ناحية، وتنوع أشكالها ووحداتها من ناحية أخرى وقد اشتهرت مدينة الجزائر وقسنطينة بها.

أما أن أساليب الزخرفة الخشبية في الجزائر خلال العهد العثماني فقد كانت تقوم على عدة أساليب عديدة، كالحفر بأنواعه والحز والتقطيع والتطعيم والترصيع والصبغ، بالإضافة إلى الزخرفة بالمسامير⁽³⁾.

وعند المقارنة بين المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي في كيفية استعمال الخشب في مجال الزخرفة، يتبين أن الفنانين المغاربة لم يهتموا به مثلما اهتموا به في المشرق وخاصة في مصر⁽⁴⁾.

6- الزجاج:

هو من المواد المهمة التي وظفها الفنان في الزخرفة، وذلك لقيّمته في صنع الجمال يعتبر الزجاج من الصناعات القديمة التي استخدمت في الزخرفة، ولسوريا ومصر شهرة

(1) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص 167. يُنظر كذلك: شحاتة عزة علي عبد الحميد: المرجع السابق، ص 83.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 97. يُنظر كذلك: شحاتة عزة علي عبد الحميد: المرجع السابق، ص 92.

(3) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص 168 - 169 - 172.

(4) - محمد الطيب عقاب: قصور... المرجع السابق، ص 201.

قديمة، حيث بلغت هذه الصناعة قمّتها فيهما⁽¹⁾، كما تطورت زخرفة الزجاج في هذين البلدين. وقد اشتملت هذه المباني على عدة أنواع من الزجاج، حيث نجده مستعملا في الأقسام الداخلية، وخاصة العناصر المعمارية التي يكون دورها مرتبط بالإنارة، منها النوافذ والشمسيات والفتحات، وكذلك الأبواب والتي تحتوي على مجموعة من الزجاج الملون بالألوان المختلفة منها الشفاف والأحمر والأخضر والأزرق والأصفر... الخ، وهي موجودة بكثرة في الشمسيات والنوافذ كما أنها قسمت إلى قطع صغيرة أدمجت ووضعت داخل التخريّمات والفراغات لكي تعطي ألوان متعددة عند سطوع الشمس عليها وهنا يكمن طابعها الجمالي.

(1) - صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي التزام وإبداع، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1410هـ/
1990م، ص170.

الفصل الثاني: الزخارف الفنية

أولا/ الزخرفة الهندسية:

تعتبر الزخرفة الهندسية من أقدم الزخارف الفنية التي عرفها الإنسان، والتي تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، ثم عرفت في الفنون التي سبقت الإسلام، ولكن هذه الرسوم لم يكن لها في تلك الفنون شأن كبير، وكانت تستخدم في الغالب كإطارات لغيرها من الزخارف⁽¹⁾ فمثلا استعملت المبادئ الهندسية البسيطة في حضارة ما بين النهرين، كما استعملت في مصر القديمة في قياس الأرض وتأسيس الأبنية، وقد طور الإغريق هذه المعلومات⁽²⁾، ولكن حينذاك لم يكن لها الدور والأثر الذي حظيت به في الفن الإسلامي.

بلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة يكاد لا يدانيه فيها أي فن آخر وطور المسلمون هذه الزخارف على أسس مدروسة وابتكروا منها أنواعا لم تعرفها الفنون الأخرى⁽³⁾، فأصبحت تستخدم لذاتها وتكون عنصرا أساسيا من عناصر الزخرفة الإسلامية وقد استطاع المسلمون استخراج أشكال هندسية متنوعة من الدائرة، منها المسدس والمثلث والمُعشَر، كما برعوا في استعمال الخطوط الهندسية بأنواعها المختلفة المستقيمة والمنحنية والمظفرة، وصياغتها في أشكال فنية رائعة، نتجت عنها المضلعات المختلفة والأشكال النجمية والدوائر المتداخلة والأشكال المساحية كالمربع والمستطيل والمعين والمثلث، والعقود بأنواعها الحدوية والمنكسرة والنصف دائرية.

ولئن كانت هذه الأشكال الزخرفية دليلا على موهبة فنية عظيمة، فهي أيضا دليل على علم متقدم بالهندسة العملية⁽⁴⁾، ورغم ذلك فهذا لم يكن كافيا في نظر الفنان المسلم الذي أصبح شغله الشاغل أن يبحث عن تكوين جديد مبتكر يتولد عن اشتباكات وتقاطع

(1) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: الزخرفة الإسلامية، ط1، مكتبة المجمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، 1430هـ/2009م، ص205، يُنظر كذلك: - زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م، ص32.

(2) - المهدي عنايات: روائع الفن في الزخرفة الإسلامية، المغرب، مصر والشام، تركيا، الفن الفارسي الفن الهندي الإسلامي، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر 1983، ص198.

(3) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص ص 42 - 44.

(4) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص ص 40 - 205.

الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتحقيق الجمال الرصين الذي يسبغه على التحف⁽¹⁾، وهذا ما جعلها بعد ذلك تتجاوز الأشكال الهندسية البسيطة من مثلثات ومربعات ومعينات وأشكال خماسية وسداسية، وكذلك الأشكال الدائرية والجدائل، والخطوط المنكسرة والخطوط المتشابكة، ووصلت إلى مرحلة التراكيب الهندسية⁽²⁾.

وعلى الرغم مما يبدو في الزخارف الهندسية الإسلامية من تعقيد فإنها في حقيقتها بسيطة تعتمد على أصول وقواعد، من بينها تقسيم المحيط إلى أجزاء متساوية، ثم توصيل النقاط ببعضها البعض للحصول على أشكال هندسية مختلفة، مما يدل على عناية المسلمين بعلم الهندسة. ومن أبرز أنواع الزخارف الهندسية التي امتازت بها الفنون الإسلامية الأشكال النجمية متعددة الأضلاع والتي تشكل ما يسمى "الأطباق النجمية"، فالخطوط المتداخلة والأشعة المتجايزة والمتابذة تبدو لا نهائية، تمنحك سعادة التفكير وتفوقك بقوة إلى المطلق والحركة في كل من المورقات والأشكال الهندسية والنجمية، تجعل الإنسان يحس بشكل غامض بالحركة الكلية للكون في دورانه وتسيبته⁽³⁾، الأمر الذي استدعى تسميته من قبل أهل هذه الصناعة بـ "الخيظ" ويقصدون به الخطوط المستقيمة، و"الرمي" ويقصدون به الخطوط المنحنية والدوائر.

نلاحظ على هذه الزخارف أن بعضها يشد بعضا، وأن كل مساحة منها لها ذاتيتها وشكلها، وأنها ليست مجرد بقية من مساحة مجاورة تبدو مشوهة⁽⁴⁾، وقد انتشر هذا النوع من الزخارف في مصر والشام في العصر المملوكي، وفي العراق في العصر السلجوقي، وامتد إلى بلاد المغرب⁽⁵⁾.

وسبب هذه العناية الفائقة بالزخرفة الهندسية هو الخروج من دائرة التحريم التي أقرتها الشريعة الإسلامية في مضاهاة خلق الله، وذلك في رسم الصور الحيوانية والآدمية اعتمادا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون"

(1) - النحاس أسامة: الوحدات الزخرفية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص3.

(2) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص44.

(3) - قلعه جي عبد الفتاح رؤاس: المرجع السابق، ص79.

(4) - أحمد محمد عيسى وتحسين عمر طه أوغلي: "الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة"، أعمال

الندوة العالمية المنعقدة في اسطنبول أبريل 1983، دار الفكر، دمشق، 1989، ص46.

(5) - النحاس أسامة: المرجع السابق، ص3.

وهذا ما جعل الفنان المسلم يعزف عن ذلك ويلجأ إلى هذه الزخرفة، التي استخدمها في زخرفة جميع العمائر المختلفة من مساجد وقباب وأربطة وحصون وقصور وقلاع⁽¹⁾.

لقد زينت هذه الزخرفة المباني المذكورة، كما وشحت التحف الخشبية والنحاسية والحجرية ودخلت في صناعة الأبواب وأطرها والنوافذ والأفاريز والبلاطات الخزفية والعقود والأواوين والأعمدة والتيجان وزخرفة السقوف.

لقد استطاعت الهندسة أن تفرض سيادتها في الفن الإسلامي، لأن الأسلوب الهندسي يعتبر من الأساليب التي طبعت الزخرفة النباتية، باستعمالها في نفس الموضوع الزخرفي وذلك يعود إلى عدة أسباب من بينها كراهية الفنان المسلم للفراغ الذي أصبح من شعاره، إذ عمد إلى تغطية المساحات بزخارف متنوعة والإقبال إلى تكرارها تكراراً قال عنه الغربيون بأنه لا نهائي⁽²⁾، وبذلك فقد برعوا في استعمال هاتين الزخرفتين بأنواعهما، بل وفي كل شكل من هذه الأشكال، بحيث زادت كلاهما روعة فوق بهائهما، ومع العلم أن الزخارف الإسلامية المغربية مبنية أساساً على الأشكال الهندسية⁽³⁾، التي تتميز بالتنوع بطريقة الأفراد والتجميع وهو ما وقفنا عليه في مباني مدينة معسكر، ويمكن حصرها فيما يأتي:

1. **الأشكال الرباعية:** نجدها في الأبواب الخشبية والنوافذ، ونجد منها المربع والمستطيل والمعين وشبه المنحرف.

أ- المربع:

يعرف هذا الشكل الهندسي بكثرة استعماله، حيث أنه يعد أساساً للأشكال المتعددة الأضلاع الأكثر استعمالاً وللمضلعات أكثر تعقيداً⁽⁴⁾، وتولدت منه نجوم بعشرات الرؤوس ومتشابكات لا أول لها ولا آخر، إلى جانب الشكل الهندسي والقوة الزخرفية يحمل المربع رمزا ما ورائياً، فهو يمثل الأرض، والدائرة التي يدور في داخلها تمثل السماء، وبحركاته الدائرية وبزيادة سرعته نراه يحاول اللحاق بها للإتحاد معها⁽⁵⁾.

(1) - حسن خالد: المرجع السابق، ص 93.

(2) - نفسه: ص ص 93 - 160.

(3) - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 80.

(4) - شريل دانمر: الفن الإسلامي في المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال، ط1، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1986، ص 51.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 369.

استخدم المربع كوحدة زخرفية إسلامية وعمل بتشكيلات متشابكة ومتوالدة منها، كما شكلت هذه الأشكال بطريقة فنية متقنة ومنظمة وضعت بداخلها في بعض الأحيان زخارف نباتية محورة مثلما نلاحظه في الزخارف الجصية التي وشحت بها قبة المحراب في جامع عين البيضاء، وكذلك في بعض زخارف المربعات الخزفية التي ذكرناها سابقا. (تنظر الصورة رقم 51)

ب - المستطيل:

من المضلعات التي استعملت كنماذج زخرفية، فأحاطت بخطوط بارزة أو مساحات غائرة، وقد اقتصر استعماله على الأبواب والنوافذ، وكذلك في تأطير اللوحة التأسيسية في الجامع الكبير. (تنظر الصورة رقم 16)

2- المضلعات:

وهي عبارة عن أشكال تشكلت من تداخل أو تراكب أو تزواج عدد من الأشكال ومن أنواعها المستعملة في هذه المباني نذكر:

أ- **المثلث:** هو من الأشكال الهندسية التي دخلت في رسوم الزخارف الإسلامية وبشكل خاص متساوية الضلعين أو الأضلاع الثلاثة⁽¹⁾، وقد أدخلت مع العناصر الزخرفية في قبة محراب جامع عين البيضاء ونوافذه. (تنظر الصورة رقم 51)

ب - المسدس:

من الأشكال الهندسية المضلعة والنجمية، والتي ظهرت في الفنون الإسلامية بشكل عام والأعمال الحرفية والمعمارية بشكل خاص، وكانت ضمن المضلعات التي زينّت جامع أحمد بن طولون في القاهرة، وقد توسّلت نجمة داوود كعنصر زخرفي⁽²⁾، أما فيما يخص استعماله في مباني معسكر فهو مقتصر فقط على الأرضية الأصلية للطابق العلوي من دار الباي، وقد استبدلت حاليا بأخرى حديثة خلال عملية الترميم لكن بشكلها الأصلي. (تنظر الصورة رقم 102)

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 348.

(2) - نفسه: ص 383.

3- الأقواس:

استعملت بكثرة وتقريبا في كل المباني، سواء كانت بطريقة وظيفية أو جمالية، حيث زخرفت بها الأبواب والنوافذ في الجوامع، وفي الرسومات التي تزين واجهة محراب جامع عين البيضاء. (تُنظر الصورة رقم 48)

4- النجوم:

هي من الأشكال الهندسية التي لها خمسة رؤوس أو ستة أو ثمانية أو أكثر، إذ أنها من العناصر الزخرفية المهمة التي ميزت الفنون الإسلامية، ومن النماذج التي ارتقت لتداخل خطوطها وتشابكها إلى مستويات جمالية حضارية، ورمزت إلى أبعاد تجريدية ما ورائية تجاوزت العمل الفني البحت، وطبعت العريسة الإسلامية في أكثر الميادين، التي ظهرت عليها كالبنا والآنية والأثاث والأنسجة والمصاحف والمخطوطات وبكل المواد الممكنة⁽¹⁾. تحتوي مباني مدينة معسكر على شكلين من النجوم وهي النجمة الخماسية والتي نجدها في رسومات قبة محراب الجامع الكبير، كما استخدمت النجمة المثلثة في زخارف الظلة الخشبية التي تعلوا المدخل الرئيسي الأصلي في الجامع الكبير، وكذلك في زخارف قبة محراب جامع عين البيضاء. (تُنظر الصور رقم 18-46-51)

كما أن الفنان استطاع أن ينتج من هذه الأشكال ما يعرف بالأطباق النجمية التي تعد عنصرا هندسيا جديدا ظهر لأول مرة في القرن 6هـ/12م على تحفة مؤرخة هي محراب السيدة رقية⁽²⁾، والذي أصبح بعد ذلك من مميزات الفن الإسلامي في كامل الفترات وفي كل الصناعات. وتعد زخارف نواة قبة محراب جامع عين البيضاء نموذجا رائعا لذلك. (تُنظر الصورة رقم 51)

5- الدوائر:

هي أشكال هندسية في أساس الزخارف الإسلامية والأرابسك، تحكم في مسيرة المورق والمزهر والحلزوني منها، ورسمت فيه المربعات وهو ما يسميه البعض بـ"تربيع الدائرة"، وبتدوير المربع، ونجد أن الدائرة قابلة لتوليدات المثلث والأشكال النجمية والمضلعات

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 430.

(2) - جودي محمد حسين: الفن العربي... المرجع السابق، ص 155 - 156.

والخطوط المستقيمة والزوايا، وقد استعملت في نطاق واسع من الزخرفة⁽¹⁾، حيث أنها نفذت على شكل دائرة بداخلها عناصر زخرفية نباتية كالأزهار والوردات المحورة، مثلما نلاحظه في مربعتين بالجامع الكبير (يُنظر الشكل رقم 54) و(تُنظر الصور رقم 165-ج).

6- المعينات:

هي من الأشكال الهندسية التي استعملت في العمارة الإسلامية، وقد نُفذت في الزخارف الجصية بقبة المحراب بجامع عين البيضاء. (تُنظر الصورة رقم 51)

7- الخطوط المستقيمة:

وضعت كنطاقات على شكل أفاريز متدرجة في المآذن وأطر مداخل وأبواب مباني المدينة تقريبا.

ثانيا/ الزخرفة النباتية:

تقوم الزخرفة النباتية أو ما يسمى "فن التوريق" على زخارف مشكلة من أوراق النبات المختلفة من الزهور المتنوعة، وقد برزت بأساليب متعددة من أفراد ومزاوجة وتقابل وتعايق وفي كثير من الأحيان تكون الوحدة في هذه الزخرفة مؤلفة من مجموعة من العناصر النباتية متداخلة ومتشابكة ومتناظرة، تتكرر بصورة منتظمة⁽²⁾.

لقد كانت هذه الزخرفة في أول عهدها مكونة من ورق الأكانتس المقتبسة من فنون الإغريق والبيزنطيين، ومن الأزهار المستعارة من النمط الفارسي⁽³⁾، ثم قام الفنان المسلم بعد ذلك باتخاذ نمط وأسلوب خاص به، حيث أعطيت اهتمام كبير تجاوز كل الحدود خاصة بعد انصراف المسلمين عن رسم الكائنات الحية (حيوان، إنسان) وذلك لتحريمها أو تكريمها وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون"⁽⁴⁾.

وانطلاقا من هذا الحديث اتجه الفنان المسلم بشكل خاص نحو النباتات باعتبارها عناصر مجردة تمثل براءة الطبيعة ونقاء العقيدة وصفاء النفس، ومما شَبَّعَ هذا الاتجاه كثرة

(1) - دانمر شريل: المرجع السابق، ص 51.

(2) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص 39.

(3) - النحاس أسامة: المرجع السابق، ص 3.

(4) - قلعه جي عبد الفتاح رؤاس: المرجع السابق، ص 73.

«يُتَخَذُ مِنْهَا أَلْفٌ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَمَاثِلَةٍ»⁽²⁾، وبذلك كان الكائن الحي النباتي هو البديل، حيث ظهرت السيقان والأوراق لتكوين زخارف تمتاز بال تكرار والتناظر والتقابل، وأنتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية⁽³⁾، والتي سادت في الفنون الإسلامية وكثرت وأصبحت تسمى بفن التزيين التجريدي وفن التزيين^(*) أو الرقش العربي⁽⁴⁾، والتي عملت بطرق وأساليب متعددة من أفراد ومزاوجة وتقابل وتعانق، بحيث أنها تكون متداخلة ومتشابكة ومتناظرة تتكرر بصورة متماثلة ومنتظمة.

جاءت هذه التزيينات عملاً مؤسلاً، تخلى الفنان فيها عن العنصر الحي، كما أن الفنان المسلم صدق نيته في أنه لا يرمي البتة إلى التشبه بالله تعالى ومحاكاة مخلوقاته الحية⁽⁵⁾، وساد في مكانه مبدأ التجريد⁽⁶⁾، والبعد عن محاكاة الطبيعة ونقلها حرفياً، وقد أدى هذا التكيف مع متطلبات النهي الديني إلى تصوير خاص جداً للعمل الفني في الحضارة الإسلامية، وهو أن هذا العمل لا ينبغي أبداً أن يكون مرآة أمينة للعالم المرئي، بل عالماً خاصاً من الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلي داخلي وتنظيم رياضي دقيق⁽⁷⁾، وبذلك أصبحت العناصر الزخرفية الإسلامية في أكثر الأحيان عناصر رمزية زخرفية مجردة رسماً

(1) - عولمي محمد الأخضر: تطور الزخرفة النباتية في العمارة بالمغرب الإسلامي (من القرن الثاني إلى منتصف القرن السادس الهجري)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2001/2001، ص 24.

(2) - القرآن الكريم، سورة الإنسان، الآية 14.

(3) - شافعي فريد: المرجع السابق، ص 165، يُنظر كذلك: - الباشا حسن: مدخل إلى الآثار... المرجع السابق، ص 395.

(*) - التزيين: أطلق على هذا المصطلح عدة تسميات منها الأرابيسك والعريسة والتوشيح والرقش العربي، وهي كلها تدل على مفهوم واحد وهو تلك الزخرفة النباتية، التي تتألف من عناصر زخرفية مكونة من أفرع نباتية محورة وبراعم وأوراق نباتية ذات فصين متفرعة ومتصلة ومنوعة تتداخل، أو تتشابك دائمة الاتصال مع بعضها بطريقة هندسية منسقة جميلة لمزيد من المعلومات يُنظر: - الباشا حسن: مدخل إلى الآثار... المرجع السابق، ص 242، - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 35 - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 80.

(4) - ألكسندر بابا دويولو: جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة وتقديم علي اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1979م، ص 31، يُنظر كذلك: - صالح أحمد الشامي: المرجع السابق، ص 170.

(5) - ألكسندر بابا دويولو: المرجع السابق، ص 6.

(6) - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 170.

(7) - باب دويولو ألكسندر: المرجع السابق، ص 6.

ولونا، تبدو في فروعها الحلزونية وأوراقها النصف قلبية الشكل خطوطاً منحنية⁽¹⁾، كما أنها عولجت على مواد كثيرة، تحلت بها مادة الرخام والخشب والجص⁽²⁾، بالإضافة إلى أن معظم المربعات الخزفية قد زخرفت بها، وأخيراً نجد العناصر النباتية قد رسمت على الجدران بمختلف الألوان الزاهية⁽³⁾.

حظيت هذه الزخرفة باستعمال واسع في بعض مباني مدينة معسكر، وقد نال جامع عين البيضاء القسط الأكبر منها، وهو ما تمثله الزخارف الجصية التي وُشحت بها بيت الصلاة، وكذلك الجامع الكبير والمحكمة، وهي تتميز بعدة ميزات وهي التنوع والتتابع والتحوير والتجريد. (تنظر الصور رقم 29-49-50-51)

لقد رسمت هذه الزخارف النباتية والتمثلة خاصة في الأزهار والأوراق والسيقان بإتباع طريقة التحوير الطفيف، أو التحوير الشديد، الذي فقدت فيه العناصر النباتية خصوصياتها الأصلية، ولكنها وإن ظهرت بعيدة عن الطبيعة، فقد ظلت محتفظة بجمالها الفني الأصيل الذي يبعد الملل عن النفس، ولم يكن ذلك التحوير ناتجاً عن ضعف في قوة ملاحظة الفنان المسلم، أو عن عجز في مقدرته الفنية على الرسم، وإنما كانت ناتجة عن اتجاه جديد في الفن لم يكن موجوداً من قبل⁽⁴⁾، وكذلك تحولت نظرة المسلم إلى التزيين وصنع الجمال الدنيوي مراعيًا في ذلك تعاليم الدين الإسلامي. بالإضافة إلى ما سبق نلاحظ وجود زخارف الأرابيسك⁽⁵⁾ في جامع عين البيضاء، التي تميزت عناصرها بالتعدد في الألوان، وذلك ما

(1) - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 26.

(2) - راجعي زكية: الزخارف الجدارية في المغرب الأوسط من بداية العصر الحمادي إلى نهاية العصر المريني، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية، جامعة الإسكندرية، 1993، ص 185.

(3) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 202.

(4) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 276.

(5) - الأرابيسك: هي مصطلح أطلقه الفنان الأوروبي على نوع من الزخرفة العربية الذي ظهر في القرن 9/هـ في الزخارف الجصية التي تغطي الجدران في مدينة سامراء بالعراق، (إرجع إلى تعريف التزيين)، ولقد ظهرت كلمة أخرى تتوازى مع "أرابيسك" هي "موريسك": التي تستخدم في اللغات الأوروبية لتطلق على زخارف الفنون الإسلامية في المغرب الإسلامي لتميزها عن زخارف المشرق الإسلامي، لمزيد من المعلومات يُنظر: - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 265-266.

- الطائش علي أحمد: الفنون الزخرفية الإسلامية المذكرة في العصرين الأموي والعباسي، مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة 1420هـ/2000م، ص 72، - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 276.

وأصناف المراوح الموخزة والمسننة، الملونة باللونين الأبيض والأخضر، كما نجد أشكالاً تمثل شجرة السرو الملونة بالأخضر والأبيض. (تنظر الصور رقم 48-49-50) كما نجد استعمال بعض الأوراق المحورة على بعض المربعات الخزفية الموجودة في الجامع الكبير قوامها أوراق شجرة الرمان وأوراق محورة أخرى. (تنظر الصورة رقم 165-ج-د)

3- الأزهار:

تعتبر الأزهار من العناصر النباتية التي حظيت بعناية كبيرة في زخرفة المباني العثمانية، وهذا نظراً لجمال مظهرها مما ذلك دفع الفنان إلى رسمها بطريقة فنية رائعة، وقد اختلفت هذه الأزهار وتتنوع فمنها البسيطة والمركبة مثل: زهرة شقائق النعمان (اللله) وزهرة القرنفل وأزهار الورد المختلفة في أسلوب تشكيلها وزهرة الزنبقة والرمان.

أ- زهرة شقائق النعمان (اللله):

بدأ استعمال هذه الزهرة في زخرفة الخزف والسجاد التركي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وقد اشدت الإقبال على استخدامها في الخزاف في جميع الفنون في القرن الثامن عشر الميلادي، وبخاصة في تركيا في عهد السلطان "أحمد الثالث" (1703-1730م)، والذي عُرف عصره بعصر "زهرة اللله"، إذ تبارى خلاله محبو هذه الزهرة في استنبات أنواع جديدة منها، يمتاز كل نوع منها بشكله ولونه الخاص⁽¹⁾، ولقيت هذه الزهرة من العناية والإقبال ما لم تلقاه الأزهار الأخرى باستثناء "زهرة القرنفل"، التي شاركتها هذه المكانة، وزاد اهتمام الناس بها في تركيا شغف السلطان "أحمد الثالث" نفسه بها ووزيره "إبراهيم باشا"، حيث وُلدوا منها أنواعا جديدة في حدائق قصورهم، وأسس للأزهار مجلس يدعى باسمها لتنظيم المسابقات وتوزيع الجوائز على الذين يحصلون على أنواع جديدة من الزهرة.

لقد أقام السلاطين المعاهد لتدريس خصائص زهرة اللله وطريقة استنباتها وتهجين أنواع جديدة منها، ويذكر أن سفير هولندا في اسطنبول نقل زراعة زهرة اللله إلى حدائق قصره وحرص على عدم إذاعة سرها لكي يظل متميزاً عن غيره بامتلاكها، ورغم ذلك فقد تسرب سرها من قصره لتنتشر في جميع هولندا وتنتقل إلى أوروبا. ولعل أهمية هذه الزهرة لم

(1) - ماهر سعاد: الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، 1977، ص 78.

يأت من جمالها وشكلها الزخرفي فقط، ولكن أهميتها تتبع كذلك من الدلالة التي يحملها اسمها، فكلمة "لاله" في الحروف العربية تشكل نفس الحروف التي تكون لفظ الجلالة "الله" ومن ثم فإن هذا التشابه في الحروف أكسب هذه الزهرة جلالا وقديسية لدى الأتراك بصفة عامة⁽¹⁾.

وقد انتقل هذا الولع بالأزهار وزهرة اللاله على الخصوص إلى الفنون الزخرفية وصارت هذه الأخيرة طراز العصر، فرسمها الفنانون في أشكال متنوعة ومتعددة، منها شكل يشبه الهلال وهو الشارة المميزة للدولة العثمانية، وقد وجدت هذه الشارة المؤلفة من زهرة اللاله في "مسجد السليمية بأدرنة" محفورة على عمود على هيئة مقلوبة⁽²⁾، وهو ما نجده أيضا في الجامع الكبير في معسكر في قبة المحراب، حيث أنها رسمت داخل شكل يشبه قبيبة بصلية تتفرع من داخلها ثلاثة نماذج من زهرة اللاله، اثنان منها رسمت في الجوانب والثالثة تتوسطهما، تحمل قرص صغير يعلوه هلال ملون باللون الأصفر ونجمة خماسية ملونة بالأحمر، أما العناصر الأخرى فلونت بالأزرق التركوازي والأصفر والبني. (تُنظر الصورة رقم 29)

ظلت هذه الزهرة محافظة على مكانتها في المجتمع التركي، حتى غزا أسلوب "الباروك" و"الركوكو" من أوروبا الفن التركي في القرن الثامن عشر الميلادي، وستنتقل هذه الزهرة إلى أقاليم الدولة العثمانية، كما يتضح ذلك في الفنون الزخرفية المحفورة والمرسومة بالجزائر وتونس⁽³⁾.

والملاحظ أن استعمال هذه الزهرة قليل في مباني مدينة معسكر - ماعدا ما ذكرناه سابقا - مقارنة باستعمالاتها في مباني الجزائر العثمانية، وكذلك إذا ما نظرنا إلى مكانتها في الزخارف النباتية العثمانية عامة.

ب - زهرة القرنفل:

هي زهرة مجهولة المصدر، فقد تكون جاءت من إيران أو الصين، ومن أهم خصائصها أنها ترسم بأسلوب محور تحويرا شديدا وبطريقة تبدو وكأنها ذات نمط زخرفي

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 285.

(2) - نفسه: ص 285.

(3) - نفسه: ص 286.

بحت، بعيدا عن البساطة ولكنه ينتج تأثيرا جماليا لطيفا. وتزاحم هذه الزهرة في المكانة زهرة اللاله، فقد رسمت كل منهما إلى جانب الأخرى، وفي كثير من الأحيان تبرزان في زهرية واحدة. لقد انتشرت هذه الزهرة في مختلف أنواع الفنون الخزفية في تركيا والمناطق الخاضعة لها، كمصر وشمال إفريقيا، مثلما يتضح من الخزارف المحفورة والخزارف المرسومة على البلاطات والأواني الخزفية، وتجاوز التأثير التركي إلى أوروبا التي انتشرت في فنونها هذه الزهرة انتشارا واسعا ونفذت على الفنون الخزفية بها⁽¹⁾.

اقتصرت استعمال زهرة القرنفل في خزارف مباني مدينة معسكر على الجامع الكبير فقط، ويظهر ذلك في مربعة خزفية تم الإشارة إليها سابقا، وقد رسمت هذه الزهرة بحجم كبير يغطي كل مساحة المربعة. (يُنظر الشكل 55 والصورة رقم 165-أ).

وزيادة على هاتين الزهرتين استعملت أزهار أخرى كزهرة عباد الشمس المحورة التي زخرفت بها ظلة المدخل الرئيسي الأصلي للجامع الكبير، وكذلك استعمال زهرة الرّمان في زخرفة مربعات هذا الجامع. كما نجد أزهار أخرى متكونة من عدة بتلات، حيث نجد منها ثلاثية البتلات وذات الأربع بتلات أو أكثر، هذه الزهرة التقليدية التي امتد عمرها في الفن الإسلامي، وهي زهرة مشتقة من الفن القديم⁽²⁾. وقد رسمت هذه الأزهار مع السيقان والأوراق الملونة باللونين الأخضر والأزرق والأحمر، زينت بها بعض المربعات الخزفية الموجودة في الجامع الكبير وفي ظلة مدخله. (يُنظر الشكل 54 والصورة رقم 165-ج-د).

4- الأشجار:

تسمى الزخرفة التي تحتوي على عنصر الأشجار بالخزارف المشجرة أو الشجرية، وقد ظهرت كعنصر زخرفي في معظم الحضارات القديمة، كما استخدمت بكثرة في الزخرفة الإسلامية. لقد تواصل استعمال عنصر الشجرة في الفنون العثمانية، حيث وجدت مجموعة من مختلف أشكال الأشجار وشاع منها السرو والنخيل⁽³⁾. أما في مباني معسكر العثمانية

(1) - لرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص ص 287 - 288.

(2) - مالدونادو باسيليو بابون: الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة النباتية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة

محمد حمزة الحداد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2002، ص 143.

(3) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص ص 315 - 316.

فنجذ استعمال واحد للأشجار، وهي شجرة السرو في الزخرفة الجصية بجامع عين البيضاء وقد نفذت بطريقة محورة ولونت باللونين الأخضر والأبيض. (تنظر الصورتان رقم 48-50) وكان لشجرة السرو أهمية خاصة لدى الأتراك إذ كانت تغرس في المقابر، لتلطف برائحتها الطيبة الجو السائد فيها، كما أنها ترمز للخلود في عقيدتهم لاخضرار أوراقها على طول فصل السنة. وكانت تلون دائما باللون الأخضر لتحاكي لونها الأصلي في الطبيعة، وهي بذلك تعبر عن الحياة المتجددة، ولعل الأتراك أحبوا هذه الشجرة كذلك لما رأوا فيها من طول وتطلع نحو الأفق، أو قد يكونوا قد رأوا فيها ما يذكرهم بمآذن المساجد، فربما لسبب هذه المعاني الدينية كلها أو بعضها أكثرها من استعمالها في فنونهم الزخرفية المختلفة، وأكثرها منها في تزيين الأجزاء المقدسة من المباني كالمحاريب والميضآت، وفي سجاجيد الصلاة والزخارف المحفورة⁽¹⁾.

ثالثا/ الزخرفة الكتابية:

مما لا شك فيه أن الكتابة تعتبر من الظواهر الإنسانية التي اخترعها الإنسان منذ أن وعى ذاته، وجعل منها وسيلة لتسجيل الأفكار وحفظها، وقد تطورت الكتابة عبر العصور وخضعت إلى كثير من التعديلات والتحسينات إلى أن وصلت إلى صورتها النهائية⁽²⁾.
خص الإسلام فن الخط برعاية خاصة لصلته الوثيقة بالعقيدة، كما حظي الخطاطون المسلمون بعناية وتشجيع كبيرين لنفس السبب. ولهذا تعتبر الكتابة والخط العربي حيثما وجد دليلا على سيادة الإسلام وعظم تأثيره، ولأن الكتابة العربية هي الخط الذي دُون به القرآن فقد حرص العرب على إعطاء الخط الجميل عناية خاصة في كتابته، وكانت تحظى بإجلال ووقسية في كل بلاد الإسلام. حيث ظلت قائمة بين الأمم الإسلامية مدة طويلة ولا زالت فانتشرت اللغة العربية بانتشار الإسلام، تخدمه ويخدمها، ويعظم شأنها بعظم شأنه، وكانت قوية التأثير في البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن والحديث. وأصبح الحرف العربي واسطة التعبير في جميع اللغات الهندية والفارسية والتركية. وأخذ الخط مكانه كفن رفيع مرتبة مباشرة بالثقافة العربية والعقيدة الإسلامية⁽³⁾.

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 294.

(2) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص 169.

(3) - بهنسي عفيف: جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 93.

تتوعت الخطوط العربية تنوعا كبيرا، وكل منها يمتاز بخصائص جمالية وفنية معينة، بل نجد أحيانا هذا التنوع ضمن النوع الواحد من الخطوط كالخط الكوفي والنسخي اللذان ينقسمان إلى أنواع من الخطوط. وقد استمرت نفس الأنواع من الخطوط السابقة في العهد العثماني، فابتكر الفنانون الأتراك أنواعا أخرى خاصة بهم، كما أنهم نظروا إلى فن الخط نظرة تقديس جعلتهم يهتمون ويعملون على تطويره تطويرا كبيرا حتى بلغ قمته على أيديهم، كما عرف الأتراك جميع أنواع الخطوط العربية السابقة واستعملوها في حياتهم وفنونهم، كالخط الكوفي وخط الثلث والنسخي والتعليق والديواني وخط الرقعة⁽¹⁾.

ويتضح إجلال وتقدير الأتراك للخط العربي من استعمالهم له كجانب زخرفي في العمائر والفنون التطبيقية، كما ضمنوه معان جليلة تتم عن العاطفة الدينية والإيمان العميق وخصوصا حين تستعمل في المباني الدينية من مساجد وأضرحة. كما تتجلى عاطفتهم الدينية وإيمانهم العميق فيما ضمنوه للكتابة من صيغ دينية مختلفة وأشعار صوفية ومن الخطوط نذكر:

1- الخط المغربي:

اشتق الخط المغربي من الخط الكوفي القديم، وأقدم ما وجد منه يرجع إلى ما قبل سنة ثلاثمائة للهجرة (912م)، وكان يسمى الخط القيرواني، نسبة إلى مدينة القيروان عاصمة المغرب بعد الفتح الإسلامي. والخط المغربي من الخطوط القديمة، فهو منتشر حاليا في جميع إفريقيا الشمالية، وقد كان مستعملا في إسبانيا في القرون الوسطى، لكن أمور هذا الخط ساءت بعد سقوط الدولة الموحدية، حيث صارت حروفه بعيدة عن الجودة والإتقان وكثر فيه التصحيف. والخط المغربي هو امتداد للخط الأندلسي الذي اكتسب في المغرب حياة جديدة، وجمالا جديدا⁽²⁾.

استعمل المغاربة نقطة الإعجام، مع تنقيط حرف القاف بنقطة واحدة من أعلى وتنقيط حرف الفاء بنقطة واحدة من الأسفل، واستخدموا كذلك الشكل لتوضيح حركات الإعراب تبعا لطريقة خليل بن أحمد، ثم زادوا في التأنيق إذ سطوروا بعض الحروف وخففوا أشكال البعض

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص ص 247 - 248.

(2) - الجبوري يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص ص

الآخر المثقلة. ومن المميزات العامة لهذا الخط أنه يتميز بحواشي السطر المدعوكة عوضا عن الجوانب الحادة والجلية كجوانب الخط النسخي، فلم تكن تظهر السطور العمودية من حروف الألف واللام والطاء والظاء مستقيمة، إلا في حالات قليلة للغاية، فكانت تتخذ في أغلب الأحيان شكلا منحنيا، وتعلوها نقطة غليظة، كما أن عملية الربط بين الحروف المكونة للمجموع سيئة نوعا ما، ونجد أيضا بعض الحروف تحتفظ بالشكل الكوفي.

وكان انتشار الحرف المغربي في العالم الإسلامي موافقا لغاية انتشار مذهب الإمام مالك، ففي المناطق التي انتشر فيها المذهب مثل الأندلس والمغرب والسودان الغربي، كان الخط المغربي هو المستخدم فيها، ومن ذلك ظهرت أربعة خطوط معروفة وهي: الخط القيرواني والأندلسي والسوداني والفاصي.

أما عن مميزات هذه الخطوط نجد لكل واحد ميزة خاصة به، فالخط القيرواني يعرف بغلظة السطر وتظهر في الحروف قصيرة قريبة بعضها من بعض على قدر كبير من التناسق، أما الأندلسي فيعتبر أسهل الأنواع في التعرف عليه، فالحروف القصيرة والمستديرة تتجمع على شكل مكثف وتحتفظ بكل النقاط، كما لا يوجد تداخل بين الحروف نزرا لتسطير كل حرف على حدة، كما كان للأندلسيين أدوات أكثر إتقانا مكنتهم من تسطير الحروف.

أما عن الخط الفاصي فيتميز بالأناقة وطول الأسطر العمودية والتباعد بين الحروف ذات الامتداد واتحاد حجم الأسطر، وتناسقها، لكن الملاحظ لهذه السطور يكتشف كأنما حُطت منقطعة، وإذا فصلت الكلمات لوحظ التشويه، ومع ذلك فجميع الحروف تحتفظ بتناسقها التام ومن الملاحظ أيضا أن الأشكال العامة لحروف الكلمات متداخلة وكثيرا ما كانت تمتد امتدادا تظهر معه كأنما النقط تحذف في الحروف النهائية، وفيما يخص الخط السوداني فيعرف بشكله الجاف وحروفه الثقيلة غير المتناسقة وسطوره التي تبدو كثيفة أحيانا ودقيقة أحيانا أخرى، وقوائمه العمودية المرتفعة إلى حد لا يناسب غلظة الكتابة⁽¹⁾ وشكل القفلات، كذلك يلاحظ في هذا الخط زيادة ميل الحروف وانحدارها نحو الشمال، ولولا هذا الانحدار لكاد يشبه الخط الكوفي الجاف.⁽²⁾ وعن استعمالات هذا النوع من الخطوط في

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 394.

(2) - نفسه.

المنشآت المدروسة فهو منعدم، رغم استعمالاته الكثيرة في منشآت الجزائر خلال الفترة العثمانية.

2- خط الثلث:

إن المتتبع للكتابات والنقائش العثمانية يدرك ما وصل إليه هذا القلم من أناقة وحسن وبهاء، سببها درجة النضج الذي بلغه هذا القلم بفضل حذاقة الخطاط العثماني وتحكمه في أسراره التقنية وقواعده الفنية ومعرفته لأبعاده الجمالية هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن طبيعة حروفه التي تتميز بالطراوة والمرونة والسلاسة قد انبعثت عنه صفات كثيرة كالمحقق والمطلق، فضلا عن الجلي والتشابك الزخرفي وغيرها من صفات التراكم لهذا القلم، وهو ما جعله يحل محل الأقلام الأخرى في هذا العصر ليتربع على الكتابات التذكارية والزخرفية والشاهدية في جميع المجالات وعلى مختلف المواد، في العمائر وفي المعادن والرخام والحجر والخشب والقماش والجبص والزجاج وغيرها من المواد التي مازلت تشهد على عظمة هذا الخط ومكانته المرموقة خلال الفترة العثمانية في الجزائر وسائر الخلافة العثمانية⁽¹⁾.

استخدم هذا الخط على نطاق واسع في عمائر مدينة معسكر، خاصة في كتابة اللوحات التأسيسية، حيث نجده في اللوحة الأولى المثبتة على المدخل الرئيسي للجامع الكبير وكذلك في الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة المحراب، كتبت بلون أبيض على أرضية سوداء، كما نجده مستعملا في اللوحة التأسيسية لقبة سيدي الجيلاني وكذلك في الكتابة التأسيسية والقرآنية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء، هذا إضافة إلى اللوحة الوقفية المثبتة في نفس الجامع الأخير الذكر. (تنظر الصور رقم 16-17-24-42-43-46-48-50)

أما عن أسلوب الكتابة فيتميز بالإتقان والجودة في التنفيذ والعمل، حيث احترمت فيه القواعد التقنية والفنية، بالإضافة إلى ملئ الفراغ بمختلف أنواع الزخارف الفنية، مما أضفى عليه نظرة جمالية تلفت الانتباه. وفيما يخص الناحية التقنية فنلاحظ إتباع طريقتين في الكتابة، الطريقة الأولى هي النقش البارز الشائع الاستعمال تقريبا في كل كتابات المنشآت

(1) - معزوز عبد الحق: شواهد القبور في الجزائر 2- 13هـ / 8- 19م، دراسة نمطية وفنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2003- 2004، ص223.

المذكورة، والطريقة الثانية هي الكتابة بالريشة على الخشب ويظهر ذلك في الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة محراب الجامع الكبير.

3- مضمون الكتابات:

3-1- الآيات القرآنية: اقتصرنا على منشأة واحدة وهي جامع عين البيضاء.

المكان	الرقم	السورة	نص الآية
تجويفة محراب جامع عين البيضاء	38 / 37	النور	رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)
واجهة محراب جامع عين البيضاء	255	البقرة	اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

نلاحظ من خلال الآيات المنقوشة على محراب جامع عين البيضاء وواجهته تدعو إلى ذكر الله وطاعته وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكذلك تبيان قدرة الله سبحانه وعلمه الواسع، وقد استعمل المسلمون الآيات القرآنية في زخرفة الجوامع والمساجد، حيث نجد منها أمثلة في جوامع الجزائر نذكر منها الجامع الكبير المرابطي بتلمسان ومسجد أبي مدين واستمر ذلك خلال العهد العثماني وهذا ما يظهر جليا في جامع سوق الغزل وجامع سيدي الكتاني⁽¹⁾.

(1) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص782.

3-2- الصيغ الدينية: شملت عبارات دعائية، وذلك ما نجده شائعا في كتابات المنشآت الإسلامية عامة وفي مختلف الفترات التاريخية وهذا تفصيل لمضمون كتابات منشآت معسكر.

المكان	الصيغ الدينية
واجهة محراب جامع عين البيضاء.	أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
- الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة المحراب، في الجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني. - الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	البسمة (بسم الله الرحمن الرحيم)
- واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة التأسيسية الأولى والثانية بالجامع الكبير. - الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	الحمد لله
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير.	خلد الله ملكه
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - واجهة محراب جامع عين البيضاء.	أيده الله ونصره أمين يا رب العالمين
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	رحمه الله

3-3- الأسماء والألقاب: وردت مجموعة من الأسماء والألقاب في الكتابات الموجودة في منشآت مدينة معسكر وهي كالاتي:

المكان	الأسماء والألقاب
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير.	سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبدہ
- اللوحة التأسيسية الأولى والثانية بالجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	الحاج عثمان باي بن السيد إبراهيم
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	السيد محمد باي بن عثمان (تم التعريف به سابقا)
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	المعلم أحمد بن محمد بن حج احساين بن صارمشيق
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	السيد الحاج مصطفى بن بوشلاغم (تم التعريف به سابقا)
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	السيد ابن محمد بولكباشي بن عثمان
- اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني.	الشيخ الجليل سلطان الصالحين سيدي عبد القادر الجيلاني
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني.	أمير المؤمنين
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	خليفة السلطان

رابعاً/ الزخرفة الرمزية:

تستمد هذه الزخرفة موضوعاتها من العناصر الطبيعية والآدمية التي استنبطها الفنان من مخلوقات الله، وذلك عن طريق تدبره وملاحظاته لها، حيث أراد الفنان المسلم أن يجسدها في أعماله الفنية ليظهر مدى تأثره بها من جهة، وجمال مظهرها من جهة أخرى كما استطاع أن يعطي لهذه الرموز عدة مدلولات أصبحت من بين عادات وتقاليد المجتمع وهي في معظمها تتمثل في الهلال والنجوم ويد الإنسان⁽¹⁾.

استخدمت هذه الزخرفة منذ القدم، ويظهر ذلك في الفن المصري القديم وفي حروف الكتابة الهيروغليفية، والكثير من الرسوم المسجلة للحياة اليومية⁽²⁾، بالإضافة إلى فن بلاد الرافدين، ويظهر ذلك في الكتابة المسمارية، كما تميز بها الفن الإسلامي عامة والفن العثماني خاصة، ولكن الرمز في الفن الإسلامي، وإن كان وجد واستخدم في بعض الأحيان، إلا أنه لم يستمر طويلاً في أداء رسالته، فقد تحولت هذه الرسالة إلى زخرفة خالصة خلت نتيجة لذلك من أي معنى مفهوم مباشر، وانضمت إلى الزهور والتوريق والأشكال النجمية التي لم يكن لها ابتداءً رسالة معينة⁽³⁾، ومن أهم العناصر الرمزية التي سادت في العرائر في الفترة العثمانية نذكرها على النحو الآتي:

أ- **الهلال**: اتخذ العثمانيون الهلال رمزا وشعارا لدولتهم اعتبارا من عهد السلطان سليمان^(*) القانوني⁽⁴⁾، ويظهر ذلك في علم الدولة، كما اشتهرت به الكثير من البلدان الإسلامية الأخرى منها الجزائر، حيث أنهم تفننوا في رسمه فبرزت مجموعة من التأثيرات الفنية التي

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 206.

(2) - المهدي عنايات: فن الزخرفة الفرعوني الآشوري، البدائي والقديم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، ص 13.

(3) - شاخت جوزيف، ديوزورت كليفور: تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة ج 1، ط 3، كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978، ص 369.

(*) - هو السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول، ولد في طرابزون سنة 1495م وتوفي سنة 1566م، وهو من أعظم سلاطين آل عثمان، بلغت فترة حكمه حوالي 46 سنة (1520 - 1566م)، ووصلت الدولة العثمانية في عهده إلى أوج مجدها واتساعها، اهتم بتنظيم قوانين الدولة وعمل على تطبيقها بصرامة وحزم ولهذا لقب بالقانوني، كما قام بعدة فتوحات في بلاد النصارى وضم بعض مناطق شمال إفريقيا إلى دولته، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- عبد الحافظ عبد الله عطية: المرجع السابق، ص 350 - 341.

(4) - خليفة ربيع حامد: فن الصور الشخصية في مدرسة التصوير العثماني، ط 2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006 ص 101.

طبعت الزخرفة في تركيا والإيالات التابعة لها⁽¹⁾، وأحيانا نجده مرسوم داخل الأزهار⁽²⁾. في الخزف أو البلاطات الخزفية أو لوحات البلاطات، أو شكّل بأسلوب الحفر في الجص أو في الأشغال المعدنية أو الخشبية أو على الرخام والحجر، والمعروف أن الهلال لم يكن له في المنشآت والزخارف المغربية دلالات محددة أو شعار معين، ولم يتردد صداه في الزخرفة بشكل كثيف ومحدد حتى مجيء العثمانيين.

إن أهم مكان شغله عنصر الهلال في المنشآت الجزائرية في العهد العثماني هو إطارات الأبواب الرخامية والحجرية الخارجية والداخلية، وكذلك في أعلى جواسق المآذن، وفي تيجان الأعمدة ومفاتيح العقود وفي السياجات الحديدية للنوافذ والفتحات المختلفة داخل المباني وخارجها، وأحيانا يرفع على قضيب معدني كناية عن العلم، مثلما يتضح في المنحوتات الحجرية والرخامية وخاصة في تيجان الأعمدة من النوع الكورنثي المنحوت وفقا لأسلوب الباروك.

وتتعدد أشكال الهلال من حيث استدارته وسمكه، حيث تفنن الفنان في تشكيله والتلاعب بهيئته وتنويع صورته، فصوره تختلف من إطار باب إلى آخر، فيتخذ شكل قوس متجاوز لنصف الدائرة مفتوح أشبه ما يكون بالعقود الحدوية في المنشآت المغربية الأندلسية، وتضييق فتحته أحيانا وتتعلق أحيانا أخرى، وفي كل الأحوال شكّله الفنان برقة كبيرة ورشاقة وصاحب الهلال أحيانا سحابة كثيفة أو أقل كثافة، أو رسم داخله زهرة أو قرص الشمس وأشعتها أو الأشجار، مثلما يتضح في بعض الملابس وخاصة ملابس السلاطين، وقد أغرم العثمانيون بالهلال منذ عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح أحد أبرز العناصر الزخرفية في فنونهم، إضافة إلى دلالاته السياسية.

إن استخدام عنصر الهلال في هذه الأماكن المفتوحة يبدو مقصودا ليكون ظاهرا للعيان تشاهده العين المجردة، ولاشك أن ذلك له دلالاته السياسية من حيث التعبير عن الحضور السياسي الدائم للدولة العثمانية وتأكيد سيادتها باعتبار أن الهلال شعارها الرسمي⁽³⁾.

(1) - مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية في المغرب... المرجع السابق، ص 54.

(2) - خلاصي علي: المرجع السابق، ص 342..

(3) - لعرج عبد العزيز: مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص 540 - 541.

وإذا كان هذا العنصر يمثل شعار الدولة العثمانية وباعتبار أن مدينة معسكر كانت مركزا لبائلك الغرب، فإن هذا حتما يستوجب استعمال شارة هذه الدولة في هذه العاصمة، وقد جسد ذلك الفنان في المباني بمختلف أنواعها، حيث نجده مستعملا في جامعي المدينة في هلال المثذنة، كما رسم في قبة المحراب في الجامع الكبير، والزخارف الجصية بطاقية محراب جامع عين البيضاء، ونجده أيضا كعنصر زخرفي بالقاعة الساخنة في حمّام الازدهار، وكذلك مربعات القاعة الباردة بحمّام حمزة. وقد لون بألوان مختلفة منها تحديده باللون الأحمر وتلوينه باللون الأصفر وكذلك تلوينه كلية باللون الأزرق، وزيادة على ذلك نجد بعض الأهلة المحورة توافق مع الغرض الذي أنشئت من أجله ويظهر ذلك في تيجان أعمدة الطابق الأرضي من المحكمة. (يُنظر الشكل رقم 43) و(تُنظر الصور رقم 29-48-164)

ومن خلال استعمالات هذا العنصر الزخرفي في الزخرفة تبين أن الفنان المسلم قد تأثر تأثرا كبيرا به، لأنه ذو أهمية وأصبح من الرموز المقدسة عند المسلمين، وذلك لارتباطه ببعض العبادات اعتمادا على قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُّوا صُلُوبَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽¹⁾، كما أصبح هذا الرمز حسب المعتقدات الشعبية خاتم سليمان يستعمل لكي يقيهم من العين والجن⁽²⁾.

ب - النجوم:

النجمة هي عنصر هندسي تعدى استعماله كعنصر رمزي، ومن بين هذه النجوم النجمة الخماسية والمثمثة، والنجوم على اختلاف أشكالها كانت تحمل معاني أسطورية وقدسية، فإذا كانت ترسم على مقياس الدائرة واشتقاقا منها، فإنها تحمل معان انطلاقا من الدائرة القدسية أيضا⁽³⁾، وكانت للنجوم معان مختلفة باختلاف عدد رؤوسها⁽⁴⁾.

1- النجمة الخماسية: حملت رمز الإنسان أو الجسم الإنساني الكامل عند فيثاغور فالنجمة الخماسية تمثل الإنسان الكامل في الفلسفة الإغريقية، ويبقى هذا الإنسان محور

(1) - سورة البقرة: الآية 189.

(2) - خلاصي علي: المرجع السابق، ص330.

(3) - عيسى أحمد محمد: المرجع السابق، ص58.

(4) - بهنسي عفيف: الفن الإسلامي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1986، ص101.

الوجود وقطب العالم، وفي الفلسفة العربية الإسلامية هي تحوير للنجمة السداسية وإدماج للمثلثين المعبرين عن جزئي الكون فيها⁽¹⁾. استعملت في زخرفة قبة المحراب في الجامع الكبير، ولونت باللون الأحمر. (تُنظر الصورة رقم 29)

2- النجمة المثلثة:

استعملت هذه النجمة في الجامع الكبير، وذلك في زخرفة الظلة الخشبية التي تعلوا المدخل الأصلي، وهي تظهر على شكل تقاطع مربعين يتوسطهما زهرة بعدة بتلات وأخرى موضوعة داخل زهرة عباد الشمس، كما نجد استعمالها في طاقيّة وأركان قبة محراب جامع عين البيضاء، وقد جعلت بداخلها زهرة من عدة بتلات، ملونة بعدة ألوان مختلفة. (تُنظر الصورة رقم 51)

وعلى ضوء ما سبق لاحظنا أن النجمة المثلثة تتشكل من تداخل مربعين، وقد جعل لكل مربع رمزية خاصة به، فالمربع الأول يعبر عن القوى الأربعة في الطبيعة، فالضلع الأعلى يمثل الهواء، والضلع الأدنى يمثل التراب، والضلع الأول يمثل الماء والأيسر يمثل النار، والمربع الثاني يعبر عن الجهات الأربعة: الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتداخل المربعين يعني أن قوى الله فوق كل قوى الطبيعة، وهي منتشرة في جميع أنحاء الوجود، " **أَبْجَدِيَّةُ الْأَرْبَعَةِ** "، وبالإضافة إلى ذلك فقد قام المربع ومركباته بأدوار كثيرة في أكثر من ميدان في مساحاته وما يمكن أن يقام عليها من مربعات أصغر رسمت الطلاسم والتعاويذ وركبت الأرقام السحرية والأحاجي الحسابية، كما رمز إلى العناصر الأربعة الأساسية وهي الماء والهواء والنار والتراب⁽²⁾.

(1) - تعرف هذه النجمة بنجمة داوود أو خاتم سليمان، فقد حملت مع الأيام معنى آخر، ويعتبر اليهود أنفسهم صنوا للعالم أجمع، تبعاً لعقيدتهم الصهيونية بتفوق عنصرهم، وهي ناتجة عن تشابك وتداخل مثلثين، وهي تعبر عند المسلمين عن تداخل السماء والأرض لتشكل الحياة والرمز إلى الوجود الواحد، أما عند اليهود فيرون في المثلث الأول الهرمي رمزا للوجود اليهودي، أما المثلث الثاني الهرمي المقلوب فهو رمز للوجود الإنساني الآخر (الغوييم)، وبهذا فإن نجمة داوود تعبير عن سيطرة اليهود على العالم، ولتوضيح ذلك فإن رأس كل من المثلثين يمثل العقل في الوجوديين اليهودي والعالمي، ولكن العقل اليهودي هو السليم المتفوق (كذا)، والعقل العالمي متخلف مقلوب، أما القاعدة في المثلثين فإنها تمثل قطب المادة والطاقة لمزيد من المعلومات يُنظر: - بهنسي عفيف: الفن الإسلامي... المرجع السابق، ص 102.

(2) - فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 392.

ومن خلال هذه الزخرفة النجمية يتبين أن استعمالها كان بصفة دائمة، ولا ربما يعود ذلك إلى تأثر الفنان المسلم بقوله تعالى ﴿لَا يَخْلُقُ إِلَّا الْإِنسَانَ الْمِرَّةَ﴾ (1).

ج- اليد المشرعتين (الخامسة):

اقتصرت استعمال هذا الرمز على حمّام الازدهار، ويظهر ذلك في القاعة الساخنة، وقد رسمت داخل هلال ووضع فوقها شريط كتابي تم ذكره سابقا، وحددت أطرافها باللون البني وملئت الفراغ الزخرفي باللون الأزرق الفاتح، أما عن رمزيتها فهي في الحقيقة طلسم أكثر منه زخرفا، وتدور حوله قصص لا تخلوا من الطرافة، فالكف يرمز إلى البطش وهو بأصابعه الخمسة يشير إلى قواعد الإسلام الخمسة، والهدف من نقشه هو لكي يبطش بكل من تحدّثه نفسه بالاعتداء على حرمة الدار (2). أي أن صاحب المبنى مسلم، والمسلم يجب أن تحفظ حرمة وكرامته، ولا يجب تتبع عوراته، كما لا يمكن تحويل النظر إلى وجهة بيته، خاصة إذا كان الباب مفتوحا (3). (تُنظر الصورة رقم 164).

ولقد أستعمل هذا الرمز أو الطلسم كثيرا عند أهل غرناطة، حيث كان يعلق كفا في حزامهم أو على أبواب دورهم، أو في رقبة الكلب أو على رأس الفرس، وذلك حماية لمن يحملها من الحسد (4).

تبيّن لنا من خلال هذه الدراسة أن جل مباني مدينة معسكر تفتقر للثراء الفني ولعل أن السبب في ذلك يعود إلى التغييرات والتجديدات التي أدخلت عليها خلال فترة الاحتلال الفرنسي، خاصة منها المنشآت المدنية، لكن رغم ذلك فقد شدّ انتباهنا المربعات الخزفية الموجودة في الجامع الكبير والزخارف الجصية التي تزين جامع عين البيضاء، حيث أنها تعد بحق آية في الجمال والإتقان، وتعبّر عن مدى التطور الذي وصل إليه الفنان في تلك الفترة، الذي مزج مختلف الزخارف المتنوعة بين الهندسية والنباتية والكتابية والرمزية في مكان واحد.

(1) - سورة الملك: الآية رقم 05.

(2) - مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية في المغرب... المرجع السابق، ص 93.

(3) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 247.

(4) - مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية في المغرب... المرجع السابق، ص 93.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذا البحث الذي قمنا به حول عمران مدينة معسكر كدراسة أثرية عمرانية ومعمارية إلى مجموعة من النتائج، والتي تتحصر أساسا في عدة نقاط مهمة وأساسية تتمثل في:

- يعتبر الموقع الجغرافي الذي تحتله منطقة معسكر من بين المواقع الإستراتيجية الموجودة في الجزائر، والتي استقطبت الإنسان منذ فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة الإسلامية، وذلك راجع إلى توفرها على كل الشروط الأساسية التي يجب أن تراعى في قيام المدن، إذ أنها تعتبر كنقطة وصل بين المدن الكبرى من مدينة تلمسان إلى مدينة تيهرت ومن مدن الشمال كمدينة وهران ومستغانم والمناطق الجنوبية، وذلك ما انعكس عليها إيجابا من الناحية الاقتصادية في تنشيط المعاملات التجارية في أسواقها التي صارت مشهورة بين التجار، مما ساهم في تحسين الظروف الاجتماعية للسكان.

- توفر المدينة على الماء من عيونها العذبة، الذي يعد الشرط الحيوي والأساسي لحياة سكانها، وكذا سهولة الحصول على الميرة لكون المنطقة زراعية بآتم معنى الكلمة، فسهل غريس كان يوفر حاجياتها الغذائية لسكانها ولسائمتهم، وكذلك توفر مصادر الطاقة مثل الخشب وغيره.

- كان اختيار مدينة معسكر خلال الفترة الرومانية والإسلامية كمنطقة مراقبة لكل تحركات القبائل المعادية لنظام حكمهم، والمتمركزة في السهول والقرى المجاورة لها، وذلك لتموقعها فوق هضبة ذات ارتفاع جيد صالح لتغطية كل ضواحيها، بالإضافة إلى أنها محصنة تحصينا طبيعيا بجمال بني شقران ذات المسالك الوعرة، إذ من الصعب على أي كان اجتيازها في حالة الحراسة والمراقبة.

- تضارب الآراء حول أصول تسمية مدينة معسكر وما صاحبها من اختلاف في الرؤى وبعد البحث والتحري قمنا بفك اللغز الذي ينتاب ذلك بالاعتماد على الشواهد المادية والأثرية والنصوص التاريخية ومقارنتها، حيث توصلنا إلى أن تسميتها الأولى هي

"فيكتوريا" الرومانية، ثم أعطيت المدينة فيما بعد اسم آخر خلال الفترة الإسلامية وهو "المعسكر".

- امتداد الجذور التاريخية لمنطقة معسكر إلى عصور ما قبل التاريخ ولعل موقع تيغنيف لخير دليل على ذلك، كما شهدت تواصل الاستقرار البشري فيها، والمتمثل في القبائل البربرية الأمازيغية، التي وقفت ضد حملات التوسع والسيطرة الرومانية، مما دفع هذا الاحتلال إلى وضع اللبنة الأولى لتأسيس المدينة، التي كانت بصيغة عسكرية ببناء قلعة عسكرية للمراقبة والتحكم في تحركات قبائل المنطقة من جهة واستنزاف خيبتها من جهة أخرى.

- استرجاع المدينة مكانتها بعدما انطفأت شمعتها خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى غاية قيام الدولة الزيانية على يد يغمراسن بن زيان، الذي اتخذها كقلعة عسكرية لمراقبة القبائل المتمردة على حكمه.

- الدور التاريخي البارز للمنطقة خلال الفترة العثمانية في مواجهة التحالف الزياني الإسباني ضد العثمانيين، وهو ما دفعهم بعد ذلك إلى بنائها وتعميرها واتخاذها كعاصمة لبايك الغرب في فترة حكم الباي مصطفى بوشلاغم.

- شاركت منطقة معسكر في تغيير الواقع السياسي للإيالة الجزائرية، إذ أنها كانت القاعدة الأساسية للجيش العثماني الذي أخضع القبائل المتمردة في الجنوب.

- ساهمت مدينة معسكر في التحرير النهائي لمدينة وهران من الاحتلال الإسباني في عهد الباي محمد الكبير.

- فقدان مدينة معسكر لمكانتها السياسية والعلمية، بسبب انتقال مقر البايك منها إلى مدينة وهران في فترة الباي محمد الكبير، الأمر الذي أدى إلى هجرة العلماء والطلبة، مما أدى إلى أفول نجمها، وانتهاء دورها الريادي في البايك.

- تأثر مدينة معسكر بهذا الحدث السياسي المتمثل في تغيير عاصمة البايك، حيث أنها أصبحت مسرحا وساحة لثورات وانتفاضات الطرق الصوفية ضد السلطة العثمانية، نذكر

منها على وجه الخصوص الثورة الدقاوية والتجانية، وقد نتج عن ذلك تخريب الكثير من منشآت المعمارية.

- استعادة مدينة معسكر لمكانتها المفقودة في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، حينما بوع الأمير عبد القادر كأمر على الجزائر، حيث اتخذها عاصمة للدولة الجزائرية الحديثة وكنقطة انطلاق لمقاومة الجيوش الفرنسية.

- تشابه تخطيط مدينة معسكر مع تخطيط مدن الجزائر إلى حد كبير من ناحية الهيكل العام، وذلك في توسط المسجد الجامع ودار الباي للمدينة، وجعل المساكن في انعزال عن المراكز العامة، وتحصين المدينة بالأسوار المدعمة بأبراج للمراقبة، وأبواب رئيسية محدودة العدد للتمكن من مراقبة ومعرفة الخارج والداخل من وإلى المدينة.

- يعتمد تكوين النسيج العمراني للمدينة على الرحبات، وهي طريقة اعتمدها البايات في توسيعها وتطويرها، بسبب كثرة الوافدين والطالبين للسكن والاستقرار فيها، خاصة في فترة حكم الباي محمد الكبير، الذي أنشأ رجة عين البيضاء لتخفيف الضغط على مركز المدينة.

- احتفاظ المدينة بعدد معتبر من المنشآت المعمارية التي تعود إلى الفترة العثمانية، رغم حملات الطمس والتهديم التي صاحبت احتلالها من طرف الجيش الفرنسي، حيث كانت المنشآت الدينية والتعليمية والمنشآت الإدارية من الأهداف الأولى في هذه العملية كالمدرسة المحمدية وفندق الجيش والجامع العتيق وأبراج المدينة.

- تنوع المنشآت المعمارية في المدينة، حيث أنها جمعت بين الدينية والمدنية والعسكرية كما تأثرت في مخططاتها بالطراز المحلي والعثماني، مثلما يظهر ذلك في الجامع الكبير ذو الطراز المحلي في تخطيط بيت الصلاة القائم على الأعمدة وشكل المئذنة المربعة وكذلك الطراز العثماني الوافد في جامع عين البيضاء، وذلك في الاعتماد على القبة المركزية في تخطيط بيت الصلاة وفي شكل المئذنة الأسطواني.

- احتضنت هذه المنشآت عدد كبير من العلماء، الذين ساهموا في تنشيط الحركة الثقافية وتكوين وتأطير عدد معتبر من الطلبة، الذين كان لهم دور كبير في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني نهائياً.
- اشتهرت المراكز التعليمية بمدينة معسكر بنظام تعليمي جعلها تنافس دروس الجوامع والمدارس الكبرى في المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، فكانت المدرسة المحمدية خير دليل على مدى تطور المستوى التعليمي، اعتماداً على ما قاله المؤرخ ابن سحنون الراشدي: "كاد العلم أن ينفجر من جوانبها".
- إن هذا الزخم الثقافي لم يكن محض الصدفة، بل كان نتيجة عوامل عديدة منها تشجيع الحكام والسلاطين للعلم والعلماء، خاصة الباي محمد الكبير، فقرب إليه العلماء وخصهم بمكانة مرموقة، كما منح المناصب القيادية وأغدق عليهم المنح والهدايا، نذكر منهم على سبيل المثال: العالم محمد بن عبد الله الجلاي، الذي عُيّن كمدير على رأس المدرسة المحمدية وكرئيس للطلبة في رباط وهران، وهذا ما زاد من عدد العلماء بهذه المنطقة لاستحسانهم لهذا الباي، فكانت منطقة معسكر بحق منارة علمية.
- اشتهرت معسكر بكثرة الأضرحة في العهد العثماني، وذلك مرتبط باحتضانها للعلماء والصالحين، الذين كرسوا حياتهم للتدريس ومحاربة البدع والخرافات، الأمر الذي دفع بأهلها لتكريمهم وتخليد ذكراهم ببناء الأضرحة، وكذلك خصّهم بالزيارات والصدقات للتبرك بهم.
- قلة الثراء الزخرفي في منشآت المدينة بالمقارنة مع مدن العواصم، كمدينة الجزائر وقسنطينة، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى أعمال الطمس التي قام بها الاحتلال، وكذلك التغييرات التي أحدثها أهالي المدينة بعد الاستقلال، وما بقي منها نجده في الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، فهو يعبر عن مدى التأثير بالفن العثماني، وذلك يظهر في المربعات الخزفية في بيت صلاة الجامع الكبير وفي الزخرفة الجصية التي تزيّن محراب جامع عين البيضاء وقبته، وقوام هذه الزخارف أزهار مثل زهرة اللاله والقرنفل وشجرة السرو وأشكال رمزية مثل الهلال والنجوم واليد المشرعة، وزخرفة كتابية شكلت من خط الثلث.

- تتميز دور مدينة معسكر بعدم التعقيد في تصميمها، وخضوعها للنمط الإسلامي المعروف بطابق وفناء مكشوف، ومراعاة تعاليم الدين الإسلامي في بنائها، وتأثيرها بالعوامل الطبيعية في عملية بنائها، مثل جعل السقوف جمالونية والاكتفاء بطابق واحد.
- تأثر دور معسكر بقصور ومساكن مدينة الجزائر من حيث التصميم العام، وبساطة عناصرها المعمارية، والاكتفاء باستعمال المواد الأقل تكلفة مثل الحجر الجيري.
- كثرة الحمامات العامة في معسكر وتشابه مخططاتها مع المخططات المعروفة في الحمامات القديمة، خاصة منها الرومانية وكذلك الإسلامية، ومراعاة كل الشروط الضرورية لصحة الأبدان وراحة الأذهان.
- اكتشاف أخطاء جسيمة في عملية ترميم بعض منشآت المدينة مثل دار الباي والمحكمة وهذه الأخطاء ناجمة عن اللاوعي وإشراف أناس غير متخصصين في هذا المجال، مما نتج عن ذلك طمس بعض العناصر المعمارية والفنية، كما أدى إلى إعادة ترميمها مرة أخرى.
- استعمال العناصر المعمارية القديمة والإسلامية المحلية في بناء منشآت المدينة. ومن خلال المعاينة العامة لمنشآت مدينة معسكر، لاحظنا أن صورتها المعمارية والفنية تزداد سوءا يوما بعد يوم، وذلك يعود إلى التغييرات والتجديدات التي تتعرض لها عشوائيا، في غياب تدخل المصالح المعنية بذلك، نظرا لغياب الترميم من جهة ومساهمة السكان القاطنين بداخلها من جهة أخرى.
- وفي الأخير نتمنى أننا قد ساهمنا ولو بالقدر القليل في إعطاء الموضوع حقه من الدراسة حول هذه المدينة العريقة والضاربة بجذورها في التاريخ، وكذلك لمنشآتها التي مازالت صامدة أمام كل عوامل التلثف والاندثار، وهذه خطوة أولى قد تفتح الباب بمصراعيه أمام المزيد من البحث والدراسة للمتخصصين والمهتمين بهذا المجال، للمساهمة في إنقاذ معالم المدينة بترميمها وصيانتها.

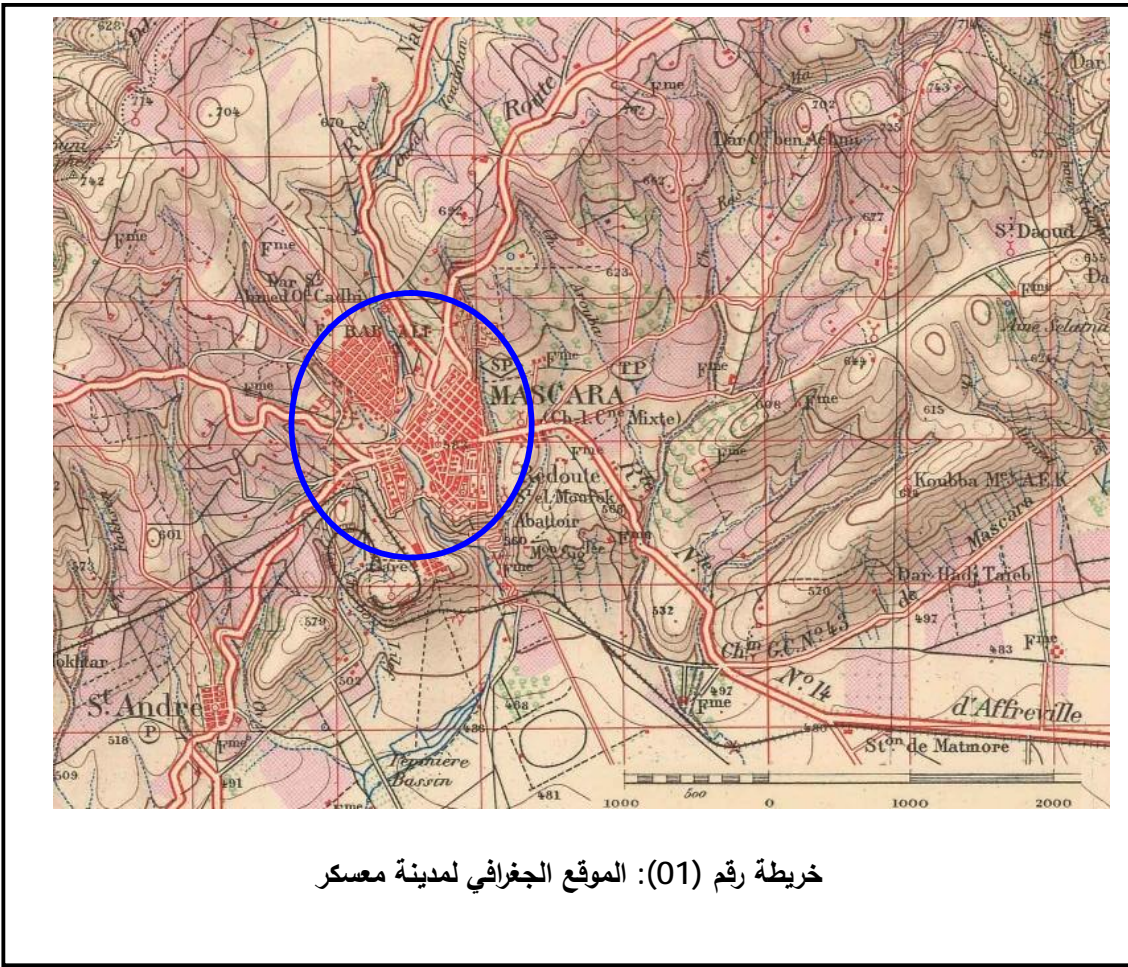


μ Υΰ •Α

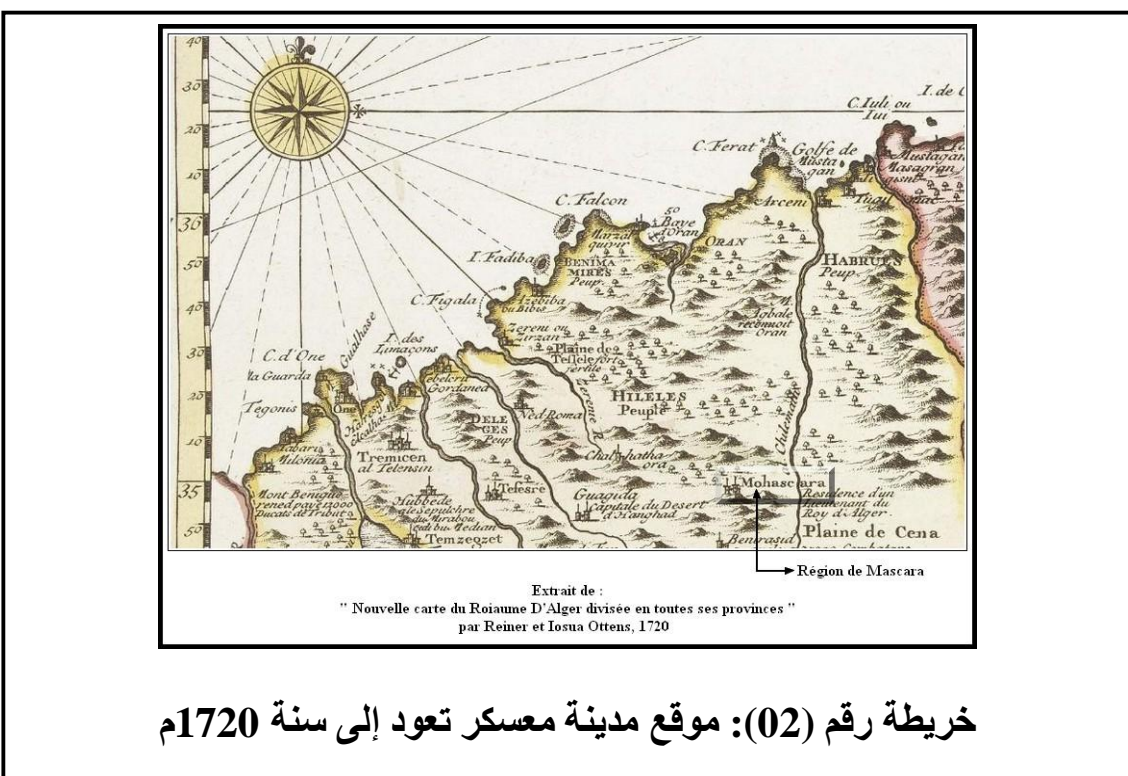


3/4B_s qPÄ i Ö[^]Am Z1/4
iìv xÄ

ملحق الخرائط:



خريطة رقم (01): الموقع الجغرافي لمدينة معسكر

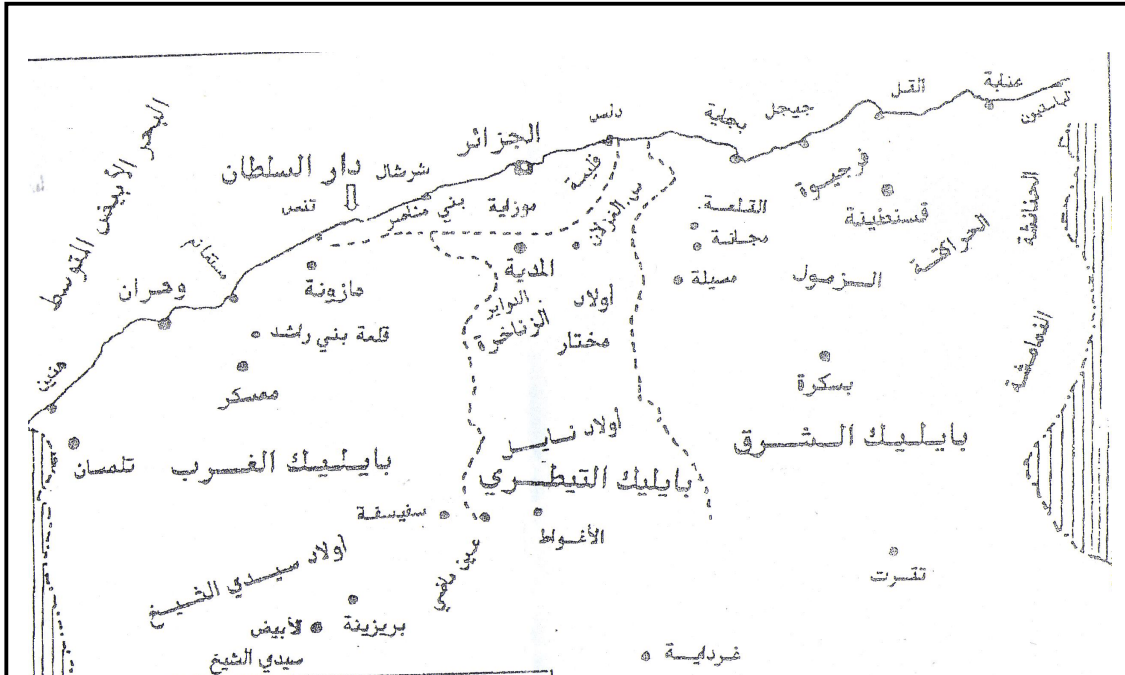


خريطة رقم (02): موقع مدينة معسكر تعود إلى سنة 1720م



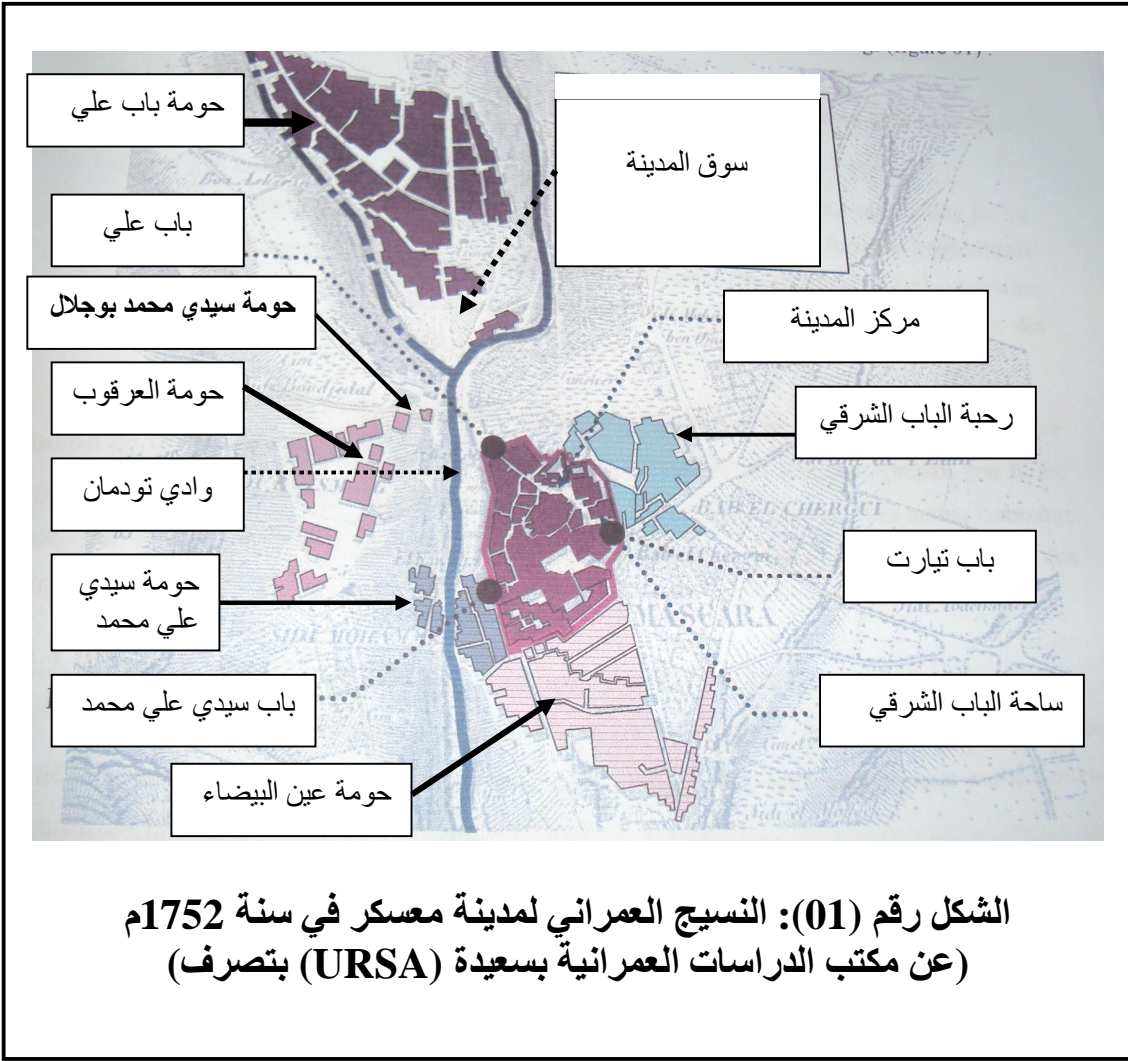
Mascara (Victoria)
Mascara, Victoria du temps des Romains
Extrait de :
" Carte comparée des régences d'Alger et de Tunis " **المرجع**
LAPIE, Alexandre Emile, 1829

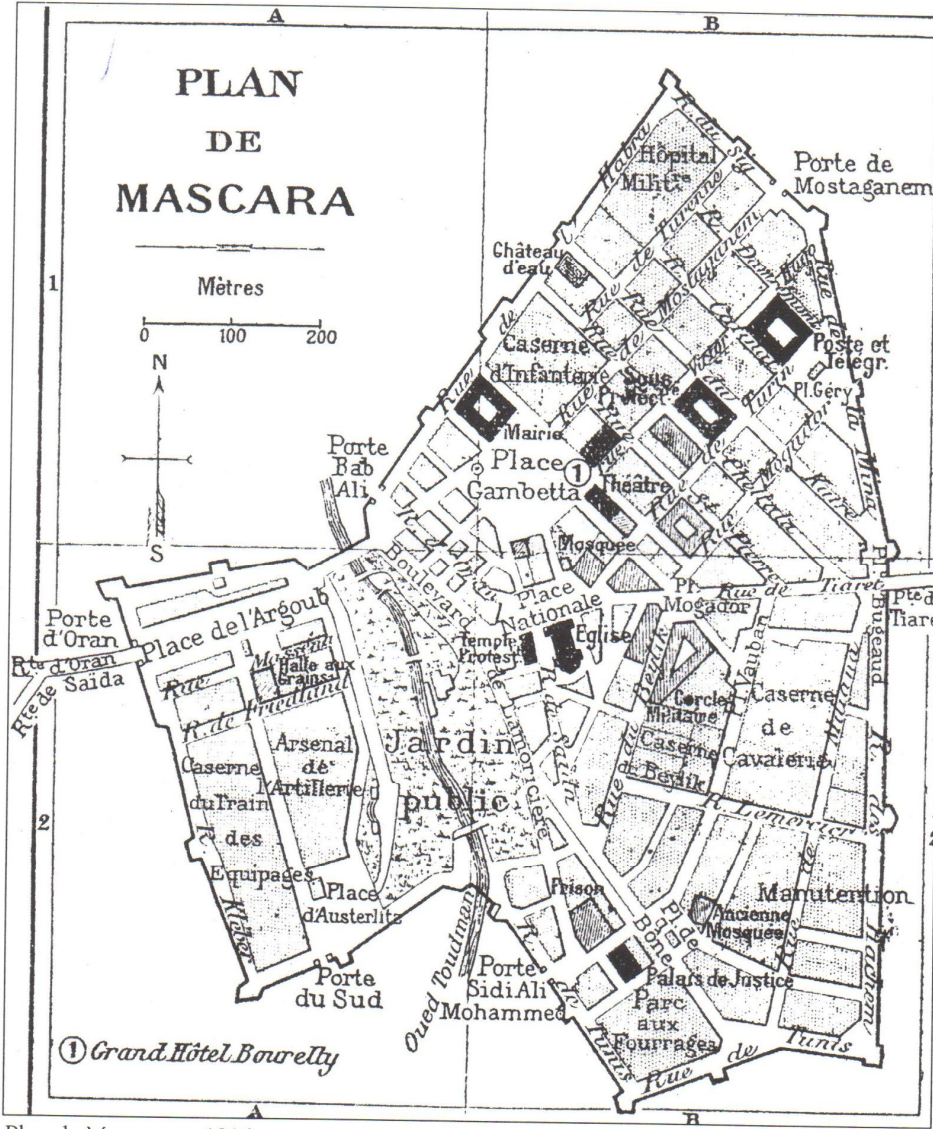
خريطة رقم (03): موقع فيكتوريا الرومانية (مدينة معسكر)



خريطة رقم (04): التنظيم الإداري للجزائر في أواخر العهد التركي
عن صالح عباد، المرجع السابق، ص 283.

ملحق الأشكال:



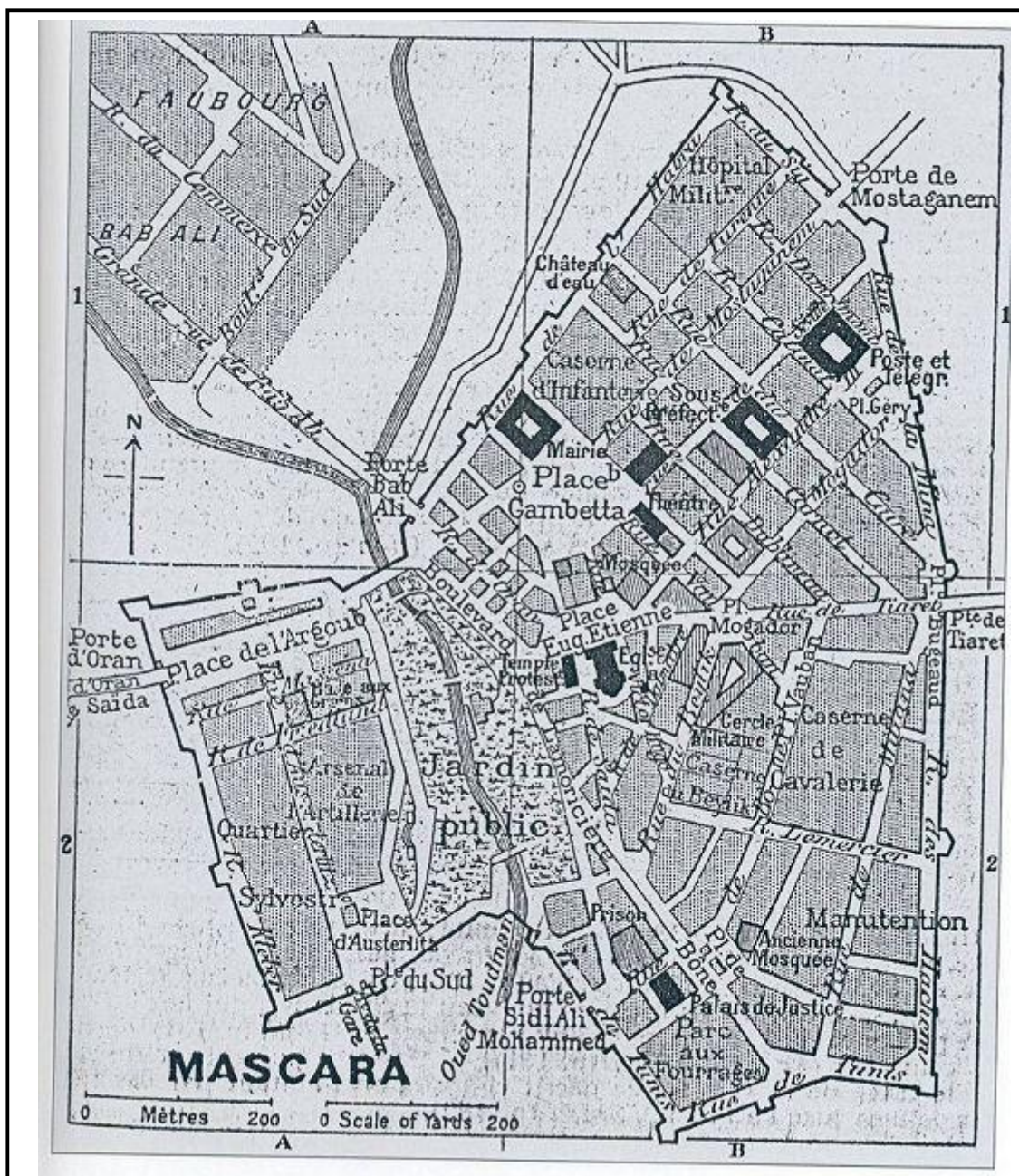


Plan de Mascara en 1916

الشكل رقم (02): مخطط مدينة معسكر في سنة 1916م خلال فترة

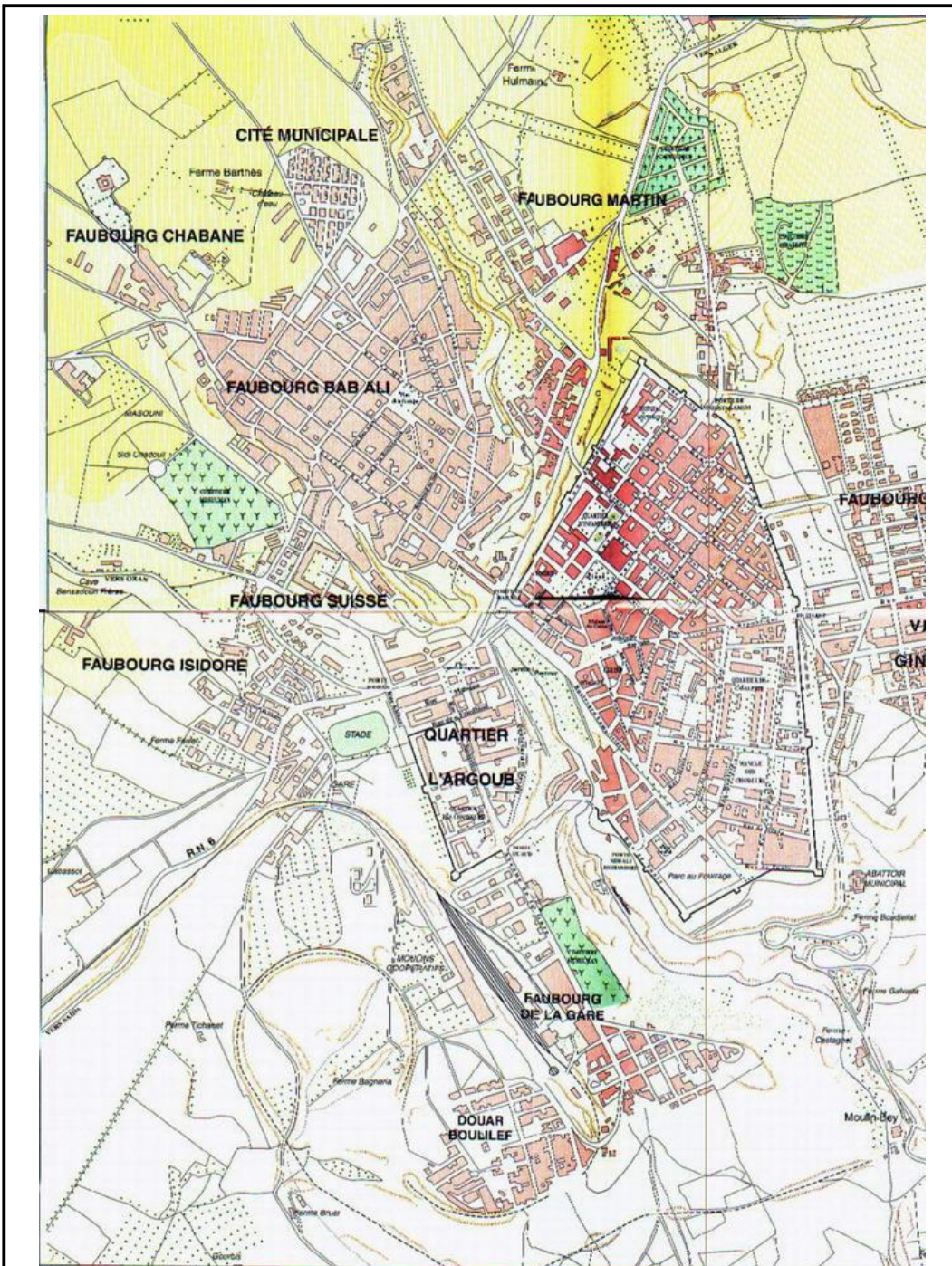
الاحتلال الفرنسي مأخوذ عن:

TEDDY Alzieu: L'est de l'Oranie de Relizane à Mascara et Saïda, édition Alain Sutton, 2005, p92.

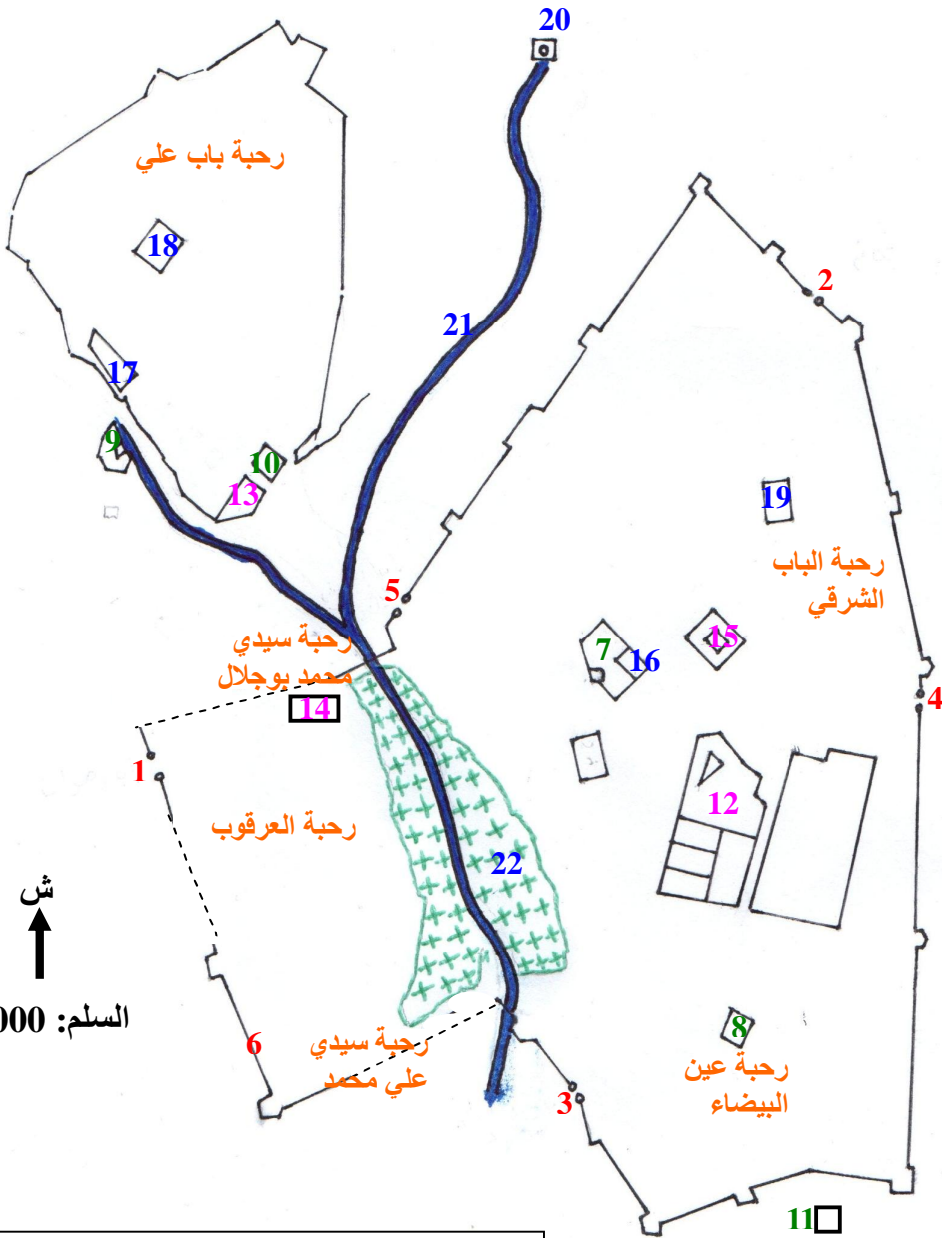


الشكل رقم (03): مخطط مدينة معسكر في سنة 1935م خلال فترة الاحتلال الفرنسي مأخوذ عن:

TEDDY Alzieu: Op.cit, p93.



الشكل رقم (04): النسيج العمراني الحالي لمدينة معسكر

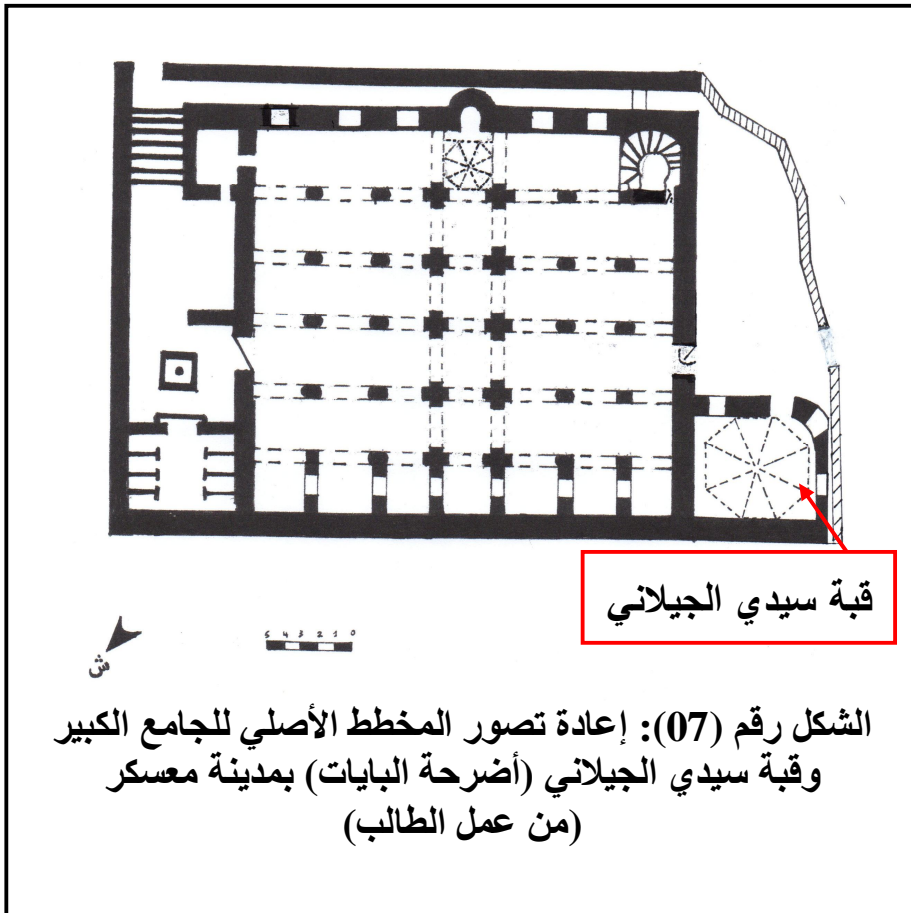
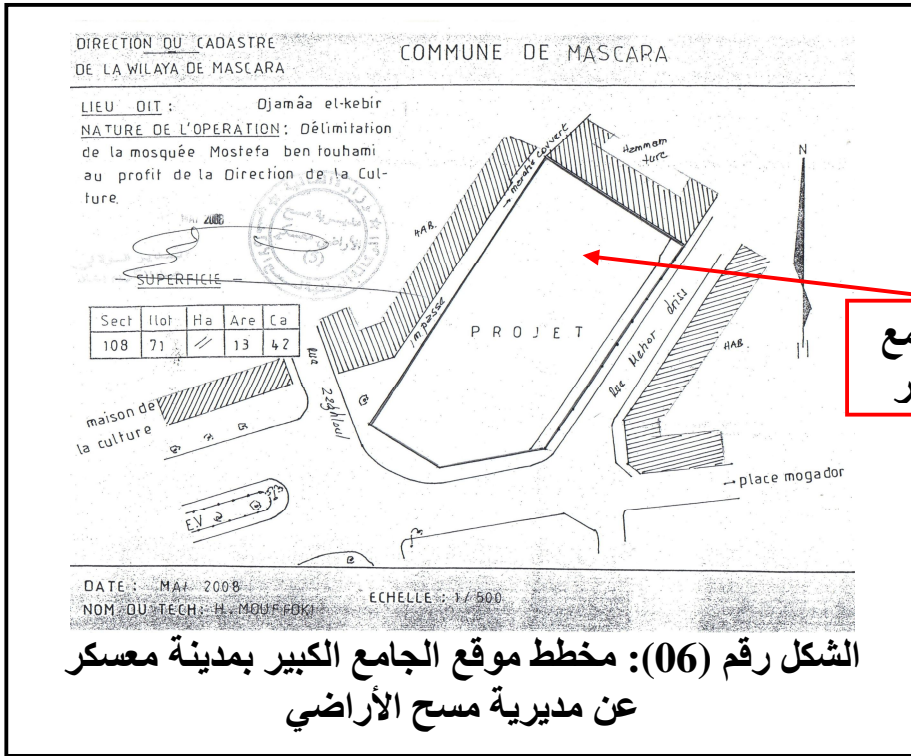


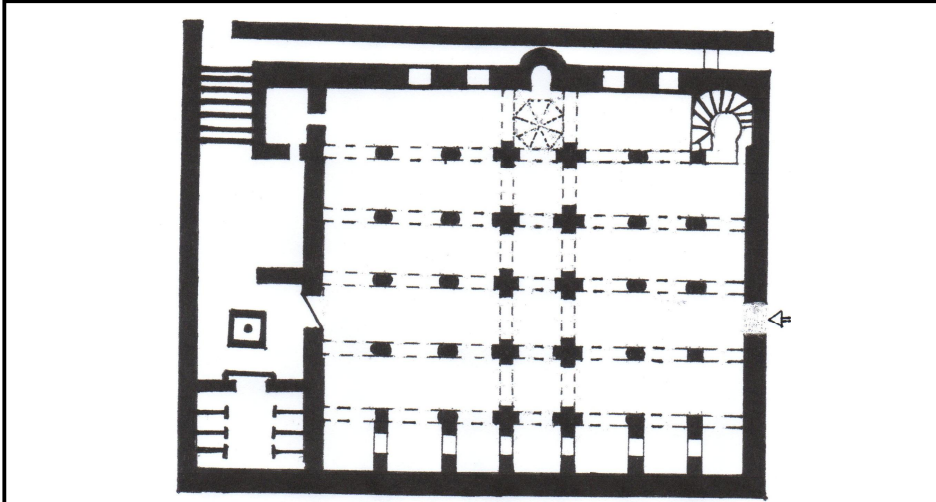
- | | |
|--|---------------------------|
| <p>22- الحديقة</p> <p>18- حَمَام حمزة</p> <p>17- حَمَام القرشالي</p> <p>16- حَمَام البركة</p> <p>15- المحكمة الرئيسية</p> <p>14- منزل الباي</p> <p>13- دار الميزابي</p> <p>12- دار الباي</p> | <p>11- ضريح سيدي موفق</p> |
|--|---------------------------|

- | | |
|--|--|
| <p>1- باب وهران</p> <p>2- باب مستغانم</p> <p>3- باب سيدي علي محمد</p> <p>4- باب تيارت</p> <p>5- باب علي</p> <p>6- بقايا السور الخارجي</p> <p>7- الجامع الكبير</p> <p>8- جامع عين البيضاء</p> <p>9- زاوية وضريح سيدي بوسكرين</p> <p>10- زاوية وضريح أبي راس الناصري</p> | <p>1- رحبة باب علي</p> <p>2- رحبة الباب الشرقي</p> <p>3- رحبة سيدي محمد بوجلال</p> <p>4- رحبة العرقوب</p> <p>5- رحبة سيدي علي محمد</p> |
|--|--|

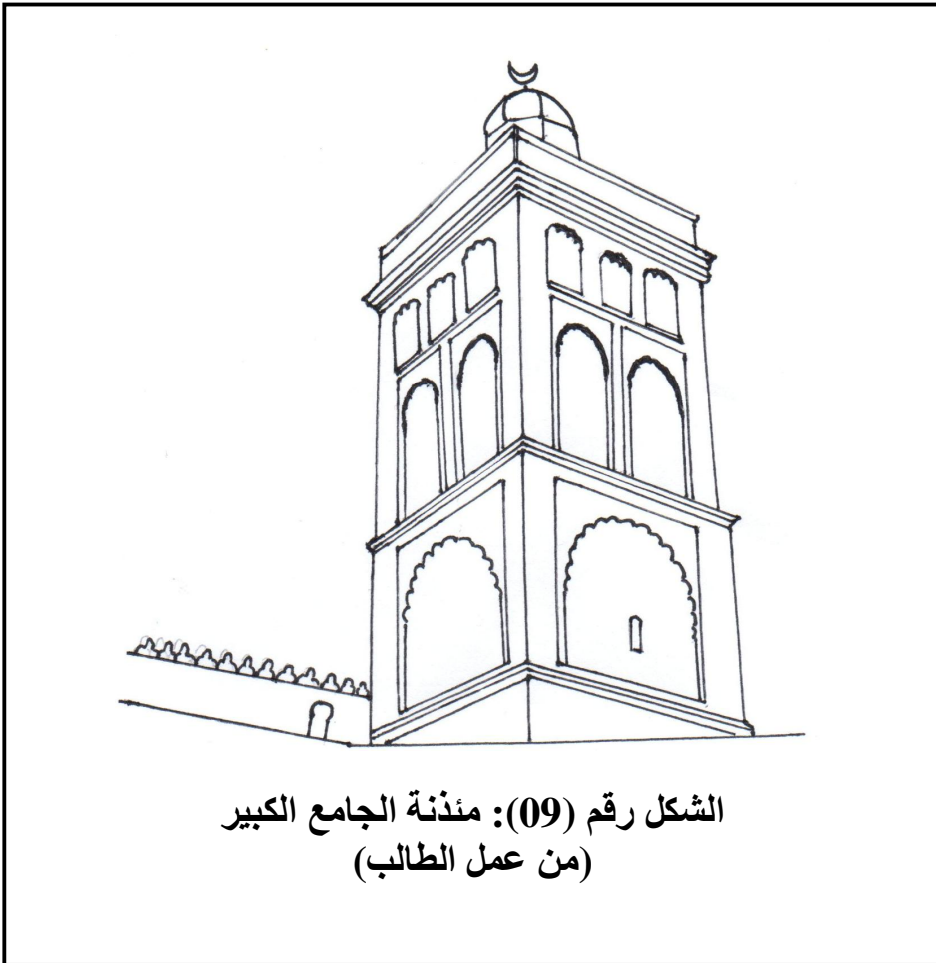
الشكل رقم (05): مواقع المنشآت المتبقية من الفترة العثمانية في مدينة معسكر

(من عمل الطالب)

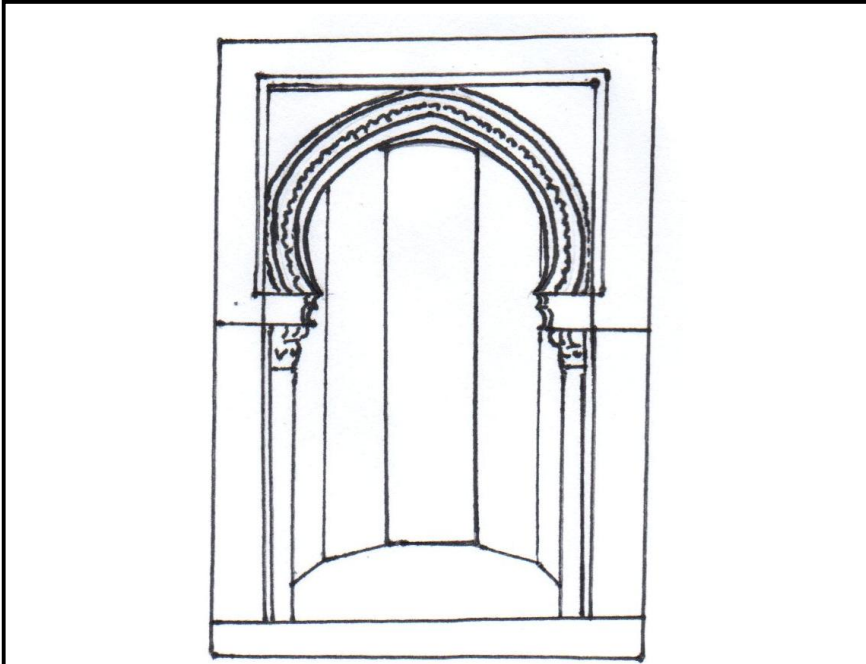




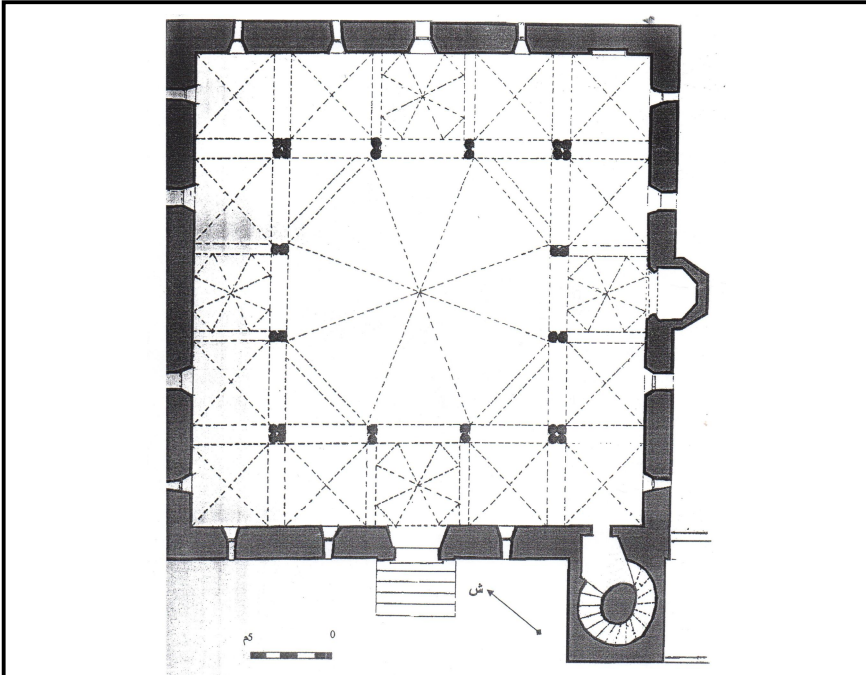
الشكل رقم (08): مخطط الجامع الكبير بعد تهديم قبة سيدي
الجيلاني (أضرحة البايات) بمدينة معسكر (من عمل الطالب)



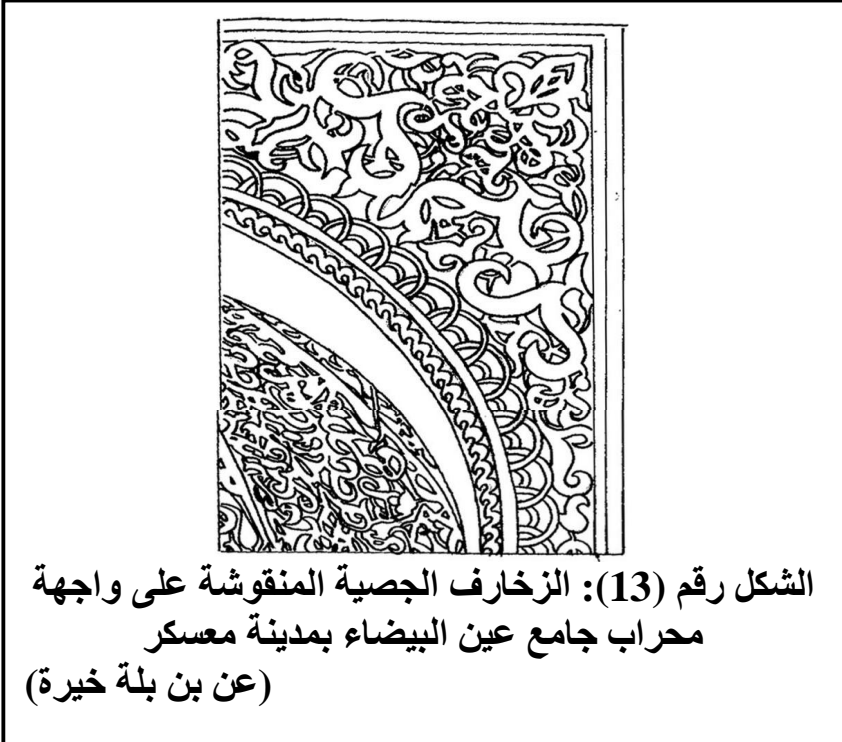
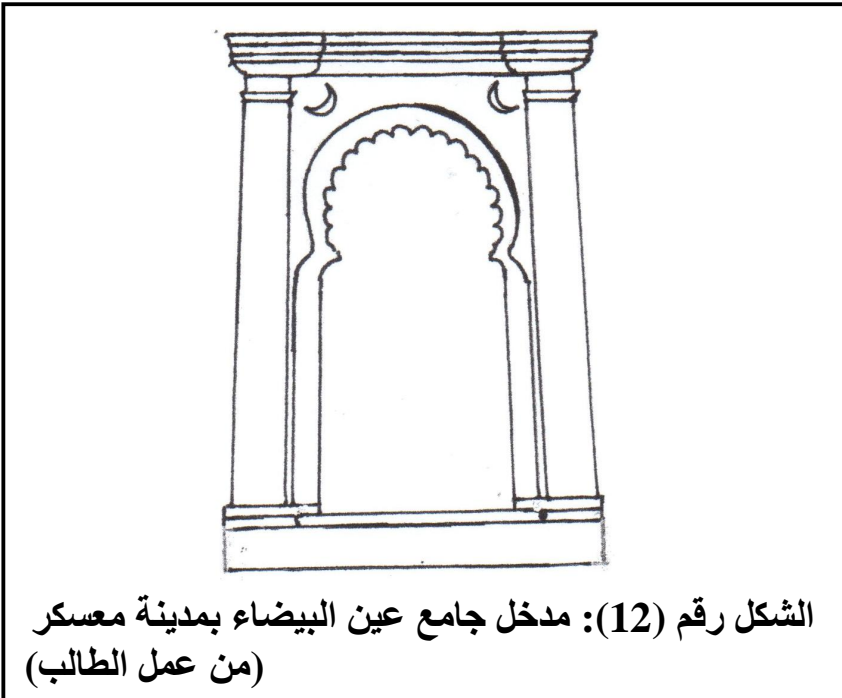
الشكل رقم (09): مئذنة الجامع الكبير
(من عمل الطالب)

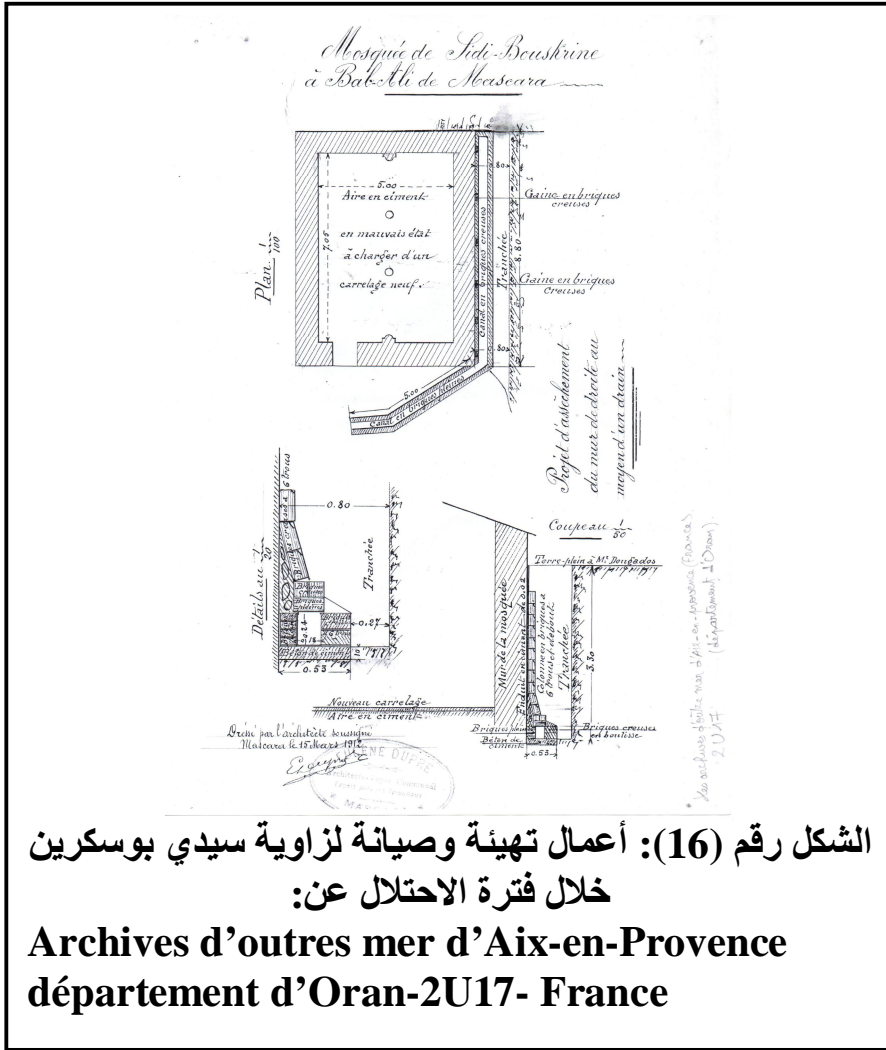


الشكل رقم (10): محراب الجامع الكبير
(من عمل الطالب)



الشكل رقم (11): مخطط جامع عين البيضاء بمدينة معسكر
(عن معروف بلحاج)



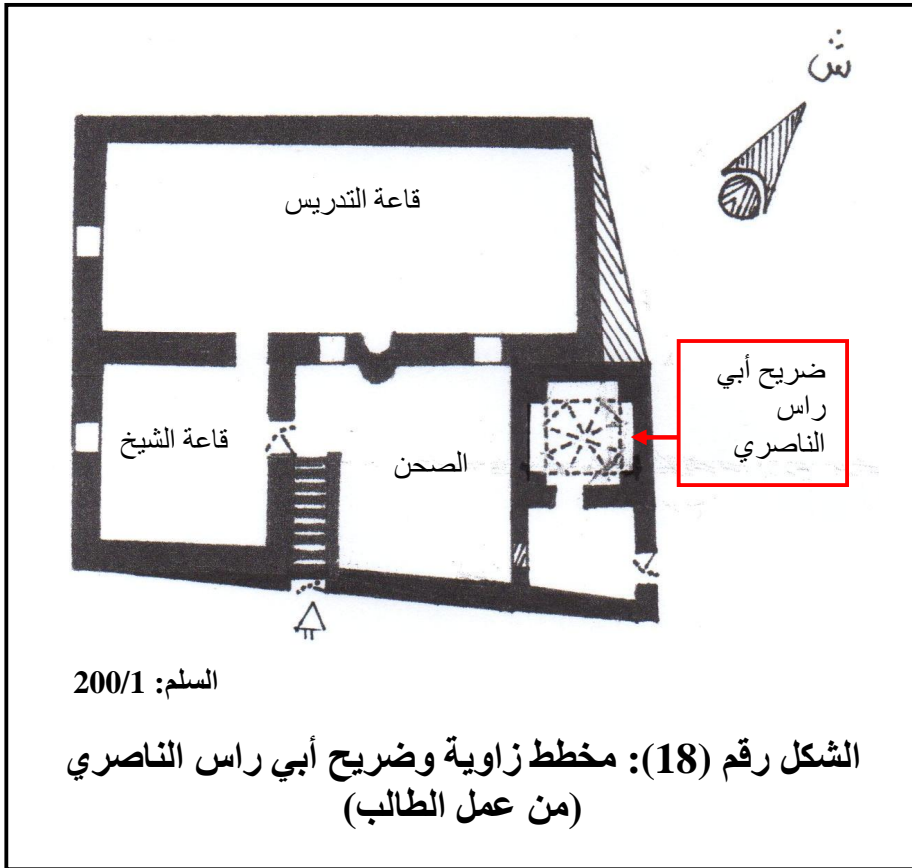


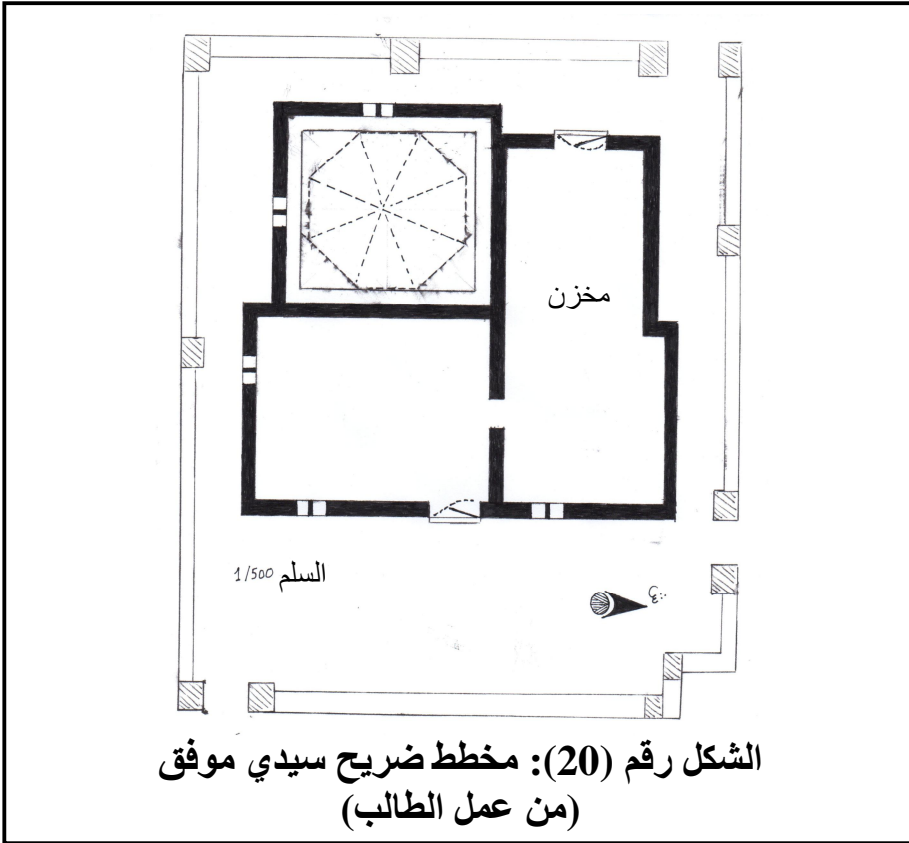
الشكل رقم (16): أعمال تهيئة وصيانة لزاوية سيدي بوسكرين خلال فترة الاحتلال عن:

Archives d'outres mer d'Aix-en-Provence
département d'Oran-2U17- France

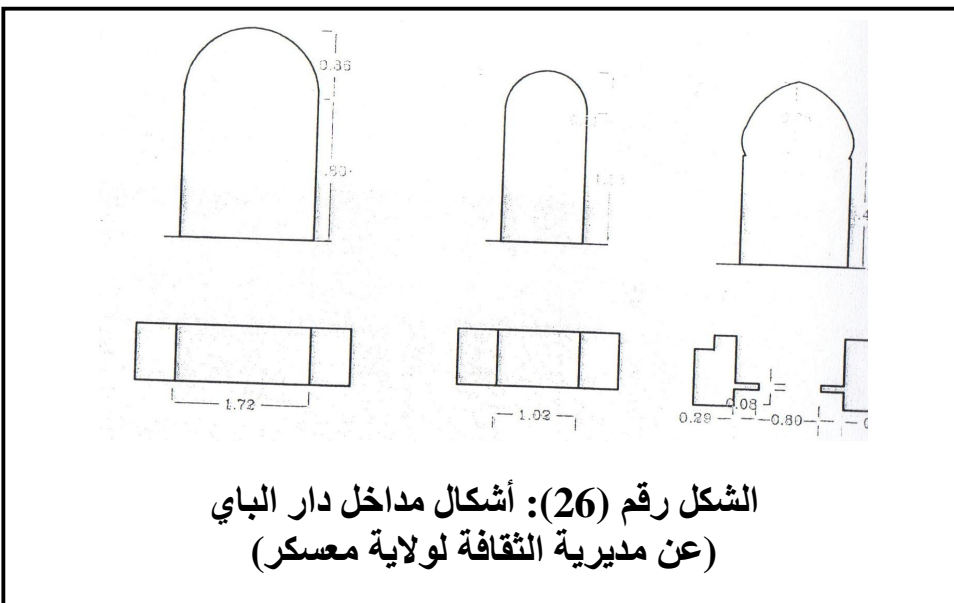
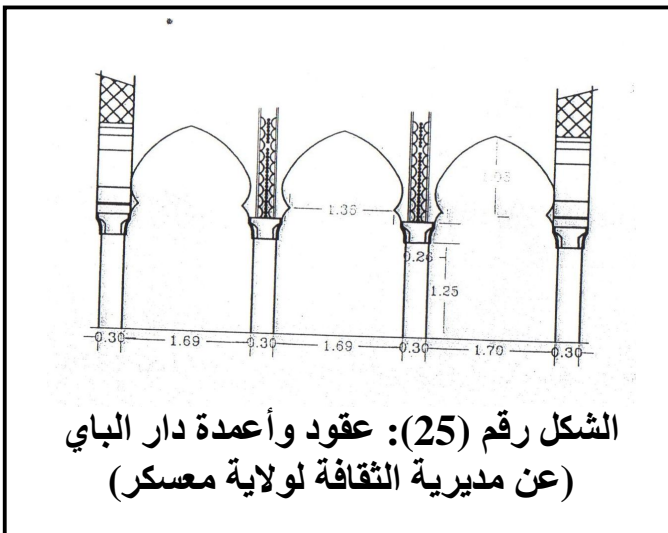
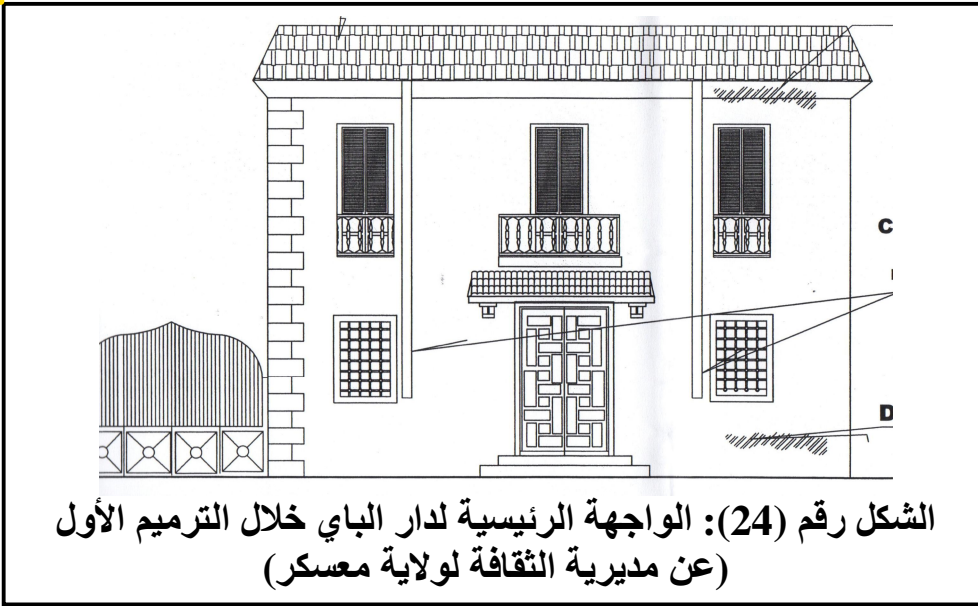


الشكل رقم (17): مخطط زاوية سيدي بوسكرين (من عمل الطالب)

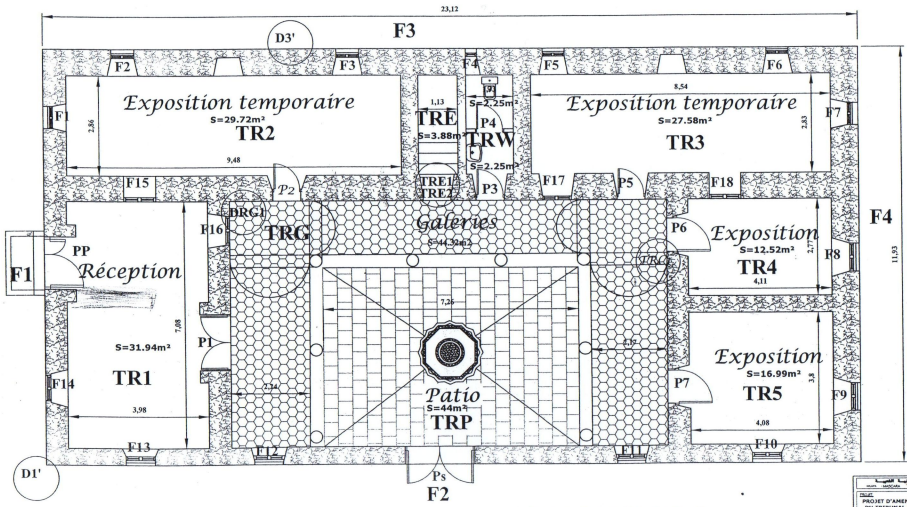








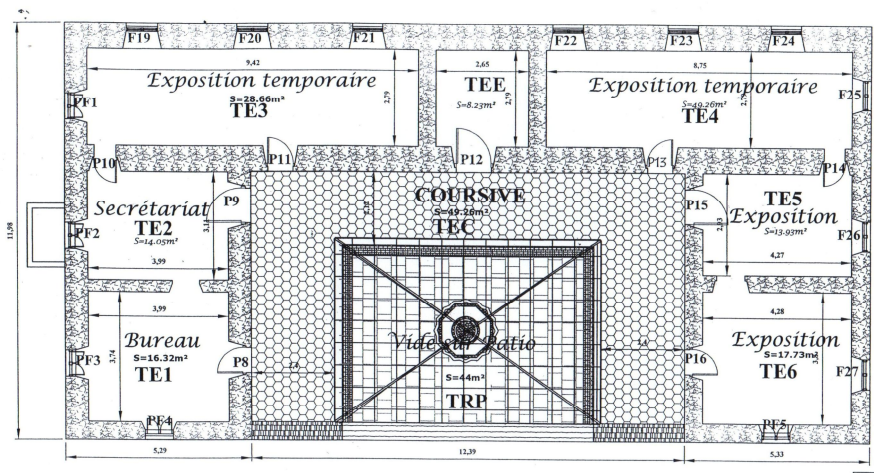
PROJET D'AMENAGEMENT ET RESTAURATION DU TRIBUNAL DE L'EMIR AEK DE MASCARA



PLAN DU RDC

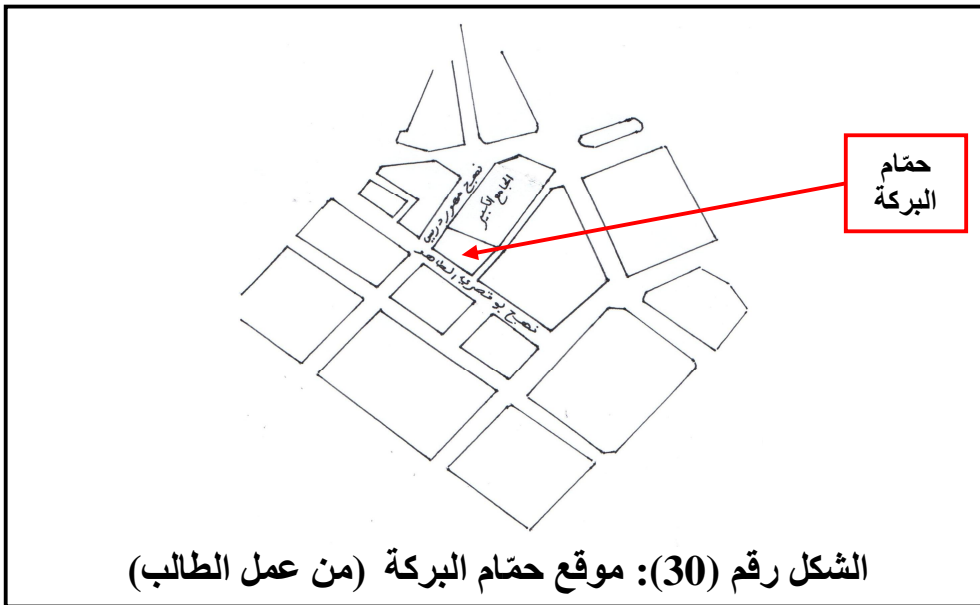
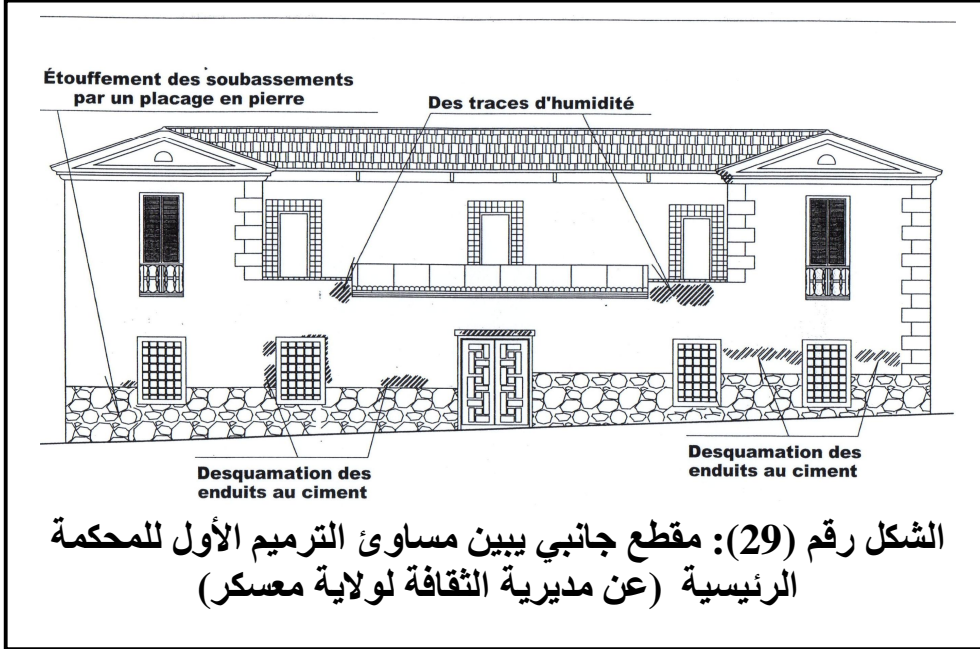
الشكل رقم (27): مخطط الطابق الأرضي للمحكمة الرئيسية
(عن مديرية الثقافة لولاية معسكر)

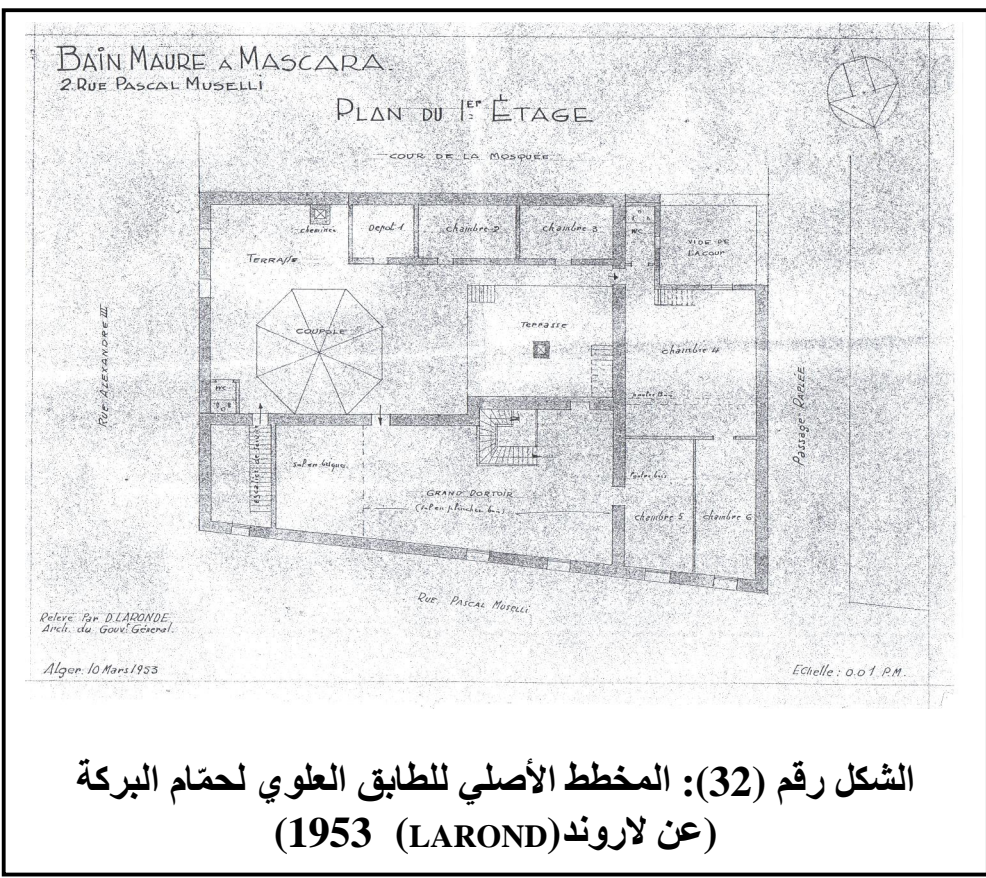
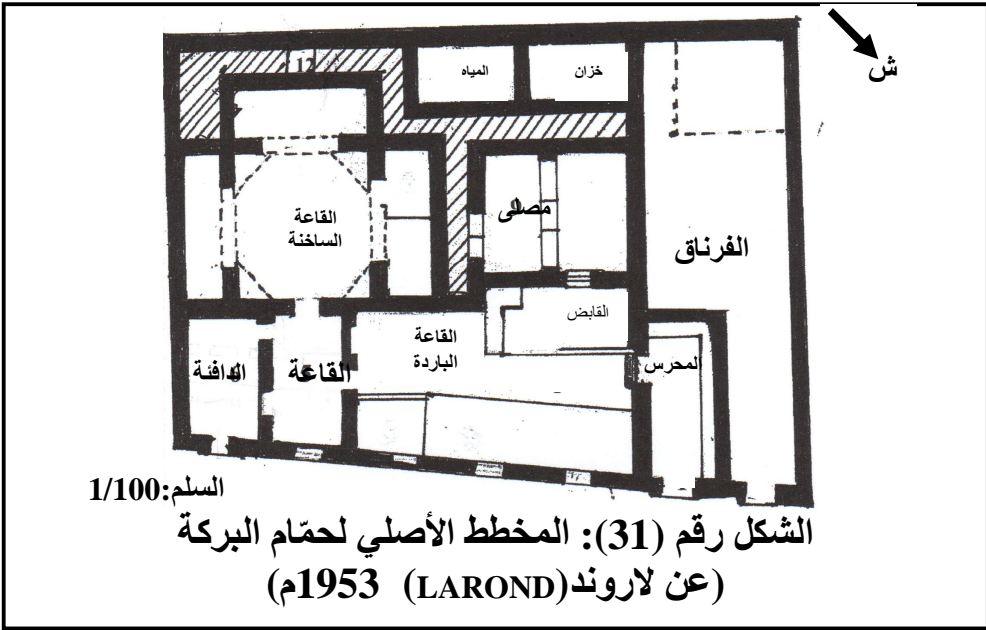
PROJET D'AMENAGEMENT ET RESTAURATION DU TRIBUNAL DE L'EMIR AEK DE MASCARA

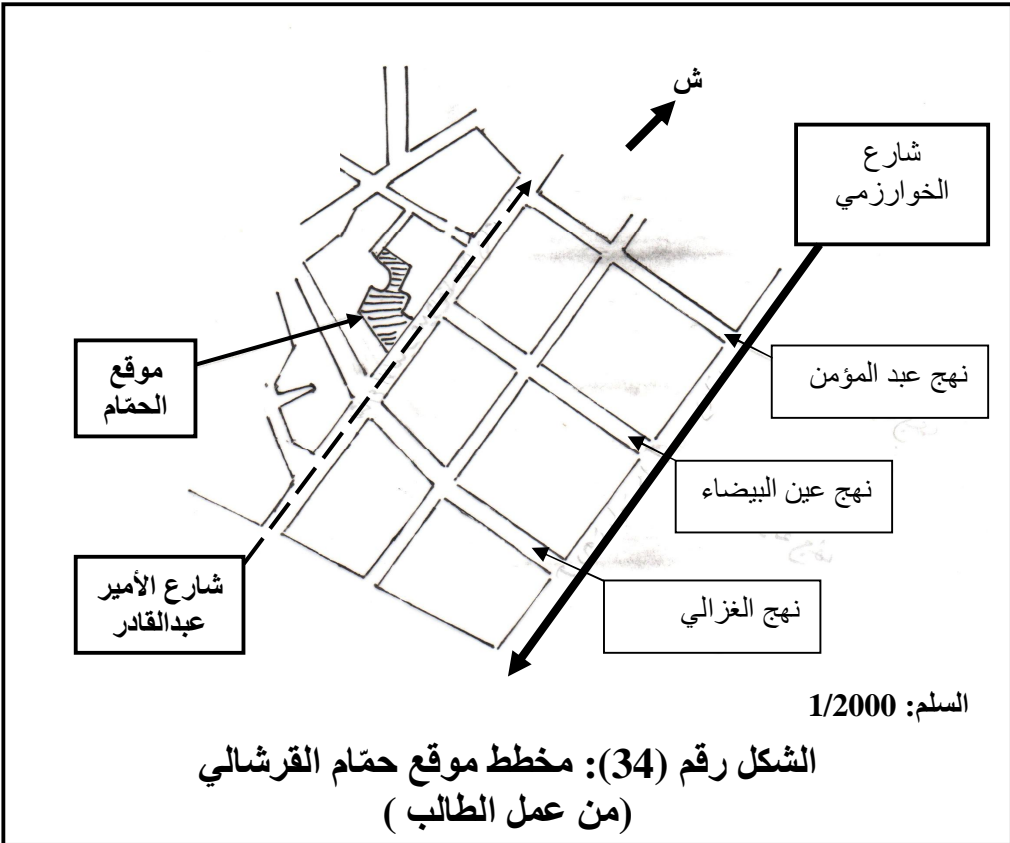
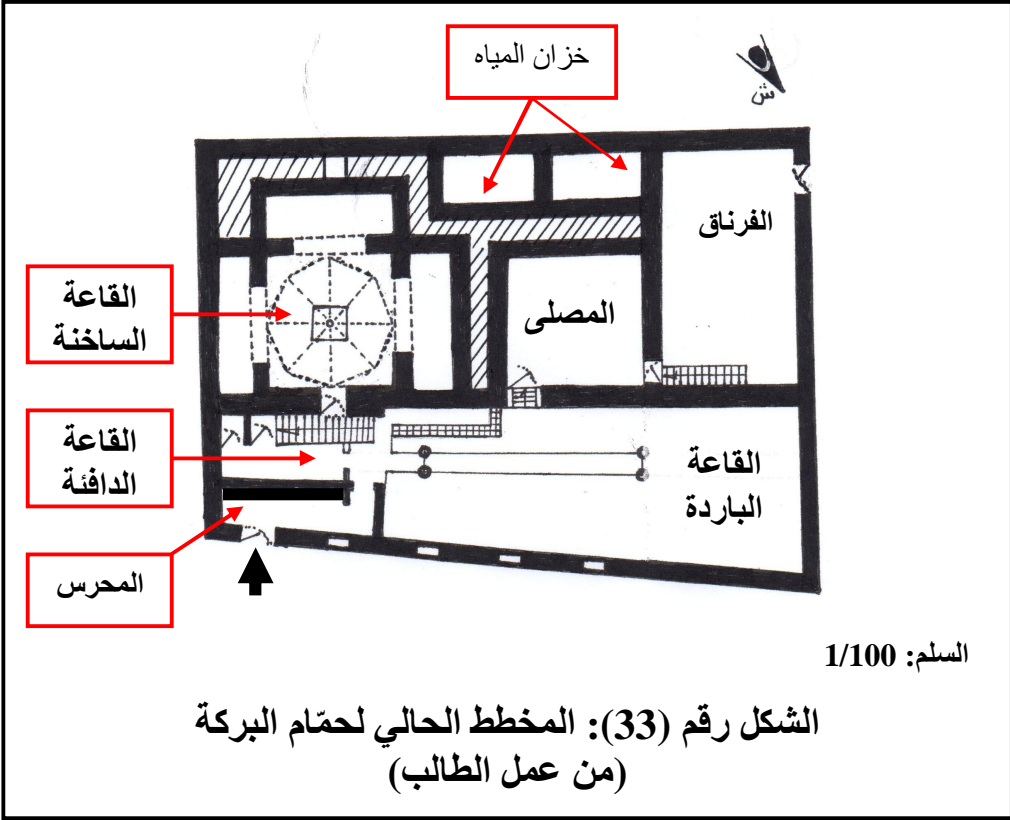


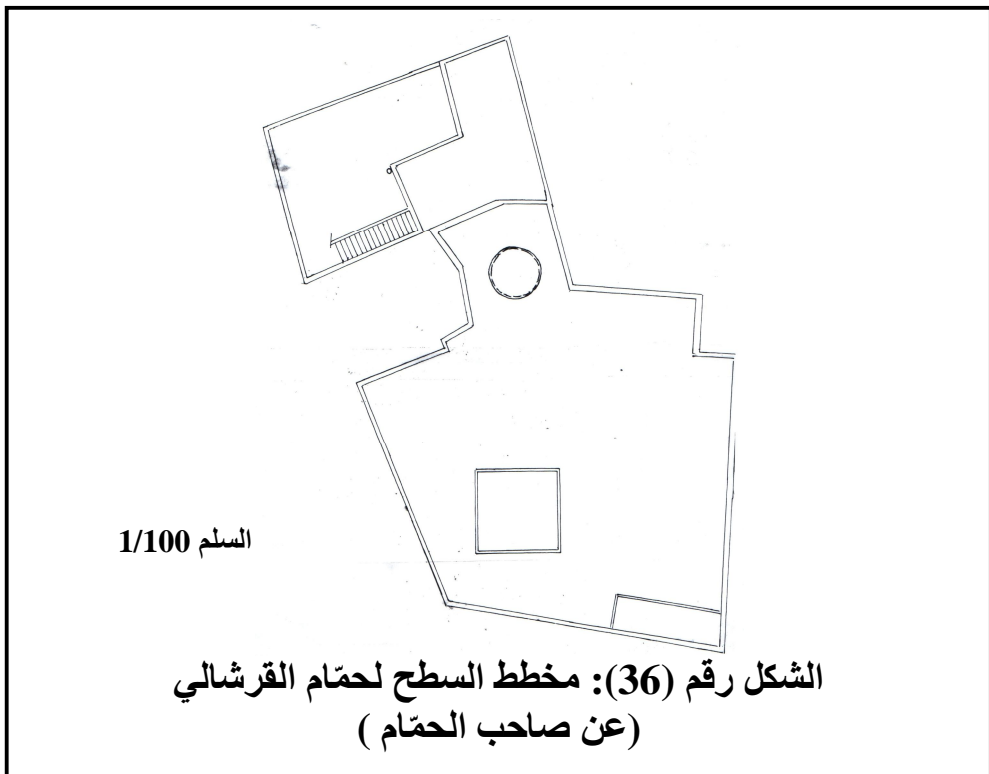
PLAN DU 1ER ETAGE

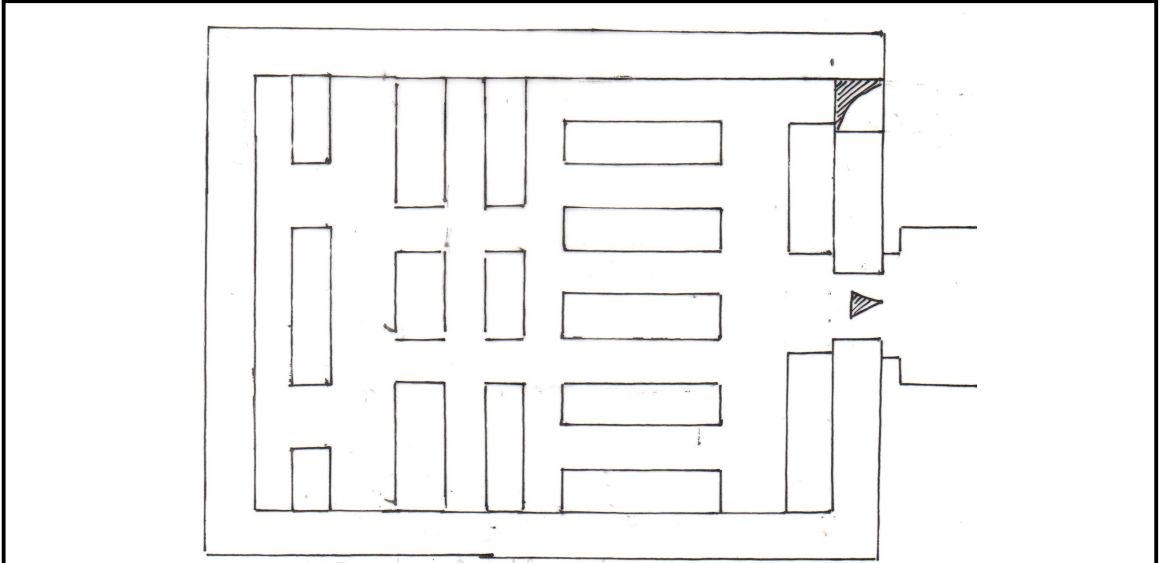
الشكل رقم (28): مخطط الطابق العلوي للمحكمة الرئيسية
(عن مديرية الثقافة لولاية معسكر)





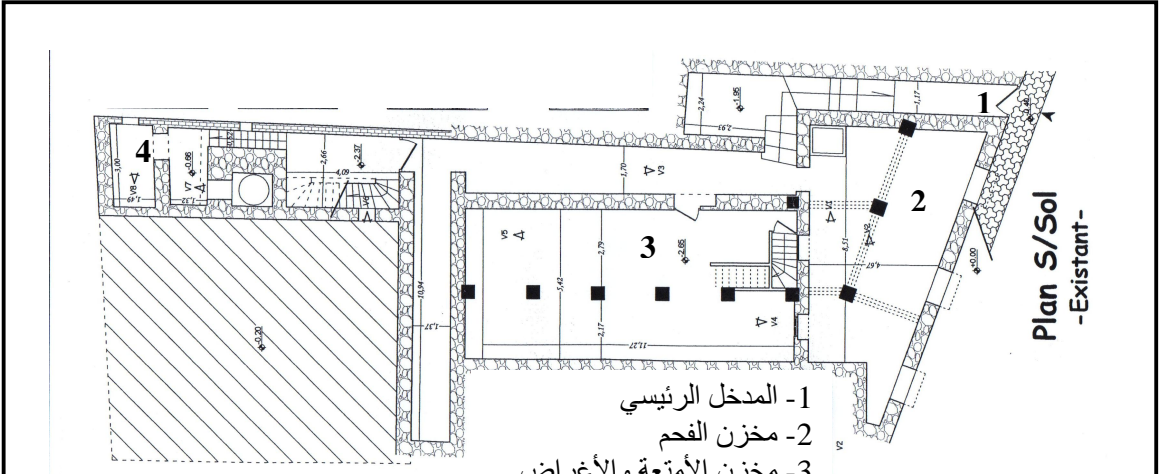






السلم: 1/50

الشكل رقم (37): أروقة التسخين في حمام القرشالي
(عن صاحب الحمام)

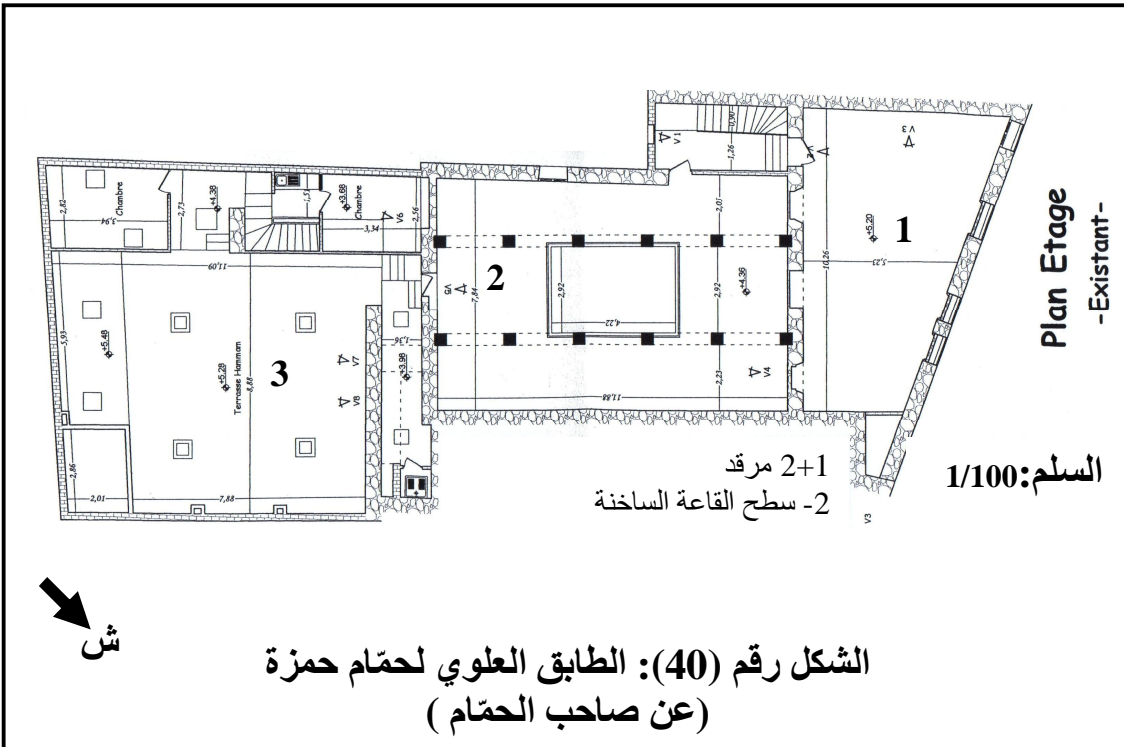
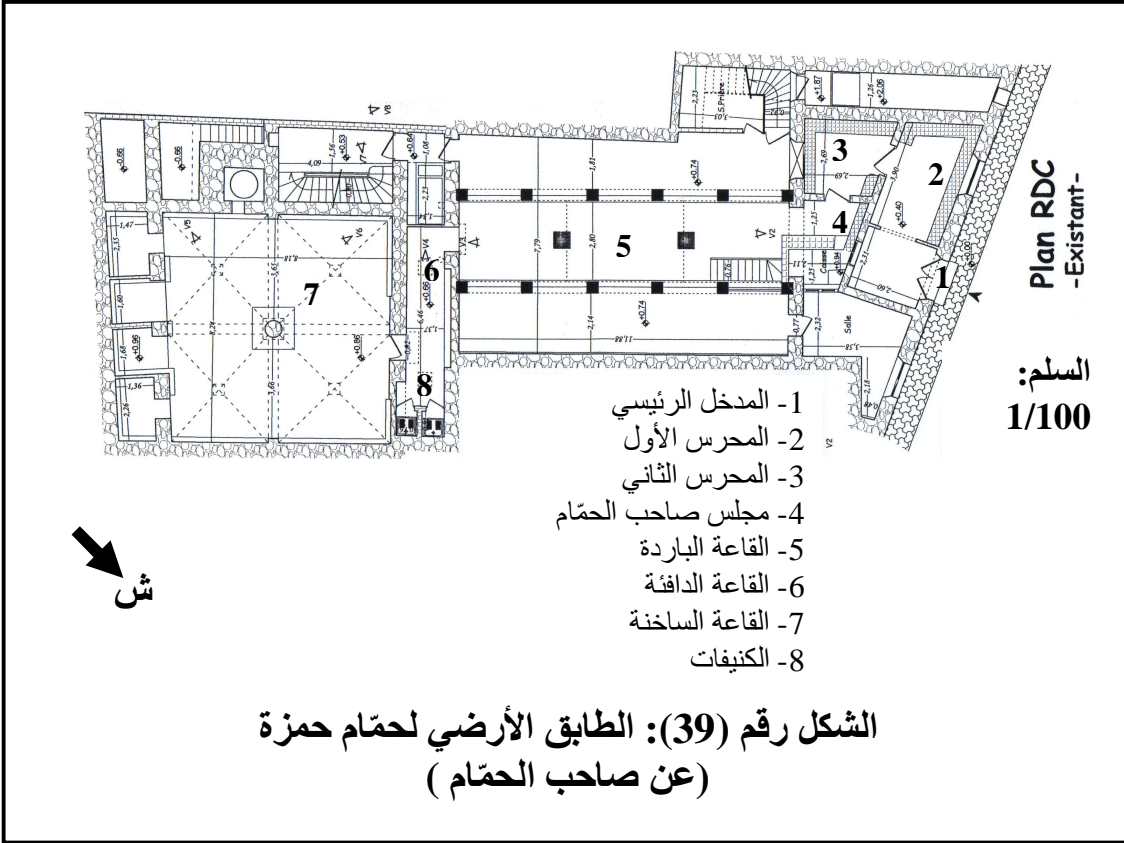


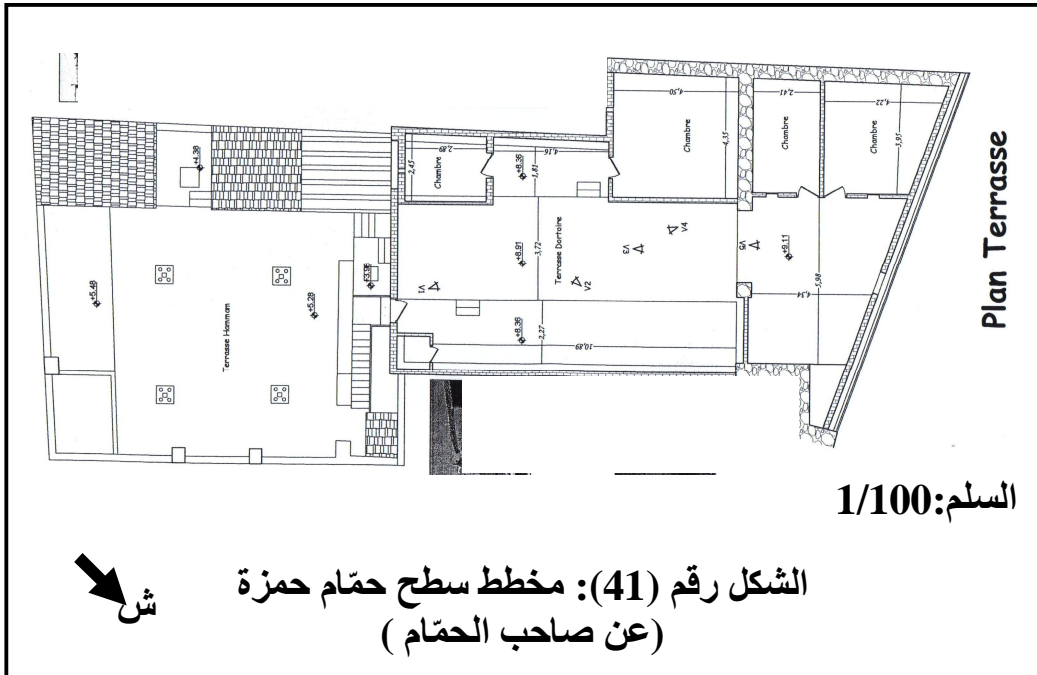
Plan S/Sol
- Existant -

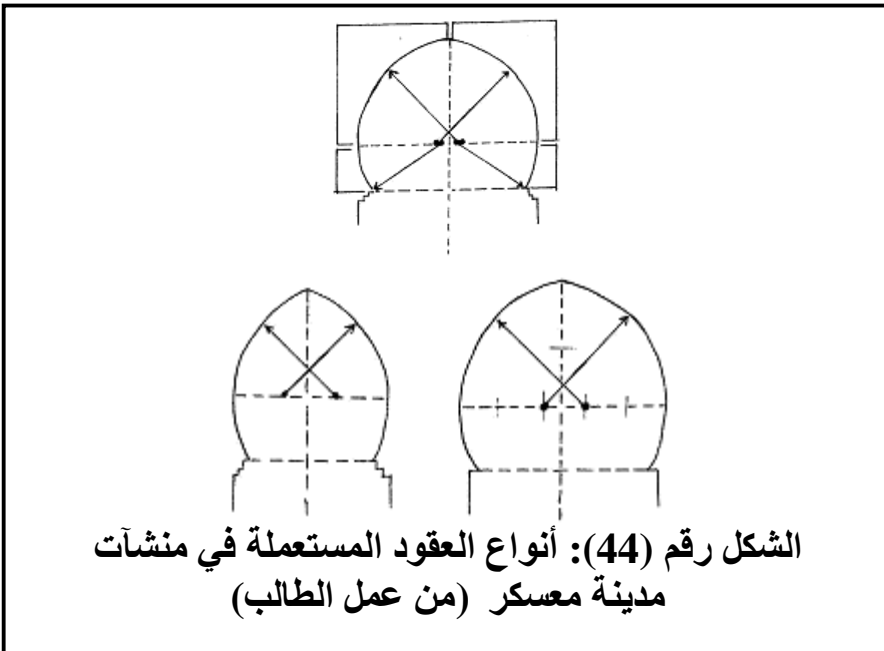
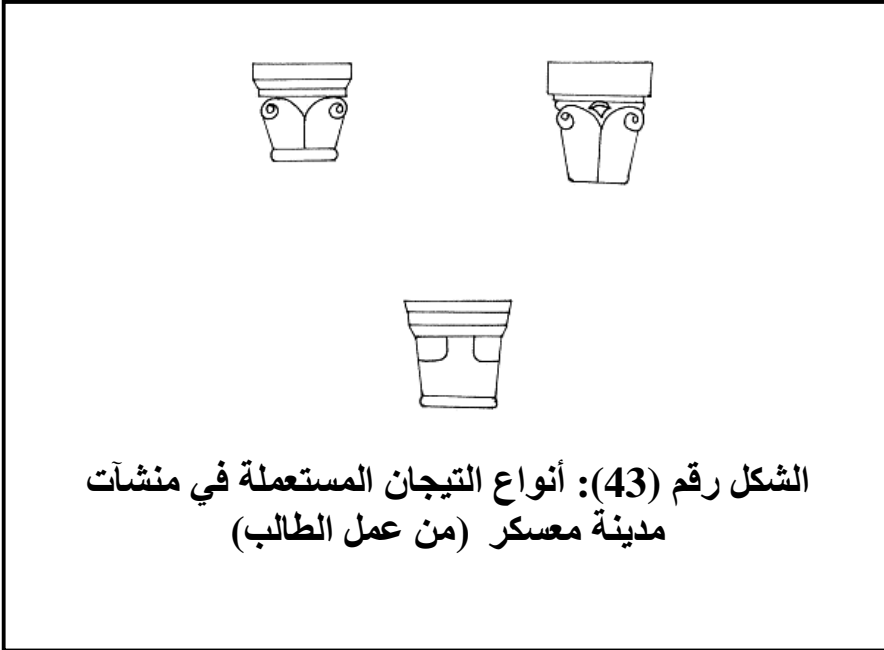
- 1- المدخل الرئيسي
- 2- مخزن الفحم
- 3- مخزن الأمتعة والأغراض
- 4- الفرناق

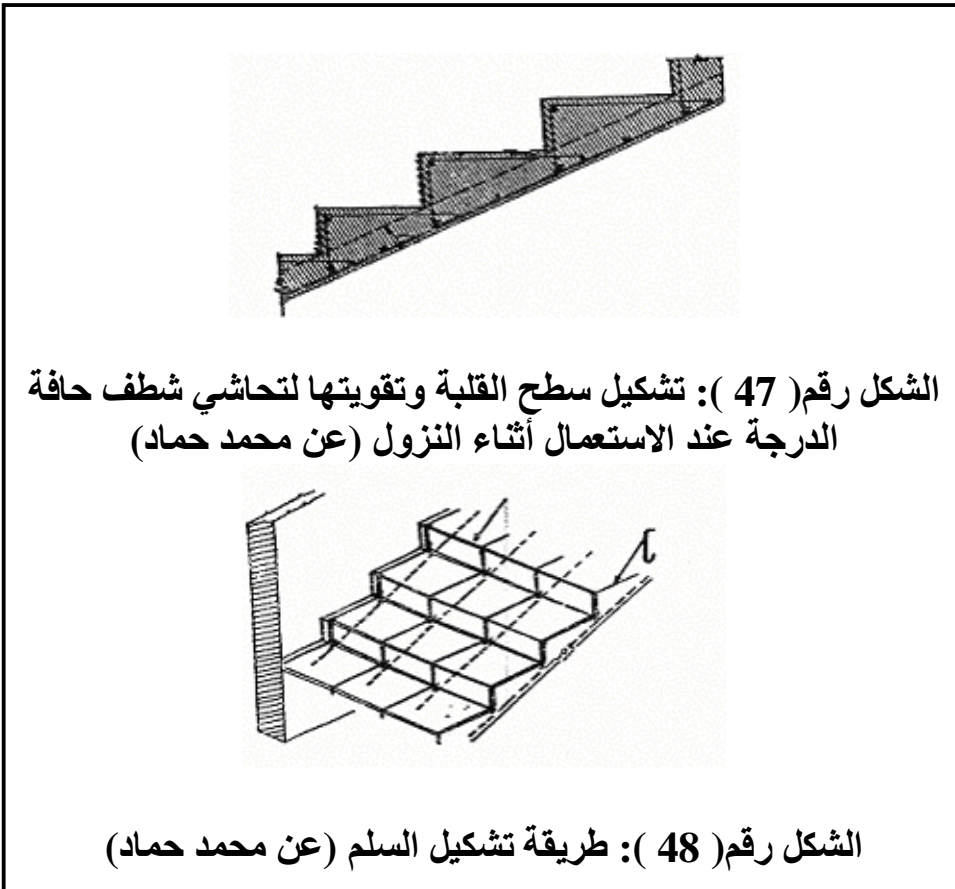
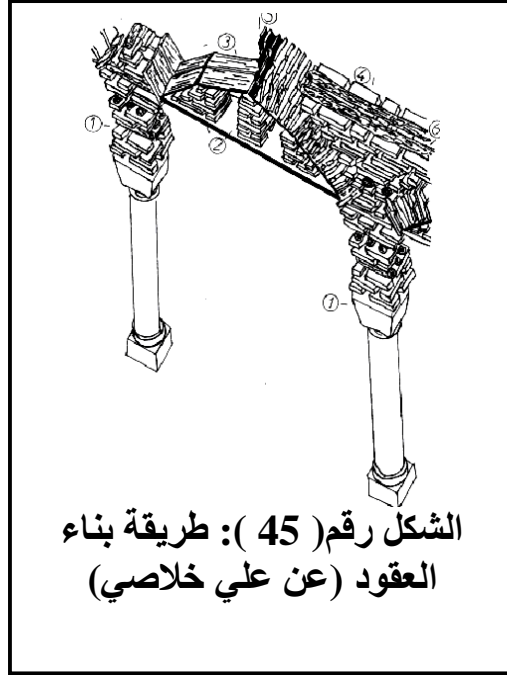
السلم: 1/100

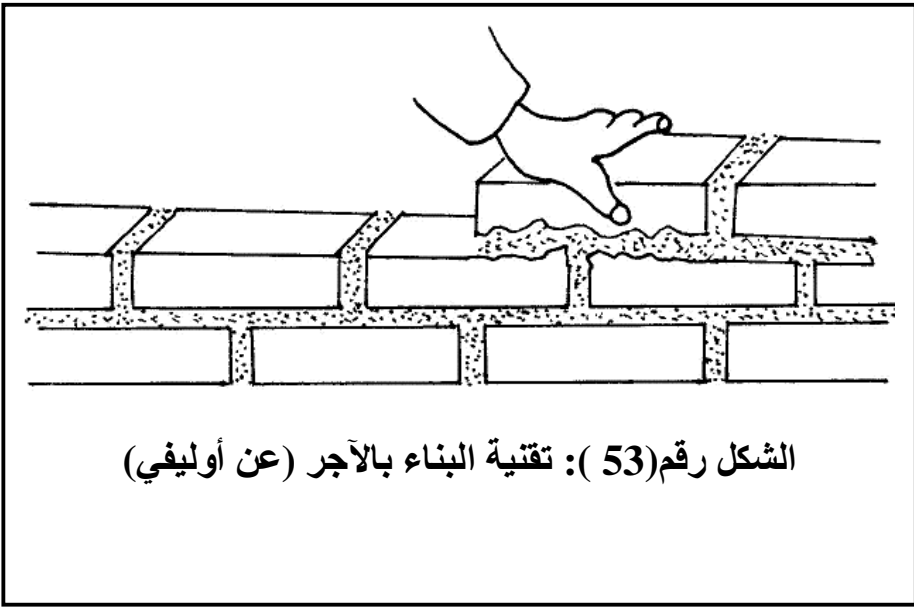
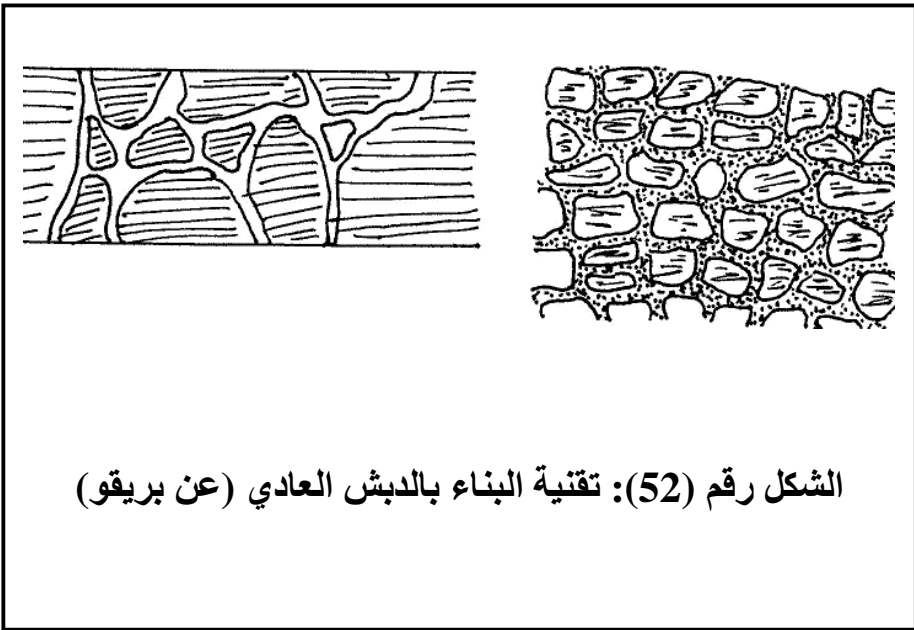
الشكل رقم (38): المستوى الأرضي لحمام حمزة
(عن صاحب الحمام)

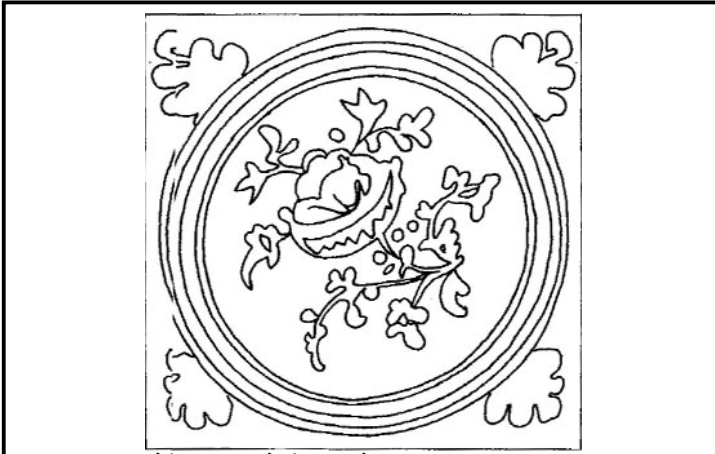








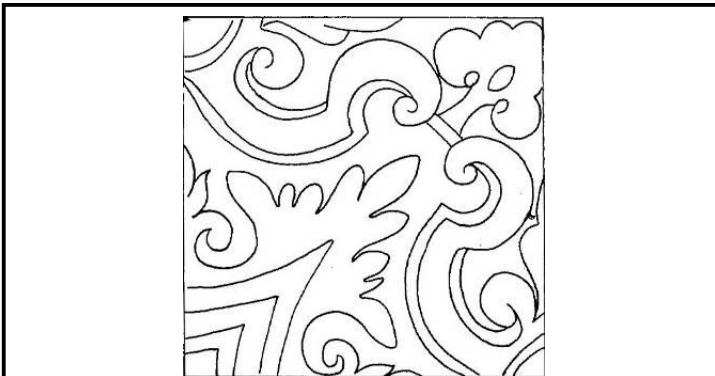




الشكل رقم (54): مربعة خزفية بزخرفة قوامها
دائرة وزهرة الرمان (عن ابن بله خيرة)



الشكل رقم (55): مربعة خزفية بزخرفة قوامها
زهرة القرنفل وأوراق وجزء من زهرة
(عن ابن بله خيرة)



الشكل رقم (56): مربعة خزفية بزخرفة قوامها
أوراق وأرباع مربعات منحنية الأضلاع
(عن ابن بله خيرة)

ملحق الصور:



الصورة رقم (01): مدينة معسكر في
سنة 1841م عن:

(Henry d'estre: les conquérants de l'Algérie 1830- 1857, Paris, 1930,
Archives nationales d'outre-mer, Aix En Provence, France.)



الصورة رقم (02): دار الباي حسن بمدينة معسكر في
سنة 1835م عن:

(Archives d'Algérie 1830- 1960- Archives nationales d'outre-mer, Aix En
Provence, France.)



الصورة رقم (03): رحبة باب علي خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (05): نموذج من
أزقة المدينة الحالية في رحبة
باب علي



الصورة رقم (04): رحبة باب علي قبل
التهينة وتهديم الباب
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)

AFÈ AXY a j, n Ò AF, NBASÉ EJAS.....



الصورة رقم (07): السور الغربي لمدينة معسكر خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (06): السور الجنوبي الغربي لمدينة معسكر خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



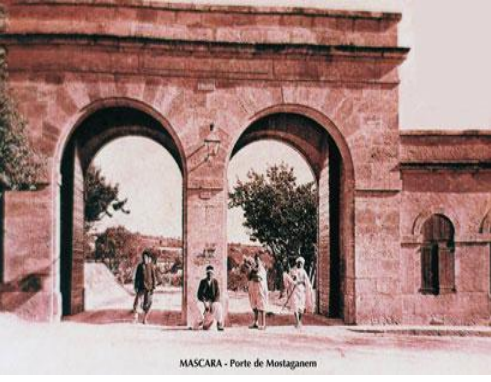
الصورة رقم (08): بقايا برج مراقبة بالسور الجنوبي لمدينة معسكر خلال الفترة الحالية



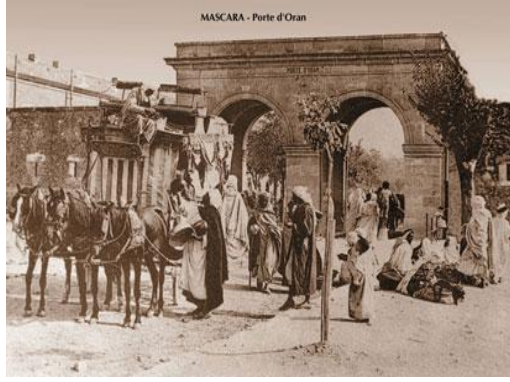
الصورة رقم (10): نماذج من المزاغل المتبقية في بقايا السور الشرقي لمدينة معسكر خلال الفترة الحالية



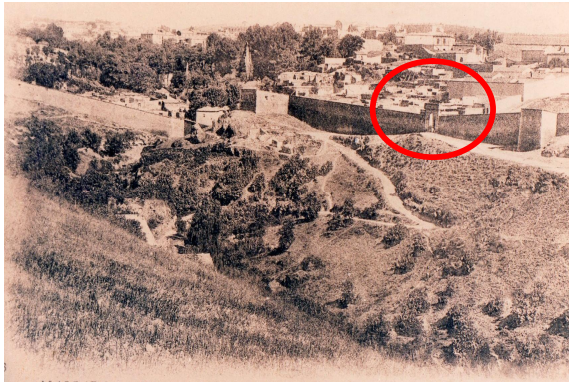
الصورة رقم (09): بقايا السور الجنوبي لمدينة معسكر خلال الفترة الحالية



الصورة رقم (12): باب مستغانم
خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (11): باب وهران خلال
فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (13): باب سيدي علي محمد خلال
فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (15): باب علي خلال
فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (14): باب تيارت خلال
فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (17): اللوحة التأسيسية الثانية المثبتة في قبة محراب الجامع الكبير



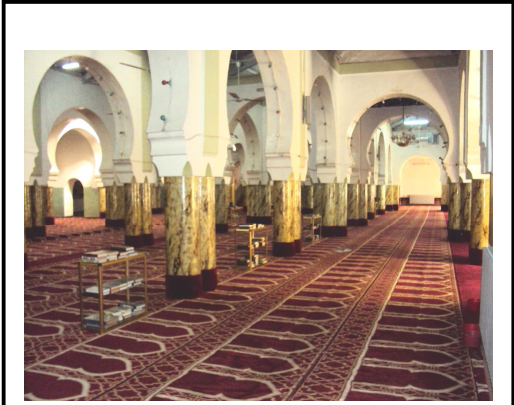
الصورة رقم (16): اللوحة التأسيسية الأولى المثبتة في المدخل الرئيسي للجامع الكبير



الصورة رقم (19): المدخل الرئيسي للجامع الكبير بعد التوسعة خلال الفترة الحالية



الصورة رقم (18): المدخل الرئيسي الأصلي للجامع الكبير وفوقه اللوحة التأسيسية الأولى



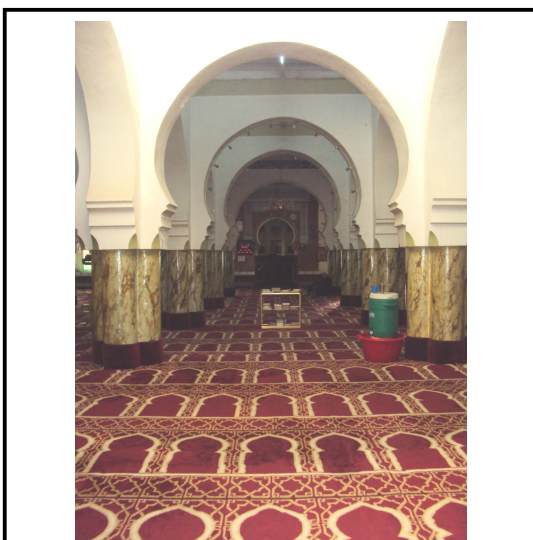
الصورة رقم (25): بيت صلاة
الجامع الكبير



الصورة رقم (24) اللوحة التأسيسية
لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني



الصورة رقم (27): محراب
الجامع الكبير



الصورة رقم (26): البلاطة
المستعرضة في بيت
صلاة الجامع الكبير



الصورة رقم (29): قبة المحراب
في الجامع الكبير



الصورة رقم (28): المظهر
الخارجي لمحراب الجامع
الكبير



الصورة رقم (31): الأعمدة المزدوجة
في الجامع الكبير



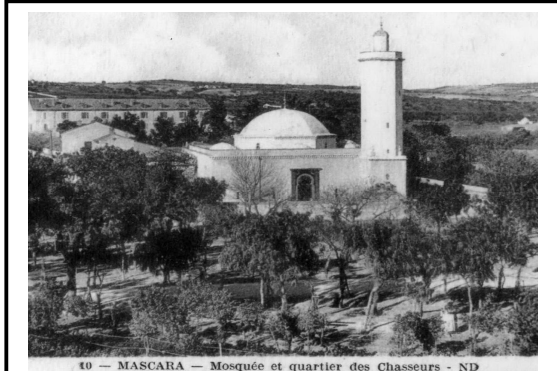
الصورة رقم (30): نموذج
من العقود والدعامات في
الجامع الكبير



الصورة رقم (33): رواق في مؤخرة
الجامع الكبير



الصورة رقم (32): الأعمدة
الأربعة المجمععة في الجامع
الكبير



40 - MASCARA - Mosquée et quartier des Chasseurs - ND

الصورة رقم (39): الواجهة الرئيسية
لجامع عين البيضاء خلال فترة
الاحتلال الفرنسي
(أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



الصورة رقم (38): جامع عين البيضاء
خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



الصورة رقم (41): الواجهة الرئيسية
لجامع عين البيضاء



الصورة رقم (40): المظهر الخارجي
لجامع عين البيضاء خلال الفترة الحالية



الصورة رقم (43): كتابة وقفية موجودة في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (44): بيت صلاة جامع عين البيضاء



الصورة رقم (50): زخارف وكتابات
قرآنية تزين تجويفه محراب جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (49): زخارف
محراب جامع عين البيضاء



الصورة رقم (51): قبة محراب جامع عين البيضاء



الصورة رقم (53): النموذج الأول
من نوافذ جامع عين البيضاء



الصورة رقم (52): المظهر
الخارجي لمحراب جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (55): المظهر
الخارجي لنوافذ جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (54): النموذج
الثاني من نوافذ جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (57): الأقبية
المتقاطعة في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (56): نموذج من قبيبات
جامع عين البيضاء



الصورة رقم (58): المظهر الخارجي للقبة
المركزية والقبيبات في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (60): مiazza جامع
عين البيضاء



الصورة رقم (59): منارة جامع
عين البيضاء



الصورة رقم (62): صحن وقاعة
الطلبة الخارجيين بزاوية سيدي
بوسكرين في الفترة الحالية



الصورة رقم (61): زاوية سيدي
بوسكرين خلال فترة الاحتلال
الفرنسي



الصورة رقم (63): مدخل قاعة
التدريس في زاوية سيدي بوسكرين



الصورة رقم (65): محراب زاوية
سيدي بوسكرين



الصورة رقم (64): قاعة
التدريس في زاوية سيدي
بوسكرين



الصورة رقم (71): ضريح سيدي بوسكرين خلال فترة
الاحتلال الفرنسي



الصورة رقم (72): الواجهة الرئيسية
لضريح سيدي بوسكرين



الصورة رقم (74): مكان العيون
المائية في ضريح سيدي بوسكرين



الصورة رقم (73): ضريح
سيدي بوسكرين



الصورة رقم (75): المدخل الأصلي لضريح أبي راس
الناصري



الصورة رقم (77): قبة ضريح أبي راس
الناصري



الصورة رقم (76): مدخل
ضريح أبي راس الناصري



الصورة رقم (79): ضريح سيدي
أحمد بوجلال



الصورة رقم (78): ضريح سيدي
أحمد بوجلال خلال فترة الاحتلال
الفرنسي



الصورة رقم (80): ضريح سيدي أحمد بوجلال بعد
إعادة بنائه



الصورة رقم (82): المدخل الرئيسي
لضريح سيدي أحمد بوجلال



الصورة رقم (81): السلم المؤدي
إلى ضريح سيدي أحمد بوجلال



الصورة رقم (84): الواجهة الشمالية لضريح سيدي موفق



الصورة رقم (83): الواجهة الرئيسية لضريح سيدي موفق



الصورة رقم (85): قبة ضريح سيدي موفق



الصورة رقم (87): الواجهة الرئيسية لدار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (86): الواجهة الرئيسية لدار الباي



الصورة رقم (89): الواجهة الشمالية لدار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (88): الواجهة الجنوبية لدار الباي



الصورة رقم (90): الواجهة الغربية لدار الباي



الصورة رقم (92): الرواق الجنوبي في الطابق العلوي لدار الباي



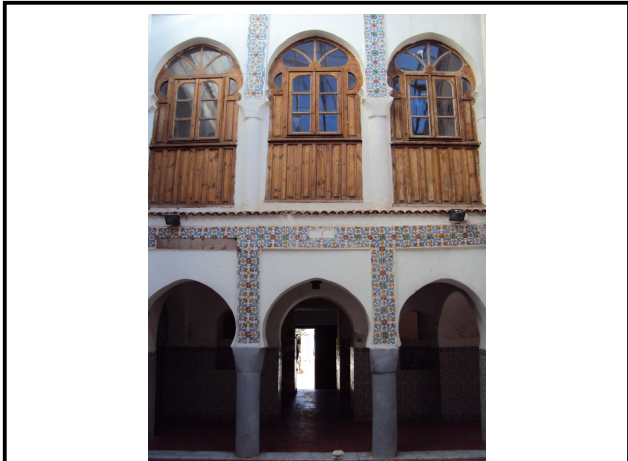
الصورة رقم (91): المدخل الرئيسي لدار الباي



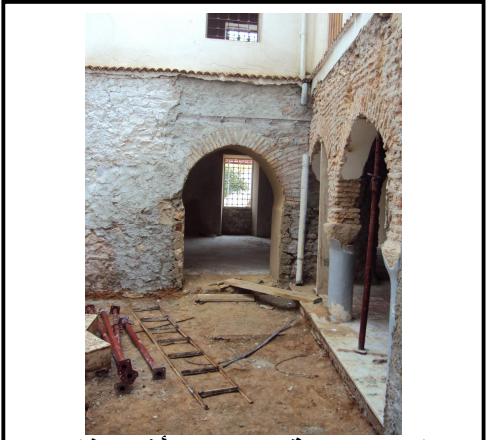
الصورة رقم (94): الرواق الشرقي في دار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (93): الرواق الشرقي في دار الباي بعد عملية الترميم الأولى



الصورة رقم (95): غلق الطابق العلوي من الرواق الشرقي لدار الباي بعد عملية الترميم الأولى



الصورة رقم (97): آثار غلق الرواق الجنوبي في دار الباي بادية خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (96): الرواق الغربي في دار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (109): مدخل إحدى غرف منزل الميزابي



الصورة رقم (108): الرواق الجنوبي بالطابق العلوي في منزل الميزابي



الصورة رقم (110): غلق الرواق الغربي بالطابق العلوي في منزل الميزابي



الصورة رقم (112): المحكمة الملحقة بالجامع الكبير (محكمة قاضي معسكر)



الصورة رقم (111): نموذج من نوافذ منزل الميزابي



الصورة رقم (119): طريقة بناء العقود والجدران بالمحكمة تظهر خلال الترميم الثاني



الصورة رقم (118): مظهر أروقة الطابق العلوي بالمحكمة بعد الترميم الأول



الصورة رقم (120): شمسيات الحجرة الثانية التي طمست بعد الترميم الأول تظهر خلال عملية الترميم الثاني



الصورة رقم (122): نموذج من نوافذ المحكمة بعد الترميم الأول



الصورة رقم (121): تسقيف وزخرفة الحجرة الثانية بالمحكمة بعد الترميم الأول



الصورة رقم (124): الشكل الأصلي
لأبواب حجرات المحكمة يظهر خلال
عملية الترميم الثانية وهو مسدود



الصورة رقم (123): سلم
المحكمة بعد الترميم الأول



الصورة رقم (125): الواجهة
الرئيسية لحمام البركة



الصورة رقم (127): الواجهة
الجنوبية الشرقية لحمام البركة



الصورة رقم (126): المدخل
الرئيسي المؤدي إلى المحرس
لحمام البركة



الصورة رقم (129): الرواق المؤدي إلى القاعة الدافئة في حمام البركة



الصورة رقم (128): القاعة الباردة بحمام البركة



الصورة رقم (131): طريقة التهوية والإضاءة في القاعة الساخنة بحمام البركة



الصورة رقم (130): القاعة الساخنة بحمام البركة



الصورة رقم (133): الموقع الأصلي للفرن بحمام البركة



الصورة رقم (132): السلم المؤدي إلى الفرناق بحمام البركة



الصورة رقم (140): المظهر
الخارجي لقبة القاعة الساخنة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (139): القاعة الساخنة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (141): مكان الفرن
بحمام القرشالي



الصورة رقم (143): طريقة
تسقيف وإضاءة القاعة الباردة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (142): مخزن الحطب
بحمام القرشالي



الصورة رقم (145):
المدخل الرئيسي لحمام
حمزة



الصورة رقم (144): الواجهة الرئيسية
لحمام حمزة



الصورة رقم (146): مخزن الحطب
والفحم بحمام حمزة



الصورة رقم (148): قاعة الانتظار
الثانية بحمام حمزة



الصورة رقم (147): قاعة
الانتظار الأولى بحمام حمزة



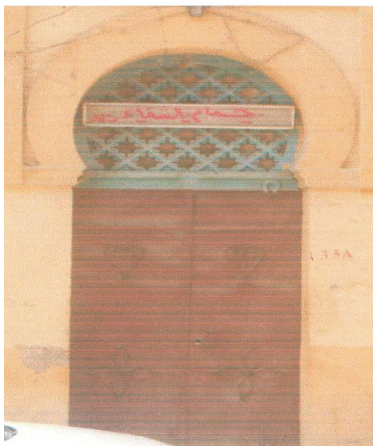
الصورة رقم (155): الطابق العلوي
بحمام حمزة



الصورة رقم (154): صندوق
قابض المال يعود إلى الفترة
العثمانية بحمام حمزة



الصورة رقم (156): شكل نوافذ الطابق
العلوي بحمام حمزة



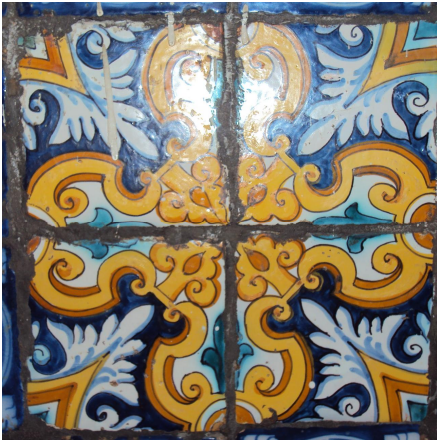
الصورة رقم (158): المدخل
الرئيسي لحمام الباي (الازدهار)



الصورة رقم (157): الواجهة
الرئيسية لحمام الباي (الازدهار)



الصورة رقم (164): زخارف رمزية وكتابية في القاعة الساخنة بحمام الباي (الازدهار)



ب



أ



د



ج

الصورة رقم (165): كسوة حائطية من المربعات الخزفية تزين الجامع الكبير



©UAJ•Æ ieBv •A0 À0B3

11- المصادر باللغة العربية:

أ- المخطوطات:

- 1- أبو راس (محمد الناصري): الخبر المغرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير.
- 2-: الخبر المغرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير.
- 3-: شرح غوثية سيدي عيسى بن موسى التيجيني (الدرس المهدي لغوثية أبي المهدي) مخطوط بالمكتبة البلدية "مصطفى بن التوهامي" معسكر.
- 4- ابن الصباغ: زمزم الأخيار، نسخة عن المخطوط الأصلي، مخبر المخطوطات، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران.
- 5- القيرواني (محمد الشريف): روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، مخطوط بمكتبة الشيخ البشير محمودي، دائرة البرج، معسكر.
- 6- رسالة مخطوطة عن سيدي بوسكرين: نسخة محفوظة بمكتبة زاوية سيدي بوسكرين.
- 7- مجهول: محمد الأكل، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم 5022.
- 8- مؤلف مجهول: الخبر عن قدوم عروج راييس إلى الجزائر وخير الدين، مخطوط بمكتبة الحامة، تحت رقم 1622.

ب- المصادر:

القرآن الكريم

- 1- أبو العباس (أحمد بن أحمد الغبريني): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط. د.ت.
- 2- أبو العباس (أحمد بن سعيد الشماخي): كتاب السير الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري، تحقيق ودراسة محمد حسن، أربيس للطباعة، تونس، 1995م.
- 3- أبو راس (محمد الناصري): الكوكب الدرّي في الكلام على الجدري، تحقيق بوكعب بلقرد، سلسلة تراث أعلام الجزائر -1-، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2004.

- 4-: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق محمد غالم، ج1
C.R.A.S.C، الجزائر، 2005.
- 5-: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس
الذاتية والعلمية"، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة
الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- 6- أبو زيد (عبد الرحمن الجامعي)، فتح مدينة وهران 1708م، تحقيق مختاري حساني
مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003.
- 7- أ. لسيور، و ويلد: رحلة طريفة في إيالة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة محمد
جيجلي، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2010.
- 8- ابن أبي دينار (أبي عبد الله محمد): المونس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد
شمام، المكتبة العتيقة.
- 9- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي الفاسي): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار
ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صححه وطبعه وترجمه كارل يوحن ثرنبرغ، طبع في
مدينة أوبسالة بدار الطباعة المدرسية، 1823م.
- 10- ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل): روضة النسرين في ملوك بني مرين، المطبعة
الملكية، الرباط، 1962م.
- 11- ابن الربيع (أحمد شهاب الدين): سلوك المالك في تدبير الممالك، دار كنان للطباعة
والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.
- 12- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز
دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م.
- 13- ابن القاضي (أحمد المكناسي): جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة
فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973.
- 14- ابن القطان (أبي محمد حسن المراكشي): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار
الزمان، درسه وقدمه وحققه، محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الجديدة
1410هـ/1990م.

- 15- ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد الطنجي): الرحلة، المسماة تحفة
النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتبه همامه طلال حرب، ج1
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 16- ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، تحقيق خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت 1431-1432هـ/2010م.
- 17-: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم
والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، لبنان
1413هـ/1992م.
- 18- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، تحقيق إحسان عباس بيروت
دار صادر، د.ط، د.ت.
- 19- ابن التهامي (الحاج مصطفى): سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم يحيى
بوعزيز، دار الغرب الإسلامي 1995م.
- 20- ابن زرفة (محمد): الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق حساني مختار مخبر
المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003، ص224.
- 21- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العرب،
القاهرة 1961م.
- 22- ابن عبد القادر (مسلم الوهراني): خاتمة أنيس الغريب والمسافر، (تتمة ذخائر
المغرب العربي، تاريخ بايات وهران المتأخر)، تحقيق وتقديم رباح بونار، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ- 1974م.
- 23- ابن عذارى (أبو العباس أحمد المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس
والمغرب، تحقيق ومرجعة ج. س. كولان، إ. ليفي بورفنسال، ج1، ط2، دار الثقافة
بيروت، 1983.
- 24- ابن منظور (جمال الدين الأنصاري): لسان العرب، مج2، تقديم عبد الله العلايلي
إعداد وتصنيف، يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.

- 35- الحسني (محمد بن عسكر الشفشاوي): دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر تحقيق محمد حجي، ط3، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي المغرب، 2003.
- 36- الحموي (ياقوت): معجم البلدان، ط1، مج 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1993م.
- 37- الراشدي (أحمد بن سحنون): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973.
- 38- الزبيدي (محب الدين مرتضى): تاج العروس، (كلمة مسجد)، تحقيق علي يسري دار الفكر، بيروت، 1994م.
- 39- الزركشي (محمد بن عبد الله): إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط5، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1420هـ - 1999م.
- 40- الزباني (أبو القاسم): تحفة الحادي المطرب في رفع شرفاء المغرب، تحقيق رشيد الزاوية، د.ط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية 2008.
- 41- الزباني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدي بوعبدلي، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية الجزائر، 2007.
- 42- السليمانى (أبو عبد الله الأعرج): تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر، من كتاب الشماريخ، القسم الثاني وجزء من القسم الثالث تحقيق حساني مختار، المكتبة الوطنية الجزائرية، د.م، د.ت.
- 43- الفيروزي (آبادي): القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003م.
- 44- الماوردي (أبو الحسن علي): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة والملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، 1987.
- 45- المراكشي (عبد الواحد بن علي): وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1997.

- 57- مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009.
- 58- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، نقلا عن: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر 2006.
- 59- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

ج- المراجع:

- 1- أبو عمران الشيخ، سعيدوني ناصر الدين: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ت.
- 2- أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د.ت.
- 3- ألتز سامح عزيز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1409هـ/1989م.
- 4- ألكسندر بابا دوبولو: جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة وتقديم علي اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1979م.
- 5- إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، د.ط، د.م، د.ت.
- 6- إسماعيل العربي: الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسس دولة وقائد جيش، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1984م.
- 7- إبراهيم عبد العالي محمد: العمارة والعمران في الوطن العربي، ط3، دار الراتب الجماعية، بيروت، 1986م.
- 8- ابن بكار بلهاشمي: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ/1961م.

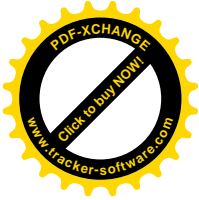
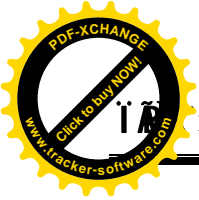
- 9- ابن حموش أحمد مصطفى: المدينة والسلطة في الإسلام "تموزج الجزائر في العهد العثماني"، ج2، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1420هـ/1999م.
- 10- ابن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 2010م.
- 11- الباشا حسن: الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979م.
- 12-: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مج1، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999م.
- 13- التليدي عبد الله بن عبد القادر: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ط3، دار الأمان الرباط، 2000م.
- 14- الجبوري يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م.
- 15- الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج1، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1415هـ-1994م.
- 16-: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط2، منشورات مكتبة الحياة بيروت الجزائر، 1980م.
- 17- الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
- 18- الحارثي عدنان محمد فايز: عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي 564-589هـ/1168-1119م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 1999م.
- 19- الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف الفاسي الحسني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م.
- 20- الحنفي قطب الدين: تاريخ المدينة، تقديم وتعليق وتحقيق محمد زينهم، محمد عزب دار المصري للطباعة، بورسعيد، د.ت.

- 21- الدرايسة محمد عبد الله: عبد الهادي عدلي محمد: الزخرفة الإسلامية، ط1، مكتبة المجمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، 1430هـ/2009م.
- 22- الشاذلي علي محمد: دور المساجد التاريخي في التثقيف العلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
- 23- الشافعي فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج1، عصر الولاية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1970م.
- 24- الشيخ أبو عمران وفرق من الأساتذة: معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب الجزائر، 2000.
- 25- الطايش علي أحمد: الفنون الزخرفية الإسلامية المذكرة في العصرين الأموي والعباسي، مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة 1420هـ/2000 م.
- 26- العدوان محمد الطاهر: الجزائر منذ نشأة الحضارة، عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 27- العسكر عبد الله بن محمد: أحكام حضور المسجد، السعودية، د.ط، د.ت.
- 28- الكبيسي حمدان عبد المجيد: الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن في عهد الازدهار الإسلامي، المدينة والحياة المدنية، دراسات في تاريخ العراق وحضارته، المكتبة الوطنية، بغداد، 1988م.
- 29- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي بيروت، د.ت.
- 30- المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا 1796/1492م، ط3 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.
- 31- المهدي عنايات: روائع الفن في الزخرفة الإسلامية، المغرب، مصر والشام تركيا الفن الفارسي الفن الهندي الإسلامي، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر 1983م.
- 32-: فن الزخرفة الفرعوني الآشوري، البدائي والقديم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، د.ت.

- 33- الموسوي مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م.
- 34- النحاس أسامة: الوحدات الزخرفية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د.ت.
- 35- الهيتي صبري فارس: التراث الجغرافي العربي الإسلامي، ط1، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2007م.
- 36- الولي طه: المساجد في الإسلام، ط1، دار الملايين للعلم، لبنان 1409هـ/1988م.
- 37- أميلي حسن: النظام العسكرية في الولايات المغاربية العثمانية من خلال المؤرخين الفرنسيين نيكولا دي نيكولاوي والراهب بيير دان، سلسلة العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة، ندوات ومناظرات رقم 123، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، الرباط، 2005م.
- 38- بركات محمد البيلي: الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1993م.
- 39- بلحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- 40- بن بكار بلهاشمي: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ-1961م.
- 41- بن جلول أحمد البدوي: رسالة النسب، د.ط، الجزائر، 1990م.
- 42- بن داهاة عدة: معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية، الجزائر، 2005م.
- 43- بن شهرة المهدي: تاريخ وپرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، القبة، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، 2007م.
- 44- بن مامي محمد بن الباجي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، القرن السابع إلى القرن الثالث عشر، المعهد الوطني للتراث، تونس 2006.
- 45- بهنسي عفيف: الفن الإسلامي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1986م.
- 46- بوعزيز يحي: وهران، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.

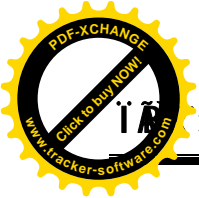
- 47-: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004م.
- 48-: وهران عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1985م.
- 49- تاوشیخت لحسن: عمران سچلماسة، دراسة تاريخية وأثرية، ج2، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008م.
- 50- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق الأولى، القاهرة 1414هـ/1994م.
- 51- جاکر لحسن: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د.ت.
- 52- جبار صلاح الدين: المختصر في تاريخ النظم، ط2، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م.
- 53- جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.ت، د.م، ص 90
- 54- جمعة حسين محمد: الشروخ والترميمات، مكتبة الدراسات والاستشارات الهندسية الزيتون 1992م.
- 55- جودي محمد حسين: الفن العربي الإسلامي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 1419هـ -1998م.
- 56- جون.ب. وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 57- حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الغرب، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007م.
- 58- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4 ط7، الجيزة، 1964م.
- 59- حسن محمد زكي: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م.

- 60- حلمي محمود: اللقاء بين التصوف الإسلامي والتجريد التشكيلي، دراسات تاريخية وأثرية، ج3، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، 1969م.
- 61- حماد محمد: السلام في المباني، ط3، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع 1997م.
- 62- حمت إسماعيل: الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابلت، ترجمة وتصدير زكي مبارك- محمد لخواجة، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2010م.
- 63- حرب أديب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847م)، ج1، ط3، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م.
- 64- خدوسي رابح: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر 2003.
- 65- خليفة ربيع حامد: الفنون الإسلامية في العصر العثماني، ط4، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، 2007م.
- 66- فن الصور الشخصية في مدرسة التصوير العثماني، ط2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006م.
- 67- خماش نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية، مطبعة رياض، دمشق، 1401-1402 هـ / 1981-1982م.
- 68- خميس محمد الزوكة: التخطيط الإقليمي وأبعاده الجغرافية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1991م.
- 69- دحماني توفيق: دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، د.ت.
- 70- دينيزن.أف: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط1، دار هومة، الجزائر، 1999م.
- 71- ريمون أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج ط1 دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.
- 72- زغلول عبد الحميد سعد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف الإسكندرية، 1986م.



- 73- زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان
1401هـ/1981م.
- 74-: أطلس الفنون الإسلامية، ج1، دار الرائد العربي، بيروت
لبنان 1981م.
- 75- زوزو عبد الحميد: مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي مشال، ووثائق
خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير، ط4، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع
الجزائر، 2011م.
- 76- سامح كمال الدين: العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة
1988م.
- 77-: العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب
1982م.
- 78- سامي محمد نوار: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي
القاهرة، 2000م.
- 79- سبينسر وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- 80- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج5، طبعة خاصة، دار الرائد
للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 81-: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار المغرب الإسلامي
1998م.
- 82- سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في
العهد العثماني)، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م.
- 83-: الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر أثناء العهد
العثماني، الجزائر، 1982م.
- 84-: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-
1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

- 85- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م
- 86- من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999م.
- 87- سورidal (ج): "حمّام"، ترجمة محمد معتز، ج14، دائرة المعارف الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
- 88- شاخت جوزيف، ديوزورت كليفور: تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، ج1، ط3، كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.
- 89- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969م.
- 90- شاوش محمد بن رمضان، بن حمدان الغوثي: الأدب العربي الجزائري عبر النصوص (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، مج2، د.ط، د.ت.
- 91- شحاتة عزة علي عبد الحميد: النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدنية في العصرين المملوكي والعثماني، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، 2008م.
- 92- شريل دانمر: الفن الإسلامي في المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال، ط1 المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1986م.
- 93- شريف يوسف: المدخل لتاريخ فن العمارة العربية الإسلامية وتطورها، الموسوعة الصغيرة، سلسلة ثقافية نصف شهرية تصدرها دار الجاحظ للنشر، العراق، ماي 1970.
- 94- شنيتي محمد البشير: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م-40م)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1985م.
- 95- شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع، وهران، د.ت.



- 96- صادق محمد الحاج: مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989م
- 97- صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1410هـ / 1990م.
- 98- عبد الأحد السبتي، حليلة فرحان: المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1994م.
- 99- عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، طبع بمطابع أنترناسيونال برسي 1402هـ / 1982م.
- 100- عبد الحافظ عبد الله عطية: دراسات في الفن التركي، ط1، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 2007م.
- 101- عبد الفتاح رؤاس قلعه جي: مدخل إلى علم الجمال، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1411هـ / 1991م.
- 102- عزب خالد: التراث الحضاري والمعماري للمدن الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.
- 103-.....: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، نشر كتب عربية، د.م، د.ت.
- 104- عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة الجزائر، 2000م.
- 105-.....: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002م.
- 106- عكاشة ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة 1961م.
- 107- علم الدين سليمان سليم: التصوف الإسلامي (تاريخ، عقائد، طرق، أعلام)، ط1 مطبعة نوفل، بيروت، 1999م.

- 108- عميراوي أميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات
تيدنا أنموذجا)، د.ط، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر
د.ت.
- 109- عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار
الصحة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ / 1991م.
- 110- غالب عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، طبع المطبعة العربية، بيروت
1408هـ-1988م.
- 111- غطاس عائشة: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني
للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر 2007م.
- 112- قاجة أحمد جمعة: موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، دار الملتقى للطباعة
والنشر، دمشق، 2000م.
- 113- قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830، دار الرائد
للكتاب، الجزائر، 2010م.
- 114- كارل بيرنت يوهان: الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط2، دار
هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1996م.
- 115- كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541م
ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.
- 116- كونل أرنست: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966.
- 117- كيال منير: الحمّات الدمشقية وتقاليدها، سلسلة بلادنا، وزارة الثقافة والسياحة
والإرشاد القومي، سوريا 1964م.
- 118- لعرج عبد العزيز: الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، ط1
المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م.
- 119- لمعي صالح مصطفى: القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة
بيروت، د.ت.
- 120-: عمارة الحضارات القديمة، دار النهضة العربية، 1983م.

- 121- ليونال بالو: الجزائر فيما قبل التاريخ، ترجمة وتقديم محمد الصغير غانم، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005م.
- 122- مالدونادو باسيليو بابون: الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة النباتية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة محمد حمزة الحداد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2002م.
- 123- ماهر سعاد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1391هـ / 1971م.
- 124-: الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمركزية والوسائل التعليمية د.م، 1977م.
- 125-: الفنون الإسلامية، ط2، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، 2002م.
- 126- محرز أمين: الجزائر في عهد الآغوات (1659 - 1671م)، دار البصائر للنشر والتوزيع الجزائر، 2011م.
- 127- محفوظ قداش: الأمير عبد القادر، فن وثقافة، وزارة الإعلام، الجزائر، 1982م.
- 128- محمصي قدور: شباب الأمير عبد القادر، أصله، طفولته، تربيته، تكوينه زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة، ترجمة مختار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007م.
- 129- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة 1999م.
- 130- محمصاجي قدور: شباب الأمير عبد القادر (أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة)، ترجمة مختار محمصاجي د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- 131- مفلح محمد: أعلام من منطقة غليزان، (أعلام التصوف، شعراء، الملحنون بمنطقة غليزان) الكتاب الثاني، الجزائر، د.ط، دار المعرفة، د.ت.
- 132- مرزوق محمد عبد العزيز: الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، مطبعة أسعد، بغداد 1965م.
- 133-: الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، دار الثقافة بيروت، د.ت.

- 134- مريوش أحمد وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، طبعة خاصة
المركز الوطني لدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954
الجزائر، 2007
- 135- مهريس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
2009م.
- 136- مؤنس حسين: المساجد، عالم المعرفة، عدد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
الكويت، يناير 1981م.
- 137-: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مج
3/2 العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1412هـ/1992م.
- 138- مؤيد عقبي صلاح: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر (تاريخها ونشاطها)، طبعة
خاصة، دار البصائر، 2009م.
- 139- ناصف سعيد: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر، مكتبة زهراء الشرق
القاهرة، 1999م.
- 140- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مطبعة النخلة، الجزائر، د.ت.
- 141- نوار سامي محمد: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم
اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002م.
- 142- نوبي محمد حسن: عمارة المسجد في ضوء القرآن والسنة، ط1، دار نهضة الشريف
للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م.
- 143- نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى
انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة 1385هـ/1965م.
- 144- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2
مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980م.
- 145- هاينريش فون ملستان: ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو
ج2، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.
- 146- هلايلي حنيفي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1429هـ/2008م.

147-.....: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1428هـ/2007م.

148- يحيى وزيري: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، ج3، القاهرة 1999م.

ج- المقالات:

1- أبو رحاب محمد السيد محمد: «ملاح تخطيط العماثر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط- دراسة أثرية مقارنة»، أعمال ملتقى دولي - تلمسان الإسلامية بين التراث المعماري والعمراني والميراث الفني، ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011م.

2- أحمد محمد عيسى وتحسين عمر طه أوغلي: «الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة»، أعمال الندوة العالمية المنعقدة في اسطنبول أبريل 1983، دار الفكر، دمشق، 1989م.

3- الجمعة أحمد قاسم: «العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى»، مجلة نصف سنوية لجامعة حلب، الندوة العالمية الأولى للأثار الفلسطينية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1402هـ/1982م.

4- الحمدي أحمد: «أهمية مخطوط لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان في تاريخ الجزائر الحديثة»، مجلة الحضارة الإسلامية، ع:12 1426هـ/2005م، دار الغرب للنشر والتوزيع.

5- الدولاتي عبد العزيز: «المدينة العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة»، الندوة العالمية الأولى للأثار الفلسطينية، مجلة نصف سنوية (مارس سبتمبر 1402هـ/1982م) جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1401هـ/1981م.

6- الزركال خليل حسن: «التصميم المعماري للمساكن في المدينة العربية الإسلامية» دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة 1422هـ/2001م.

7- بلحميسي مولاي: «الذكرى الألفية لتأسيس مدينة مليانة»، مجلة الأصالة، العدد 8 ربيع الثاني، الجزائر، 1392هـ/جوان 1972م.

- 8- بوكراع رضا: « العوامل الاقتصادية والثقافية المحددة لنمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 9- بونقاب مختار: « إنتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري: 1802-1816م » مجلة المواقف، العدد الثالث ، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، ديسمبر 2008م.
- 10- بلبروات بن عتو: « الباي محمد الكبير - باي وهران 1779-1797م، حياته وسيرته»، مجلة عصور، العدد3، سيدي بلعباس، ربيع الثاني 1423 - جوان 2003 مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- 11- حمندي محمود: «السبيل إلى الحفاظ على الخصائص الأصيلة للمدينة العربي » أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 12- حنفي حسن: « فلسفة المكان » ، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 13- خالف محمد نجيب: «الأربطة»، مجلة آثار، العدد 06، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007م.
- 14- دارة الملك عبد العزيز،«العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية» ، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م.
- 15- دحدوح عبد القادر: «تاهرت- تاقدمت معطيات ميدانية ورؤية جديدة»، عن كتاب المؤتمر العاشر للإتحاد العام للآثاريين العرب، ج2، القاهرة، 2007م.
- 16- فكاير عبد القادر: « دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الاسباني على الجزائر» مجلة المواقف، عدد خاص، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، أبريل 2008.

- 17- سعيدوني ناصر الدين: « موقف الأمير عبد القادر من بقايا السلطة المركزية بالجزائر، جماعة الكراغلة وفرسان المخزن»، مجلة التاريخ، عدد خاص النصف الأول من سنة 1983م.
- 18- سراج الدين إسماعيل: « المدينة العربية وتراثها الحضاري الإسلامي بين المكونات المادية والمقومات المعنوية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 19- عزوق عبد الكريم: «الأضرحة ببجاية، دراسة نموذجية»، مجلة دراسات تراثية يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار - جامعة الجزائر، ع01 2007، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر.
- 20- فيلاي كمال: «هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني»، مجلة المواقف: عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول: الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أبريل 2008م منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2008م.
- 21- فاضل لخضر: «مدينة بنيان عبر العصور القديمة»، ملتقى مدينة معسكر، المنطقة والرجال، 06 ماي 2005، مديرية الثقافة، معسكر.
- 22- قرمان عبد القادر: «الدعائم والحوامل في العمارة الإسلامية، دراسة نموذجية للمنشآت المدنية لمدينة مليانة في العهد العثماني»، مجلة آثار، العدد8-، معهد الآثار جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، 2009م.
- 23- لعرج عبد العزيز: «تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية»، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3-4، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، جمادى الأولى والثانية 1432 الموافق لـ أبريل وماي 2011.
- 24-: «صورة المسكن المغربي في العصر المريني الزياني من خلال النصوص التاريخية والشواهد»، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة، 1422هـ/2001م.

25-: «مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر»، المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي3، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002م.

26-: «العمران الإسلامي وعمارته السكنية، قيم دينية ودلالات إجتماعية»، حولية المؤرخ، يصدرها إتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد 3-4، الجزائر 2005م.

د- الرسائل الجامعية:

1- الأزمي أحمد: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19 بحث لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، ج1، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1999 - 2000.

2- الأمين عمر: مواد البناء وتقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (4-6/10-12م) للفترتين الزيرية والحمادية (أشير، قلعة بني حماد، بجاية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2000 - 2001م.

3- بعارسية صباح: حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005 / 2006م.

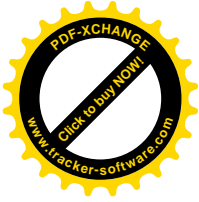
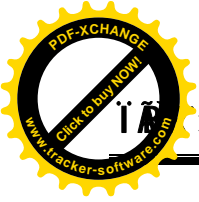
4- بلجوزي بوعبدالله: آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني، مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم، أنموذجاً، أطروحة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2012-2013.

5- بن بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2007-2008.

6- بن عمر حمدادو: أبو راس الناصري المعسكري وكتاباته التاريخية (1115-1238هـ/1737-1823م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران 2002-2003م.

- 16- زاهي نور الدين: طبيعة وآليات الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1991-1992م.
- 17- سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2010م.
- 18- سي فضيل منى: الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2004/2005م.
- 19- شكري معمر رشيدة: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005/2006م.
- 20- طيان شريفة: الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، دراسة أثرية فنية أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج1، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2007-2008م.
- 21- عليو محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين (1701-1830م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة معسكر 2008/2009م.
- 22- عزوق عبد الكريم: المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007 / 2008م.
- 23- عولمي محمد الأخضر: تطور الزخرفة النباتية في العمارة بالمغرب الإسلامي (من القرن الثاني إلى منتصف القرن السادس الهجري)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2001/2001م.
- 24- غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700 - 1830م) مقارنة اجتماعية اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001.

- 25- فيسة محمد رابح: المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004-2005م.
- 26- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية في مدينة مليانة، دراسة أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2007م.
- 27- كشرود حسان: رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659 إلى 1830، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.
- 28- لعرج عبد العزيز: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية وفنية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر 1999م.
- 29- مخلوطة رلى نبيه: علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 1998م.
- 30- معزوز عبد الحق: شواهد القبور في الجزائر 2 - 13هـ / 8 - 19م، دراسة نمطية وفنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2003 - 2004م.
- 31- موساوي سليمة عربية: الحمّامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار 1991/1990.

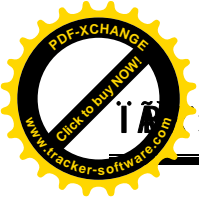


2- المصادر والمراجع باللغة الأجنبية: أ- المصادر:

- 1- Shaw. T: **Voyages dans la régence d'Alger**, éditeur Marlin, Paris, 1980.
- 2- Michel, J: **Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)**, éditions grand Alger livres, Alger, 2006.
- 3- **Observations du Général Clauzel sur quelques actes de son commandement a Alger**, imprimerie d'Henri Dupuy, Paris, 1831.

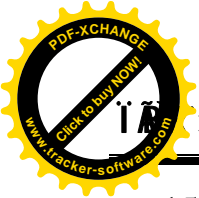
- وثائق الأرشيف:

- 1- Archivo historicos national, Oran, Madrid campana.
- 2- : **première expédition de Mascara**, extrait de l'ouvrage de Bellemare Alex- **Abdelkader, sa vie politique et militaire**, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 3- **Rapport sur la situation de la ville de Mascara**, Archives nationales d'outre-mer, carton n° 2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 4- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André**, Mascara le 18 décembre 1852, p1 Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 5- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André**, Mascara le 18 décembre 1852, p2 Service Archives nationales d'outre- mer, Aix En Provence, France.
- 6- **Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921**, délivrer par Monsieur Martin. L, Maire de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

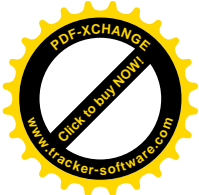


ب- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Adam. J.P: **La construction romaine, matériaux et techniques**, 3^{ème} édition, A et T, Picard, paris, 1995.
- 2- Arcevan. C.E: **Les arts décoratifs Turcs**, Ankara, s.d.
- 3- Berard. V: **Indicateur général de l'Algérie « description géographique, historique et statistique de tous les localités »** Editeur bastide libraire, Alger, 1867.
- 4- Berthier. A: **L'Algérie et son passé**, édition A et J, picard, Paris 1951.
- 5- Bouruiba. R : **Cites disparues, art et culture**, Ministère de l'information, Alger, 1979.
- 6- Bouruiba. R: **Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo-islamique**, S.N.E.D, Alger, 1986.
- 7- Chaila. H: **Oran histoire d'une ville**, Mitidja impression, Alger, 2002.
- 8- Chaouch. S: **Fondation de la régence d'Alger, histoire des frères barbarousse Arroudj et Khair-ed-din**, Editions Grand- Alger Livres, Alger, 2006.
- 9- Chentouf. T: **Etudes d'histoire de l'Algérie (18^e et 19^e siècle)**, office des publications universitaires, Alger, 2004.
- 10- Dalloni.M: **Mascara, Notice explicative, B4391**, Bibliothèque de faculté des lettres, Aix En Provence, France, s.d.
- 11- Destre. H : **Les conquérants de l'Algérie (1830- 1857)**, éditions Berger levrault, Paris, 1930.
- 12- Diego. D. H: **Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au seizième siècle**, 3^e édition, édition Grand-Alger livres, Alger, 2004.
- 13- Golvin. L: **palais et demeures d'Alger à la période ottomane**, paris 1988.
- 14- Gorguos. A: **Histoire d'un bey de Mascara et de l'Oranie, le bey Osman « El kebir »**, édition Grand –Alger, livres (G.A.L), Alger 2006.



- 15- Kaddache. M: **L'Algérie durant la période ottomane**, office des publications universitaires, Alger, 2003.
- 16- Kaddache. M: **La casbah sous les turcs, documents Algériens**, N55, série culturelle 1951.
- 17- Karsenty. G : **La fabrication du bâtiment, le gros-œuvre**, T1 édition Eyrolles, Paris 1997.
- 18- Leon Fey. H: **Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination Espagnole**, typographie Adolphe Perier éditeur, Oran 1858.
- 19- Marçais. G : **Algérie médiévale, monuments et paysages historiques, arts et métiers graphiques**, Paris, 1957.
- 20- -----: **l'architecture musulmane d'occident, Arts et métiers graphiques**, Paris, 1954.
- 21- -----: **villes et compagnes d'Algérie**, éditions du Tell Blido 2004.
- 22- -----: **Manuel d'art musulman**, T2, Paris, 1926- 1927.
- 23- Peyssonnel. L, et Des fontaines: **Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger**, T2, Paris, 1838.
- 24- Reveault. J: **palais et résidence d'été de la région de Tunis**, XVI- XIV siècle, C.N.R.S, Paris, 1947.
- 25- Rufe. P: **Domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte d'Alcoudete 1534-1558**, éditions Mimouni, Alger, s.d.
- 26- Saidouni. M: **Eléments d'introduction à l'urbanisme, histoire méthodologie, réglementation**, édition Casbah, Alger, 2000.
- 27- Violet. D: **Dictionnaires d'architecture, article « arc »**, Bruxelles Belgique, 1979.
- 28- Gorguos. A : **Histoire d'un bey de mascara et de l'Oranie, Le bey Mohamed Ben Osman « El-Kebir »**, présentation Kamel Chehrit Edition, Grand Alger livre, Alger, 2006.



- 29- Dokali. R: **Les mosquées de la période turque à Alger**, S. N. E. D Alger 1974.
- 30- Geraads .D et autres: **The pleistocene homid site of Ternifine, Algéria : new results on the environment, age, And human industries**, Laboratoire de paléontologie des vertèbres et paléontologie humaines, T.25, Université Paris VI, 1985.
- 31- Robert. G: **Voyage a travers l'Algérie «Note et croquis»**, Editeur E. DENTU, Paris, s.d.
- 32- Tintoin. R: **les aspects physiques du tell Oranie**, Ed L.Fouque Oran, 1948.
- 33- Fechener .E: **Oran et L'oranie**, calmann-lévie, France, 2002.
- 34- Raymond. A: **Grand villes arabes à l'époque ottomane**, Paris 1985.
- 35- Gzell. S, Marçais. G, Yver. G: **Histoire d'Algérie**, Paris, 1927.
- 36- Rozzet et Carette: **Algérie histoire et description**, Paris, 1850.
- 37- GAID. M: **L'Algérie sous les turcs**, 2^{ème} édition, édition Mimouni Alger, s.d.
- 38- Kaddache. M: **L'Algérie médiévale**, 2^{ème} édition, entreprise nationale du livre, Alger 1992.
- 39- Larousse. P: **Grand dictionnaire universel du 19^{ème} siècle**, T. 10 LM. 1869.

ج- المقالات:

- 1- Geraads .D: « Bovidae et Giraffidae (artiodactyla Mammalia) du pléistocène de Terenifine (Algérie) », Bulletin Muséum nationale d'histoire naturelle, 4^{ème} série 3, 1981, section C, N1, Paris.
- 2- Bordin .M: « Notes et question sur sidi Ahmed Benyoucef », Revue Africaine, 1925.
- 3- Leclerc. CH: « Les inscription arabes de Mascara, Mosquée d'Ain Beidha », revue Africaine, T 4, Année 1859-1860, offices des publications universitaires- Alger.



- 4- Gorguos. A « Notice Sur Le Bey d'Oran Mohammed El Kebir », revue Africaine, office des publications universitaires, Alger, 1856, 1858.
- 5- Cauvet. C : « Les Marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique », revue Africaine, Paris, 1923.

د- الرسائل الجامعية:

- 1- Djerbal. D: **Le processus de colonisation et les mutations dans la propriété foncière, commune mixte de Mascara (1860- 1914)** diplôme d'études supérieures d'histoire, M.M.S.H, France.
- 2- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971.

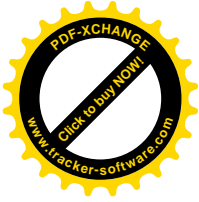
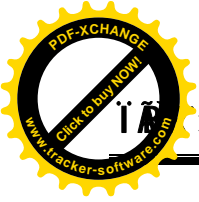


ρ iBÈ ° A

فهرس الأعلام

(١)

- 234-182-136 أبو الحسن المريني
- أبو إسحاق الأصفهاني 132
- أبو القاسم سعد الله 165
- أبو ثابت 182
- أبو ثابت 182
- أبو حمو موسى الأول 137-31-28
- أبو حمو موسى الثاني 137
- أبو راس الناصري 41-62-199-237-240-297-298
- أبو زكريا الثاني بن أبي إسحاق 136
- أبو زيد عبد الرحمن 137
- أبو سعيد إسماعيل الأسترلابي 132
- أبو سعيد الخذري 105
- أبو سعيد 182
- أبو عبد الله محمد الغزلاوي 43
- أبو عنان 137-155
- أبو يعقوب بن عبد الحق 136-137
- أبو يعقوب يوسف 155
- أبو يعقوب 182
- أبي إسحاق إبراهيم الملياني 120
- أبي تاشفين عبد الرحمن 137
- أبي حاتم محمد بن حيان 132
- أبي خديجة 33
- أبي راس الناصري 18-29-37-110-123-138-199-96198-69-سحنون الراشدي
- أبي سعيد عثمان 28-29-136
- أبي مدين 182
- أبي زكريا يحيى بن أبي محمد الهنتاني 135
- أبي زيد القيرواني 149
- أحمد بن محمد أحساين بن صارم شيق 117-347
- أبي يحيى بكر بن نفة 136
- أبي الفتوحات المنصور بالله 142
- إبراهيم باي 201
- إدريس بن عبد الله 25
- إلياس 31
- إسماعيل بن أحمد السمانى 181-304
- إيفري 21
- ابن أبي زرع 06
- ابن أبي زرع 135
- ابن أزقاق 169
- ابن الأحرش 47-157
- ابن الربيع 06-64
- ابن الشريف 43-44-157
- ابن القاضي 07
- ابن خلدون 6-7-11-56-64-65-66
- ابن خلكان 134
- ابن رشد السبتي 170



- بوخوس الثاني 22
(ت)

- بن عبد الرحمن 298

- تامبور 49

- توماسيني 20

- تيدينا 69-72-75-86-86-88-120-
189

(ث)

- ثابت بن منديل 28-29

(ج)

- جورج مارسي 285-286

- جنسريق 23

(ح)

- حماد بن بلكين 60

- حسن داي 260

- حمزة 220-251-260-263-278-

- حسن باشا 123

279-289-292-300-313-315-321

- حمزة بن عبد المطلب 180

- حسن باي 185

- حسن بن خير الدين 32-33

- حسن بن موسى الباهي 63-76-81-47-

48

- حسن خوجة التركي 43

- حمدان خوجة 13-16

- حمدون 171

(خ)

- خير الدين بربروس 30-31-236

- خارجة بن حذافة 242

- خروفة 116

- خليل بن أحمد 342

- خليل باي 79

(د)

- دي ميشال 48

(ر)

- رضوان الولخشي 134
- ربيعة العدوية 168
- رقية 182
- راشد بن المرشد القيرواني 24-25
- رمسيس الثاني 285-293

(ز)

- زائدة 120
- زولة بنت السيد الفرخ بن أعمر بن عبدالقادر
- زينب بنت جحش 180
- زياد بن أبيه 254-299

(س)

- سيدي بوخريسان 182
- سيدي بوسكرين 161-184-237-238
- سيدي بوعلي 238
- سيدي بومدين 232-234-237-239
- سيدي حسان 117
- سيدي عبد المؤمن 296-298
- سيدي علي أبو طالب 45
- سيدي علي أبي الوفا 185
- سيدي علي بن يحيى 162
- سيدي قموش 235
- سيدي محمد بن يحيى 162
- سيدي مسعود 238
- سيدي موفق 184-187-297
- سيفاكس 21-22
- سعيد قدورة 138
- سعيدوني 78
- سلمان الفارسي 149
- سليم الثاني 230
- سليم بن التومي 31
- سليمان القانوني 257-348-349
- سليمان 25
- سنان باشا 230-236
- سيللا 22
- سيدي إبراهيم المغراوي 186
- سيدي إبراهيم 182-232-239
- سيدي أبي الحسن 232
- سيدي أحمد بن يحيى 162
- سيدي الحسن 162
- سيدي الحلوي 183-243
- سيدي الغازي 238
- سيدي الكتاني 173-183-234-236

-345-302-297-296-262

- سيدي الهواري 235

(ش)

- شاه زاده 230-236-257
- شاو 17
- شعبان علي 35

(ص)

- صالح باي 138-144-156
- صلاح الدين الأيوبي 133-134-152

(ط)

- الطاهر بن عمرو المغراوي 169
طغرل بك 132

(ع)

- عائشة 180
- عائكة 182
- عبد الرحمن الأوسط بن الحكم 154
- عبد الرحمن الأمير 47
- عبد الرحمن الثعالبي 183
- عبد الرحمن الجيلالي 165
- عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق 180
- عبد السلام الإدريسي 160-161
- عبد الغني 172
- عبد القادر الجيلاني 183-201-344-
347-346
- عبد القادر المشرفي 170
- عبد القادر بن السنوسي بن دح بن
زرفة 40-80
- عبد القادر بن الشريف 42
- عبد القادر بن شقرون 171
- عبد الله بن منصور 183
- عبد الملك الحنفي 172
- عبد المؤمن بن علي 182
- عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم 24
- عبيد الله الشيعي 26
- علي بتشين 236-256
- علي بن أبي طالب 59-167-181
- علي بن سليمان 34
- علي بن محمد 58-69-93-94
- عبد الكريم الفكون 138
- عثمان بن محمد 80
- عثمان بن يغمراسن 27-28

(ع)

- غزال 21

(ف)

- فينشمار إليزابيت 24

- فاطمة الزهراء 167-180

- فاطمة القروية 104

- الفقيه الهواري 171

(ك)

- كلوزال 49

- كسرى 285

- كريزول 254

- كميل أرامبورغ 20

- كوفي

(ل)

- ليون الإفريقي 138

(م)

- محمد بن المبارك 171

- مارسي 21

- محمد بن المحجوب 171

- الماوردي 6-54-

- محمد بن بنيس 171

- ماسينيسا 22

- محمد بن جعدون 171

- ماكسيميليان 23

- محمد بن عبد القادر الجزائري 81-

- محمد أبو طالب المجاجي المسراتي 38

190-90

- محمد أبي جلال 93-94-184-186-321

- محمد بن عبد الله الجليلي 142-144

- محمد أبي راس الناصري 125

- محمد بن موسى 181

- محمد الأكل 120-121-224-125

- محمد بن يوسف الزباني 42-43-47-

- محمد الحمري 35

122-119-109-111-81

- محمد الشرفي 47

- محمد بن يوسف 32

- محمد الشريف القيرواني 24

- محمد الفاتح 236

- محمد صلى الله عليه وسلم 54-45-

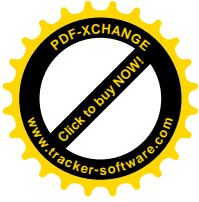
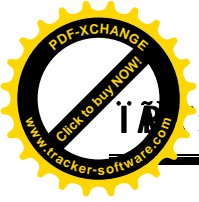
- محمد الكبير 33-38-39-58-61-

- 115-109-106-106-104-102

- 85-82-79-75-74-72-69-66-62

- 180-176-172-167-151-131

- 148-119-116-96-94-93-88



- هاشم 172 - هرثمة بن أعين 154

- هاينريش فون مالستان 17-96

- هشام بن عمار 106

(و)

- وذان محمد 225

(ي)

- يحي الأوراسي 157 - يوغرطة 22

- يخلف بلعيد 189 - يوسف المسراتي 38

- يعقوب المنصور الموحد 155 - يوسف بن تاشفين 26-29

- يعقوب اليعقوبي 161 - يوسف لحر 61-96

- يعقوب بن عبد الحق 28 - يوسف المسراتي 111

- يزيد بن معاوية 254-305 - يوسف بن يعقوب 29

- يعلي بن محمد بن صالح اليفريني 25-

27

فهرس القبائل والشعوب:

(أ)

- الأمويون 59 - العثمانيون 29-35-45-46-60-61-

- الإغريق 208-274-296-302 - 71-78-81-88-98-109-117-

- 127-137-138-144-152-157-329-350

- البويهية 133 - 173-183-230-278-285-349

- البيزنطيون 23-242-274-276-

- 277-278-283-285-294-295-

302-303

- الحماديون 26 - الفرس 59-293-295-303-341

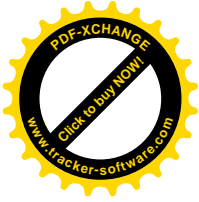
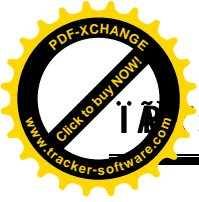
- الحمدانيون 181 - الدرقاويون 42-43-157-159-

164-173

- الثعالبة 30 - المرابطون 26-27-46-134-157-

285

- الزنوج 78 - الحشم 27-28-29-35-37-44-45-



(ج)

- جماعة الأشراف 15-17

(ح)

- الحشم 10

- الحموديين 12

- حميان 122

(ز)

- زناتة 25-26-29

(ع)

- عمور 122

(ف)

- فليبة 122

(ك)

- الكراغلة 13-14-17

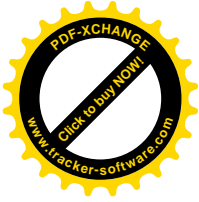
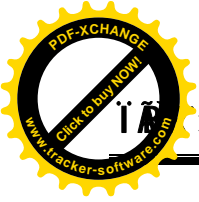
(م)

- مجموعة البرانية 15-17

- مغراوة 24-25-26-28-29-81

(هـ)

- هاشم 37



فهرس الأماكن:

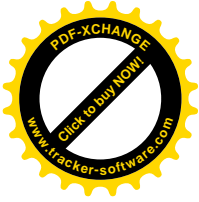
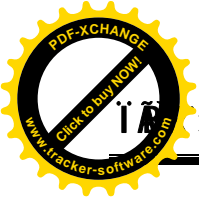
(أ)

- أدرنة 230-237-257
- أربال 22
- أغمات 137
- أرزيو 72-245
- أزمور 137
- أصفهان 133
- أكر 181
- آكس أوبروفانس 145
- أم عسكر 18-25-115-118-123-142
- أوربا 159-169-338-340
- إبلا 244
- إزنيك 322
- إسطنبول 236-338
- آسفي 137
- إفريقية 8-26-56-135-153-154
- إفكان 25-26
- إيران 133-152-179-181
- إفري 144
- الأردن 209-303
- الأزهر 83-181-232-233
- الإسكندرية 9-134-254
- الأغواط 122
- الأغواط 75
- الأناضول 322

- المرسى الكبير 29-33
- المسجد الأقصى 102-258
- المسجد النبوي 104-105-106-130
- المشرق 25-68-209-213-327
- المصباحية 137
- المطمر 183
- المغرب الأقصى 25-35-41-53-60-161-168-178-256-282
- 286-304-319-321-322-327-342-343-349-232-234-238
- 285
- المغرب الأوسط 24-26-27-28-29
- المغرب 22-24-25-26-34-35-42-46-48-104-105-209
- 210-120-135-136-138-142-145-153-154-155-158-161
- 177-178-254-255
- المنستير 154
- المنصورة 60
- الموصل 53-92-133
- الناصرية 60
- النجف 54-181
- الهند 181
- اليمن 181

(ب)

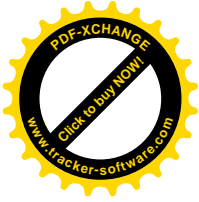
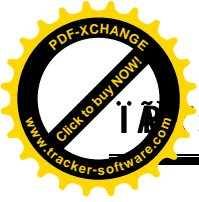
- باب علي 10-49-93-160-164-174-185-220
- باليكاو 20
- بايلك التيطري 120-123
- بايلك الشرق 32
- بايلك الغرب 32-33-35-38-39-41-42-47-50-56-71-76-79-82
- 111-121-122-144-234
- بجاية 9-27-104-156-157-260
- بحر البلطيق 23
- بخارى 303



- برج العسكر 38
- برشك 137
- برشك 28
- برقة 26
- بروسة 236
- بريان 16
- بغداد 244-133-132-92-59-53
- بلاد الرافدين 329-303-244-243
- بني راشد 18-17-14-11-5-4
- بني شقران 11-5-3
- بني ميزاب 222-216-199-16-13
- بني واليل 25
- بني يسقن 16
- بوحنيفة 211-23
- بونة 9
- بيت المقدس 102

(ت)

- تاج محل 181
- تاهرت 302-296-260-70-60-57-27-26-25-12-4
- تافنة 49
- تافيلالت 238
- تركمستان 179
- تاكلمانت 23
- تركيا 349-341-339-338-286-282-256-115-68
- تلمسان 40-36-33-28-27-26-25-24-14-13-12
- 115-111-110-81-71-70-58-57-54-53-47-
- 154-152-143-139-138-137-125-123-119-
- 240-237-231-210-183-182-171-157-156-
- 345-307-260-255-



- صفاقص 154-255

- صنعاء 92

(ط)

- طرابلس 9-24-26-154 - طوس 133

- طابطة 286 - طيبة 293

(ع)

- طنجة 137

- عنابة 138-139-156-235 - عين السلطان 10-69

- عواعة 44 - عين تيموشنت 22

- عوف 5

- عين البيضاء 9-62-69-84-93-94

- 97-114-116-119-142-144-228

- 235-236-237-255-256-258-259

- 269-274-279-284-296-297-311

- 319-321-326-333-334-336-341

- 344-345-346-347-359

- عين فرس 30-30

- عين ماضي 75-122-157

(غ)

- غليزان 4-157 - غريس 3-5-10-11-21-30-36

- 116-186

- غرداية 16 - غزة 172

- غرناطة 286-304 - غزنة 181

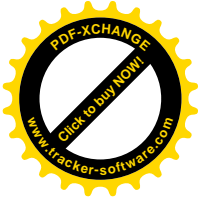
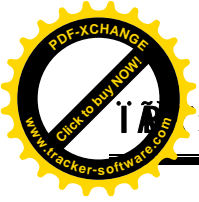
(ف)

- فاس 36-53-54-60-104-134-136-138-143-155-171

- 173-182-210-232-233-234-244-252-308-311-319

- فروحة 30

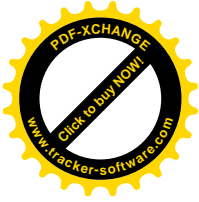
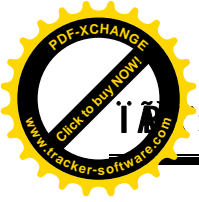
- فليتة 40-120



- كربلاء 54
- كرسوط 3-5
- كريشنتل 31
- كوتاهية 322

(م)

- مدرسة أبي مروان 139
- مدرسة تازا 137
- مدرسة خنق النطاح 125-145-235
- مدرسة سيدي الكتاني 145
- مدرسة سيدي بومدين 139
- مدرسة سيدي عبد الرحمن الثعالبي 139
- مدرسة سيدي لخضر 139
- متيجة 26-28-30
- مدرسة الصهريج 136
- مدرسة العطارين 136-319
- مدرسة أولاد الإمام 137-138-143
- مراكش 53-54-135-155-213-234
- مستغانم 4-14-32-33-37-40-57-58-69-70-72-88-155-183-228
- مسجد التقوى 104
- مسجد قباء 104
- مصر 7-68-83-107-133-134-135-138-142-152-170-177
- 179-181-208-209-213-241-243-244-250-254-256-259-266
- 267-276-304-319-322-327-348
- معسكر 3-5-6-9-10-12-13-14-15-16-17-18-20-21-22-23-24-25
- 26-27-29-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-42-43-44-50-49
- 55-56-58-60-61-64-65-66-67-68-69-70-72-73-75-78-79-81
- 82-84-85-88-90-92-93-95-96-98-107-110-111-116-117-119-120
- 121-122-125-138-142-144-145-160-167-168-169-170-174-183
- 185-186-189-190-198-199-201-210-211-225-228-231-232-233
- 236-242-246-249-250-253-257-259-260-266-278-282-287-292
- 295-299-301-303-312-314-316-319-321-322-327-331-332-339
- 340-344-349
- مكة 115-116



- مكناسة 137

- مليانة 22-26-28-35-44-47-49-58-120-139-210-231-252-273-298

- مديونة 25

- مليكة

- موريطانيا 21-22

(ن)

- ندرومة 139-260

- نيسابور 132-133

(هـ)

- هرات 133

- هضبة سان هيبوليت 6

- هوارة 4

- هولندا 338

- هونت 167

(و)

- وادي ملوية 21

- وادي البنيان 4-5

- وادي ميزاب 16-78

- وادي الحمّام 21-23-36

- وادي مينا 42-65

- وادي العبد 42

- وادي يلل 65

- وادي المقطع 4-10-11

- واسط 53

- وادي تليلات 40

- وجدة 44

- وادي تودمان 9-36-94-96-97

- ورنيد 26

- وادي ماوسة 10

- وادي مكرة 10

- وهران 4-12-25-26-27-29-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-43

- 44-45-47-57-60-70-73-81-117-122-123-125-142-144-145-155

- 162-172-190-228-235-236-256

(ي)

- يلل 25

فهرس الموضوعات:

إهداء

شكر وعرفان

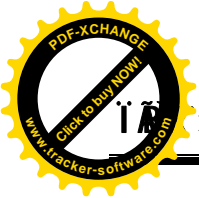
أ	مقدمة
01	القسم الأول: عمران مدينة معسكر
02	الفصل الأول: الإطار الجغرافي وأصول التسمية
03	1- الموقع الفلكي والجغرافي للمدينة
17	2- أصل تسمية مدينة معسكر
19	الفصل الثاني: التطور التاريخي لمدينة معسكر
20	1- فترة ما قبل التاريخ
21	2- الفترة القديمة
24	3- الفترة الإسلامية
29	4- الفترة العثمانية
51	الفصل الثالث: التطور العمراني لمدينة معسكر
52	1- مفهوم العمران الإسلامي
55	2- عوامل تطور عمران مدينة معسكر
55	2-1- العامل الجغرافي
57	2-2- العامل الديني
59	2-3- العامل السياسي والإداري
63	2-4- العامل الاقتصادي
77	2-5- العامل البشري والاجتماعي
81	3- مراحل تطور عمران مدينة معسكر
82	- مركز المدينة ووسطها
82	3-1- المسجد الجامع
84	3-2- دار الباي

85	3-3 السوق.....
89	4- خطط المدينة.....
89	1-4 الأحياء السكنية والشوارع والدروب.....
92	2-4 الساحات.....
92	3-4 الرحاب.....
95	5- تحصينات المدينة.....
96	1-5 الأسوار.....
97	2-5 الأبواب.....

القسم الثاني: المنشآت المعمارية لمدينة معسكر

100	الفصل الأول: المنشآت الدينية.....
101	1- الجوامع.....
101	1-1 تعريف المسجد الجامع.....
108	2-1 جوامع مدينة معسكر.....
108	1-2-1 الجامع الكبير.....
114	2-2-1 جامع عين البيضاء.....
128	2- المدارس.....
128	1-2 تعريفها.....
130	2-2 تاريخ ظهور المدرسة في الإسلام.....
139	2-3 طريقة التعليم في المدارس خلال العهد العثماني.....
140	2-4 مصادر تمويل التعليم في المؤسسة الدينية والتعليمية.....
142	2-5 مدارس مدينة معسكر.....
142	2-5-1 المدرسة المحمدية.....
145	2-6 المكتبات.....
146	2-6-1 مكتبة المدرسة المحمدية.....
147	3- الزوايا.....
147	3-1 تعريف الزاوية.....

150 2-3 عوامل وأسباب ظهور الزوايا
158 3-3 دور الزوايا في الجزائر
160 4-3 زوايا مدينة معسكر
160 1-4-3 زاوية سيدي بوسكرين
164 2-4-3 زاوية أبي راس الناصري
176 4- الأضرحة
176 1-4 تعريف الضريح
179 2-4 نشأة الأضرحة وتطورها خلال العصر الإسلامي
184 3-4 ضريح سيدي بوسكرين
185 4-4 ضريح أبي راس الناصري
186 5-4 ضريح سيدي محمد أبي جلال
187 6-4 ضريح سيدي موفق
188 الفصل الثاني: المنشآت المدنية
189 1- دار الباي
198 2- المنازل
199 1-2 منزل الباي محمد الكبير
199 2-2 منزل الميزابي (الدار الكبيرة)
201 3- المحكمة
201 1-3 المحكمة الملحقة بالجامع الكبير
201 2-3 المحكمة الرئيسية
207 4- الحمامات
207 1-4 تعريف الحمام
208 2-4 نشأة الحمامات عبر العصور التاريخية
211 3-4 حمامات مدينة معسكر
211 1-3-4 حمام البركة
216 2-3-4 حمام القرشالي



220 3-3-4 حمام حمزة.

224 4-3-4 حمام الأدهم.

225 5-3-4 حمام الباي.

القسم الثالث: الدراسة المعمارية التحليلية

230 **الفصل الأول: المخططات المعمارية**

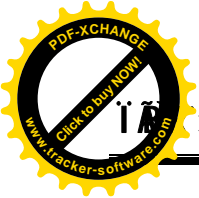
- 230 1- الجوامع.
- 237 2- الزوايا.
- 239 3- الأضرحة.
- 240 4- المنشآت السكنية والإدارية.
- 250 5- الحمامات.

254 **الفصل الثاني: العناصر المعمارية**

- 254 1- المئذنة.
- 257 2- المحراب.
- 259 3- المنافذ وعناصر التهوية والإضاءة.
- 259 1-3 المداخل وأطرها.
- 262 2-3 الأبواب.
- 266 3-3 الأفنية.
- 270 4-3 النوافذ والشمسيات.
- 273 5-3 الدعائم والحوامل.
- 288 6-3 العناصر الوظيفية.
- 292 7-3 عناصر التسقيف.

300 **الفصل الثالث: مواد البناء وتقنياتها**

- 300 1- مواد البناء.
- 311 2- طريقة البناء وتقنياتها.
- 311 أ- طريقة البناء.
- 314 ب- تقنيات البناء.



القسم الرابع: الدراسة الفنية

318 الفصل الأول: المواد الزخرفية.
318 1- الحجر
318 2- الجص
321 3- الآجر
322 4- البلاطات والمربعات الخزفية
325 5- الخشب
327 6- الزجاج
329 الفصل الثاني: الزخارف الفنية
328 أولاً: الزخرفة الهندسية
334 ثانياً: الزخرفة النباتية
341 ثالثاً: الزخرفة الكتابية
348 رابعاً: الزخرفة الرمزية
352 خاتمة
359 ملحق الخرائط
362 ملحق الأشكال
390 ملحق الصور
428 قائمة المصادر والمراجع
459 الفهارس